لجنة التأليف والترجمة والنشر

الإسلام والحضارة العربية

تأليف

محمد كرد علي

الجزء الأول

الطبعة الثانية

منقحة ومزيدة

القاهرة

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

١٩٥٠

لجنة التأليف والترجمة والنشر

الإسلام والحضارة العربية

تأليف

محمد كرد علي

الجزء الأول

الطبعة الثانية

منقحة ومزيدة

القاهرة

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

١٩٥٠

فهرس الجزء الأول

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

بسم الله الرحمن الرحيم

الداعي إلى هذا التأليف

لما قرر المجمع العلمي العربي انتدابي إلى تمثيله في مؤتمر المشرقيات الذي عقد في مدينة ليدن من بلاد القاع في صيف سنة ١٩٣١ م ، رغب إلى أعضاؤه المفكرون أن ألقي فيه جملة أعرض فيها لما لا يزال يسري على أسلات أقلام بعض مؤلفي الغرب ، من أمور نابية عن حد التحقيق والنصفة ، كلما ذكروا الإسلام وأهله ، والعرب ومدنيتهم .

وفي الحق أن المعارف استفاضت في هذا العصر ، حتى لم يبق مجهول إلا علم ، ولا بعيد إلا اقترب ، ولا صعب إلا سهل . وقد نقل إلى لغات الغرب من طرق مأمونة عشرات من الأسفار في مدنية العرب ، المدينة للاسلام بحسناتها وانبعاثها ، فتجلى بها ما كان غامضاً على أهل المدنية الحديثة . فليس من الإنصاف إذاً أن يظل بعض من تأثروا بالمؤثرات القديمة على الاستمداد ممن كتبوا من رجال الدين في عصور الظلمات ، وهؤلاء ما كان لهم من مصلحة غير تصوير الإسلام في صور باهتة ، وإنكار فضل العرب في إنشاء مدنية كانت على الجملة من أعظم ما قام في الأرض .

وإن فئة تمثلت أساليب هذا العصر في البحث والتحليل ، ولم تتحرر إلى اليوم من سلطان العوامل الجنسية والدينية والسياسية ، لمؤاخذة كل المؤاخذة بأحكامها الجائرة على الإسلام والمسلمين . ولا يحول الإعجاب بطرائق أولئك الباحثين دون مناقشتهم في آراء لهم غير سديدة ، قال بها من قالوا ذهاباً مع أهواء النفس الكثيرة .

وسبيل هذا الموجز الآن ، تصحيح هفوات من أساءوا وما برحوا يسيئون

للعرب ودينهم ورسولهم ومدنيتهم ، وذكر ما أثرته الحضارة العربية فى أمم الغرب والشرق ، وما منى به الإسلام ، لما غير أهله ما بأنفسهم ، من خصماء غير رحماء ، نالوا من روحه وجسمه ، فالتاثت أحواله ، وتنكرت معالمه ، والإلماع إلى ما قام به المسلمون بعد طول الهجعة ، يلوبون على استعادة مجد أضاعوه .

والرجاء فى هذه الصفحات أن تنفع فى باب اعتبار الأحفاد بذكرى صنيع الأجداد ، وأن تنتصف بها حضارتنا ممن ثلموها وما رحموها . والعمدة فى وضعها على ما أطال حكماء العلماء من الافرنج فى بسطه ، وفى وصف ماضى الأمة العربية على مقتضبات من أمهات أسفارها المحررة . والمنهاج فيها إطلاق حرية التفكير والتقرير ، إذ التقية ليست مذهباً مجدياً فى زمن لم يعرف البشر حرية كحريته ، ولا علماً أعظم من علم أهله ، ولا عقولا صفت كعقولهم ، ولا طبقات رشيدة تعلمت حسن الاستماع على غرار طبقاتهم .

وأسأله تعالى أن يحل عقدة من لسانى وقلمى ، لأجمل ما توفرت من قراب أربعين سنة على الدعوة إلى الأخذ به ، من حسنات الحضارتين العربية والغربية . وهو الهادى إلى سواء السبيل ؟

دمشق ، فى { ١٩ جمادى الثانية سنة ١٣٥٢ / ٨ أكتوبر سنة ١٩٣٣ }

محمد كرد على

الإسلام والحضارة العربية

الجزء الأول

المخالفون ودواعي الخلاف

إنصاف الإسلام والعرب :

أخذ أبناء الغرب يتمتعون بعد القرن السابع عشر بحرّية الفكر والوجدان ، فنشأت فيه طائفة من العلماء تمّ لها معظم أدوات الفضل ، وقد راعها ما شاهدت وحققت ، فردّت أقوال من ظلموا العرب والإسلام ، متوخية كشف القناع عن وجه الصواب الذى غشيته الغواشى (١) فى الدهر الغابر . ومن أبناء الغرب المتدلين من استهدفوا للطعن لأنهم لم يمالئوا الكاتبين الأولين على ما كتبوه ، وخرجوا عن المألوف فأنصفوا المخالف ، ولم يثنهم عن عزيمتهم نقد ناقد ، ولا طعن طاعن ، وراحوا يهزأون بمن اتهموهم ظلماً بأمانتهم ، ويصدعون بالحق الذى تبين لهم .

ولذلك وجب على أصحاب هذه المدنية العربية ، وهذه الدعوة الإسلامية ، أن يشكروا لأولئك المنصفين ، وأن لا يغرقوا باللائمة على من ينظرون إلى أشياء غيرهم بغير العين التى يبصرون بها أشياءهم . فمن الظواهر الاجتماعية هنا ، ما نرى له ما يماثله فى المجتمع الغربى ، كسيت هناك ثوباً جميلا بفعل الحضارة الممتدة الرواق ، وبقيت هنا على سذاجتها للتأخر الطارئ من تراجع المدنية . والقوىّ قد تبدو سيئاته فيخيل لقصار النظر أنها حسنات ، أو يفسر معانى غيره تفسيراً يظنه ضعاف النظر آيات بينات ، والضعيف مهما أحسن مغمور مدحور ، وربما قلبت حسناته سيئات ، والعالم على الدهر عبد القوة القاهرة .

وما دامت المعضلة تخالف فى عقيدة ، وتخالف فى تربية وعادة ، وتخالف فى عنصر وبيئة ، فمن الواجب علينا أن نسادّ ونقارب حتى تفصل الأيام فصلها : نعذر المنابذ المعتدل ، إذا كان ممن يؤمن بما يقول ، ونشكر للموافق العادل

---

(١) لحقته الدواهى ، واحدتها غاشية .

الذى يصدر رأيه عن عقيدة واقتناع . وعلينا أن لا ننسى أيضاً أن مجتمعنا ما كان فى الحقيقة فى عامة أدواره وأطواره فائضاً بالعدل والتسامح ، فقد عهدنا طوائف بالغت فى الحط من المخالف لأفكارها ، فحاربته بكل سلاح تحت كل كوكب ، فأضعفت بعملها العقل ، وقضت على الحضارة بأن وضعت العقبات فى محجتها .

نحن اليوم قد نستفيد من سماع أقوال المخالف ، ومنازع الصريح فى نقده قد تقوم المعوج ، وتصلح الفاسد . لا جرمَ أن من المسائل ما يصعب تمييز بهرجه من صحيحه ، إلا بمعاناة طويلة ، وأناة وروية ، ورفق جميل . وقد يكون منشأ التعقيد على الأغلب من الواضع الأول ، إما لسوء فهم ، ومشايعة وهم ، أو لتعمد فى إفساد حكم ، بعلم وبغير علم ، فيتسرب الضعف إلى العقول ، ويتأصل فيها بمرور الأيام . والضلالة إذا رسخت احتاجت إلى جهود طويلة حتى تنزع من الأذهان . والحق إذا اختلط بالباطل وامتزج باللحم والدم استلزم التفريق بينهما معالجة طويلة . وهذا مايصدق على تاريخ الإسلام ، وحكم بعض الغربيين عليه منذ القديم ، فإن الخطأ فيه عندهم عمداً أو عن غير عمد ، قد أتت عليه القرون حتى انتفى ، وظهرت بين ظهرانيهم حقيقته على جليتها . ولذلك يحمد قصد من أنصفوا فى أحكامهم علينا . والعدل من القريب حلو ومن البعيد أحلى ؛ ومن خالفنا فى مسألة ووافقنا فى مسائل كان أقرب للتقوى .

العوامل فى جفاء الغربيين :

وهناك عقدة مدنية وعقدة دينية ، إذا سهل الخطب فى الأولى عسر فى الثانية ، لأنها صعبة المراس ، متعذرة على الانتزاع ، مهما جهدت بكل جهدك ، وجمعت كل عقلك . وحكم الغرب على العرب منبعث فى الأصل من تباين فى المعتقدات ، والمعتقدات وليدة التسليم والاستهواء والعادات ؛ ومن الصعب استئصال ما تأصل فى النفوس بمرور الأيام ، لأن العناد فى الاعتقاد ، فطرة لا تبغى عنها النفوس البشرية حولا ؛ والعاقل من أنصف غيره من نفسه .

ذكر دريول(١) « أن الغربيين ربوا فى عاطفة أن النصرانية أرقى من الإسلام بكثير وأن رسالتها أن تهدى المسلمين إلى دين المسيح ، وهذا أمر عسير . وكم من أناس بيننا يبسمون لما يذكر من النعيم الذى وعد به المسلمون فى الجنة ، ولما يرون من حركات العبادات الإسلامية يبسمون ، ونحن ندعو المسلمين بالكافرين ؛ ومعنى المسلمين جماعة المؤمنين ، فلهم الحق أن يردوا علينا هذا النعت ، وبهذا لا يرجى أن تقوم بيننا وبينهم صلات إخاء وحب » .

وأهم أسباب الجفاء بين الغربيين والشرقيين فى القرون الأولى من الهجرة ، كون الإسلام جاء لهداية البشر كافة ، فأتى على الوثنية فى البلاد التى انتشر سلطانه فيها ، ودخل فيه من الصابئة واليعاقبة والنساطرة والمجوس واليهود وغيرهم جمهور كبير . وخافت أوروبا النصرانية من تسربه إلى ربوعها ، فاتفقت كلمة الملوك ورجال الدين على حربه ، حتى وقفت دعوته عند جزيرتى الأندلس وصقلية وما إليهما من أرض الفرنجة ، ثم نشأت الحروب الصليبية ودامت قرنين كاملين ، يجيش فيهما الغرب على الشام ومصر ، حتى كتبت الغلبة الأخيرة للإسلام فى أرض الشام .

وبديهى بعد هذه الطوائل والأحقاد التى طالت لياليها السود — خصوصاً بعد أن هزت الدولة العثمانية فى العصور الأخيرة أعصاب أوروبا زمناً ، حتى دب الهرم فيها — أن يقول الخصم فى خصمه ما قد يحط من قدره ، ويصغر من أمره ؛ ولا يفوتنا النظر أن الجهل كان فاشياً فى الغرب وأن الدين كان آخذا بمخنق(٢) كل عالم وباحث ، وأن آراء المؤرخين ، حتى فى العهد الحديث تختلف فى الجوهر والعرض أحياناً فى الحادثة الواحدة ، لأن من مظاهر هذا العصر اشتداد سلطان التحزب القومى ، إلى مالم يصل إليه فى عصر من عصور التاريخ .

ولما انبلج فجر الأدوار الأخيرة من القرون الوسطى ، وجاء دور النهضة فى

(١) المسألة الشرقية من سنة ١٩١٨ — ١٩٣٧ لدريول .
(٢) المخنق : العنق ، وأخذ منه بالمخنق إذا لزه وضيق عليه .

الغرب ، أنشأ المشتغلون بتلمس الحقائق يخففون من شرتهم على العرب ، ويقللون من النيل من دينهم ومدنيتهم . وزادت معرفة الغربي للإسلام ، يوم أنشأت بعض جامعات الغرب دروساً لتعليم اللغات الإسلامية ، وفي مقدمتها اللغة العربية ، وذلك للدعوة إلى النصرانيـة في الشرق ، ثم انقلب الغرض إلى درس الحضارة العربية والإسلام ، من طريق العقل والنظر ، وكان من مجموع هذه الأبحاث بأخرة [١] ، استبطان أحوال الإسلام ودياره ، لغرض الفتح والتجارة .

يقول قاسم أمين [٢] إن العداوة القديمة التي استمرت أجيالاً بين أهل الشرق والغرب بسبب اختلاف الدين ، كانت ولا تزال إلى الآن سبباً في أن جهل بعضهم أحوال بعض ، وأساء كل منهم الظن بالآخر ، وأثرت في عقولهم حتى جعلتها تتصور الأشياء على غير حقيقتها . إذ لا شيء يبعد الإنسان عن الحقيقة أكثر من أن يكون عند النظر إليها تحت سلطان شهوة من الشهوات ، لأنه إن كان مخلصاً في بحثه ، محباً للوقوف على الحقيقة ، وهو ما يندر وجوده ، فلا بد أن تهوش عليه شهوته في حكمه ، وأدنى آثارها أن تزين له ما يوافقها وتستميله إليـه ، وإن كان من الذين لا منزلة للحق من نفوسهم ، وهم السواد الأعظم ، ضربوا دون الحق أستاراً من

(١) يقال جاء أخرة وبأخرة أي : أخيراً .

(٢) نص الفارابي في بعض كتبه على أنه لا يسمى العالم بعلم ما عالما بذلك العلم على الإطلاق ، حتى تتوفر فيه أربعة شروط : أحدها أن يكون قد أحاط معرفة بأصول ذلك العلم على الكمال . والثاني أن تكون له قدرة على العبارة عن ذلك العلم . والثالث أن يكون عارفاً بما يلزم عنه . والرابع أن تكون له قدرة على دفع الإشكالات الواردة على ذلك العلم ، ومن أجل هذا كان لقب عالم يضن به كثيراً . وقد كان يقال لجبير بن زهير الحضرمي « عالم أهل الشام » وللخليل ابن أحمد « علامة البصرة » ولمالك بن أنس « إمام دار الهجرة » ولعبد الله بن عباس « رباني هذه الأمة » وخص في المتأخرين قطب الدين الشيرازي بالعلامة من بين علماء عصره ، لأنه سبقهم كلهم في جميع أقسام العلوم . قال المقدسي : إن مراتب السادات مثل جليل وفاضل ، رسم الرسائل لا رسم التصانيف . ونحن قد جرينا على ذلك فلم نذكر لمؤلف في مؤلفنا هذا لقباً علمياً ولا غيره ، نأتي بأسمائهم مجردة على عادة متقدمي المؤلفين .

الأكاذيب والأوهام والأضاليل ، مما تسوله لهم شهوتهم ، حتى لا يبقى لشعاع من أشعة الحق منفذ إلى القلوب(١).

صعوبة درس التاريخ :

وليس البحث فى تاريخ بلد واحد بالأمر السهل ، على من كتب له حظ من البحث والنظر ؛ فما بالك بتاريخ أمة عظيمة تباعدت أرجاء بلادها كالأمة العربية ؟ ولذلك رأينا الغربيين لما بلغ العلم هذه الدرجة العالية من الارتقاء والتشعب ، يقسمون التاريخ أقساما كثيرة ، فمن بحث منهم فى تاريخ قرن أو قرون من تاريخ أمة ، لا يتطاول إلى البحث فى دور آخر من أدوارها ، أو من خاض فى تاريخ إقليم أو بلد يحظر عليه ، أو يحظر على نفسه ، الخوض فى تاريخ إقليم أو بلد آخر . ومن اختص بجانب من تاريخ الرومان ، يتعذر عليه معالجة التاريخ الحديث ؛ ومن تاقت نفسه أن يتناول فى أبحاثه النظر فى حال أمة من أمم الشرق ، لا يجود تأليفاً له فى تاريخ الغرب . ولذلك تقلُّ قيمة سفر يؤلفه واحد على الأغلب ، إن كان متشعب المقاصد . فكتب المعلمات أو دوائر المعارف ينشئها مئات ، وأحياناً ألوف من العلماء عندهم ، وكتب التاريخ والجغرافيا والآداب يؤلفها عشرات من المؤرخين والأدباء والجغرافيين ، وربما لا تكتفى أمة بما عندها من الرجال فتستعين برجال من غير أمتها .

إذاً فالتاريخ اليوم صعب المراس لتنوع أغراضه ، فكيف يعتمد على من يقرأ بضعة كتب فى تاريخ العرب ، ويحكم على أهله ومدنيتهم ؟ ألا يعد من كان هذا شأنه من كتّاب العامة ، لقلة بضاعته ؟ فما الحال بما يصدره من الآراء ، وهو على رأى له قديم اصطنعه ، وما استطاع أن يتحلل من قيوده . وهذا فيما نرى ما دعا « رنان » أن يقول إن التاريخ مجموعة ظنون أو علم صغير سماه وحتمه من

(١) تحرير المرأة لقاسم أمين .

من الفرضيات البعيدة . وقالوا كل امرئ يحاول أن يدمج فى التاريخ أفكاره من طرف خفى ، وأن يتصور الحقيقة ويخلقها ، وذلك لقلة الوثائق التى تثبت على محك النظر . ويحاول المؤرخون أبداً أن يقيموا نظريات على نظريات أخرى ، ويدخلوا إلى روح أشخاص يجهلون مزاجهم ، وما ورثوه من تربية وأفكار ، ولذلك يصعب جداً كتابة تاريخ عصر أو رجل ، وما زال البشر منذ عهد « توسيديد » و « هيرودتس » يحاولون كتابة التاريخ ، وقلما وصلوا إلى الحقائق لقلة معرفتهم با كتنفاهها ، ويحاولون شرح الحوادث ومعرفتها وحفظها ، ليدخلوا شيئاً ضئيلا كالخيال من العناصر التى تركها العالم فى ماضيه السحيق . وكان « تاسيت » يحاول أن يضع نفسه فوق الحوادث وأن يحكم عليها . وحاول « مونتسكيو » و « هردر » أن يستخرجا من نصوص التاريخ فلسفة ، وحاول « رنان » أن يوفق بين الحوادث ، ويكشف أسرارها المكنة الظهور ، وإن يورد وقائعها ملموسة ذات وحدة ، ولكل مؤرخ طريقته . يقول كارلايل إن التاريخ مجموعة إشاعات . وفولتير يقول إنه مجموعة أساطير قبلها الضعفاء .

وقال لبون [١] : « منذ القديم كان الإنصاف فى التاريخ صفة جوهرية فى المؤرخ ، ويؤكد عامة المؤرخين منذ عهد تاسيت خلوهم من الفرض ، وتجردهم عن الهوى . وحقا أن الكاتب يرى الحوادث ، كما يرى المصور منظراً من المناظر ، بحسب مزاجه وخلقه وروح عنصره ؛ وإذا جئت تضع عدة مصورين أمام منظر واحد ، فإنك ترى كل فرد منهم يعبر عنه بالضرورة تعبيراً يخالف فيه صاحبه . ومنهم من يعنى بتفاصيل أهملها غيره ، وعلى هذا تأتى كل نسخة صورة خاصة لمصورها ، بمعنى أنها تمثل شكلا خاصا من التأثير ، وهكذا الحال فى الكاتب ؛ فلذلك تعذر على المؤرخ أن يقول الإنصاف كله ، كما يتعذر ذلك على المصور . لاجرم

(١) الثورة الفرنسية وروح الثورات لجوستاف لبون Gustave Le Bon : La Révolution française et le Psychologie des Révolutions.

أن للمؤرخ أن يأتي بالوثائق كما هو العرف اليوم ؛ ولكن هذه الوثائق إذا طال عهدها عن عهدنا كالثورة الفرنسية مثلا ، إذ قد بلغ من اتساعها أن حياة رجل لا تكفي للإحاطة بها ، وجب الاختصار على لباب مافيها ؛ وقد يبلغ بالمؤلف عن عمد أو غير عمد ، أن يختار المواد التي توافق أهواءه السياسية والدينية والأخلاقية . ولذلك تعذر تأليف كتاب في التاريخ بلغ من الإنصاف مداه ، اللهم إلا إذا اقتصر فيه على إيراد الحادثة في سطر واحد وفي زمن واحد ، وليس هذا في طاقة مؤلف ، ولا يؤسف لعدم اقتدار المؤلفين عليه ، وقد بلغ من انتشار دعوى عدم التحزب في التاريخ اليوم ، أن ظهرت للناس آثار تافهة تورث مللا كثيراً ، بحيث يتعذر بالرجوع إليها فهم تاريخ عصر من العصور » . اهـ

وقيل إن التاريخ(١) رواية يخترعها كل كاتب من توليد خياله ، وينتحل لها الأسماء والأعلام ، من سير الناس وحوادث الأيام . وكلما اتفق المؤرخون على رواية مسطورة كان ذلك أدعى إلى الشك فيها ، والتردد في قبولها ، لأنه دليل على الأخذ بالسماع والتسليم بغير مناقشة ، فأما إذا اختلفوا واضطربت أقوالهم بين الثناء والمذمة والترجيح والتضعيف ، فأنت إذاً حيال التاريخ في بابل من الفروض والآراء ، ومضلة من الحقائق والشكوك ، ويحتاج المؤرخ إلى كل ما يحتاج إليه القاضي من الشهادات والأسانيد والبينات ، وقد ينقصه كل أولئك في أكثر الحوادث التي يتصدى لها بالبحث والتقرير . فكل حادثة تاريخية قوامها الأشخاص والأخبار والمصالح والآراء ، ولكل عنصر من العناصر آفة تتطرق إليه بالزغل والارتياب ؛ فالأشخاص يحيط بهم الحب والبغض ، والرغبة والرهبة ، والظهور والخفاء ؛ والأخبار يعتورها الصدق والكذب ، والفهم والجهل ، والوضوح والغموض ، والمصالح تتفق ولا تتفق ، وتجارى الحقيقة وتناقضها ، وتصبغ الأشياء عامدة أو غير عامدة ، بصبغة تلوح لهذا غير ماتلوح لذاك ، والرأي عرضة لاختلاف

(١) ساعات بين الكتب لعباس محمود العقاد .

العلم والنظر والمزاج ، وكل مايدخل في تكوين الآراء وتقدير الأحكام ؛ وإذا تأتى للمؤرخ أسباب الحكم على الأعمال الظاهرة ، فقد تعوزه أسباب الحكم على النيات الخفية ، والبواعث المستورة ، والعوامل التي يحجبها الإنسان عن خلده ، ويغالط فيها ضميره ، وهبه تأتى له كل ما يتأتى للقاضي من الشهادات والأسانيد والبينات ، فهل يسلم القاضي من الزلل ، وهل يأمن الزيغ في الفهم ، والمحاباة في الهوى ، وانتشار الأمر عليه في القضايا التي لها خطر ، وللناس بها اهتمام ؛ أما سفساف الحوادث فسواء أصاب فيها القاضي أو أخطأ فهي أهون من أن يتعلق بها خبر في تاريخ أو مذهب في قضاء . اه

تفنيد « لبون » أقوال من نالوا من العرب والإسلام :

وما أجمل ما قال لبون[١] : « وإذا كان للأديان تأثير عظيم في الأخلاق ، كما ينسب إليها في العادة ، ونحن ممن لا يقول بهذا التأثير على مايزعم الزاعمون ، فإنا نجد المقابلة مدهشة بين الإسلام وسائر المعتقدات التي تزعم مع هذا أنها أسمى منه ، ولقد قال بارتلمي سان هيلير ، وهو من العلماء المتدينين في كتابه في القرآن : تدمثت نفوس قساة الطباع من سادة القرون الوسطى ، بملابستهم العرب وتمازجهم بهم ، وعرف الفرسان بدون أن يفقدوا شيئاً من شجاعتهم شعوراً أرق وأشرف وأعرق في الإنسانية من شعورهم . ومن المشكوك فيه أن تكون النصرانية وحدها — على ما حملت من المنافع — هي التي ألقت في روعهم ما ألقت ؛ وبعد هذا النظر ربما تساءل القارئ : ولماذا غمط اليوم حق العرب وتأثيرهم ، وأنكر حسناتهم علماء عرفوا باستقلال أفكارهم ، وكانوا بحسب الظاهر بمعزل عن الأوهام الدينية ؟ . وهذا السؤال قد سألته نفسي ، وأرى أن لا جواب عليه غير ما أنا كاتب ؛ ذلك أن استقلال آرائنا هو في الواقع صوري أكثر مما هو حقيقي ؛ ونحن لسنا أحراراً

(١) حضارة العرب لجوستاف لبون G. Le Bon : La Civilisation des Arabes

على ما نريد فى خوض بعض الموضوعات ، وهذا لأن فينا أحد رجلين : الرجل الحديث الذى صاغته دروس التهذيب ، وعملت البيئة الأدبية والمعنوية فى تنشئته . والرجل القديم المجبول على الزمن بخميرة الأجداد ، وبروح لا يعرف قراره يتألف من ماض طويل ؛ وهذا الروح اللاشعورى هو وحده الذى ينطق فى معظم الرجال ، ويبدو فى أنفسهم بمظاهر مختلفة ، يؤيد فيهم المعتقدات التى اعتقدوها ، ويملى عليهم آراءهم ، وتظهر هذه الآراء بالغة حداً عظيما من الحرية فى الظاهر فتحترم .

« لا جرم أن أشياع محمد كانوا خلال قرون طويلة من أخوف الأعداء الذين عرفتهم أوروبا ، فكانوا يتهددهم الغرب بسلاحهم فى عهد شارل مارتيل ، وفى الحروب الصليبية ، وبعد استيلائهم على الاستانة ، يذلوننا بمدنيتهم السامية الساحقة ، وإلى أمس الدابر لم نفج من تأثيراتهم . ولقد تراكمت الأوهام الموروثة المتسلطة علينا ، والنقمة على الإسلام وأشياعه عدة قرون ، حتى أصبحت جزءاً من نظامنا . وكانت هذه الأوهام طبيعة متأصلة فينا ، كالبغض الدوىّ المستتر أبداً فى أعماق قلوب النصارى لليهود .

« وإذا أضفنا إلى أوهامنا الموروثة فى إنكار فضل المسلمين هذا الوهم الموروث أيضاً النامى فى كل جيل ، بفعل تربيتنا المدرسية المقوتة ، ودعوانا أن جميع العلوم والآداب الماضية أتتنا من اليونان واللاتين فقط ، ندرك على أيسر سبيل أن تأثير العرب البليغ فى تاريخ مدنيـة أوروبا قد عم تجاهله . ويرى بعض أرباب الأفكار أن من المذل على الدوام الذهاب إلى أن أوروبا النصرانيـة ، مدينة لأعداء دينها بخروجها من ظلمة التوحش . وهناك أمر يحمـل فى مطاويه ذلا كثيراً فى الظاهر لا يقبل تحمله إلا بشىء من العنت . وذلك أنه كان للمدنية الإسـلامية تأثير عظيم فى العالم ، وتم لها هذا التأثير بفضـل العرب ، بل بصنع العناصر المختلفة التى دانت بالإسـلام ، وبنفوذهم الأدبى هذبوا الشعوب البربرية التى قضت على الإمبراطورية الرومانية ، وبتأثيرهم العقلى فتحوا لأوروبا عالم المعارف العلمية والأدبية والفلسفية ، وهذا ما كانت تجهله ؛ وعلى ذلك كان العرب ممدّنينا وأساتذتنا مدة ستمائة سنة » .

وقال فى حاشية هذا الفصل : إذا استحكمت الأوهام الموروثة وأوهام الثقافة فى رجل ، يعمى مع اتساع معارفه عن تفهم أسرار المسائل ، وما هو إلا أن ينطوى على بغضين : بغض الرجل القديم الذى أنشأه الماضى ، وبغض الرجل الحديث الذى هو ابن الملاحظة الشخصية ، ولا يلبث أن يأتى بصور من التعبير عن الأفكار غريبة فى تناقضها ، ويجد القارئ مثالا من المتناقضات فى محاضرة فى الإسلام ألقاها فى جامعة السوربون كاتب مبدع عالم ، عنيت السيد رنان ، حاول أن يثبت عجز العرب ، فنقض بيده كل مزاعمه ، فقد ذكر مثلا أن ارتقاء العلم كان بفضل العرب خلال ستمائة سنة ، وأبان أن التعصب فى الإسلام لم يظهر كل الظهور إلا لما خلفت العرب عناصر منحطة كالبربر والترك ، ثم جاء يؤكد أن الإسلام طالما اضطهد العلم والفلسفة ، مدعياً أنه قضى على العقل فى الأقطار التى افتتحها . ولكن باحثاً ذكيا كالسيد رنان لاينام على رأى مخالف لأصول التاريخ الظاهرة . فما إن تزول الأوهام فيه حيناً حتى يتجلى فيه العالم فيضطر إلى الاعتراف بتأثير العرب فى القرون الوسطى ، وبما بلغته العلوم من رقى فى اسبانيا مدة استظلالها بظل سلطانهم . ومن الأسف أن الأوهام اللاشعورية تتغلب عليه حالا فيدعى على وجه أكيد ان علماء العرب ليسوا عرباً بأصولهم ، بل هم أخلاط من أهل سمرقند وقرطبة وإشبيلية الخ . وبديهى أنه لا يتيسر النزاع فى أصل الأعمال التى خرجت بفضل طرائق العرب ؟ ولعمرى هل من الميسور إنكار أعمال علماء الفرنسيس ، بحجة أن من تمت على أيديهم كانوا من عناصر مختلفة كالنورمنديين والسلتيين والإكتيين وغيرهم ، ممن كونوا فرنسا بتمازجهم . وقد يكتئب هذا المؤلف العالم أحياناً من الأسلوب الذى جرى عليه فى إساءته للعرب ؛ وينتهى الصراع بين الإنسان القديم والإنسان الحديث فى نفسه إلى هذه النتيجة التى لم تكن متوقعة منه ، فيأسف لكونه لم يخلق مسلماً قائلا : « وما دخلت مسجداً قط إلا وعرانى خشوع يمازجه أسف ، على أنى لم أكن مسلما » . اه

نقد التاريخ وتوحيده :

هذا وقد عقد لبون فى آخر كتاب خطته يده قبيل وفاته ، سماه « الأسس[1] العلمية فى فلسفة التاريخ » فصلا فى النقد التاريخى قال فيه : رأينا فى الفصول السابقة مدى الشكوك التى تعرض للوقائع التاريخية حتى لما كان منها معروفاً ، فاقتضى للحكم عليها أن يتجرد فيها عن التأثيرات القومية والدينية والسياسية التى هى مرجع البت فى معظم الأحكام . ولذلك جاءت التآليف التى كتبت فى مختلف البلدان حاملة تقديرات متباينة فى الحوادث الواحدة . وللأوهام الدينية خاصة سلطان على المؤلفين ، على حين يعتقدون أنهم نجوا من تأثيراتها . لا جرم أن كثيرا من المؤرخين قد اندفعوا بسائق هذه الأوهام ، فأتوا بآراء بعيدة جدا عن محجة الصواب ، فى بيان فضل الحضارة الإسلامية . ولايزال التحامل على العالم الإسلامى القديم بحاله من الشدة ، ولذلك وجب أن يعاد النظر فى تاريخ القرون الوسطى بجميع أجزائه التى لها مساس بانتقال المدنية القديمة إلى العصور الحديثة . اهـ

وبعد فلم يبق من رأى يدلى به بعد هذا الكلام البالغ أقصى حدود الإنصاف والتعقل . وحقيقة أن من كتاب الغرب من إذا ذكروا الإسلام إلى اليوم ، وصفوه بكل ماينقص من قدره ، وإذا اضطروا إلى الإشارة إلى المدنية العربية كأنهم يقولون بلسان الحال إنها كعلم جابر : اقرأ تفرح ، جرب تحزن ، علمها لا ينفع ، وجهلها لا يضر . يقول ماكس نوردو : « ولكم كبر مقام أناس بما دوّن المدونون من أخبارهم ، حتى إن كثيرين ليعجبون من أرباب الرحلات السخفاء عجبهم من كبار الفاتحين المصلحين ، وكم من أناس هم عظماء فى نظر أمة ، ولا يذكرون عند أمة أخرى ، وكم من زلازل وحرائق أثرت فى الانقلاب البشرى أكثر من الحروب

(١) الأسس العلمية فى فلسفة التاريخ Gustave Le Bon: Bases scientifiques d'une philosophie de l'histoire

والغارات ، وما السبب فى ذلك إلا المؤرخون فإنهم غالوا فى هذه وسردوا أخبار تلك على وجه عادى » .

والغالب أن هذه الشنشنة ليست خاصة بمن رووا تاريخ العرب فقط بل عرفت أيضاً فى الكلام على أمم قديمة كان من مصلحة الفاتح أن يصغر من شأنها ؛ فقد أرسل منذ عهد قريب المجلس(١) الأعلى لبقايا هنود أميركا فى الولايات المتحدة إلى شيخ مدينة شيكاغو احتجاجا جاء فيه أن الكتب المدرسية المستعملة الآن فى الولايات المتحدة ، صورت تاريخ قبائل الهنود فى صورة مخالفة للحقيقة التاريخية . قال : وليتنا نفكر قليلا فيما كانت عليه أميركا قبل أن يفتتحها كولمبس ، ونقرأ ماقصه الفاتحون الأولون وأرباب الرحلات الأقدمون من الأقاصيص الغريبة ، ونلقى رائد الطرف على المدن القديمة فى العالم الجديد وما بلغته من الازدهار ، وما غصت به من المعابد العظيمة التى تضاهى بعظمتها معابد مصر ، وتماثيلها العظيمة المحلاة بالذهب ، وما كان هناك من متاحف وخزائن كتب ومراصد فلكية . وإذا كتب لك أن تتوغل فى مدنية المكسيك ومدنية الماياس فى يوكاتان والأنكاس فى الأند ، استنتجت والدهشة آخذة منك بأن فتح أميركا كان من أعظم جنايات أوروبا . قال وليست هذه الجريمة ويا للأسف وحيدة فى بابها ، فقد كان تاريخ المدنية والعالم خلال أدوار طويلة مغموساً فى الدماء المكروهة ، والجنايات آخذاً بعضها برقاب بعض . قال وإن تاريخ العالم ، على النحو الذى تعلمناه فى الكتاتيب والمدارس والجامعات ، لا يذكر المغلوبين بخير إلا إذا أريد إيراد فضائحهم ، والنظر إلى سقوطهم نظر عداء ومكر . ومنذ عهد قريب فقط أخذوا يذكرون فى كتب التاريخ القديم ما قام به الإيجيون سكان شواطئ بحر هيجاى من الأعمال الجليلة ، وما كان من أمر المملكتين القديمتين العظيمتين « أكاد وسومر » .

(١) من مقالة فى جريدة الكوتيدين Le quotidien الباريزية عنون لها كاتبها « تاريخ الأمم المغلوبة على أمرها لم يكتب » .

أما الآن فمن المستحسن جد الاستحسان توحيد التاريخ في العالم ، وتقليل جميع مصادر الأحقاد بين الأمم ، على ما صرح بذلك رئيس مؤتمر التاريخ في لندن ، وألح بوجوب السير عليه أحد كبار علماء إيطاليا قبل بضع سنين في رومية . وترى طائفة من العقلاء في الغرب نبذ كل ما يثير الحقد ، ويدعو إلى الظنة ، ويفك عرا الألفة . ولن يتم قيام هذا المجتمع الحديث إلا بتعاون الشرق مع الغرب تعاوناً حقيقيا يقوم على الحرمة المتبادلة والمصلحة المشتركة ، والعدل الذى لا يتجزأ . وللبشر اليوم مقصد أسمى من الخلافات والمناقشات التى جاءت القرون إثر القرون ، وما زالت بحالها ، لم تورث النفوس إلا اشمئزازاً . ولم يترك الزمن الحافز مجالا للناس ليشتغلوا بأمور كان لها ما يبررها في عصور البطالة والجهالة . البشر بعد هذا التقارب في المواصلات والأفكار أحوج ما كانوا إلى التعارف والتعاطف ، وإنصاف بعضهم بعضاً ، ليقوم نظامهم على الوئام والسلام .

منازع الناقدين والناقمين

نقد مؤرخ أميركى وكلام فى المذابح الدينية :

اختلفت مناحى الطاعنين على الإسلام فى الغرب منذ نحو مائتى سنة ، فكان فيهم المخلص فى نقده فى الجملة . بيد أنه لم يرزق من ثقوب الذهن ، ونزع ربقة الهوى ، ما يؤهله لإصدار أحكام على العرب ومدنيتهم خالصة من العيوب والنزعات . ومنهم الذى لم يصل إلى درجة من التحقيق يستعد بها لوزن الأشياء بميزان القسط ، فأرسل كلامه إرسالا ، ظاناً أنه أصاب شاكلة[1] الصواب ، وما هو منه بقريب . ومنهم من أعمى التعصب المذهبي بصره وبصيرته ، فكال الباطل كيلا ، وخلط وخبط تحت ستار العلم والبحث ، وهو لو حلف لك بكل محرجة[2] من الأيمان ، ليثبت لك خلوه من الغرض مازدته إلا تجهماً[3] وسخرية . وللقارئ أن يجعل بعض من وقعوا فى هذه المضايق من الغربيين فى المرتبة التى يراهم أهلا لها ، وذلك بجنايتهم على التاريخ الصحيح ، والعلم المجرّد ، ولتسجيلهم على أنفسهم جهلا وغباوة .

فمن سخافات المؤلفين الذين ألقوا الكلام على عواهنه[4] فى الإسلام قول كوفين[5] من جامعة واشنطون : « إن الشريعة الإسلامية التى دان بها وقدسها

---

(١) شاكلة : مؤنث الشاكل ، والشكل الناحية والجانب ، كشاكلة الطريق وشاكلة الخاصرة .

(٢) المحرج : المضيق ، ويقال حلف بالمحرجات أى بالأيمان التى تضيق مجال الحالف .

(٣) تجهمه وتجهم له : استقبله بوجه عبوس كريه .

(٤) رمى الكلام على عواهنه أى لم يبال أصاب أم أخطأ . والعواهن جمع عاهنة وهى أن تأخذ غير الطريق فى السير أو الكلام . وكان السلف يرسلون الكلمة على عواهنها أى لايزمونها ولا يخطمونها . وقيل هو من قولك عهن له كذا أى عجل وعهن الشيء إذا حضر .

(٥) تاريخ آسيا لكوفين Herbert. H. Gowen : Histoire de l'Asie

مائتان وثلاثة وثلاثون مليوناً من الناس[١] ، قد حفظت فى تضاعيفها شروراً اجتماعية تئن منها الإنسانية ، ومع هذا قدست الشريعة هذه الشرور باسم الدين » جملة ربما قالها الكاتب الأميركى وهو لم ير حياته مسلماً ، ولا قرأ كتاباً معتمداً من كتب العرب ، قالها بدافع هو يعرفه ، أو فاه بها ليأتى بالغريب ، وأميركا مهد الغرائب . وكأنه اكتفى بهذا الاقتضاب علماً منه بأن ما قاله من البديهيات لا يعوزها شرح وتفصيل ، ولو أنصف لفسر لنا هذه الشرور التى اتهم بها الإسلام وأنت منها الإنسانية . كأن الإنسانية لم تئن مثلا من معاملة الجنس الأبيض للأسود فى أميركا . قال فوليه[٢] : « تحدث مشاهد فى الولايات المتحدة لا تورث الأميركان فخراً ، وذلك أن الزنوج يحبون النساء البيض محبة شديدة ، حتى لقد يرضون شهواتهم بالعنف أحياناً ، ويقضى قانون « لنش » أن يطلى من يأتى ذلك بالقطران ، ويحرق كما تحرق الشموع ، وتضطر الحكومة السود فى الناحية التى وقع فيها الفعل إلى حضور مشهد إحراق رفاقهم » .

نعم كأن الإنسانية لم تئن من الحروب الدينية التى أهلكت فيها الإمبراطورة تيودورا وحدها نحو مائة ألف من المانويين فى أواسط القرن التاسع ، كما أهلك الكاثوليك من البرتستانت فى مذبحة سانت بارتامى مئة ألف[٣] أيضا . وكأن الإنسانية كانت راضية عن أعمال ديوان التحقيق الدينى الذى قتل فى إسبانيا وحدها ، كما قال ريناخ[٤] ، نحو مائة ألف إنسان على أقل تعديل ، وكأن الإنسانية

(١) قال كليمان فى كتابه أديان العالم C. Clemen : Les religions du monde يؤخذ من تقرير معقول أن عدد من يدينون بالإسلام (٢٥٠) مليوناً ، منهم (١٧٠) مليونا فى آسيا و (٦٧) مليوناً فى إفريقية و (١٢) مليوناً فى أوربا ، أى أنهم نحو سدس البشر تقريبا . ويقرب من هذا تقدير ماسينيون فى كتابه تقويم العالم الإسلامى : Massignon Annuaire de monde Musulman — فقد قدرهم بمائتين وأربعين مليونا . ولا يبعد أن يقارب عدد المسلمين فى العالم نحو ثلثمائة مليون .

(٢) المزاج والخلق لألفريد فوليه Alfred Fouillée : Tempérament et Caractère

(٣) حرية الوجدان لجول سيمون Jules Simon : Liberté de conscience

(٤) تاريخ الأديان لريناخ Reinach : Histoire des religions .

أقرت المذابح العظيمة التي قامت في الغرب تنفيذاً لرغبة الباباوات في قتل الملحدين ، ومنها ما قضى على أقاليم برمتها بالخراب ، كالحرب التي أعلنها[١] البابا إينوسانت الثالث سنة ١٢٠٨ م فخرب جنوبي فرنسا وأقفرت مدن برمتها ، ومنها كركاسون وبزيه ، وكالحرب التي أثارها الكاثوليك على البرتستانت المفرطين في طلب الإصلاح فقتل فيها ١٦٠ ألفاً . وأهلك توركادا الدومنيكي الإسباني (١٤٢٠ — ١٤٩٨) ستة آلاف بالنار ، وطلب جزاء عمله منصب كردينال من البابا ، وقد حكم على ٨٨٠٠ بالحرق ، وعلى ٩٦٥٠٤ بعقوبات أخرى ، وكانت الحكومة تحميه بخمسين فارساً ومائتي راجل . وكانت الأرواح لا قيمة لها في نظر المدافعين عن المعتقدات ، وكون القسوة فضيلة يثاب عليها فاعلها ، وكان المؤمن حقاً من لا تنفثىء[٢] سورة غضبه للدين الذي يتخيل أنه الحق وما عداه باطل . ولولم تأت الثورة الفرنسية الكبرى على هذه الفجائع التي امتدت لأواؤها[٣] قروناً باسم الدين ، والدين منها بريء ، لظل سلطان الدينيين في الغرب إلى اليوم بحاله ، ولتأخرت المدنية عن سيرها الطبيعي أكثر مما تأخرت بصنع رجال الكنيسة ومن جاراهم من الأقيال والأمراء والملوك .

رد على رنان وجانو لتحاملهما على الإسلام

ومن الناقدين من وقعوا في غلط الحس ، فحكموا على العرب والإسلام أحكاماً لا مبرر لها ، ربما كانوا يعدلون عنها لو ساعدهم الزمن فرجعوا اليوم إلى تمحيص ما دونوا ، كما وقع لرنان يوم زار في القرن الماضي جزيرة أرواد[٤] ، فشاكسه بعض أهلها ، فهجا أهل الجزيرة بأسرهم ، بل الشاميين بأجمعهم ، بل المسلمين عامة ،

---

(١) حياة الحقائق لجوستاف لبون Gustave Le Bon : La vie des vérités

(٢) أي لا تسكن حدته

(٣) اللأواء : الشدة

(٤) بعثة فينيقية لرنان Renan : Mission de Phénicie

وقال : إن غلط الفكر هو مظهر خلق الشاميين ، وإن الأروادبين قاوموه للبغض المتأصل فى قلب كل مسلم لما يقال له علم . وقال فى مناسبة أخرى : إن الذى يميز العالم الإسلامى إنما هو اعتقاد المسلمين أن البحث لا طائل تحته ، وأنه قد يؤدى إلى الكفر . وحكم هذا المؤلف على جماع أهل الشام ، بما رأى من انحطاط صيادين معدمين فى جزيرة صغيرة ، وعلى كل مسلم بأنه عدو العلم والبحث فى فطرته ، لا يصح على إطلاقه ، لأنه بعيد عن المنطق ، ولا يتلاءم بحال مع حكمة صاحبه وعلمه الواسع . ونظن رنان وهو يكتب قبل زهاء سبعين سنة ، لو زار بعض الأصقاع العربية اليوم لغير رأيه فى الحكم على المسلمين ، ولرأى كثيراً من عامتهم قد تحرروا مما سماه تعصباً أعمى ، وألفوا ممارسة الحقائق ، وأقبلوا على العلم على اختلاف ضروبه وكان بعضهم بالأمس ينكرونه ويمقتونه .

ومثل ذلك وقع أيضا لعالم أثرى مشهور اسمه كارمون جانو حيث قال : « إن المدنية العربية ليست سوى كلمة خدّاعة ، لا وجود لها أكثر من فظائع الفتح العربى ، وأنها آخر أنوار المدنية اليونانية والرومانية ، طفئت بأيد خرقاء ولكنها محترمة وهى الإسلام » . كلام غث فى الحقيقة ينم عن جهل بحقائق التاريخ ، وإن كان صاحبه الصدر المقدم فى علم الآثار . والغالب أنه شق عليه أن لا يرى العرب يرمون ماعور من مصانع اليونان والرومان ، فسلبهم حقهم كله من اشتراكهم فى خدمة المدنية ، وجعلهم فى مرتبة الفانداليين فى التخريب ، مدفوعاً إلى هذا القول على ما يظهر بعاطفته لا بعقله ، وفاته أن معظم آثار من أحبهم من اليونان والرومان خربت بعوامل الزمن الأرضية والسماوية ، وما كان الإسلام سبب تداعيها على ما زعم بعض النافخين فى بوق التعصب الدينى ، ورددوا ما طالما أجادوه ثم فصلوه ، من أن الإسلام كان السبب فى انقراض[1] الإرث الثمين الذى خلفته بابل وآشور وآسيا الصغرى وسورية وفينيقية فيما يختص بفن البناء والنحت وما إليه . ولو كان

(١) مجلة المشرق م ٢٩ ص ٥٥٠

جانوحياً اليوم لما أحلناه إلا على ما كتبه ابن وطنه سيديليو[(١)] حيث يقول : وما زال الفرنج إلى الآن ينسبون إلى العرب جميع التخريب الذى يرون اليوم آثاره فى الأقطار التى أغاروا عليها . وقد هولت الفرنج فى شأنهم ، مع أنهم كانوا فى جميع الوقائع ذوى لطف عند الانتصار . وسبب ذلك ما رسخ فى عقول الفرنج من الخوف والنفرة من العرب ، وكانت وجوههم كالحة من حر الشمس وأعينهم مخيفة ، هذا مع شدة عدو خيلهم ، وغرابة ملابسهم ، وتجريدهم سيوفهم ، وتكلمهم بلغة لا يعرفها أهل تلك الأرجاء ، لنشر دين بين هؤلاء النصارى المملوءة قلوبهم بتعاليم أساقفتهم ، وكانوا لا يتفوهون إلا بالألفاظ الدالة على العداوة والبغضاء لهؤلاء العرب المنكرين ألوهية عيسى بن مريم . اه .

ومن أين لأثرى أن يتفهم تاريخ العرب ، وتاريخ الإسلام كما قال لبون : « لم يوفق كثير من عظماء المؤلفين إلى فهمه ، وما زالوا ينكرون فيه إبداع المدنية التى ولدها الدين » . ولو كتب لهذا الأثرى أن يحسن التاريخ ، لاقترحنا عليه أن يدلنا على الفظائع التى ارتكبها العرب فى فتوحهم ، ومعظم ما يبالغ فى نسبته إليهم مما تبيحه القوانين الحربية . والرومان وهم مثال الدولة المدنية بزعمه ، أتوا فى بضع سنين من أنواع الجور واستعباد الخلق ، ما لم يأت العرب مثله فى قرونهم الأربعة الأولى ، على اتساع رقعة ممالكهم .

وقد أجمع مؤرخو الغرب على أن فتح العرب فى الأندلس كان أرحم بكثير من فتح القوط « الويزغوت » . على أن تخريبات الروم الدينية فى الغرب فى سبيل نشر النصرانية لتحل محل الوثنية ، ثم ما نشب بينها من الفتن والقلاقل قروناً طويلة دفاعاً عن حمى الدين ، كل ذلك كانت نتائجه أعظم من كل ما ارتكبته العرب من الفجائع المزعومة . وماذا نعمل بهذا الأثرى نفسه ، فأموره يحب الأحجار ورصفها ، لا يثبت بل ما يظن الأمة عزيزة إلا إذا جمعت منها جبالاً وتلالاً

(١) تاريخ العرب العام لسيديليو Sédillot : Histoire Générale des Arabes

بأية طرق كانت ؟ وما دامت الغاية تبرر الواسطة عنده ، فلا يهمه إذا هلك عشرات ألوف من الخلق إن كان من وراء ذلك إنشاء معبد أو قلعة أو مسلة أو قوس أو طريق أو مسرح أو ساحة أو حمام .

السبب في قلة آثار العرب :

ولقد رأينا الرومان حكموا الشام سبعة قرون وخرجوا منه ، ولم ينهوا بناء هيكل الشمس في بعلبك ، على كثرة من ساقوهم من الخلق ليعمروه . ومن سوء حظ العرب في الإسلام مع هؤلاء الناقمين عليه ، أن السخرة محظورة في شريعتهم ، ولذلك كانت مصانعهم مما عمر على الأغلب بأموال الملوك والخلفاء والأمراء وأهل الخير ، فجاءت أعمال أفراد لا أعمال جماعات . ولكل أمة أسباب قاهرة ليس في مكنتها التفلت من قيودها ، ولكل جماعة مصطلح لا تخرج عنه ، لأنه ربيب عاداتها وأليف خلقها وروحها .

يقول ابن خلدون : إن الهيا كل العظيمة جداً لا تستقل ببنائها الدولة الواحدة ، والدول العربية لم يطل عهد حكمها قروناً ، كما كانت آماد أمم القبط والنبط والروم والعرب الأولى من عاد وثمود والعمالقة والتبابعة . ولذلك لم تقم للمسلمين العرب مصانع عظيمة كأهرام مصر ، وسد مأرب ، وإيوان كسرى ، تخلد ذكرى ملوكهم ، وتنم عن مدى تفننهم في صناعاتهم . ومن أجل هذا استغنى المسلمون بما وجدوا من مباني غيرهم ، وعمروا ما اشتدت حاجتهم إليه بالطرق المشروعة . ومع هذا كتب لهم في زمن قصير أن يشيدوا مصانع بلغت من الإبداع مبلغاً تعرفه العين لأول نظرة ، لأنها لم تألف رؤية أمثاله ، كما قال أحد الفلاسفة المعاصرين . وهنالك شيء آخر وهو أن بعض مصانع العرب لم تعمر بالحجر الصلد ، بل اتخذ لها في الغالب الآجر والقرمد والخشب والأتربة ، فكان فعل الطبيعة فيها عظيماً . منذ استعاض الغرب عن البناء بالخشب[1] ، وألف البناء بالحجر ، ظهرت مدنه

(١) الشعب والأخلاق لهنري سكريتان Henri Secrétan : La population et les mœurs

ومصانعه بمظهر غير مظهرها ، وقد أبطأ الشرق فى البناء بالحجر خيفة الزلازل .

يقول دريول[١] : فى الزمن الذى كانت فيه إيطاليا تتخبط فى دياجى الحروب ، ولا سيما على عهد برابرة المملكة المقدسة قبل انتشار النور المظيم الذى انبعث من نهضتها ، كان الفتح العربى فى طرفى البحر المتوسط أعظم وأخصب من الفتح الرومانى ، وقد دامت ممالكه قروناً ، وكانت مصانعه أعظم أثراً من مصانع رومية ، وما هى إلا عنوان ثقافة عالية جداً ، وقد كان لهم الأثر المشهود فى إسبانيا إلى آخر القرن الخامس عشر . اهـ .

ومن ينكر على الرومان تفردهم بين الأمم بإقامة المصانع العجيبة التى أعجب بها كلرمون جانو وكثير قبله وبعده من أمم الإفرنج ، أحفاد الرومان وورثة مجدهم ؟ ولكن هذا الإعجاب بما صنعوا لا ينفى أنهم كانوا كاليونان يستبيحون ارتكاب[٢] كل منكر مع أعدائهم الذين جاهروهم العداء ، فكانوا لا يتحرجون من قتل العزل من أسلحتهم ، ومن بيع الأسرى كالرقيق ، ومن نهب المدن وحرق القرى . ومع أن هذا الظلم لم يرتكب مثله التتر وبرابرة الشمال ، فإن المتغنى بعدل الرومان واليونان ، المأخوذ بالإعجاب بما تركوا من مصانع وتماثيل ، يحاول تمجيدهم فى كل شىء بالباطل والحق ، حتى ليعتذر عن ظلمهم وتعذيبهم ، ويصورهم كأنهم المثل الأعلى فى الإنسانية . ولكل أمة لو أنصفنا مساوئ ومحاسن ، تساوى فى ذلك القديم والحديث والصغير والكبير منها .

التهمة بحريق خزانة الإسكندرية :

طالت محاولة المتعصبة إلصاق تهمة حريق خزانة الإسكندرية بعمر بن الخطاب ، وقد ثبت لعلمائهم أنفسهم أنها حرقت قبل الإسلام بقرون[٣] ومع ظهور الحق فى

---

(١) المسألة الشرقية لدريول F. Driault : La question d' Orient

(٢) السياسة لبلونشلى Bluntschli : La Politique

(٣) مجلة المقتبس م ١ و ٦

هذه المسألة ، بعد أن لاكتها الألسن كثيراً ، نرى أناساً يتخيلون أن فى ترديد هذه الأكذوبة على الخليفة الثانى حطاً من قدره ، فيذكرونها عند كل موقف ، ليدلوا على جهل الخليفة ، وتصلبه فى أفكاره ، وتجافيه عن الأخذ ممن سلف من الأمم ، جهلا وتعصباً منه ومن قومه .

حرقت خزانة الإسكندرية غير مرة بأمر الإمبراطورين ثيودوسيوس ويوستنيانوس ، وآخر حريق لها كان قبل الهجرة بمائتى سنة . ذكر جيبون فى تاريخ سقوط دولة الرومان أن هذه الفرية على المسلمين لفقها أبو الفرج بن العبرى فى تاريخ مختصر الدول ، وذلك بعد الإسلام بنحو ستمائة سنة ، ولم يتعرض قبل أبى الفرج مؤرخ واحد لذكرها ، حتى إن أفتيكيوس بطريرك الإسكندرية ، مع توسعه فى الكلام على استيلاء المسلمين على ثغر مصر ، لم يذكر كلمة عن حريق عمرو بن العاص لهذه الخزانة . وقد ذكر إرفنج وكريستون وفلين وغيرهم ، أن ما أشيع من مساوئ الإسلام والمسلمين بهذا الشأن ، لم يكن له ذكر قبل نقل كتاب مختصر الدول إلى اللاتينية ؛ ومن ذلك الحين ابتدأ الغربيون يبغضون المسلمين ويحتقرونهم .

ومن جملة من نقضوا هذه الرواية من علماء فرنسا أرنست رنان ، وآلبرسيم . وقد قال رنان من خطاب له فى المجمع العلمى الفرنسى : إن العلم والدين الإسلامى لا يجتمعان ، بيد أنه لا يعتقد أن عمر هو الذى أحرق خزانة الإسكندرية ، لأنها أحرقت قبله بزمن طويل . وقال آلبرسيم فى كتابه الذى سماه الكتاب (Le livre) : « ولم تحرق خزانة الإسكندرية التى قال بعضهم إنه كان فيها نحو سبعمائة ألف مجلد على يد الإمام عمر ولا بأمره ، كما جاء فى بعض المصادر ، فإن هذه الدعوى من الأغلاط التاريخية العظيمة ، إذ لم يكن أثر لهذه الخزانة عندما فتحت العرب مدينة الإسكندرية سنة ٦٤٠ ، وعلى عهد البطالسة أصبح أمر الخزانة إلى ضعف فقسمت شطرين ، جعل كل منهما فى مكان مستقل ، فحرق القسم الأول قضاء وقدراً عندما استولى يوليوس قيصر على الإسكندرية سنة ٤٧ قبل المسيح ، وذهب القسم الثانى

— وكان جعل فى معبد سيرابيس — على يد الأسقف تيوفيل بعد ذلك التاريخ بأربعمائة سنة ، عقيب الأمر الصادر عن ثيودسيوس بالقضاء على جميع المعابد الوثنية » .

وقال فوت[١] واهلويلر فى كتابهما « جنايات الأوربيين » : « إن تيوفيل هو الذى حرق خزانة الإسكندرية لا المسلمين ، لأن الدين الإسلامى لا يبيح إحراق الكتب » . وقال مسبرك فى كتابه « الادعاءات الكاذبة » : « إن الإفرنج هم الذين أحرقوا خزانة الإسكندرية ، والمسلمون هم الذين أدخلوا العلم إلى أوربا » . وقال استيفونس فى كتابه « التفكر والأديان » : « أحرقت أيدى الجاهلين خزانة الإسكندرية ، وهى مكتبة مهمة ، وبفقدانها اضمحل العلم ، وبقيت أوربا تتخبط فى ظلمات الجهالة إلى أن أنارها المسلمون بعلومهم » .

وقال غريفيني : بعد أن فتح عمرو بن العاص الإسكندرية مرت ستة قرون كاملة ، لم يسمع خلالها قول لمؤرخ مسلم أو غير مسلم ، يتعرض لاتهام عمرو بن العاص بإحراق خزانة الإسكندرية ، وينقض هذه التهمة ما اشتهر به عمرو بن العاص من سياسة التساهل التى جرى عليها ، وشهد له بها أشهر المؤرخين النصارى الذين كانوا فى عهده ، كيوحنا النيقيوسى فى كتابه « تاريخ مصر » الذى وضعه باللغة الحبشية القديمة[٢] . وقال بونه مورى[٣] : يجب أن نصحح خطأ شاع طول القرون الوسطى ، وهو أن العرب أحرقوا خزانة الإسكندرية بأمر الخليفة عمر ، والحال أن العرب فى ذلك العصر كانوا أشد إعجابا بعلوم اليونان وفنونهم من أن يقدموا على عمل كهذا ، ومعلوم أن قسما من تلك الخزانة كان احترق فى أثناء ثورة الإسكندريين التى باد فيها أسطول قيصر ، وأن قسما آخر أحرقه النصارى فى القرن

(١) مبحث لسليم تنير فى مجلة النبراس
(٢) مجلة المجمع العلمى العربى م ٤
(٣) الإسلام والنصرانية فى إفريقية لبونه مورى G. Bonet Maury : L'Islamisme et le Christianisme en Afrique

السادس ، واختط العرب الفسطاط وتركوا للقبط ممفيس ، ولم يتعرضوا لهم فى دينهم وعاداتهم ، وأطلقوا لهم الحرية فى انتخاب البطريرك وبناء الكنائس ، وغاية ما أبطل عمرو من العادات القديمة هو ما كانوا جارين عليه من زمان الوثنيين من إلقاء فتاة فى النيل كل سنة التماساً لفيضانه .

وعلى كثرة ما ردّ المنصفون تهمة حريق خزانة الإسكندرية عن عمر بن الخطاب ، لا يزال فريق الإثبات مصراً على رأيه ، لأن هـذا العمل مما يحط ضمناً من رجال الإسلام ، وهذه فرصـة قلما تسنح للمتعصبين حتى يثبتوا أن الرجل الذى يفاخر المسلمون به هو همجى ، ودينه دين الهمجية . ولذلك كان ينقل هذه الفرية الخلف عن السلف بكل أمانة كأنها حقائق ، وكأنهم يشيرون إلى أن هذه الخزانة لو سلمت لغيرت وجه الكون . أما إذا وقع شىء من هذا من جماعتهم كحريق الكردينال كسيمنس كتب المسلمين فى ساحات غرناطة ، فإنهم يحاولون أن يبرئوه من هذه الوصمة ، ويقللوا من شأن خزائن الكتب التى أحرقتها إسبانيا يوم قضت على العرب فى بلادها ، ولولا تلك الترجمات إلى العبرية واللاتينية لقضى على الحضارة العربيـة التى امتـد رواقها على إسبانيا ثمانية قرون[1] . ولا نذكر أننا قرأنا لبعض نقاد الغربيين نبـذة فى تقبيح ما فعله الصليبيون يوم غارتهم على طرابلس ، ويوم أمر صنجيل بإحراق كتب دار العلم فيها وكانت تقدّر بأكثر من مائة ألف مجلد .

وقع الحق من نفوس بعض المستشرقين :

وقع لنا أن قلنا مرة فى مجلة المجمع العلمى العربى[2] أثناء كلامنا على ما نشره أحد المشتغلين بالشرقيات من الإسبان من رسالة سماها « حديث ذى القرنين » : « إن هذه الرسالة كبعض الكتب التى تقل الفائدة من نشرها ، لأنها لا تؤيد أصلا من الأصول العلمية أو الدينية ، وإذا كان المقصد أن فى الإسلام مثل هذه

---

(١) إسبانيا والعمران العربى لكاباتون تعريب المؤلف ، مجلة المقتبس م ٤

(٢) مجلة المجمع العلمى العربى م ٩

الحكايات ، ويريد أرباب الغايات أن يحملوه إياها ليحملوا عليه ، فإن أهل الفريق الآخر يجيبونهم بأن فى خزائنكم من أمثال هذه الأسفار مئات » ، ونصحنا للناشر يومئذ أن يعنى بإحياء كتب ورسائل أخرى للعرب ، يأخذها من خزانتى الأسكوريال ومجريط فى بلاده ، وبذلك يخدم الآداب والعلم ، ويقلل من الخرافات التى تغلغلت فى أحشاء أمته أكثر من كل أمة أوربية . ولما صدر هذا الكلام قام غراتشقوفسكى المستشرق من لينينغراد يأسف فى مجلة ليترى الدولية[1] لهذا النقد ، ويقول : إن من المدهش أن يصوب مثل هذا الكلام إلى ممثل بلاد أنشأت أمثال ريبرا وآسين ، وإن قليلا من العلماء المحدثين قد عاونوا مثلهما على فهم مدنية الإسلام وما فيه من قيمة جوهرية ، وإن هذا التقريظ كتب بلسان مهين لأمة بأسرها ، إلى آخر ماقال مما لا تأويل له إلا العصبية المذهبية التى تأثر عرقها الحساس عند ما رأى شرقياً يرد غربياً إلى الصواب . وتعالى العلم عن أن يكون آلة مصانعة وعصبية ، وعبد شهوات وأهواء .

ونحن إذا لم نوافق بعض المشتغلين بالعلوم الشرقية على منازعهم الخاصة ، فليس معنى ذلك أننا نهينهم . فلأصحابنا جولدصهير المجرى ، ومرجليوث الإنكليزى ، ولامنس البلجيكى ، أقوال بعيدة عن محجة الصواب فى الإسلام ، وما حال ذلك دون تقديرهم قدرهم يوم يحسنون . وإذا كان فى الإسبان أمثال ريبرا وآسين اللذين يأتى الناقد الروسى بهما حجة على ارتقاء إسبانيا ، فإن انحطاطها قال به قبلنا عشرات من الباحثين المنصفين ، ومنهم بعض مؤرخى الإسبان وعلماء الاجتماع منهم . وظهور شخصين أو أكثر فى أمة لا يقوم دليلا على أنها بلغت ذروة الارتقاء ، وسلمت نفوس خاصتها وعامتها من الخرافات والسخافات . حاشا طبقة راقية تأخذ بمذاهب العلم والأدب وتفاخر إلى اليوم بمجد العرب وتاريخهم ، وتحرص على إحياء مدنيتهم ودراستها حرصها على كل علم نافع .

---

(١) مجلة ليترى Litteris م ٦ (سنة ١٩٢٩) .

وليت ذاك الروسى الذى أخذته العزة بالإثم ، واستهجن رأينا ، يتلو على الأقل ما كتبه فى انحطاط الإسبان فوليه[١] إذاً لرآه شعباً متأخراً فى مضمار العلم والتربية ، لا يهتم إلا بالظواهر ، والعجب المفرط من صفاته ، والبطالة هجيراه ، والاكتفاء بالقليل شأنه ، ولساهمنا رأينا بأن مجموع الشعب المصرى أرقى من مجموع الشعب الإسبانى ، وإن كان هذا أوربيا نصرانيا ، وذاك إفريقيا مسلماً ، ولشاهد أن الإسبان يضرب المثل بتعصبهم الذى كان منه فساد[٢] أمرهم ، وقد ابتلوا[٣] بكثلكة ممزوجة بالتخريف والتصوف ، تأصلت فى أرضهم فأضعفت فى منتحليها مادة العقل والتفكير . وقال كارلى الإيطالى ، بعد أن ذكر كيف انحط الإسبانيون بسرعة بعد فتوح أميركا : إنهم أخذوا يحتقرون الأعمال اليدوية ، فزاد الشقاء ، وكثر التشرد والجرائم ، وهذه علامة انحطاط قيم الأمم ، وهذا هو الخراب بجملته وتفصيله .

نعم لو قرأ الناقد شيئا مما كتب فى الإسبان لأيقن أن ليس التنافر على أتمه بين ابن الشمال وابن الجنوب فقط ، بل بين أهل المدن المتجاورة ، وعلى كثرة تحمس الفرد الوطنية ، لا تتعدى حماسته أسوار بلده ، خلافاً للفرنسيس والإنجليز والألمان والطليان وغيرهم من الأمم الكبرى ، وتاريخ هذه الأمة سلسلة من التعصب الدينى الذميم ، استعملوا النار والحديد فى الدعاية للدين ، واستكثروا من الرهبنات ، حتى كان الرهبان إلى أمس الحاكمين المتحكمين فى البلاد ، يملكون ثلث أرضها ، ويأخذون شطراً عظيما من موازنتها ، وجاء زمن كانوا يحظرون فيه الاستحمام على الناس ، لأنه يشبه الوضوء عند المسلمين بزعمهم ، فكثرت الأمراض الجلدية ، وتعذر على الأطباء أن يصفوا لمرضاهم النظافة والاغتسال ، مخافة أن يفشو أمرهم

(١) روح الشعوب الأوربية لألفريد فوليه
Alfred Fouillée : Essai d'une psychologie des peuples européens

(٢) اسبانيا فى القرن العشرين لماريفو Marivaud : L'Espagne au XXe siècle

(٣) غرائب الغرب للمؤلف ، أو كتابه غابر الأندلس وحاضرها .

فيما يقترحون ، ويقعوا بدعوى مروقهم من الدين تحت طائلة العذاب ، وإلى اليوم ينقص القوم كثير من المبادئ الأولية الشائعة بين الأمم الراقية . فتراهم يدخنون فى كل مكان خاص وعام ، ويبصقون فى القطار والمقهى والنزل والفندق والبيع ، على صورة تشمئز منها النفس ؛ فالقذارة عندهم فاشية ، والجهل والتشرد من الأمور المتعارفة ، والتواكل والتوكل لا تشبههم فيهما أمة راقية .

وإذا كانت كل هذه الإشارات لا تكفى لبيان حال الإسبان ، فاسمعوا ما يقوله لبون : « كان من تفوق العرب بالعلم فى الأندلس أن أصبحت لهم مكانة سامية عقبى زوال سلطانهم عنها ، فكان العلماء وأرباب الصناعات والتجار هناك من العرب ، وكل حرفة ماعدا حرفة الراهب والمحارب مما يحتقره الإسبان . وبعد أن فقدت إسبانيا عظماء رجال الحرب الذين توالى قيامهم على رأسها مدة قرن ، ساغ أن يقال إنها حرمت القوة الحربية بهؤلاء ، والقوة المدنية بطرد العرب ، فباد فيها كل شيء ، وسرعان ما سرى إليها الانحطاط بعد طرد العرب وتقتيلهم ، وليس فى التاريخ مثل إسبانيا شعب انحط إلى مثل هذه الهوة السحيقة ، فى مثل هذه المدة القصيرة . . . هوت فى سنين قليلة إلى أحط دركات السقوط ، وفقد من بنيها الحزم والنشاط ، حتى آلت بها الشقوة إلى أنها لم تنتفض من عوارضها إلا باستيلاء الأجنبى عليها ، وتخلت عن سلطانها السياسى والإدارى والصناعى والتجارى ، فكان الفرنسيون والطليان والألمان وغيرهم ، هم الذين يتولون كبر هذا الأمر فيها . جلبت إسبانيا العلماء وأرباب الصناعات من الخارج ، ولكن كيف السبيل إلى إحياء الموتى ؟ فقد ذهب العرب ، وقضى ديوان التحقيق على كل من كان من الذكاء فى درجة فوق المتوسطة ، فكان فيها سكان ، ولكنها فقدت الرجال . وكانت جميع كتب الإسبان كتب عبادة وتبتل وزهد . ولم يبق فيها كيماوى يعرف البسائط من هذا العلم . وما كشف أوائل القرن الثامن عشر فى الغرب كان الإسبانيون بمعزل عنه لا علم لهم به ، بل لا علم لأطبائهم بمسألة دوران الدم حتى بعد قرن ونصف من كشفه . وقد اقترح بعضهم مرة رفع القمامات من أزقة مجريط

سنة ١٦٧٠ لما كان ينبعث منها من الأمراض ، فقام ديوان الصحة يمانع فى رفعها ، قائلا إن أجدادهم كانوا على جانب من العقل يعلمون ما يبرمون ، وما حاولوا جمع القاذورات قط ، وعاشوا وسطها ، فعلى أبنائهم أن يسيروا على مثالهم ، لأن إزالة الأوساخ قد تحدث منها أمور لا يعرف ما يكون منها .

قال : لقد بذل كثير من المساعى المحمودة ، و لمّا تهب هذه الدولة من سباتها ، وإلى اليوم لا تزال الصناعة والزراعة مفقودتين فيها ، وأهلها فى كل ما يتجاوز القدرة المتوسطة عيال على الغريب ؛ فالغرباء يديرون معاملها ، وينشئون خطوطها الحديدية ، ويأتونها بالميكانيكيين يسيرون قطاراتها ، وكل ما فيها من علم وصناعة هى فيه حكرة للأجنبى . ومهما بلغت حكومة من قوة ، فهى عاجزة أمام هذه الحال . وما من بلد يحكم بغير رأى أهله ، ومهما بلغ من انحطاط الحكومة فى إسبانيا فالشعب فيها أحط . إسبانيا أحرزت ظواهر خارجية من المدنية ، وليس فيها غير الظواهر ، والجهل ضارب سرادقه فيها ، على نحو ما كان فى القرون الوسطى ، وإذا عاد ديوان التحقيق الدينى إلى عمله ، يجد اليوم الاستمداد له فى كل طبقات الأمة .

وقال لبون[1] أيضاً : « تقدَّر أخلاق كل شعب بما رزق من أخلاق خاصة ، فإذا كان ستون ألف إنجليزى يخضعون لسلطانهم ثلثمائة مليون هندى يساوونهم فى الذكاء ، فذلك بفضل صفات خاصة فى الفاتحين . وإذا كان الإسبان لم يستطيعوا أن يأتوا غير الفوضى فى الولايات اللاتينية فى أميركا ، فذلك لنقص فى أخلاقهم . قال : وإذا كانت جزيرة كوبا تحت حكم الإسبان لم تر مدة ثلاثة قرون غير الظلم والفوضى وإهراق الدماء حتى أقفرت ، وانقلبت فى بضع سنين تحت حكم الأميركان جنة أرضية ، فذلك لتفوق العنصر الأميركى ، وصلاحه للبقاء وإعمار الأرض ،

(١) روح الأزمان الحديثة لجوستاف لبون Gustave Le Bon : Psychologie des temps modernes.

أكثر من الإسبان » . ثم إن تاريخ كل أرض حلها الإسبان وطردوا منها «وما أوسعها فى أوربا وأميركا وغيرها» حلقة من المظالم والمغارم لا يتصورها العقل .

هكذا يقول من يكتبون للحقيقة والتاريخ ، أمثال الحكيمين فوليه ولبون . أما ذاك الروسى المتحمس للإسبان فلا يرضيه إلا أن نصانعهم ونعترف برقيهم ، لأنه خرج منهم فلان الباحث ، ولكن فوليه يقول إن إسبانيا لم تخرج إلى اليوم فيلسوفاً يذكر ، بل أخرجت رجالا نصفهم فلاسفة ونصفهم لاهوتيون ؛ وقال غيره إنها لم تنشئ مؤرخاً واحداً . وذلك أنك بينا ترى مؤرخهم يسرد تاريخه ، إذا هو شاعر يخطب ، وأديب يبالغ ، ومتعصب تستهويه وطنيته الفرارة فيعمى عن قول الحق . ومع عادة صراع الثيران المألوف عندهم ، على ما كانت عادة إحراق المتهم بدينه بالنار ، لا ترقّ حاسة ولا يرتقى شعور ، ولا يتأتى من عادة صراع الثيران إلا التوحش المقوت ، وما كان التلذذ بإهراق الدم ضروريا فى تخريج الأبطال . حكم بوكل المؤرخ الإنجليزى على الإسبانيين حكما قاسياً . قال : « لم تبرح إسبانيا فى سباتها ، تنام هادئة لا همّ لها ، ولا ألم يساورها ، غير متأثرة بالعوامل الخارجية ، ولا بما يحدث فى العالم من مظاهر الرقى ، فهى تنزل هناك فى طرف القارة الأوربية كتلة عظيمة لا حركة فيها ، حتى صح أن تصور بأنها آخر ممثل لشعور القرون الوسطى وأفكارها . ومن مؤسف المظاهر فيها ، أنها راضية عن حالتها ، فهى أحط أمة فى أوربا ، وتعتقد نفسها أرقى أمة ، تفاخر بكل ما كان عليها أن تخجل منه ، كثيرة الاعتداد بعتيق آرائها ، واستقامة دينها ، وصحة يقينها ، معجبة بأمور شتى بسذاجتها التى تشبه سذاجة الأطفال ، وبكراهتها وتحسينها معتقداتها وعاداتها ، تعتز ببغضها الملاحدة ، وبانتباهها الدائم الذى به قضت على كل المساعى التى بذلها من أرادوا النزول فيها » .

وبعدُ ، فقد رأينا فى الحرب الأهلية فى إسبانيا (١٩٣٧) ، وقد هب الأخ يقتل أخاه ، مثالا واضحاً من انحطاط الإسبان ، فقد قال أحد كتاب فرنسا ممن توغلوا (١) فى

(١) ريمون ريكولى فى جريدة جرنجوار Gringoire عدد (٢١ أيار ١٩٣٧)

بلادهم ودرسوها حق الدرس من كل مناحيها : إن القسط الأكبر من الضلال الذى سار إليه الإسبان يرجع إلى ما فطروا عليه من قسوة القلوب وجفاء الطباع . وإن فى دم هذا الشعب مقداراً غير قليل من الدم الإفريقى المغموس بخشونة ورعونة تبعثان النفوس على الانفجار العنيف الهائل ، فيسهل العبث بأهوائه حتى ليحبب إليه إهراق الدماء ، فإذا طاب له عمله لا يجد حاجة إلى التحلل مما أتى ، وما هو إلا أن يعمد مرة واحدة لارتكاب جرم القتل حتى يغدو حيواناً مفترساً يقتل لمجرد شهوة القتل . هذا ما قاله فرنسى فى الإسبانيين ؛ ونحن ما نخال الدم الأوربى أطهر من الدم الإفريقى أى العربى الذى عده الباحث من مضنيات الإسبان ، وقدره فيهم أقل بكثير مما يتصور ويتصوره متعصبة الشعوبية المحدثون . وبعد أن رأينا أصحاب هذا الدم ، الأوربى النقى ، يفتكون أيضا بمن يحبون وبمن يبغضون ، لا يهمهم مجرم ولا برئ ، ولا ترق قلوبهم لعاجز ولا طفل ، بتنا لا نحيف إذا ادعينا أن أهل الدم العربى أقرب إلى الرحمة من أصحاب هذا الدم الأوربى ! إن اتخاذ إسبانيا ميداناً لمغامرات أوربا البلشفية الشيوعية وأوربا الفاشستية النازية ، وانقسام الإسبانيين إلى معسكرين يقتتلان وهم أبناء نبعة واحدة ودين واحد حتى هلك من الإسبان مئات الألوف من الرجال والنساء والأطفال ، وخربت ربوع ومصانع ومرافق كثيرة لا تعود إليها حياتها فى قرن ، لما يسجل على الإسبان رعونتهم وغباوتهم ؛ ولذلك لم نغال إذا قلنا إنه شعب تخدعه الظواهر ، وهو أحط شعوب الغرب بلا مراء .

وآخر ما ظهر من الأسفار فى وصف أحوال الإسبان كتاب لرجل إفرنسى أقام فيهم عشرين سنة(١) ، وصف انحطاطهم فى كل شىء ، ومما قال إن من يتمون الدروس الثانوية فى مدارسهم لا يحسنون لغتهم ولا يعرفون نحوها ولا إملاءها ، ومن نال شهادة العلم الأوسط من الشبان لا يعرف الجغرافيا ولا التاريخ ولا لغة من اللغات

(١) باكورة من تاريخ إسبانيا لفالدوفل
R. Waldteufeld : Esquisse de l'histoire d'Espagne

الحية ، استظهر أشياء لا تلزمه فنسيها . وإنهم لما ابتلوا به من الانقسام والحزبية لا يزالون يقتتلون ، سواء فى ذلك انتصارهم أو انكسارهم ، وهم لا يعرفون معنى للوطن الواحد ولا للغاية الشريفة فيهم ، وإن المئتين والخمسين ألفا ممن جلوا عن إسبانيا على عهد الحروب الأميركية واتخذوها دار هجرتهم وكانوا من الطبقة الذكية ، قد أثرت فى المجتمع الإسبانى بأن حرمته أذكى أبنائه وأبقت له الحثالة .

ومع كل هذا وذاك ، يريدنا الأديب الروسى أن نسكت عمن يسىء ، لأن هناك من يحسن ، فسبحان من قسم العقول !

اليسوعيون والدعوة إلى تآلف الإسلام والنصرانية :

وبعد فإن من أعظم العابثين بتاريخ المسلمين ، المنكرين أثر العرب فى الحضارة ، جماعة يدعون إلى النصرانية ، وقد جعلوا همهم الأكبر فى دعوتهم تشويه بعض الحقائق الثابتة ، فنازعونا حتى فى البديهيات ، وأملوا ولا يزالون يملون علينا ضروباً من إفكهم . تفننوا فى تنويع أساليب دعوتهم . وأصحاب هذه المفاخر من أهل هذه الأرض ، فلما حدثتهم أنفسهم فى كنف عاديتهم . نسى دعاة التفريق أنهم دخلاء فى بلاد لم يبرح سلطان الإسلام فيها متفوقاً ، وجهلوا أنها أحسنت وفادتهم ، أو لم تضق بهم ذرعاً كما ضاقت بهم مواطنهم الأصلية ، وكان جزاؤها على إكرامها مثواهم أن قابلوها بمصادرة عواطفها ، وأغلظوا القول فى دينها ونبيها ومدنيتها ، على حين تجهم لهم حتى أبناء نحلتهم ، وطردوهم مرات من أرضهم ، وكانوا أحق من غيرهم بالتسامح معهم ؟ . ومنهم بل من المقدمين فيهم مؤلف اسمه لامنس ، عاهد تاريخ الإسلام على مناقضته ، وتمحض للحط من قدر العرب منذ عرفوا بين الأمم . وها كم أمثلة مما يجنيه على الحقائق ، تعرفون منها افتئاته على العلم ، بحيث تخجل من عبثه حتى أرباب الوجوه الصفيقة[1] .

---

(١) الصفيق : الوقح . يقال : وجه صفيق أى لا حياء له .

من الكتب المهمة التى نشرت فى مدينة ليدن الهولاندية بلغات العلم الثلاث الفرنسية والألمانية والإنجليزية ، كتاب «معلمة الإسلام (Encyclopédie de l'Islam)» ، وتعدّ هذه المعلمة ، بما ضمنت لها من مؤازرة أعاظم الباحثين من علماء المشرقيات ، من أجمع ما كتب على الإسلام وأصول أهله وبلدانه وتقويمها . عمل جليل ، لم يخل ويا للأسف وجهه الجميل من تشويه قليل أتاه ذاك الذى ينظر إلى الإسلام أبداً بعيون البغيض ، وأعنى به لامنس ، فأساء إلى الحقيقة فى مقالاته ، ظاناً أن هذه المعلمة أيضاً بوق دعاية مذهبية ، وأن على الداعية أن يحتال لبث دعوته ، ولو خان الواجب عليه فى عمل آخر وسُنّد إليه .

ولقد نسى لامنس هذا وبعض جماعته أموراً ، كان من الحرى بكل من يشتغل بالعلم أن يجعلها قيد نظره . نسوا أو تناسوا المتحتم عليهم من أمانة العلم ، فأخذوا منذ ألقوا رحالهم فى الشرق ، يحرفون آيات القرآن ، ويحذفون من كتب المسلمين ما لا يروقهم ، يخلطون[1] الآيات بأبيات من الشعر ، ويجعلون الأحاديث النبوية من كلام بعضهم ، حتى إنهم لا يذكرون الرسول عليه السلام بما ينوه من شأنه بزعمهم ، وما تحرجوا قط من اقتطاع جملة واحدة من نص طويل ، ليبنوا عليها ما يتخيلونه نافعاً لغرضهم . يوردون الخرافات المنقولة بصيغ التضعيف فى كتب الوضاعين والقصاصين ، ويدعون أنها منقولة من كتب الثقات الأثبات . وقد انتبه بعض النابهين من علماء المشرقيات ، وأشاروا على أولئك الناشرين أن لا يحرفوا نصوص المؤلفين من العرب ، لرغبة النـاس فى أن يقفوا على ما قاله المؤلف بنصه فى الدهر الغابر ، لا أن يقرأوا مختصرات وافقت رأى ناشر كتابه ، فجاء بها مهزعة منقوصة فى العهد الحاضر .

ألف لامنس[2] تاريخاً مختصراً للشام لم يذكر فيه للإسلام ولا للعرب محمدة

(١) بحث للمؤلف فى مجلة المجمع العلمى العربى م ٢
(٢) بحث للمؤلف فى مجلة المجتمع العلمى العربى م ٢

مدة ثلاثة عشر قرنا ونصف قرن ، ومما أورد فيه من الأفكار المضحكة ، أن العربى أثبت فى فتوحه أنه جبان ضعيف فى الجندية ، لا يفكر فى غير المغانم ، وأن العرب ظهروا كما كانوا على عهد الرسول وسطاً فى القتال ، وعلى استعداد للنهب ، يحجمون أمام الخطر ، وأنهم تركوا للسكان الأصليين محاكمهم ولسانهم وأنظمتهم البلدية عجزاً منهم لا تسامحاً ، وأن العرب لا قابلية لهم لشىء من أسباب الحضارة ، وأن الحروب الصليبية وقائع البسالة ، وأن الصليبيين كانوا عجباً بأنظمتهم وترتيباتهم ، وأن صلاح الدين أبقى على الصليبيين عجزاً وخوفا منهم ، وأن عهده كان قليل البهاء ، ووصفه بأنه طماع . وادعى أن اليهود عوملوا فى عهد الحروب الصليبية فى الغرب معاملة حسنة ، وأنهم كانوا ممتعين بحقوق الوطنيين عند الصليبيين .

وهكذا يوغل هذا المؤلف المضلل فى الحط من قدر العرب والإسلام ، يحاول بكل مالديه من قوة أن يسلبهم مجدهم الأقعس . يقول : إن العربى وسط فى الجندية ، ولكن هذا الوسط فتح من الممالك ما عجز عنه أشجع الأمم وأكبرها استعداداً ، وقوله : إن العرب لا قابلية فيهم لشىء من مشخصات المدنية ، تنقضه شواهد التاريخ ، فقد علموا العالم القديم ، ونقلوا إليه مالم يعرفه ، وأتوا من الأعمال النافعة ما لا يزال العدو قبل الصديق يعترف به . ودعواه أنهم تركوا للمغلوبين أنظمتهم القديمة باطلة ، وقد ثبت أن أهل الأقطار المفتوحة كانوا متفسخين منحلين . وتمدحه بالصليبيين منقوض بداهة ، وبشهادة المؤرخين منهم أنهم كانوا من الخبث والفجور واللصوصية واختلال النظام على جانب عظيم . وصلاح الدين لم يبق على الصليبيين خوفاً منهم وعجزاً عن التنكيل بهم ، بل سياسة منه اقتضاها دينه وبعد نظره ، وما كان بالطماع الجشع ، ولو وجد الطمع سبيلا إلى نفسه لخلف فاتح مصر والشام لأولاده شيئاً يعيشون به بعده ، وقد صح أنه لم يخلف داراً ولا ملكا ولا مالا ولا عروضاً . وكثير من المدارس والربط والجوامع فى الشام ومصر ، وبعضها باق إلى الآن ، بُنى من سهمه من الغنائم ، ولم يرض نسبته إليه فنسب إلى قواده ومماليكه

وآل بيته وما خص به من الكرم بلغ حد الإفراط . ومن أفظع ضروب الكذب أن يدعى لامنس أن الصليبيين عاملوا اليهود فى الحروب الصليبية معاملة حسنة مع أن الحقيقة أن أوربا لم تعامل اليهود قط إلا بالقسوة والجور ، وما نفس من خناقهم إلا فى القرن التاسع عشر . ذكر المؤرخون كوندة وريناخ وسيديليو ودى كاسترى ولافيس ورامبو وغيرهم أن النصارى فى الحروب الصليبية مادخلوا بلداً إلا وأعملوا السيف فى مسلميه ويهوده ، وأن اليهود لم يجدوا لهم ملجأ غير الإسلام ، فإن كان لهم باقية حتى الآن فى الغرب فالفضل يرجع فيه لمحاسنة المسلمين ولين جانبهم .

هذا المؤلف لايعترف للمسلمين بمنقبة ويشوه الحقائق أبدا ، وبحق ما وصفه العالم « دينه » بأنه فى علم المشرقيات كبطرس الناسك فى الحروب الصليبية ، جهز بهمة لا تعرف الملل ، صليبية دعية فى العلم ، طمعاً بصرع الإسلام صرعة لا قيام منها . قال درمنغم فى كتابه «حياة محمد» : « إن كتب الأب لامنس الجيدة قد شوهت محاسنها بما بدا فى تضاعيفها من كراهة الإسلام ورسوله ، فاستعمل فى التاريخ طرقاً بالغ فيها بالنقد ، وبعض المؤلفين يعمد إلى مثلها للغض من النصرانية » الخ . ونحن قد طالعنا أكثر ما كتب هذا المتعصب بالعربية والفرنسية فما رأيناه غلط مرة واحدة فأنصف العرب ومدنيتهم ، أو دون لهم أقل حسنة ، ولو كان يكتب فى وحوش إفريقية لاستحى منهم يوما ، وذكر لهم ولو بعض ما يستحسن من عاداتهم ومصطلحاتهم .

ومثل لامنس كان صنوه وزميله شيخو ، فإنه لم يأل جهداً فى إثبات دعواه أن العرب قبل الإسلام وبعده لا شأن لهم فى المدنية ، وإذا كان هناك من حضارة فبنو بجدتها نصارى العرب ، وقد لفق كتابا[1] ادعى فيه أن معظم شعراء العرب قبل الإسلام كانوا نصارى ، وبراهينه على دعواه أوهى من بيت العنكبوت . وهناك طائفة من المتظاهرين بعداء الإسلام وحضارته ، يضربون فى النصرانية والإسلام ومقصدهم الحقيقى الحط من الإسلام فقط ، مثل : مارتن هارتمان الألمانى ، فقد كتب إلينا منذ سنين يقول : إن الإسلام والنصرانية[1] حاولا أن ينشئا مجتمعا يقوم

(١) « النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية » للويس شيخو .

بالدين وحده ليكون أهل الشهادة بذلك الدين ظاهرين على الدين كله ، إلا أنهما لم ينجحا . إن دعوى تفوق[٢] الإسلام على الشعوب الصينية خيال لا يتأتى منه إلا خراب المسلمين وشقاؤهم ، وإذا ساعدت الأحوال على صورة غير منتظرة وتحققت أماني المسلمين هناك ولو مؤقتا فسيلحق من ذلك بلاد الصين ضرر عظيم ، لأن الإسلام ليس دين مدنية ، والإسلام قبل كل شيء عدو المدنية والافرنجية ، وصلاح الصينيين بالمدنية الغربية . وهارتمان كلامنس « وقف عمره[٣] على مجادلة الإسلام وأسلس في هذه السبيل العنان لهواه وإحنة صدره » .

هـذه أمثلة طفيفة من منازع الناقمين على العرب والإسلام ، أثرناها لأنها أثارت على النفوس الساذجة براكين التعصب الديني ، فضربت الحقائق في محياها فأدمته ، وعملت على تفريق أجزاء النفوس بين شعوب عاشوا وتعاشروا وتعاملوا قرونا ، والحب جامعتهم ، والإخاء مؤلف بين قلوبهم ، وسماحة دين الغالب تمتع المغلوب بحريته ، ومن المؤلم للنفس أن تحمل الحضارة الجديدة روح العصبية المذهبية ، وأن يجزل حظنا من تجهمنا لغيرنا ، وتجهم غيرنا لنا ، كلما بعدنا عن الأمية ، واستزدنا من نعمة العلم ، والتحلي بحلي المدنية . وأن يأتي على العرب حين من الدهر ، وهم وحدهم الأمة الرشيدة المتفردة بين أمم العالم ، لا تعبث بمقدسات مخالفيها ، وتبقي عليها وتحترمها ، وتعامل أهلها بالحسنى وزيادة .

وفي وصايا الخلفاء الراشدين ، فمن بعدهم من بني أمية وبني العباس ، بأهل الذمة ما يقطع ألسن المفتاتين ، ويفقأ حصرما في عيون المفتابين والعيابين . ولو كان المسلمون كما تحاول متعصبة الغرب أن تصورهم ، لما بقي في الشرق القريب دين يخالف دين الإسلام ، ولامعبد ينادى فيه بغير كلمة الشهادة . وغاية رجاء العقلاء اليوم كما قال محمد عبده أن تصبح الملتان العظيمتان النصرانية والإسلام ، وقد تعرفت كل منهما إلى الأخرى ، وتصافحتا مصافحة الوداد ، وتعانقتا معانقة الألفة ، فتغمد عند ذلك سيوف الحرب التي طالما انزعجت لها أرواح الملتين .

---

(١) مجلة المقتبس م ٣ . (٢) معلمة الإسلام مادة الصين .
(٣) تعليقات شكيب أرسلان على كتاب « حاضر العالم الإسلامي » .

الشعوبية فى الشرق والغرب

تعريف الشعوبية ومراميهم :

الشعوبية قوم متعصبون على العرب مفضلون[1] عليهم العجم ، ظهرت دعوتهم بُعيْدَ عصر الخلفاء بدخول أجيال كثيرة من الفرس والترك والنبط فى خدمة الدولة الإسلامية ، فنشأت المداوات بين العرب أصحاب الدولة ، وبين العجم الذين انتحلوا الإسلام ، وكما حدثت هذه المفاضلة بين العرب والعجم ، حدث أمر المفاضلة بين العدنانية والقحطانية . وصيغت هذه العداوة بعد ذلك فى صيغة أخرى وهى قيس ويمن ، هذا مع أن هدى الكتاب العزيز : (وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم) . (إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم) . وقد قال الرسول فى حجة الوداع : « أيها الناس إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتفاخرها بالآباء . ليس لعربى على عجمى فخر إلا بالتقوى ، كلكم لآدم ، وآدم من تراب » .

ويقال على الجملة إن الإسلام الذى جاء لإسقاط الجنسية ، حاول بعضهم للحرية التى استمتعوا بها على عهد عز العرب أن يعيدوا نغمتها ، وألف الشعوبيون رسائل وكتباً ، وصنفوا المسامرات والخطب ، وراجت أسواق المادح والمقابح ، ورد العرب على العجم برفق لئلا ينفروهم ، وكانوا يرمون إلى تأليف القلوب لا إلى تمزيقها ، شأن الأمم العاقلة التى ترمى أبداً إلى تكثير سوادها ، وجمع القلوب على حبها ، تتحامى العبث بمقدّسات الناس ، وتحفظ لهم حرمتهم وكرامتهم .

ونحن هنا نطلق لفظ الشعوبية على كل من ناهضوا العرب فى القديم والحديث ، وفى الشرق والغرب ، وقاموا ينتقصون من قدر حضارتهم وتاريخهم ، لأغراض

---

(١) بحث للمؤلف فى الشعوبية نشر فى كتابه « القديم والحديث » .

فى نفوسهم لا تخفى على أرباب البصائر . ولهؤلاء الشعوبيين طرق غريبة فى الحط من العرب ، يتناولون فيها كل مسألة تؤدى مباشرة أو غير مباشرة إلى العبث بمزايا تناصرت[١] الأخبار على تفرد العرب بها ، ولو أنصف الشعوبيون لما ارتكبوا كبيرة إنكار الثابت ، وإثبات المنكر ، وأنت كلما حججتهم بأقوال الأعلام من علمائهم أصروا معاندين ، بل اشتدوا فى الغلو حتى وصموا المعتدلين من جماعتهم بقلة البضاعة فى هذه الموضوعات التى أصبحت لعهدنا على طرف الثمام[٢] لكثرة النقل والنشر ، وأنت إذا ما أحلتهم على قوانين العقل الطبيعية ، فرّوا كأنهم حمر مستنفرة ، فرت من قسورة[٣] .

ومن أغرب ما قرأنا ونحن نكتب هذا ، دعوى أحد هؤلاء الشعوبيين أن رينان لما لم يكن متمكنا من العربية ، وأن تين ولامارتين ولبون لما لم يعرفوا كلمة منها كان بحثهم فى العرب غير صحيح ؛ ذلك أنه شق على هذا الشعوبى المتعصب أن يذكر هؤلاء العلماء العرب بشىء من الإنصاف ، فما وسعه إلا أن ينسب إليهم الجهل بلغة العرب . وما عهدنا أن الحكم على مدنية من المدنيات يشترط فيه أن يكون المرء ماهراً بلغة تلك المدنية ، ولو صح هذا النظر لاستلزم أن ندرس اللغة اليونانية لنحكم على مدنية اليونان ، ونتلقف اللاتينية لنحكم على الرومان ، والهيروغليفية لندرس مدنية الفراعنة ؛ وهكذا لو طمحت أنفسنا إلى أن ندرس الهند والصين واليابان ، وأجناس البشر من الأصفر والأحمر والأسود والأبيض ، لاقتضى لنا أن نتقن لغاتهم حتى يسوغ لنا بزعم ذاك الشعوبى أن نحكم عليهم . وفاته أن لغات أوربا ، ولا سيما الأمهات التى يتكلم بها عشرات الملايين من الخلائق ، قد نقلت إليها معظم النصوص العربية ، بحيث لا يكاد يفوت الباحث شىء يلزمه للبحث فى حضارة العرب والإسلام .

(١) تناصرت الأخبار : صدق بعضها بعضا .
(٢) الثمام : واحدته ثمامة نبت ضعيف لا يطول . يقال : هو لك على طرف الثمام اذا كان هين المتناول .
(٣) القسور والقسورة : اسمان للأسد .

ومتى كانت الإحاطة بلغة أمة شرطاً أعظم فى صحة الحكم على مدنيتها ؟ وهل فى مقدور البشر أن يدرس الفرد عشرات من اللغات ، إذا صح عزمه على معرفة تواريخ الأمم ؟ حقيقة العرب تعرف من القدر الذى ألف ونقل إلى كل لغة من لغات المدنية الحديثة ، وهو شىء كثير تتألف منه خزانة فى كل أمة من الأمم المتحضرة اليوم .

سألنا مؤلف كتاب حاضر العالم الإسلامى الأميركى : من أين له هذا الوقوف الجيد على تاريخ الإسلام وهو لا يعرف العربية ؟ فقال : إنه درس التاريخ الإسلامى عشر سنين عند أستاذه فى التاريخ ، وكان هذا يحسن العربية ، ويستخرج من كتبها كل ما يلزمه لدراسة تاريخ الإسلام ؛ ولذلك أخذ لباب ما كان أستاذه متمكنا منه ، ولم يحتج كثيراً إلى تلقف العربية للحكم على الإسلام والعرب . ولكن ذاك الشعوبى طلق المنطق ، فلذ لقلبه إسقاط أربعة من كبار علماء فرنسا المتأخرين ، ليسقط بإسقاطهم مدنية أمة عظيمة يرى من مصلحته أن يعمل على حربها حتى لا تقوم لها قائمة ، ولا تنسب لها فى قديم الدهر وحديثه صفة من الصفات الطيبة التى قل أن تتجرد منها أمة عظيمة مهما كان جنسها وهواؤها ودينها .

نقض علماء الغربيين مماحكات الشعوبيين :

كل ما رددنا عليه آنفا هو رأى الشعوبى لامنس المؤرخ المحابى كما لقبه بعض علماء أوربا ، وما فتئ يضعف من شأن أكبر مؤرخى العرب ، أمثال الطبرى والبلاذرى وابن سعد والأصفهانى وابن الأثير وابن خلدون وأبى الفداء . ويوثق بعض القصاص الوضاع . هؤلاء المؤرخون يغمز قناتهم لامنس البلجيكى بينا هيس السويسرى(١) يأسف لتساهل المسلمين فى دراسة هذه المدنية الإسلامية البديعة التى يعجب بها علماء المشرقيات ، لما يقرأون من آياتها فى كتب مشاهير المؤلفين أمثال ياقوت والبيرونى والخوارزمى وابن خلدون الخ ، قائلا إن المسلمين يزهدون فى

(١) مجلة المجمع العلمى العربى م ٣ .

مدنيتهم ليتمثلوا نصف تربية أوربيسة فى المدارس التى قلما تهتم بتعليمهم عظمة الآداب التاريخية والجغرافية والعلمية التى خلفها أجدادهم .

لامنس الشعوبى البلجيكى يسقط من شأن مؤرخى العرب ، كما يسقط من شأن علماء الافرنج ، وبراون[1] الانجليزى يقول إن كتب العرب فى التاريخ أوسع الكتب وأدقها . ويرى أن التاريخ فى بعض المؤلفات العربية لم يكتب على نسقه فى أوربا ، ويذكر بالإعجاب ابن خلدون وابن الأثير والطبرى والفخرى وغيرهم . قال : وفى باب العلم والفلسفة والأخلاق نجد من المؤلفات ما لا يوجد له مثيل .

يطعن الشعوبيون بكتب العرب ، ويطعنون أيضاً بكتب الأفرنج المنصفين للعرب ، وكلما أوقدوا ناراً للفتنة أطفأها العلماء بوثائق كثيرة تصفع النافخين فى أبواق الشقاق ، وتقضى على أمانى الدجاجلة[2] المشعوذين . ولقد كتب أحدهم مؤخراً يقول : فطر الإسلام على الفناء[3] ، فهو يبنى ولا يعرف الاحتفاظ بما بنى ، وشعوره متحرك متحول ، ومع هذا يحتفظ على تعاقب القرون بتقاليده البدوية وينكر المدنية ، لكنه يقبل الانتفاع من الآلات والأدوات الجديدة . قال وتنوعت المرادات التى أحدثها الإسلام فى حواسنا الغربية ، ولطالما شعر لوتى (من أدباء فرنسا) نحو المسلمين بعاطفة شديدة ، وشهد لهم فى كتبه وفى حياته العامة الشهادات الحسنة ، فكان المدافع عن تركيا ، وقام فى حياته الخاصة على تعهد مسجد له أقامه فى داره فى روشفور ، وبلغ من تأثير الإسلام فى إيبنهارد أن دان به مختاراً . ثم تطرق إلى ما بدا فى كتب الأخوين تارو (Tharaud) من كتاب فرنسا ، من العطف على الإسلام ولا سيما فى مؤلفاتهما «العيد العربى» ، «الحرب فى أشقودرة ألبانيا» ، «طريق دمشق» ، «رباط الفتح أوساعات فى مراكش» ، «رباط ومراكش» ، «فاس وأهل المدن فى الإسلام» . وقال : إنه ظهر تبدل فى عاطفتهما فى هذا الكتاب

(١) مجلة المقتبس م ٢

(٢) جمع دجال ، والدجال الخداع : وأصل الدجل الخلط . ويقال : دجل إذا لبس وموه .

(٣) المجلة العالمية (آب ١٩٣١) (La Revue Mondiale) .

الأخير بالقياس إلى أول كتاب كتباه فى الإسلام منذ عشرين سنة ، فأخذا يمعدان الآن إلى طرق النقد والسخرية أحياناً عما يريان من مدنية إسلامية الخ. وختم بقوله : نشأ الإسلام فى أصقاع مشمسة ، فكان دين الشعر والخيال والبطالة ، ولما كان الحظر من أهم قواعده ، قضى على أهله بالجمود بل بالموت ، وقد عرف الإسلام بتذوق الحاضر والمعجل والزائل ، وبالتجاهل المقصود من البقاء ، وبعقيدة القضاء والقدر ، فكان مخرباً هائلا . وقال : إن العربى يوحى إلى الذهن صورة الطفل الذى يبنى على شاطىء البحر قصراً من الرمل ، والرسام الذى يتلف عينيه بتزيين غرفة مظلمة ، أو المطرز الذى ينسج بالذهب والفضة قطعة لا قيمة لها . اه .

هذا الشعوبى يتحامل على الإسلام فيرميه بالتعصب وقلة المساحة وعدم ائتلاف من يدين به مع من يخالفه فى عقيدته ، يزعم أنه عدو المدنية الأزرق . كلام من أنطقه الهوى ، وأعوزته الحجة لتأييد دعواه المزورة ، تقرأ فى تضاعيفه المكر وفساد الذمة ومقاومة البديهة . وليوتى من أعظم رجال فرنسا الذين عرفوا الشرق معرفة حقيقية يقول : « وإذا كان فريق من ذوى الأغراض الملتوية ، يزعم أن الإسلام يبعث على التدمير والفوضى والتعصب ، فإن بصفتى رجلا قضيت بين المسلمين مدة من الزمان فى الشرق والغرب ، ولم أكتف بما قرأته عن الإسلام فى الكتب ، أقول إن جميع تلك المزاعم لا نصيب لها من الصحة » .

تسامح المسلمين ودولهم مع أبناء ذمتهم :

لو كان الإسلام كما ادعى ذلك الشعوبى الأخرق متعصباً جامداً ، يسيء إلى من يخالفه ، ولا يأتلف مع أحد ، هل كانت تتم أعماله المدنية التى تجلت للعيان بدون بيان ، بل لو كان الإسلام متعصباً جامداً هل كان على الأقل يبقى على أحد ممن يخالف معتقده ، وقد شاهدنا التعصب الدينى فى أوربا لما اشتدت وطأته يقضى بجلاء جزء عظيم من أمة ، حتى يسلم دين السواد الأعظم ، كما وقع للاسبان ، فلم يرضوا بعد أن خضع العرب لسلطانهم إلا بتنصيرهم أو إجلائهم عن بلادهم ، فخربت

إسبانيا من أجل ذلك . وكذلك جلا البرتستانت من فرنسا إلى انجلترا وهولاندة وألمانيا يوم اشتداد الثورة الدينية ، فكان من ذلك أن فقدت تلك الأمة عشرات الألوف من الأذكياء ، وهاجر ألوف من الخلق من انجلترا لأسباب دينية إلى أميركا الشمالية .

ولقد كان الإسلام على العكس من كل هذا فى معظم أيام عظمته ، يبر المخالفين ويقربهم ، وينتفع بإحسان المحسن منهم ، ويعدل فيهم عدلاً لم يؤثر عن كسرى ولا قيصر ، وما قامت حرب دينية قط فى ربوع الإسلام قصد منها إبادة أعدائه ، اللهم إلا حوادث عادية تقوم بين متخالفين فتطفئها الولاة لساعتها ، وترد على كل الرعايا حرياتهم . ذكر ابن عساكر فى سيرة ابن فاتك الذى شهد فتح دمشق أنه تولى قسمة الأماكن بين أهلها بعد الفتح ، فكان يترك الرومى فى العلو ويترك المسلم فى أسفل لئلا يضر بالذمى . أهذا عمل من يسىء إلى من يخالفه ؟ ولعل الشعوبيين يماحكون فيزعمون أن هذا من باب الضعف ، وأين كانت قوة أهل الإسلام يوم عملوا هذا من قوة غيرهم من أهل الأديان الأخرى فى الشرق والغرب !

مثال آخر : لما[1] جمع هرقل صاحب الروم جموعه للمسلمين ردّوا على أهل حمص من الروم ما كانوا أخذوا منهم من الخراج وقالوا : قد شغلنا عن نصرتكم والدفع عنكم فأنتم على أمركم . فقال أهل حمص : لولايتكم وعدلكم أحب إلينا مما كنا فيه من الظلم والغشم ، ولندفعن جند هرقل عن المدينة مع عاملكم . ونهض اليهود فقالوا : والتوراة لا يدخل عامل هرقل مدينة حمص إلا أن نغلب ونجهد .

مثال ثالث : مر عمر بن الخطاب بباب قوم وعليه سائل يسأل ، شيخ كبير ضرير البصر ، فضرب عضده من خلفه ، وقال : من أى أهل الكتاب أنت ؟ فقال : يهودى . قال : فما ألجأك إلى ما أرى . قال : أسأل الجزية والحاجة والسن . قال : فأخذ عمر بيده وذهب به إلى منزله فرضخ له[2] بشىء مما فى المنزل ، ثم أرسل

(١) فتوح البلدان للبلاذرى والخراج لأبى يوسف .
(٢) يقال رضخ له من ماله رضخة ، أى أعطاه قليلا من كثير .

إلى خازن بيت المال ، فقال : أنظر هذا وضرباءه[1] ، فوالله ما أنصفناه ، أن أكلنا شبيبته ثم نخذله عند الهرم (إنما الصدقات للفقراء والمساكين) . والفقراء هم المسلمون ، وهذا من المساكين من أهل الكتاب ، ووضع عنه الجزية وعن ضربائه .

خذ لك مثلا آخر من هذا التسامح الشريف . كتب الإمام الأوزاعي[2] إلى صالح بن علي بن عبد الله بن العباس ، لما قتل مقاتلة أهل لبنان ، وأجلى بعضهم لما خرجوا على الخليفة : « وقد كان من إجلاء أهل الذمة من جبل لبنان ممن لم يكن ممالئاً لمن خرج على خروجه ، ممن قتلت بعضهم ، ورددت باقيهم إلى قراهم ما قد علمت ، فكيف تؤخذ عامة بذنوب خاصة حتى يخرجوا من ديارهم وأموالهم ، وحكم الله تعالى أن لا تزر وازرة وزر أخرى ، وهو أحق ما وقف عنده واقتدى به ، وأحق الوصايا أن تحفظ وترعى وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإنه قال : « من ظلم معاهداً وكلفه فوق طاقته فأنا حجيجه[3] » .

نص القرافي وابن حزم على أن من حق حماية أهل ذمتنا إذا تعرض الحربيون لبلادنا ، وقصدوهم في جوارنا أن نموت في الدفاع عنهم ، وكل تفريط في ذلك يكون إهمالاً لحقوق الذمة . ويقول القرافي : إن من واجب المسلم للذميين الرفق بضعفائهم ، وسد خلة فقرائهم ، وإطعام جائعهم ، وإلباس عاريهم ، ومخاطبتهم بلين القول ، واحتمال أذى الجار منهم ، مع القدرة على الدفع ، رفقاً بهم لا خوفاً ولا تعظيماً ، وإخلاص النصح لهم في جميع أمورهم ، ودفع من تعرض لإيذائهم ، وصون أموالهم وعيالهم وأعراضهم ، وجميع حقوقهم ومصالحهم ، وأن يفعل معهم كل ما يحسن بكريم الأخلاق أن يفعله . ولما تغلب المسلمون على التتر في الشام خاطب ابن تيمية قطلو شاه في إطلاق الأسرى ، فسمح له بالمسلمين وأبى أن يسمح له بأهل الذمة ، فقال له شيخ الإسلام : لابد من افتكاك جميع من معك من اليهود والنصارى الذين هم أهل ذمتنا ولا ندع أسيراً لا من أهل الملة ، ولا من أهل الذمة . فأطلقهم له .

(٢) الضريب : النظير . وضريب الشيء مثله وشكله : ج ضرباء .

(٢) فتوح البلدان للبلاذري .

(٣) الحجيج : المغالب بإظهار الحجة ، والوزر : الإثم . ووزر يزر : أثم .

قال الجاحظ فى معرض كلامه على أن المسلمين كانوا أعطف على النصارى من اليهود : إنهم نافسوا المسلمين فى لباسهم ومركوبهم وألعابهم ، وتسموا بالحسن والحسين والعباس والفضل وعلىّ واكتنوا بذلك أجمع . . . فرغب إليهم المسلمون وترك كثير منهم عقد الزنانير ، وعقدها آخرون دون ثيابهم ، وامتنع كثير من كبرائهم من إعطاء الجزية . وأنفوا مع اقتدارهم من دفعها ، وسبّوا من سبهم ، وضربوا من ضربهم . ومالهم لا يفعلون ذلك وأكثر منه ، وقضاتنا وعامتهم يرون أن دم الجاثليق[١] والمطران والأسقف وفاء بدم جعفر وعلى والعباس وحمزة . قال : وكان منهم كتاب السلاطين وفرّاشو الملوك وأطباء الأشراف ، ولم يكن اليهودى إلا صباغاً أو دباغاً أو حجاماً أو قصاباً أو شعاباً[٢] .

وإذا كان الشعوبيون يشكّون متعنتين فى هذه الأخبار الصحيحة من مسامحة المسلمين فى معظم أدوار عزهم ، مع أنه لم يعهد لأمة فيما نحسب أن دوّنت أيام سعادتها مالها وما عليها . بمثل هذا التدقيق الذى اشتهر به علماء العرب ، فما قولهم فيما كتبه عالم معاصر[٣] من جامعة الجزائر . قال : « لقد ثبت أن الفاتحين من العرب كانوا على غاية من فضيلة المسامحة لم تكن تتوقع من أناس يحملون ديناً جديداً . . . وما فكر العربى قط فى أشد أدوار تحمسه لدينه الجديد ، أن يطفئ بالدماء ديناً منافساً لدينه . وقد جاءنا العالم ميز فى باب التسامح الإسلامى بتفاصيل أشد غرابة من هذه . قال : إن من أعظم بواعث الاستغراب كثرة عدد غير المسلمين من رجال الأمر فى الدول الإسلامية ، وقد شوهد المسلم فى بلاده يحكم عليه النصارى ، وحدث مرتين فى القرن الثالث للهجرة ، أن كان من النصارى وزراء حرب ، وكان على القواد حماة الدين أن يقبلوا أيدى الوزير ، وينفذوا أمره . هذا والدواوين غاصة بالكتاب من النصارى » .

هكذا عامل المسلمون أهل ذمتهم وهكذا عاملهم الخلفاء من الراشدين والأمويين

(١) الجثليق والجاثليق ، والجمع جثالقة : متقدم الأساقفة .

(٢) الشعاب الذى يلئم الشعب أى الصدع . وحرفته الشعابة .

(٣) أخلاق المسلمين وعاداتهم لغوتيه Gautier : Mœurs et coutumes des musulmans

والعباسيين ، بل الخلفاء والأمراء فى كل أرض انتصب عليها علم التوحيد ، وكان الخلفاء حتى من اشتهر منهم بتعصبه الدينى ، يبوحون لأبناء الذمة بأسرارهم ، ويطلعونهم على خويصة أنفسهم ، ويوسدون إليهم مهمات أمورهم ، ويأتمنونهم على حرمهم وأرواحهم ، ويرفعون منازلهم ، ويغدقون[1] عليهم إحسانهم ، وهل عهدت مثل هذه المسامحة فى بعض ممالك الغرب إلا بعد حروب طويلة وثورات مستديمة ، ومجازر بشرية فظيعة ، وذلك فى العصر الأخير فقط .

لما أراد المأمون تدوين العلوم فى بغداد استدعى ثلثمائة عالم من أهل كل دين وجنس ، وحظر عليهم فى اجتماعهم مسلمهم وغير مسلمهم أن يستشهدوا بآى القرآن والإنجيل والتوراة ، وأن يتعرضوا للأديان فى مباحثهم . وقد وضع أبوه هرون الرشيد من قبله جميع المدارس تحت مراقبة يوحنا بن ماسويه ، وكانت إدارة المدارس فى بلاد العباسيين مفوضة إلى النسطوريين تارة وإلى اليهود أخرى . وجامعات قرطبة وغرناطة وغيرها من المدن الكبرى فى الأندلس كانت تدار فى الغالب بأيدى اليهود على ما قال درابر . ولما خربت بغداد فى القرن الرابع أمر عضد الدولة بن بويه وزيره نصر بن هرون وكان نصرانيا بعمارة البيع والديرة وإطلاق الأموال لفقرائهم . فماذا يقول الشعوبيون بعد هذا من الباطل ليدحضوا به الحق ؟ وهل من العدل فى شيء أن يعتز الشعوبيون بقوة الغرب المادية ، فيحطوا من قدر مدنية استغربوا كيف حملها الأجداد على ما يظهر ؟

نشرت فى العهد الأخير عدة كتب بلغات الأمم الكبرى فى الغرب فى موضوع الأديان البشرية ، فغمز أكثرها الإسلام من طرف خفى أو جلى . فعجبنا كيف لم يرق البشر بمدنية القرن العشرين . ومن الغريب أن يكتب أبو الريحان البيرونى فى أديان الهند فى القرن الخامس من الهجرة ، ولا يمس عاطفة أحد من أهلها ، كأنه إذا كتب فى نحلة يوهمك أنه هو أحد أبناء تلك النحلة لتلطفه فى وصف شعائرها ، ويكتب علماء اليوم وينحون على من لا يدين بدينهم ، ويمجدون دين

(١) تسامح العظماء للمؤلف . مجلة المقتبس م ٢ .

السواد الأعظم وحده . إن مدنية هـذا القرن لم تصف النفوس من الشوائب ، فإذا ذكر حتى العظيم من المسلمين ذكر على الأغلب بتقزز ممقوت ، وكراهية بادية ، أما إذا كان الكلام فى مجموع الأمة الإسلامية فإن تصويرهم لها يصدر من تصوراتهم وأوهامهم .

قلما صدرت كتب فى الغرب تحمل شيئاً من الإنصاف للاسلام والمسلمين . ظهر مؤخراً فى باريز كتاب فى ماضى الصين وحاضرها لأحد أساتذة جامعتها أفاض فيه فى كل شيء له علاقة بهذه البلاد العظيمة ، وبحث عن النصرانية فيها ولم يذكر كلمة واحدة عن الإسلام هناك ، كأنه يريد بالسكوت عنه تعفية أثره من تلك الربوع . فانظر إلى هذا الإنصاف الذى كان على العلماء أن يتحلوا به دون سائر النـاس . والمسلمون فى الصين لا يبيدون إذا لم يتنزل المؤلف الفرنسى لذكرهم ، فهم كتلة لا يستهان بها وعددهم يزيد على عـدد أهل فرنسا ملايين . قال أحد الباحثين من مسلمى الصين(١) : « ولا يعرف عدد المسلمين فى الصين بالضبط لأنهم منتشرون فى طول البلاد وعرضها ، أكثرهم فى تركستان الصينية و « كانو » و « يونان » و « هانان » و « شانتونغ » و « هابى » . ولم يكن لدينا إحصاء دقيق . وأما إحصاءات الأجانب فمتناقضة ، وما اختلفوا فى ذلك وهم محققون مدققون إلا لأغراض خاصة سياسية أو دينية ؛ فمنهم من يقول ستون مليونا ، ومنهم من يقول عشرون مليوناً ، ومنهم من يقول أقل من عشرة ملايين ، وعلى تقديرنا أنهم خمسون مليوناً ، وهذا أقرب إلى الحقيقة ، فإن المسلمين متفرقون فى أنحاء الصين ، فما من بقعة إلا ويوجد فيها مسلمون كثيرون أو قليلون ، وهم فى بعض الولايات أكثرية وفى بعض الولايات نصف السكان تقريبا » .

رأينا كتاب العرب أيام قوتهم يذكرون جميع المخالفين لهم بكل حرمة ، وفى كتاب طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة ، وفى طبقات الحكماء لابن القفطى ، وفى طبقات الأدباء لياقوت ، وفى الوافى بالوفيات للصفدى ، وفى تاريخ حكماء الإسلام

(١) تاريخ الإسلام فى الصين وأحوال المسلمين فيها لمحمد مكين .

للبيهق ، وفى الجامع المختصر لابن الساعى مثال ظاهر من هذه المسامحة المحمودة . فقد ترجم هؤلاء المؤلفون للمسلم كما ترجموا للصابى واليهودى والسامرى والمجوسى واليعقوبى وغيرهم كأنهم أبناء ملة واحدة . ونحن فى هذا القرن وهو سيد القرون بتسامحه نرى الكاثوليكى إذا ترجم للبرتستانتى ، أنحى عليه وثلمه ، والعكس بالعكس ، وهما فى الحقيقة أبناء نبعة واحدة ، وكتاب واحد .

شعوبيان مخرّفان شامى ومصرى :

ومن هؤلاء الشعوبيين فى الشام هزاء خيالىّ ، دعا الشاميين فى جملة الآراء التى جاهر بها إلى أن تصفو نياتّهم ، فينسوا الأجداد الذين يشيدون أبداً بمفاخرهم ، وينسوا الدول الإسلامية التى يتغنون على الدوام بمجدها . وما عهدنا عاقلا يدعو أمة إلى تناسى تاريخها ، بل رأينا كل أمة تدرس تاريخها ، مهما كان من اسوداد صفحاته ، لأنه مهمازها إلى العمل ، وتتمة ما بدأ به أجدادها ، تتوقى شرهم وتقتبس خيرهم . ورأينا من الأمم كبعض جمهوريات أميركا الجنوبية من تصطنع لها تاريخاً تتغنى به فيعينها على نهوضها . وأنت لو أردت هذا المتفلسف أن يأتيك برجل يصح لنا أن ننسج على منواله لعجز واكتفى بأن قال لك إن الإسلام لم يأت فيه رجل يذكر ، ولاختلق الأكاذيب على من أجمعت الأمة بل الأمم على صلاحه أمثال صلاح الدين يوسف . ولشوقى فى هذا المعنى :

مثل القوم نسوا تاريخهم كلقيط عىّ فى الناس انتسابا
أو كمغلوب على ذاكرة يشتكى من صلة الماضى انقضابا

ومن هؤلاء الشعوبيين فى مصر رجل ، يزعم أن الإسلام دين بدوى يتسم بكراهة الترف ، وبشدة الإيمان بالوحدانية ، وأن الوهابيين اليوم يمثلون روحه أصدق تمثيل ، وأن العرب تقيدوا لأول أمرهم بالقرآن ، فلم ينقلوا شيئاً من الأدب الإغريقى ، ثم كان الروح البدوى سائداً أيضاً ، فقوطعت الفنون الجميلة لأن البدوى يكره بطبيعته جميع ضروب الترف والحضارة ، وهو نفسه يعيش فى صحراء

لا يحتاج معها إلى فنون الحضارة من عمارة وتصوير ونقش . ولذلك حرم التصوير كما حرم صناعة التماثيل ، وصار الغناء والموسيقى يتلهى بهما السكارى ، وأن من الرسم تستفيد الأمة رأيهـا وذوقها فى الجمال ، ومن « الدرامة » تكتسب سليقة النقد الاجتماعى ، فتبقى جذوة الإصلاح حية متقدة ، وتنزع الأمة نزعة رقى وتقدم ، وأن تعصبنا للشرق تعصب للقديم أكثر مما هو للشرق ، نستمسك بالشرق لكى نتعلل به فى كراهة الغرب ، ونستمسك بالقديم كبرياء وأنفة من أن يقال إن حضارتنا قد أفلست أمام حضارة أوربا .

قال وليس علينا للعرب أى ولاء ، وإدمان الدرس لثقافتهم مضعف للشباب ومبعثر لقواهم ، فيجب أن نعودهم الكتابة بالأسلوب المصرى الحديث ، لا بالأسلوب العربى القديم . ويجب أن يعرفوا أننا أرقى من العرب ، وأن ندرس العربية الفصحى كما ندرس الأشورية والبابلية ، وأن ننظر إلى لغة النابغة والمتنبى كما ننظر إلى اللغة الروسية أو الإيطالية ، وأن العربية ليست لغتنا ولا نستفيد منها ، وأن لنا من العرب ألفاظهم فقط لا لغتهم بل بعض ألفاظهم . قال وكل من اختبر هذه اللغة يعرف أن قاسم أمين ولطفى السيد كانا على حق عند ما نصحا باستعمال العامية المصرية بدلا منها . وقال إن الرابطة الشرقية سخافة والرابطة الدينية وقاحة ، وإن الرابطة الحقيقية أن نفنى فى مدنية أوربا ، ونتطور بأطوارها ، ونتزوج من بناتها ونزوجهم بناتنا ، ونأخذ عنهم كل شىء . وإن الأصلح لمصر إذا أرادت التخلص من آسيا والشرق والتاريخ العربى ، أن تعود إلى وطنية فرعونية مقصورة على مصر وتاريخ مصر . ودرس مدنية الفراعنة أفيد من درس العرب ، وأن تدرس آثار العرب والفراعنة كما تدرس الفينيقية . وقال : إن من تأمل أحوال الأمم الناهضة يعرف أنه ليست أمة تنهض فى العالم الآن إلا وتنسلخ من قديمها ، سواء أكان هذا القديم آسيويا أم غير آسيوى . هذه خلاصة آراء المتفلسف الشعوبى ، ولو أردناه وصاحبه معاً أن ينزل عن مشخصاته ومقدساته التى يتظاهر بالبعد عنها ، وهى أعلق

بقلبه من شعرات قصه[1] لاستكبر وأبى .

يتقدّم الشعوبى المصرى إلى السواد الأعظم باسم الناصح ، أن ينزل عن دينه ، لأنه دين لا يقبل الرفاهية ، ويتجاهل ما تم للعرب من هـذا القبيل ، مما ملئت به بطون الأسـفار ، وينـكر عناية العرب بالفنون الجميلة لأن العرب فى صحرائهم لا يحتاجون إليها . وفاته أن العرب ليسوا كلهم سكان بادية ، والفرق ظاهر بين العرب والأعراب ، وأن العرب فى أقصى جاهليتهم كانوا قسمين بادية وحضرا ، وأن البوادى لم تعمل الحضارة العربية فى دمشق وبغداد والفسطاط وقرطبة وغرناطة والقيروان ، بل عملها أهل الحضر من العرب ، وما قصروا فى كل فنونها بحسب ما ساعدهم عصرهم ومعتقدهم ، وإذا خلت مدنيـة العرب من « الدرامة » فما خلت كل عصر من كتاب مجودين نقدوا ما أحبوا نقده بدون عصبية ولا عنجهية .

أما قوله أن يرجع العرب عن تاريخهم ، ويتركوا آسيا ويلتحقوا بأهل أوربا فى كل مظاهرهم فهو السخف بعينه ، وما عهدت أمة تسير على هـذا الطريق حتى ولا اليابان التى استشهد بتلقفها الحضارة الأوربية ، فإنها بقيت على وثنيتها ، محتفظة بتقاليدها ، وأخذت عن أوربا أصولها فى مادياتها فقط ، وكذلك يقال فى دعوة العرب إلى ترك لغتهم والاعتماد على اللغة العامية ، كأن ما حفظه هو لم يحفظه العرب: هو يريد أن يمزق شمل العرب ، ويأتى على رابطتهم اللسانيـة فيحلها جملة واحدة كما انحلت رابطتهم السياسية ، ولغة القرآن هى التى جمتهم كل هذه المدة على كثرة ما لاقوا من عنت الدول الشرقية الإسلامية ، ومن عنت الدول الغربية النصرانية ؟ هو يستشهد برجلين يقولان بزعمه هـذا القول فى إحلال العامية بدل الفصحى ، وهما قد كتبا تآليفهما بالعربية الفصحى ، ولو كتباها بلغة العوام لـكان مصيرها الدفن ساعة تولد وهذا مثل ما ادعاه أحد فضلائنا[2] من أن جمال الدين الأفغانى

---

(١) يقال هو ألزم لك من شعرات قصك : والقص والقصص : الصدر .

(٢) الياذة هوميروس تعريب سليمان البستانى ،

قال له إن العرب لو وفقوا إلى نقل الإلياذة لهوميروس إلى لغتهم لكانوا أحسنوا أكثر من كل ما نقلوه من كتب العلم والفلسفة والصناعات . وما نخال ذلك القول إلا مدسوساً عليه .

يقول المازنى إن العامية ينقصها الضبط والإحكام ، وهى ليست لغة واحدة حتى فى مصر ، بل لهجات شتى تختلف وتتقارب وتتباعد ، تبعاً للاقليم وسكانه وأحوالهم حاضرها وباديها ؛ وليس لها ثبات واستقرار على حال ، وأراها مع انتشار التعليم واتساع العلم بالفصحى ترتفع إليها وتدنو منها ، وقد صار المتعلمون يتكلمون عامية هى أقرب إلى العربية وأشبه بها ، ولا يكاد ينقصها إلا حركات الإعراب . ومن الحمق ولاشك أن يؤثر أحدنا عامية لا قواعد لها ولا أصول ولا أحكام ولا تاريخ ولا ثبات ، وأحمق الحمق أن تجرى وراء لغة تفر منك إلى ما تفر أنت منه . اهـ .

وقول ذاك الشعوبى إن الرابطة الحقيقية ، بعد أن أرادنا على ترك جميع روابطنا الشرقية والدينية ، هى أن نفنى فى أوربا ، ونقول بالمدنية الفرعونية ، وندرسها أكثر من المدنية العربية ، ونجمل المدنية العربية واللغة العربية كالمدنية الأشورية واللغة الإيطالية والروسية ، قوله هـذا أشبه بسرسام لو تطال إلى أن يمليه على طفل فى مدرسة ابتدائية لضحك من قوله ، وعدّه يهذى ويعبث ، وما نخاله إلا عابثا يهذى ويخرف هو وأمثاله من الفرعونيين المصريين الذين سقطت دعوتهم بعد ظهورها ، وقالوا بالتجديد فى كل شىء أو نزع كل مفيد ، فدلوا على ضعف فى معرفة طبائع الأمم ، وتاريخ نهضتها ، فضلوا وأضلوا ، وكذلك حالة المتفلسف اللبنانى فى دعواه المضحكة ، وله أمثال يكتبون ليغربوا لا ليعربوا ، وينقدون ليقال عنهم إنهم نقاد ، يأتون بالجديد ، وهم لو حاسبوا أنفسهم وحكموا العقل لضحكوا مما يختلقون من البهت والمقت ، وكلامهم مهما كان ظاهره معسولا مقبولا ، فهو هو الصاب والعلقم ، ولبئس ما يأفكون .

يقول الغمراوى[1] إن التجديد فى الأدب كالتجديد فى العلم لا يمكن إلا على

(١) تحليل نقد الأدب الجاهلى لمحمد أحمد الغمراوى .

أساس تعاون الحاضر والماضي ، يبني العقل في حاضره على ما أسس العقل في ماضيه . فإن الحق وحدة قائمة لا يقوم جزء منها إلا على جزء ، فلن يقوم حق جديد إلا على أساس من حق قديم . بل الحضور والمضيّ والحدوث والقدم إن هي إلا ألوان يبدو بها الحق — أو الباطل — لعين الإنسان ، وما هي من لون الحق في شيء ، وإنما هي من لون المنظار الذي ينظر منه الإنسان ، وإلا فالحقائق في نفسها متكافئة في الثبوت ، تكافؤ نقط سطح الكرة ، غير أن حياة الفرد أخصر وحقائق الكون أعظم وأكثر من أن يستوعب الفرد منها إلا جزءا متضائلا ، كما أن العين لا تحيط من الأرض في آن واحد إلا بجزء من الأرض صغير . وقد يستطيع الجنس البشري إذا اتصلت به الحياة إلى الأبد أن يحيط من الحقائق بمقدار يزداد إلى ما لا نهاية ، من غير أن يستنفد الحقائق ، أو يشرف على أقصاها . ومهما يكن من شروط تحقق هذا التقدم المطرد في استيعاب الحقائق ، فإن شرطا أساسياً له أن تتجرد حركة العقل — عقل الفرد وعقل الجنس — تجرداً تاماً عن التذبذب ، فإن الذي يمحق الأعمار ، أعمار الأفراد والشعوب ، هو التذبذب بين غايتين ، قرب المدى بينهما أم بعد ، فلو ظل « البندول »(١) يضرب إلى سرمد الدهر ما قطع أكثر من تلك القوس المحدودة . ولو ظل الإنسان تتعارض جهوده وتتلاغى أعماله ، ينقض اليوم من غير دليل ما أبرم بالأمس ، ويبرم غداً من غير دليل ما نقض اليوم ، لظل « البندول » يتحرك ولا يتقدم ، وليس أعدى للفرد ولا للمجموع من قوم يزينون له هذا التذبذب باسم التقدم ، وهذا التعطيل باسم التجديد . اهـ .

(١) الرقاص أو النواس أو المعلقة La pendule .

متعصبة الشعوبية وأرباب الإنصاف

نقض كلام المخالفين وكلام على المعاصر :

من خُلُق بعض الناس إذا حنقوا على إنسان أن يسلبوه كل صفاته ، وقد يكون فيها الظاهر الباهر ، ومن طبيعة بعضهم إذا غضبوا على فرد أو أفراد عم غضبهم قوم المغضوب عليه ، ومنهم من يغتاظ من رجل فيطعن فى جميع أهل المصر بل القطر ، ومن عادة بعضهم أن يصغروا من شأن ما لا يدخل فى منهاج عملهم ، أو ما لا تدرك سره قرائحهم ، ولا توفق إلى حله معارفهم ، ويعدون ما هم بسبيله شيئاً ، وماتعمل فيه عقول أخرى ليس بشيء . وقديماً قالوا : من جهل شيئاً عاداه . وحبك الشيء يعمى ويصم . وفى الواقع أن الناس يتشابهون فى الطباع ، مهما اختلفت الأصقاع . ولعلهم فى مستقبل الأيام أيضاً لا يوفقون إلى التجرد من الأهواء ، اللهم إلا إذا خلقوا خلقاً آخر ، وتغيرت تراكيب أجسامهم لتتغير أرواحهم ومنافذ إراداتهم كما يقول أناتول فرانس .

كتب أحدهم فى العهد الأخير كتابا فى المفكرين فى الإسلام (١) ، عرض فيه لرجاله وعلومهم بحسب المادة القليلة التى وصلته ، أو بقدر ما أراد استثماره من المواد وإغفال ما لا يروقه منها ، وجعل معظم الفضل فى مدنية المسلمين لغيرهم من الشعوب أو لمن تظاهروا بالدخول فى دينهم ، أو كانوا من غير ملتهم ، أو عرفوا بالإلحاد والخروج على الجماعة ، وختم كتابه بعبارة أثبت فيها أن للعرب خصائص ولكنها انبعثت من أرضهم ، والإسلام لا حظّ له من التأثير فيها فقال : وعلى هذا يظهر أن بعض الخصائص منبعثة من الأرض نفسها لا من الدين ، كمسألة القضاء والقدر ،

---

(١) المفكرون فى الإسلام لـكارا دى فو Carra de Vaux : Les penseurs de L'Islam

والميل إلى التبصر وتذوق الشعر والفلسفة ، ورقة الإحساس الفنى ، وبعض الرغبة فى الراحة والسكون ، والاستعداد لدراسة الفقه ، والذكاء فى فصل الأحكام ، كل هذا ليس فيه ما هو خاص بالإسلام ، بل هو أثر استعدادات عامة فى كثير من الشرقيين ، ولعلها نشأت من الإقليم . قال : ومعظم هذه الاستعدادات تصادف اليوم قبولا فى الغرب ؛ فإن الآلة وما يتبعها من الدوى والحركة وما ينشأ عنهما من مزعجات الحياة ليست مما يرغب فيه كل الناس ؛ وهكذا الحال فى المذهب المادى ، وفى الجشع المتناهى فى كسب المال فى شعوب دولنا ، فإن كثيرين منا قد سئموا ذلك ، وقد ترغب الروح فى صور من الحياة تركن إلى السذاجة ، ليتيسر للمرء الاستمتاع بالطمأنينة والأمل والسلام ، فليس الاضطراب والجلاد الدائم من موجبات السعادة . وإذا كان لنا من مضائنا وعلمنا العالى ما جعل لنا بعض الحق على الشرق ، فعلينا أن لا نتعدى الحدود فى المطالبة بما يخولنا هذا الحق ، وعلينا أن لا نقضى على خصائص هذه الشعوب ، ولندع لأقطارهم جمالها وسكونها وقليلا من بهائها الممزوج بالسويداء ، وإذا عرفنا أن نتغلب على الشرق بالقوة المادية وسلطان العلوم والفنون فما ضرنا لو زدنا على ذلك الحكمة وجمال العهد . اهـ .

هذا كلام جميل ، فيه ولا سيما فى نهايته شىء من الإنصاف ؛ ولكن المؤلف أخطأ فى نسبة الخصائص التى امتاز بها العرب للإقليم وحده ، وشق عليه أن ينسبها للاسلام ، وأخطأ أيضا فى قوله إن معظم مدنية المسلمين قامت بعناصر غير عربية(١) وفاته أن من دخلوا فى الإسلام من الفرس والقبط والسريان والروم وغيرهم درسوا

(١) وقول ابن خلدون إن حملة العلم فى الاسلام أكثرهم من الأعاجم منقوض بالاحصاء وبتتبع كتب تراجم أئمة المذاهب الاسلامية والعلوم اللسانية . نعم إنه كان يكثر فى صدر الاسلام من بنى أمية وأوائل الدولة العباسية المتشرفون بالعلم من الأعاجم ، لاشتغال أشراف العرب بأعمال السلطان من الولاية والجباية وقيادة الجند وإدارة الملك . فلما ضعفت شوكة العناصر العربية فى تولى أعمال الدولة اشتغل معظمهم بالعلم وبذوا الأعاجم فيه . على أن كثرة العلماء من الأعاجم لم تكن غالبة فى أى عصر من عصور دول العرب — وخاصة دولتهم فى الأندلس — مبحث فى ابن خلدون لأحمد الاسكندرى (مجلة المجمع العلمى العربى — المجلد التاسع) .

فى مدرسة العرب وأخذوا لغتهم وثقافتهم ودينهم وعاداتهم . وإذا كان ابن سينا والغزالى والبيرونى والرازى مثلا أعاجم بأصولهم فهم عرب بتربيتهم وثقافتهم ، وإذا كان الجاحظ وابن رشد وابن زهر وابن خلدون عربا بأصولهم وثقافتهم ، فهم لا يزيدون شيئا عمن تقدم ذكرهم فى الغناء والمنزلة ولا ينقصون . وما كان لجزيرة العرب وهى القليلة بسكانها الذين قام منهم أعظم الفاتحين وحملة الشريعة ، أن يخرج منها كل هؤلاء الرجال الذين فتحوا فتوحا تحتاج إدارتها فقط إلى عشرات الألوف من الناس ، فما بالك بالعلوم اللازمة لها ؟ ولذلك انصرف العرب وهم أهل الدولة إلى سياسة الملك ، وعاونهم الأعاجم فى نشر علمهم وثقافتهم .

وليس فى أهل الغرب اليوم أمة خالصة بعنصرها ؛ فعند الفرنسيس من هم من أصل بولونى وإيطالى وانجليزى وألمانى ، خلا ما هناك من عناصر أصلية ، والعكس بالعكس عند كل أمة ، والإنسان ابن تربيته وبيئته على الدوام . قال أحد المفكرين من الفرنسيس : نحن مدينون بجزء عظيم من تاريخنا وآدابنا وفنوننا لمن كانوا غرباء عنا ، وليسوا فى الأصل من عنصرنا . ألا تعرفون أن شينه الشاعر هو روسى الأصل ، وأن رونسار الشاعر مجرى ، وأن بول فاليرى الشاعر إيطالى مثل ميرابو وغالينى ، وكذلك سائر رجال قرسقة من نابليون فنازلا . وكذلك الإسرائيليون أمثال برجسون الفيلسوف وتريستان برنار ليسوا فى الأصل من الفرنسيس . وهنرى هين الشاعر هو ألمانى يهودى ، وإذا توسعنا قليلا طالبنا بملك إيطاليا لأنه من أسرة سافوا الفرنسية . اهـ .

ويحمد صاحب كتاب المفكرين فى الإسلام لتصوره ، وإن بعد قليلا عن الجادة ، لا كالذى عمم ولم يخصص ، وتجرد عن كل منطق يوم قال[1] : « إن الإسلام لم يكن شعلة بل كان مطفأة ، نشأ من قلب بربرى لشعب بربرى ، فكان ولا يزال عاجزاً عن احتذاء التمدن ، وإنه حال فى كل مكان ارتفع فيه سلطانه دون

(١) الاسلام ونفسية المسلم لأندره سرفييه
André Servier : L'Islam et la psychologie du Musulman

السير نحو الارتقاء ، وخنق نشوء المجتمع الإنسانى » . وأى غباء ممزوج بسماجة ، وأية رقاعة ممولة بقحة ، أعظم من هذا الكلام ! وما أدرى كيف يستطيع هذا المتمدن أن ينكر أن عقل ذاك البربرى قلب كيان العالم ، فعد بعمله العظيم أعظم رجل عرفه التاريخ ، وأن شعبه البربرى قام بحضارة وفتوح حسدته عليها أمم كثيرة ، وغبطه على ما صار إليه أوسع الباحثين عقلا وعلما !

كلام لعلماء فرنسيين وإيطاليين وبريطانيين وروسيين :

يقول لبون : « قد يكون من الأوربيين مستعمرون[1] ماهرون ، ولكن منذ عهد رومية كان المسلمون من الشعوب الوحيدة التى حملت علم التمدن حقيقة ، وهم الذين فازوا وحدهم بنشر المواد الجوهرية من المدنية ، وأعنى بها الدين والمصانع والصناعة بين ظهرى عناصر جديدة من غير عنصرهم » . وتساءل لبون أيضا قائلا : « هل من الواجب أن نذكر أن العرب ، والعرب وحدهم ، هم الذين هدونا إلى العالم اليونانى واللاتينى ، وأن الجامعات الأوربية ، ومنها جامعة باريز ، عاشت مدة ستمائة سنة من مترجمات كتبهم ، وجرت على أساليبهم فى البحث ، وكانت المدنية العربية من أدهش ما عرف التاريخ » ، وقال لبون أيضا : « كلما تعمق المرء فى دراسة المدنية العربية ، تجلت له أمور جديدة ، واتسعت الآفاق أمامه ، وثبت له أن القرون الوسطى لم تعرف الأمم القديمة إلا بواسطة العرب ، وأن جامعات الغرب عاشت خمسمائة سنة بكتب العرب خاصة ، وأن العرب هم الذين مدنوا أوربا فى المادة والعقل والخلق ، ومتى درس المرء ما عمل العرب وما كشفوه فى العلم يثبت له أنه ما من أمة أنتجت مثل ما أنتجوا ، فى هذه المدة القصيرة التى كتب لملكهم قضاؤها . وإذا نظر المرء فى صناعاتهم وفنونهم لا يسعه إلا الاعتراف بأنه كانت لهم ميزة خاصة لم تبلغها أمة ، ولئن كان تأثير العرب فى الغرب عظيما فإن تأثيرهم فى الشرق أعظم ، وما من عنصر أثر مثل تأثيره قط ، فإن الشعوب التى دانت الأرض

(١) النفسية السياسية لجوستاف لبون Gustave Le Bon : La psychologie politique

لسلطانهم كالأشوريين والفرس والمصريين واليونان والرومان قد عفت الأيام آثارهم، ولم يخلفوا سوى آثار ضئيلة، بحيث لم يبق سوى ذكريات أديانهم وألسنتهم وفنونهم، وقد اضمحل أمر العرب أيضا، ولكن أهم عناصر مدنيتهم وهى الدين واللسان والفنون لا تزال حية». وقال أيضاً: «إن العرب أول من علم العالم كيف تتفق حرية الفكر مع استقامة الدين».

وقال كارلايل فى العرب: «قوم يضربون فى الصحراء كانوا نكرة عدة قرون، فلما جاء النبى العربى أصبحوا قبلة الأنظار فى العلوم والمعارف، وكثروا به وعزوا، ولم يأت عليهم قرن حتى استضاءت أطراف الأرض بعقولهم وعلومهم.

هذا هو الإسلام الذى خلق المجتمع البشرى، وفلج المدنية فى كل مكان، وخلقه قلب متوحش لشعب متوحش، وهذا ماعمله. وقد نصح بوترولون[١] لفرنسا أن تصبغ التونسيين لتعيدهم سيرتهم الأولى قبل حكم العرب، لأن هؤلاء أتوهم بقانون سنه رعاة لرعيان، فصعب تطبيق هذه الشريعة فى مجتمعات ممدّنة كالمجتمع القرطاجنى. قال: «وإن بقايا التنظيم الذى نمت آثاره إلى اليوم فى تونس من مثل البلديات والصناعات والبناء والهندسة ليست من اختراع العرب كما يقال، بل هى بقايا من المدنية القديمة السابقة للاسلام، فسدت على عهد الفاتحين وأعمالهم العقيمة».

ومثل هذه السخافات من السخفاء كثيرة لا نطيل بها ولا نتكلف الرد على قائليها. ويكفينا فى رد إفك الجاهلين نقل ما قاله بعض العارفين. قال كلود فارير[٢] من مؤرخى فرنسا وأدبائها: «إن هزيمة العرب فى بواتيه قد أخرت المدنية الغربية ثمانية قرون إلى الوراء، فلو ظفر العرب يوم بواتيه لحملوا مدنيتهم إلى الغرب، ولما طالت أيامه فى الجهل المطبق». وقال سمنوف[٣]: «كان من الميسور تجنب الحروب الصليبية ولكن الجهل والأوهام الدينية والسياسية ومصلحة البابوية قد ساعدت على ظهورها. وإذا قال «لافيس» ليس من المحقق أن سعادتنا كانت فى تغلب قيصر

(١) مجلة المقتبس ج ٦ (٢) مقدمة رواية العباسة لجرجى زيدان بقلم فارير.
(٣) تاريخ روسيا لمارك سمنوف Marc Semenoff: Histoire de Russie

على « فرسنجتوريس » القائد الغالى . ألا نقدر أن نقول كم من الأحزان والآلام والجنايات الجديدة كان يمكن إنقاذ الإنسانية منها ، لو لم يوقف « شارل مارتل » العرب عن السير فى فتوحهم سنة ١١٠ هـ . فإن الثقافة العالية التى امتاز بها من كان يدعوهم الصليبيون فى حالة الغضب بالحشاشين والكفار والوثنيين احتقاراً لهم ، كانت أثرت قبل الوقت فى أوربا الغربية ، وفى المدنية الفرنجية والرومانية» اهـ .

وقال لويجى رينالدى من علماء إيطاليا[1] ، بعد أن أفاض فى عمل المسلمين فى إيطاليا وإسبانيا : فأمة هذه مدنيتها ، وتلك آثارها ومفاخرها ، جدير بنا بل واجب علينا أن نحفظ لها تلك اليد التى قدمتها إلينا وأسلفتها لنا . ولست أدرى لماذا لا نسمع كلمة إعجاب بالشعب العربى العظيم الذى ترك فى طريق المدنية آثاراً عديدة ، والذى حمل معه أعظم المعاونات وأجل الخدم للنوع الإنسانى ؟ ولا يبخل على العرب بإعطائهم المقام اللائق بهم ، وبإنزالهم المنزلة التى استحقوها إلا كل جاهل بالتاريخ ، وقد خطت أيديهم صحائف بيضاء فاخرة يجب على كل إنسان أن يعجب بهم من أجلها . ويحزننى لعمر الحق كما يحزن غيرى ممن ينصفون ، أن يكون بيننا نحن الأوربيين نفر يقودهم سوء الظن والجهل إلى احتقار العرب ، وحسبانهم من أمة أدنى من أمتهم ، وأن نرى كلمة عربى عندنا تدل على معنى غير معنى التمدن ، وهذا بلاشك افتراء ونكران للجميل ، فإن هذا الشعب وإن سقط من شاهق مجده ، ونزل عن المنزلة العظيمة التى كان فيها ، لا يزال يحفظ صفاته العجيبة وذكاءه النادر ، مما يتحلى به كل متعلم راق . وإنا لا نزال نذكر للعرب حسن فراستهم ، وقوة ملاحظتهم للطبيعة ، وسرعة خاطرهم ، وها نحن أولاء لم نصل إلى ما وصلنا إليه من المعرفة إلا بفضلهم ، ثم نقل عن بريس دافن فى كتابه الفن العربى قوله : «إنه بعد سقوط الدولة الرومانية لم يكن هناك شعب يستحق أن يعرف غير الشعب العربى ، وذلك أولاً لكثرة فحول الرجال الذين أخرجهم هذا الشعب العظيم ، وثانياً لما أحدثته فى العالم فنونه وعلومه من التقدم العجيب مدة قرون عديدة » . اهـ .

(١) مجلة المقتطف م ٥٩

يقول جوليفه كستلو[(١)]: كان التقدم العربى بعد وفاة الرسول عظيما ، جرى على أسرع ما يكون ، وكان الزمان مستعداً لانتشار الإسلام . فنشأت المدنية الإسلامية نشأة باهرة ، قامت فى كل مكان مع الفتوحات بذكاء غريب ، ظهر أثره فى الفنون والآداب والشعر والعلوم . وقبض العرب بأيديهم ، خلال عدة قرون ، على مشعل النور العقلى ، وتمثلوا جميع المعارف البشرية التى لها مساس بالفلسفة والفلك والكيمياء والطب والعلوم الروحية ، فأصبحوا سادة الفكر ، مبدعين ومخترعين ، لا بالمعنى المعروف ، بل بما أحرزوا من أساليب العلم التى استخدموها بقريحة وقادة للغاية . وكانت المدنية العربية قصيرة العمر ، إلا أنها باهرة الأثر ، وليس لنا إلا إبداء الأسف على اضمحلالها .

ولقد كانت المملكة العربية من السعة والانتشار بحيث يتعذر بقاؤها ، وسرعان ما تمزقت بتأثير المنافسات السياسية والدينية . فقد نشأت ثلاث خلافات أواخر العهد العباسى (بغداد ومصر وقرطبة) ، قامت فى ثلاثة مراكز قوية عظيمة ، وكانت سيرة الخلفاء كسيرة المستبدين من المشارقة ، يحبون البذخ ولهم أدب ومكانة ، بيد أنهم كانوا قساة لا يبالون بما يصيب رعاياهم من بؤس ، يغلون أبداً فى تقاضيهم الضرائب الفاحشة ، ولئن كان سادة البلاد أصحاب أثرة ، فإن العمل الذى تم حولهم كان أسمى منهم ، ومنه نشأت مدنيسة مدهشة ، وإن أوربا لمدينة للحضارة العربية بما كتب لها من ارتقاء ، من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر ، وعنها أخذت الفكرة الفلسفية والعلمية ، التى سرت إليها سرياناً بطيئاً ناقصا فى القرون الوسطى ، وإن أوربا لتتجلى لنا منحطة جاهلة أمام المدنية العربية ، وأمام العلم العربى والآداب والفنون العربية ، وأوربا تدين بالهواء النافع الذى تمتعت به فى تلك العصور للأفكار العربية ، وقد انقضت أربعة قرون ولا حضارة فيها غير الحضارة العربية ، وعلماؤها هم حملة لوائها الخفاق . اهـ .

---

(١) قانون التاريخ لجوليفه كستلو J. Castelot : La loi de l'histoire

كلام فى المدنيات العربية :

وكثيرا ما يكتب الكاتبون فى الإسلام والعرب عبارات قد لا يفهم منها فى الظاهر ما يمس الكرامة ويعبث بالحقيقة ، مثل قول من قال من أدعياء التاريخ من الأميركان : « إن المتطرفين فى الديار الإسلامية يميلون إلى حسبان كل ما سبق بعثة محمد كأنه مختص بعالم آخر غير عالمنا الحاضر لا يستحق أن يؤبه له كثيرا » . وهذا فى الحقيقة رأى أناس تشبعوا بتاريخ العرب لثبوت قضاياه من طرق مختلفة لا نزاع فيها ، وهم ممن أيقنوا أن الآثار لم تكشف تاريخ الأمم القديمة كلها على ما يجب حتى الآن ، ولا يزال البحث اليوم يوصل إلى أشياء لم تعرف بالأمس ، وإذا أولع العرب بتاريخهم ، فليس معنى ذلك أنهم يدعون أنهم كانوا أول مؤرّخ لهم من الأمم ، أو أنهم كانوا البادئين بأسس المدنية ، وما ادعى المسلمون قط أنهم نزلوا بحضارتهم من السماء ، بل ادعوا وأثبتوا دعواهم أنهم أخذوا حضارات الأمم القديمة وزادوا عليها ما وسعتهم الزيادة ، فأوصلوها بأمانة إلى أهل المدنيات الحديثة .

ومثل هذه النعومة ، وهى الخشونة بعينها ، بدرت من غودفروا دمومبين[١] يخالف بها التاريخ الصحيح فى قوله : « إن الغارة الإسلامية الكبرى التى بلغت إلى حدّ كان أقصى مما قدر لها ، قد أسكرت العرب بما أحرزوا من المغانم ، فاضطربوا فى فتوحهم بعض الشيء ، وأدرك الأمويون وهم تجار مكة بما فطروا عليه من لطف المأتى فى الأعمال المالية ، أن الواجب عليهم أن يتركوا الشعوب تحكم نفسها بنفسها على أصول الأحكام البيزنطية والفارسية ، وأن لا يشغلوا أنفسهم بغير المغانم والجباية» . يريد أن يقول إن الأمويين تجار فتحوا الأمصار لترويج تجارتهم ، وقصارى التاجر جمع المال ، فهو بطبيعته بعيد عن إدارة الممالك ، ولذلك كان غرام الفاتحين من الأمويين بتجارتهم ، فأطلقوا للمغلوبين حريتهم فى الحكم الذى يختارونه . وفات

(١) غودفروا دمومبين فى كتابه التاريخ والمؤرخون منذ خمسين سنة .
Histoire et historiens depuis cinquante ans.

الكاتب أن هؤلاء التجار كانوا أمراء فى الجاهلية ، تسلسل فيهم المجدُ والحكم كابراً عن كابر ، وأنهم فى الإسلام رفعوا راية الدين فى الصين شرقاً ، وفى الأندلس غرباً ، ونشروا مدنيتهم ولغتهم على صورة مهما قال القائلون فيها فهى أدهش حدث حدث فى العالم . وفى الحديث : « الناس معادن خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا » وفى معلمة الإسلام[1] : «إن القيادة فى قريش كانت لأمية بن عبد شمس فى الجاهلية ، وما خلا أخلاف الأمويين فى كل زمن من المعرفة الواسعة بالتنظيم العسكرى والتنظيم السياسى » .

ولا يلام العرب لجعلهم الأقطار التى نزلوها بادىء بدء أشبه بالحماية ليتعرفوا أخلاق أهلها وما يصلحهم ، ثم يحيلونها ملكا صرفا ، فهذا مما يسجل فى باب اقتدارهم السياسى والإدارى . وقد قال لبون : « إن العرب كانوا أكثر حكمة من كثير من رجال السياسة الحديثة ، عرفوا حق المعرفة أن أوضاع شعب لا تتناسب مع أوضاع شعب آخر . فكان من قواعدهم أن يطلقوا للأمم المغلوبة حريتها ، ويتركوا لها الاحتفاظ بقوانينها وعاداتها ومعتقداتها » .

قال لوثرب ستودارد[2] : « ما كان العرب قط أمة تحب إراقة الدماء وترغب فى الاستلاب والتدمير ، بل كانوا على الضد من ذلك أمة موهوبة عظيمة الأخلاق والسجايا ، توّاقة إلى ارتشاف العلوم ، محسنة فى اعتبار نعم التهذيب ، تلك النعم التى قد انتهت إليها من الحضارات السالفة ، وإذ شاع بين الغالبين والمغلوبين التزاوج ووحدة المعتقد ، كان اختلاط بعضهم ببعض سريعا ، وعن هذا الاختلاط نشأت حضارة جديدة — الحضارة العربية — وهى جماع متجدّد التهذيب اليونانى والرومانى والفارسى . وذلك المجموع هو الذى نفخ فيه العرب روحاً جديداً فنضر وأزهر ، وألفوا بين عناصره ومواده بالعبقرية العربية والروح الإسلامى ، فاتحد وتماسك بعضه ببعض ، فأشرق وعلا علواً كبيراً ، وقد سارت الممالك الإسلامية فى القرون الثلاثة الأولى من تاريخها (٦٥٠ — ١٠٠٠ م) أحسن سير فكانت

(١) معلمة الإسلام ، مادة أمية . (٢) حاضر العالم الإسلامى للوثرب ستودارد .

أكثر أصقاع العالم حضارة ورقياً وتقدماً وعمراناً، مرصعة بجواهر المدن الزاهرة، والحواضر العامرة، والمساجد الفخمة، والجامعات العلمية المنظمة، وفيها مجموع حكمة القدماء ومختزن علومهم يشعان إشعاعاً باهراً، وما انفك الشرق الإسلامى خلال هـذه القرون الثلاثة يرسل على الغرب النصرانى نوراً، ثم غابت كواكبه وأفلت أنجمه، حتى أدركته لياليه السود وأجياله المظلمة » .

الإسلام فى الأقطار والنظر بين الإسلام والنصرانية :

هذه آراء بعض كبار العلماء من الغربيين فى الحضارة العربية، وتلك سخافات متعصبى الشعوبية . ونحن أميل إلى حسن الظن ببعض المؤلفين من الافرنج، وقد نلتمس لهم أعذاراً فى بعض أحكامهم على حضارتنا وحكمهم الظالم عليها، بمظاهر قليلة رأوها فى بعض الشعوب الإسلامية، رأوهم متدنين فى المدنية عن مستوى أرباب المدنيات الكبرى لعهدنا، فحكموا على الإسلام فى أوله، والإسلام فى آخره، والإسلام فى الشرق، والإسلام فى الغرب، حكما واحداً . ومعلوم أن الإسلام فى أواسط إفريقية غيره فى شمالها، وفى أكثر أصقاع أوربا وآسيا، والإسلام فى قرونه الأولى غيره فى القرون الوسطى والقرون الحديثة، والإسلام فى الحكومات العربية غيره فى الحكومات الأعجمية . وأن الإسلام تختلف مظاهره من عنصر إلى عنصر ومن قطر إلى قطر، فإن بدا اليوم ضعف قد لا يحتمل فى بعض منتحليه فليس السبب فيه أنهم انتحلوا الإسلام، بل الذنب ذنب العنصر والبيئة، وقانون الرجعة والعوامل الاجتماعية العظيمة الطارئة على من دانوا به، وعلى هـذا يكون المشاهد من النصرانية، فإنها فى عهد البابوات غيرها فى عهد الإصلاح الدينى، ورأيناها فى أولها على غير ما ظهرت به فى العصور الأخيرة، ورأيناها فى شرق أوربا غيرها فى غربها، وفى شمالها غيرها فى جنوبها، وفى أميركا الشمالية غيرها فى أميركا الجنوبية، ذلك لأن كل ما فى العالم عرضة للنشوء والارتقاء تفعل فيه الأرجاء والأجواء .

وبعد فإذا كان ما صارت إليه بعض الشعوب الإسلامية من الانحطاط في العهود الأخيرة مما دعا بعض علماء الاجتماع من الغربيين إلى أن يسيئوا ظنهم بدين القوم ومدنيتهم وتاريخهم ، فإن للانحطاط أسباباً وعوامل معروفة سنعرض لها في الفصول المقبلة ، ومسائل الدين والمدنية محررة مدونة يمكن الناظر المنصف أن يضعها كل ساعة تحت منظار النقد وفي بوتقة الحل ، وإنما الذي يؤلم أن بعض أولئك الباحثين قد يحترمون مدنية وثنية ويبالغون في عظمتها ، لأنها قامت بأرضهم وعلى أيدي بعض أجدادهم بزعمهم ، ثم بارت واضمحلت بعوامل كثيرة ، وظل المتشبعون بحب الأجداد يتناغون بها ، كأن الوثنية أنفع من التوحيد ، وكأن عبادة الأصنام تبعث على الارتقاء أكثر من عبادة إله واحد ، وكأن من أهانوا الإنسان أحسن ممن كرموه ، وكأن من عبثوا بالأخلاق أوقع أثراً ممن حسنوها .

شق على بعض الشعوبية أن تنسب مزية للعرب فسلبوهم كل فضائلهم المحسوسة الثابتة في الإسلام والجاهلية ، وشق على آخرين وهم معترفون ضمناً بفضل العرب أن يقوم العرب بقسطهم من خدمة الحضارة ، ومنهم شارل ريشه وهو من العلماء لكنه لم يتمحض لدراسة تاريخ[1] العرب فقال : « ثم ما لبثت ليالي القرون الوسطى الداجية أن غطت كل شيء بظلامها المشئوم ، فاضطر العلم المسكين أن يلجأ إلى العرب » . واضطرار العلم إلى الالتجاء إلى العرب الذي قد يفهم منه الاستخفاف بهم ، لا يفيد في معرض تقرير الحقائق ، مادام ما عمله العرب لم يبرح الدهر ماثلا للعيان كالشمس في رائعة النهار ، وبعد أن درست مؤلفات ابن سينا والرازي في مدارس أوربا قروناً ، ولم يبطل تدريس قانون ابن سينا من جامعات الغرب إلا في القرن الثامن عشر . أي غضاضة على العلم إذا لجأ إلى حمى العرب ، فآووه وأكرموا وفادته ، وانتفعوا بفوائده ونفعوا به غيرهم !

---

(١) أخلاق هذا العصر (كتاب العالم) لشارل ريشه

Charles Richet : Les Caractères de ce temps (Le savant)

ثم كيف يلام العربى فى نقل هذه الحضارة وأوربا قد قضت قرونا كما قال توفنر حتى بلغت الغاية التى وصل إليها مسلمو إسبانيا فى قرن واحد. وإن[١] إسبانيا نفسها ما لبثت أن أدركت أن هؤلاء البرابرة كانوا أرقى فى العلم من كثير من شعوب أوربا النصرانية؛ وقد تمتعت اسبانيا على عهد المسلمين بنجاح لم تصل إليه بعد ذلك، واقتضى طوعاً أو كرهاً أن يعترف الغربيون أن العرب يعرفون صناعات السلم كما يعرفون صناعة الحرب .

هذا وإن دعوى من يدعى من الشعوبيين الغربيين أن الإسلام مانع من الترقى مادانت به أمة إلا انحطت — مردود بشواهد التاريخ الصادق ، وهاهى أوربا بقيت[٢] « ملفوفة فى حنادس الهمجية من بعد ما تنصرت بألف سنة ، وبلغ من جهلها وانحطاطها أن مائة عربى افتتحوا قسما من إيطاليا وقسما من سويسرا فى أوائل القرن العاشر[٣]، واستولوا على أكثر الجبال والمضايق وبنوا القلاع والأبراج وجاذبوا الحبل جميع ملوك تلك الأطراف ، ولبثوا مالكين هاتيك الحصون والقلاع ، ضاربين على أهالى تلك الديار الذلة والمسكنة نحو قرن تام ، ولم يكن عددهم أنمى ما نموا ، وأكثر ما كثروا ليزيد على ألف رجل . . . فكما أن همجية أوربا لذلك العهد لم يكن السبب فيها الدين المسيحى ، فانحطاط الإسلام اليوم ليس السبب فيه الشرع المحمدى » .

---

(١) معلمة الإسلام Encyclopédie de L'Islam.

(٢) حاضر العالم الإسلامى بتعليق شكيب أرسلان .

(٣) يقول أحد الباحثين من الفرنسيس : إن الدم العربى لا يزال متجليا فى جنوبى فرنسا ولا سيما فى سيرست وغيرها من جبال الألب وفى إقليم السافوا وفى سويسرا وعلى بحيرة كنسترا إلى اليوم أناس سحناتهم شرقية عربية صرفة ، ولهم لغة خاصة بهم ، ويسميهم أهل تلك الأرجاء بالشرقيين أو أبناء الوثنيين . ولم يبرح أهل مدينة كوزيليه على مقربة من كينستيرا بكسفيل فى بلاد الفوج فى عزلة عن الفرنسيين لا يتزوجون من غير جماعتهم ، ولهم لغة خاصة . ومن عاداتهم أن لا يقيموا المراقص فى حفلاتهم ويحتجب معظم نسائهم ، ووافق فى كثير من أسمائهم اسم «الله» ظاهراً كعبد الله وفتح الله ، وهم يحفظون أنسابهم ويفتخرون بأنهم من سلالة الفاتحين .

المسلمون والمدنية ورأى علماء الغرب فيهم :

وليت شعرى ألا تشفع تلك الحسنات التى تمت على أيدى العرب فى العالم بما بدا فى المسلمين والعرب اليوم من هنات وضعف ، خصوصاً إذا أنصف متعصبة الشعوبية وقابلوا بين حال المسلمين اليوم وحالهم منذ مائة سنة مثلا . فالشرق الإسلامى أخذ فى عهده الأخير ينهض من سباته الذي دام قروناً : « وهو الآن فى طريقه[1] إلى المسامحة والفهم والنور والارتقاء والإخاء ، يأخذ أيضاً بأساليب الإنسانية العظمى» . وأمة هذه حالتها الحاضرة ومكانتها الغابرة ، تستحق أن تنتصف ويعرف لها حقها فى الحياة . نعم أصبح كثير من أهل الإسلام يتمثلون مدنية الغرب الحديثة من غير حرج ولا نكير ، ويأخذون من حضارته ما طاب لهم وقضت به بيئتهم . وهل هم إلا بقايا أمة أتت بمدنية باهرة ، مهما قال خصومها فيها ، لا يسعهم أن ينكروا أنها كانت الصلة بين مدنية الرومان القديمة وأهل المدنية الحديثة .

وفى الشرق اليوم حركة علمية جيدة وهبّة نحو العلى ، ولا ينقصه إلا التنظيم والوحدة ؛ وهذا ما ذهب إليه موريس برنو[2] ، قال وقد طاف معظم أقطار الشرق الإسلامى : « ظهر لى أن معظم الضعف فى الشرق منبعث عن تخلفه فى مضمار تنظيم نفسه وتوحيد كلمته ؛ فقد لقيت فى كل صقع نزلته إلا قليلا إلى جانب صفات صالحة من الذكاء وحسن الخلق ، نقصاً فى الأساليب وضعفاً فى التوازن يقرب من الفوضى» . وهو كلام سديد ووصف مجيد . فقد رأينا العبر أهابت بأبناء هذه المدنية المجددة ، فأدركوا نقصهم وحاولوا اللحاق بمن تقدموهم . لا جرم أن العهد لا يطول حتى يكون المسلمون كالأوربيين ، فإن خمسين سنة تكفى لأمة منحطة حتى تأخذ ما عند أمة راقية ، وما تعبت به أمم كثيرة قروناً طويلة يمكن استصفاء

(١) أين يذهب الإسلام لروبر شوفولو Robert Chauvelot : Où va l'Islam

(٢) فى آسيا الإسلامية لموريس برنو Maurice Pernot : En Asie musulmane.

زبدته فى سنين قليلة ، ونهضة اليابان شاهدة على ذلك . أما المظاهر الأخرى فتحتاج إلى زمن طويل . فقد حدث مرات أن بعض أبناء الهنود أخذوا العلم عن الغرب ، فثبت أن بين أفكارهم وأفكار الغربيين ومنطقهم ومنطقهم ، وعواطفهم وعواطفهم فروقاً بعيدة المدى ، وليس معنى ذلك أنه يستحيل على الشرقى أن يصبح كالأوربى حذو القذة بالقذة ، كلا بل يكون الشرقى كالغربى بعد تعاقب الدهور والعصور ، كما وقع لأجداد الغربيين أن ظلوا نحو ألف سنة يتخبطون فى حالة تذبذب وتوحش حتى تأصل فيهم حب المدنية القديمة والأخذ منها .

هذا رأى لوبون فى المسلمين ، وقد وقف حياته الطويلة على درس تاريخهم ومجتمعهم وقال[1] : «إن المسلمين عامة وأهل تركيا خاصة هم أسرع إلى الترقى من الروس ومن معظم الشعوب البلقانية . وما برح بعض المؤلفين يرونهم على جانب من الجهل فى السياسة والتاريخ ، شأن الشعوب نصف المتوحشة التى عريت نفوسها من الثقافة . وهـذا الرأى فى المسلمين قد أوجزه القائلون به ببيان لهم أصدروه باسم (بحث إفرنسى يونانى) جاء فيه : مهما قال القائلون فإن الإسلام كان ولا يزال أبداً مخرباً عظيما ، وذلك لأنه لا يقبل علما غـير الذى تضمنه القرآن ؛ فالإسلام وحشى متعصب ، وهو من أعظم البلايا التى ابتلى بها العالم» . قال لبون : « لا جرم أن كاتب مثل هذه المطاعن لم ير قط المصانع الإسـلامية البديعة فى إسبانيا ومصر والهنـد ، وهو يجهل العمل العظيم الذى تم على أيدى الجامعات الإسلامية فى بعث المدنية الأوربية . ومع هـذا نرى الـكتب التى هى أدلة رجال السياسة المحدثين تـكتب بمثل هـذه الجهالات ، وربما لم يكن رئيس الحـكومة البريطانية يحسن غيرها يوم تخيل طرد المسلمين من أوربا » .

وقال أوجين يونغ[2] : العرب على ما يظهر جد محقوقين أن كانوا كلهم مسلمين ،

(١) نشوء العالم الحديث لجوستاف لبون

Gustave Le Bon : L'évolution actuelle du monde-illusions et réalités.

(٢) يقظة الإسلام والعرب لأوجين يونغ

Eugène Yung : Le réveil de l'Islam et des Arabes

فاضطهدوا بهذ السبب ظاهراً وباطناً ، على حين كان لهم ماض يحق لهم أن يعجبوا به ؛ ماض حربى ثم ماض فى العلم العالى والفنون والرفاهية ، مما اتخذته أوربا فى القرون الوسطى أيام كانت نصف متوحشة دعامة لقيام النهضة الحديثة . ولعله يقال إن الأوربيين لا يقدرون أن يغفروا لأساتذتنا ما لقنوهم من المعارف ، وقال : ليت شعرى هل القوة الاجتماعية فى الإسلام هى التى تقلق أوربا أو دولها العظمى ؟ ربما كان ذلك ، لأن تعاليم الإسلام حرة ، فهو لا يقول بالطبقات ولا بالامتيازات ، ولا يدعو إلى التسلط على نحو ما تدعو الكنائس النصرانية ، وليس فى مطاويه شىء من الرياء السياسى الذى تنقاد إليه بعض الحكومات ، إن شعار المسلمين الجميل هو تقريب القلوب والأرواح ، وهذه خطوة انتقال إلى السلام العام ، وهذا ما يراد ولا شك القضاء عليه ، وما مصير من يعمل ذلك إلا الخيبة .

أمهات المسائل التي يرددها الشعوبيون

صدق الرسول في دعوته :

تردّ المسائل التي ضرب فيها متعصبة الشعوبية الإسلام إلى بضع مسائل أمهات : صدق الرسول في دعوته ، صحة الكتاب الذي حمله لأمته ، الاعتقاد بالقضاء والقدر ، تعدّد الزوجات ، الطلاق ، الحجاب ، الاسترقاق ، المسكرات ، الربا ، التصوير . ونبدأ الآن بالكلام على رسالة صاحب الدعوة ثم نفيض في المسائل المتنازع فيها في فصول تلي فنقول :

تعسف المتعسفون في العبث بسيرة الرسول فقال قائلهم إنه كان به صرع من إفراطه في الأكل ، وقال آخر إنه كان مصابا بالحمى الشديدة لطول صيامه ، وزعم زاعم أنه كان مصابا بداء عصبي . وتابع كل من هؤلاء المشتطين هواه ، وركب مركباً خشنا في حكمه على الرسول بما ارتآه ، حتى جاء ماسينيون من علماء الشرقيات في فرنسا فأثبت أن محمداً كان مالكا لعقله ممتعاً بصحته[1] . ومن قبل أفحم كارلايل[2] من أرادوا الحط من قدر الرسول قائلا لهم : « لقد أصبح من أكبر العار على كل فرد ممدّن في هذا العصر أن يصغى إلى ما يظن من أن دين الإسلام كذب ، وأن محمداً خداع مزور ، وآن لنا أن نحارب ما يشاع من مثل هذه الأقوال السخيفة المخجلة ، فإن الرسالة التي أداها ذلك الرسول ما زالت السراج المنير مدّة اثنى عشر قرنا لنحو مائتي مليون من الناس أمثالنا ، خلقهم الله الذي خلقنا . أكان أحدكم يظن أن هذه الرسالة التي عاش بها ومات عليها هذه الملايين الفائتة الحصر

(١) حياة محمد لدرمنغم Emile Dermenghem : La vie de Mohamed .

(٢) الأبطال وعبادة الأبطال لكارلايل .

والإحصاء أكذوبة وخدعة ؟ أما أنا فلا أستطيع أن أرى هذا الرأى أبداً ، فلو أن الكذب والغش يروجان عند خلق الله هذا الرواج ، ويصادفان منهم ذلك التصديق والقبول ، فما الناس إلا بله ومجانين ، وما الحياة إلا سخف وعبث وأضلولة ، كان الأولى بها أن لا تخلق » . وما نظن أكبر محب للرسول يقول فيه وفى دعوته عن طريق المنطق أحسن من هذا .

وقال تولستوى الحكيم الروسى : « ومما لا ريب فيه أن النبى محمداً كان من عظام الرجال المصلحين الذين خدموا المجتمع الإنسانى خدمة جليلة ، ويكفيه فخراً أنه هدى أمة برمتها إلى نور الحق ، وجعلها تجنح للسكينة والسلام وتؤثر عيشة الزهد ، ومنعها من سفك الدماء وتقديم الضحايا البشرية ، وفتح لها طريق الرقى والمدنية ، وهو عمل عظيم لا يقوم به إلا شخص أوتى قوة ، ورجل مثل هذا جدير بالاحترام والإكرام » .

وقال وليم موير فى كتابه «سيرة محمد» : «امتاز محمد بوضوح كلامه ويسر دينه ، وقد أتم من الأعمال ما يدهش العقول ، ولم يعهد التاريخ مصلحاً أيقظ النفوس ، وأحيا الأخلاق ورفع شأن الفضيلة ، فى زمن قصير كما فعل محمد » . ويؤخذ مما قاله لين بول : « أن محمداً كان يتصف بكثير من الصفات الحميدة كاللطف والشجاعة ومكارم الأخلاق ، حتى إن الإنسان لا يستطيع أن يحكم عليه دون أن يتأثر بما تتركه هذه الصفات فى نفسه من أثر ، ودون أن يكون هذا الحكم صادراً عن غير ميل أو هوى ، كيف لا وقد احتمل محمد عداء أهله وعشيرته أعواما ، فلم يهن له عزم ، ولا ضعفت له قوة ، وبلغ من نبله أنه لم يكن فى حياته البادىء بسحب يده من يد مصافحه ، حتى ولو كان المصافح طفلا ، وأنه لم يمر بجماعة يوما ، رجالا كانوا أم أطفالا ، دون أن يقرأهم السلام ، وعلى شفتيه ابتسامة حلوة ، وفى فيه نغمة جميلة كانت تكفى وحدها لتسحر سامعها ، وتجذب القلوب إلى صاحبها جذبا » ومما قاله أيضاً : « إن كثيرا من كتاب التراجم والسير من الأوربيين الذين تناولوا الكلام على سيرة محمد لم يتعففوا عن أن يشوهوا هذه السيرة بما أدخلوه عليها من افتراءات

وادعاءات ، كاتهامهم إياه بالقسوة وارتكاب الموبقات والانهماك في الشهوات ، وأنه كان دجالا دعياً وطاغية متعطشاً لسفك الدماء » .

وعلل مونتيه[١] طعن بعض الغربيين على الرسول بقوله : « كثيراً ما حكمت عليه الأحكام القاسية ، وما ذلك إلا لأنه ندر بين المصلحين من عرفت خياتهم بالتفصيل مثله ، وإن ما قام به من إصلاح الأخلاق وتطهير المجتمع يمكن أن يعد به من أعظم المحسنين للانسانية » . وقال : « ولا مجال للشك في إخلاص الرسول وحماسته الدينية التي تشبعت بها نفسه وفكره ، فدعا إلى إصلاحه بعواطفه » . وقالت كاتبة إيطالية[٢] : « لقد عمد علماء الشرقيات مثل مور وسبرنجير قديما ، وجولدصهير ونولدكه وكايتاني وغيرهم حديثاً ، إلى استعمال أساليب في النقد خالفوا فيها علماء المسلمين كل المخالفة ، فتوصلوا إلى الاعتراف بأمانة محمد ، وأثبتوا بصراحة تختلف درجاتها أنه كان ولا مراء يصدر عن وحي ، اختلفوا في تأويله لما حاولوا بيانه على صور شتى لا يتأتى قبولها حتى في رأي ناقد غير مسلم » .

وما أبدع ما قاله صديقنا خليل مطران في الرسول :

بدا وللشــــرك أشياع توطده ... في كل مسرح باد كلّ توطيد
والجاهليون لا يرضون خالقهم ... إلا كعبد لهم في شــكل معبود
مؤلهونَ عليهم من نحائتهم ... بعض المعادن أو بعض الجلاميد
مستكبرون أباة الضيم غِرّ نُهى ... ثقال بطش لدان كالأماليـــد
لا ينزل الرأي منهم في تفرقهم ... إلا منــازل تشتيت وتبــديد
ولا يضم دعاء من أوابدهم ... إلا كما صيح في عفر عبابيــد
ولا يطيقون حكما غير ما عقدوا ... لذي لواء على الأهواء معقــود
بأي حلم مبيد الجهل عن كثب ... وأي عزم مذل القادة الصيــد

(١) حاضر الإسلام ومستقبله لمونتيه .
Montet : De l'état Présent et de l'avenir de l'Islam.

(٢) مدح الإسلام للورا فشيا فاليري .
Laura Veccia Vaglieri: Apologie de l'Islamisme.

أعاد ذاك الفتى الأمىّ أمتــه شملا جميعاً من الفرّ الأماجيــد
لتلك تاليــة الفرقان فى عجب بل آية الحق إذ يبغى بتأكيد
صعبان راضهما توحيد معشرهم وأخذهم بعــد إشراك بتوحيد
وزاد فى الأرض تمهيدا لدعوته بمهده للمسيحيين والهــود
وبدئه الحكم بالشورى يتم بها ما شاءه الله عن عدل وعن جود
هــذا هو الحق والإجماع أيده فمن يفنــــده أولى بتفنيــد

يقول ابن حزم[1] « إن العرب كانت قوماً لقاحاً لا يملكهم أحد كمضر وربيعة وإياد وقضاعة ، أو ملوكا فى بلادهم يتوارثون الملك كابراً عن كابر ، فانقادوا كلهم لظهور الحق وآمنوا برسول الله ، وهم آلاف آلاف وصاروا إخوة كبنى أب وأم ، وانحل كل من أمكنه الانحلال عن ملكه منهم إلى رسله طوعاً ، بلا خوف غزو ولا إعطاء مال ، ولا مطمع فى عز ، بل كلهم أقوى جيشاً من جيشه وأكثر مالا وسلاحاً منه ، وأوسع بلدا من بلده . وهكذا كان إسلام جميع العرب أولهم كالأوس والخزرج ثم سائرهم قبيلة قبيلة ، لما ثبت عندهم من آياته وبهرهم به من معجزاته ، وما اتبعه الأوس والخزرج إلا وهو فريد طريد ، قد نابذه قومه حسدا له ، إذ كان فقيراً لا مال له ، يتيما لا أب له ولا أخ ولا ابن أخ ولا ولد . أمياً لا يقرأ ولا يكتب ، نشأ فى بلاد الجهل يرعى غنم قومه بأجرة يتقوّت بها ، فعلمه الله الحكمة دون معلم ، وعصمه من كل من أراد قتله » .

ويقول ماكس[2] مولر المستشرق الألمانى : « سوف يعلم النصارى والدهشة آخذة منهم أن محمداً من أنصار المسيح ، وأن الديانة المحمدية هى من فروع النصرانية ، وإذ ذاك يدهش المسلمون والنصارى على السواء بما جاء فى تاريخهما من الخصام والشقاق والعداء بسبب الدين » . وقد وافق كثير من علماء المشرقيات فى أوربا على رأى هذا العالم وعضدهم فى ذلك كثير من الروس العقلاء أرباب الأفكار السامية

(١) الملل والنحل لابن حزم . (٢) حقوق المرأة فى الإسلام لأحمد آجايف .

أمثال فلاديمير سولوفيف وبيتروف وغيرهما . ويقول برنارد شو من كبار كتاب الإنجليز المعاصرين : « لا يمضي مائة عام حتى تكون أوربا ولا سيما انجلترا قد أيقنت بملاءمة الإسلام للحضارة الصحيحة » .

هذا والأديان في جوهرها واحدة تأمر بالخير ، وتدعو إلى مكارم الأخلاق ، وتدفع الناس بعضهم عن بعض ليقوم نظام اجتماعهم على ما ينزع من صدورهم الأحقاد والتعادي ، وحب القتل وسلب المال وهتك العرض ، وتشعر قلوبهم الرحمة والعطف على الأسير العاني ، والشيخ الفاني ، واليتيم والبائس ، والابتعاد عن كل ظلم واعتداء ، وتذكرهم بأن لهم معاداً ثانياً يثاب فيه المؤمن المحسن ، ويعاقب فيه من يجترح شيئاً من السيئات ، يكون فيها تقويض أركان المجتمعات .

القرآن والإسلام :

اشتد متعصبة الشعوبية في الحط من القرآن الكريم ، وقالوا وهم الأعاجم الذين يصعب على أكثرهم أن يتفهموه ويتدبروه ، إنه غير منظم ولا مبوب ، وإنه محتذى ومنقول ، وإنه زيف مدخول ، وإنه غير بليغ ولا فصيح . وبلغت القحة ببعضهم أن قالوا إن فيه أغلاطا نحوية ، وركاكات بيانية . هذا والقرآن أبلغ كتاب للعرب ، ولولاه ما كان لهم أدب ولا شريعة : « كتابٌ فصلت آياته قرآناً عربياً » عجز فصحاء العرب عن الإتيان بمثله ، مع أنهم خصوا بالتحدّي[1] ، وكان للفصاحة عندهم المقام الأرفع ، فاعترفوا بعد جدال طويل[2] : « أن نظم القرآن على تصرف وجوهه ، واختلاف مذاهبه ، خارج عن المعهود من نظام جميع كلامهم ، ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم ، وله أسلوب يختص به ويتميز في تصرفه على أساليب الكلام المعتاد » جعله الله[3] كما قال علي بن أبي طالب رياً لعطش العلماء ، وربيعاً لقلوب الفقهاء ، ومحاج لطرق الصلحاء ، وبرهانا لمن تكلم به ، وشاهداً

(١) تحدى أقرانه : إذا باراهم ونازعهم الغلبة ، وتحدى صاحبه القراءة والصراع لينظر أيهما أقرأ وأصرع . (٢) إعجاز القرآن للباقلاني .

(٣) نهج البلاغة المنسوب لعلي بن أبي طالب .

لمن خاصم به ، وفلجاً لمن حاج به ، وعلما لمن وعى ، وحديثا لمن روى ، وحكما لمن قضى .

القرآن أكبر معجزة للرسول هو المرجع[١] حين يجد الخلاف ، وهو أيضا المعجزة الصريحة التى يمتز بها العقل ، ويصح للمسلمين أن يواجهوا بها العالم غير مترددين ، يحمل عدوه على الإيمان به والخشوع لديه ، ولو صحت — لا صحت — أراجيف الملحدين من أن القرآن من إنشاء محمد بن عبد الله لكان محمد هذا أعظم رجل شهد هذا الوجود : « وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك ، إذاً لارتاب المبطلون ، بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم ، وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون » ، « قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا . ولقد صرفنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل فأبى أكثر الناس إلا كفورا . وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا ، أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا ، أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا[٢] أو تأتى بالله والملائكة قبيلا ، أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ، ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه ، قل سبحان ربى هل كنت إلا بشرا رسولا ! » ، « وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه ، قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين . أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ؟ إن فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون » .

فالقرآن بإعجازه يضرب الأمثال للحاضرين بالغابرين ، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ويشتمل على أنواع من الأعمال كاف بها العباد[٣] ، ومشروعات لتأمين الدعوة وهى الجهاد ، ومشروعات لتكوين البيوت والأسرة ، وهى ما يتعلق بالزواج والطلاق والأنساب والمواريث ، ومشروعات لطريق المعاملة بين الناس ،

(١) الموازنة بين الشعراء لزكى مبارك .
(٢) الظهير : المعين . وصرفنا : بينا . وكسفاً : قطعاً . والزخرف : الذهب .
(٣) تاريخ التشريع الإسلامى لمحمد الخضرى .

ومشروعات لبيان العقوبات على الجرائم وهى القصاص والحدود . هذا هو الكتاب الذى أخرج للناس فيه هدى لهم وتطهير لنفوسهم ، وقواعد لقيام مجتمعهم ، وتذكير لهم أبداً بالمعاد ، وليس القرآن كتابا علميا يبحث فى الكيمياء والفلك والطبيعيات وتقويم البلدان وتاريخ الإنسان ، وإذا جاء فيه عرضا بعض إلماع إلى ذلك فلا يصح دليلا على أنه حوى كل علم على ما زعم بعضهم . وما القرآن إلا القانون الذى يحضّر الناس للحضارة ، ويذكرهم بحياة ثانية إذا حسن التصرف فى الأولى ، تم ما وعد به المسلمون من الخير فى الآخرة .

قال جان جاك روسو فى القرن الثامن عشر : « من الناس من يتعلم قليلا من العربية ثم يقرأ القرآن ويضحك منه ، ولو أنه سمع محمداً يمليه على الناس بتلك اللغة الفصحى الرقيقة ، وذاك الصوت المقنع المطرب المؤثر فى شغاف القلوب ، ورآه يؤيد أحكامه بقوة البيان ، لخر ساجدا على الأرض وناداه أيها النبى رسول الله خذ بأيدينا إلى مواقف الشرف والفخار ، أو مواقع التهلكة والأخطار ، فنحن من أجلك نود الموت أو الانتصار » .

وقال كارلايل فى القرن التاسع عشر : « إن فرط إعجاب المسلمين بالقرآن وقولهم بإعجازه أكبر دليل على تباين الأذواق فى الأمم المختلفة . والترجمة تذهب بأكثر جمال الصنعة وحسن الصياغة » . وجاهر كلود فارير فى القرن العشرين بأن « آيات القرآن جميلة وتحسن تلاوتها ، فيها نفحة طاهرة عجيبة ، لأنها تأمر بالشجاعة والصدق والأمانة ، وتدعو إلى حماية الضعيف وإلى عبادة إله واحد » .

نقتصر على رأى هؤلاء الثلاثة الحكماء فى القرآن ، وهناك كثيرون ذهبوا مذهبهم وقالوا بقولهم ، وجاهروا غير مدلسين ولا موالسين ، ويكفينا فى بيان فضل الإسلام أن نعمد أيضا إلى نقل كلام بعض علماء الافرنج فيه ، فقد قال ولز المؤرخ الإنكليزى : « كان الإسلام فى أول أمره خاليا من التعقيدات اللاهوتية التى طالما ارتبكت بها النصرانية ، وأحدثت شقاقا قضى على الروح النصرانى ، وليس للاسلام كهنة بل له علماء ومعلمون ووعاظ ، وهو حافل بروح الرأفة والسخاء

والإخاء، كما أنه ينطوى على عاطفة النجدة التى تنبت فى الصحراء؛ ولهذا جاز إلى قلوب عامة الناس دون أن يجد ما يصده فى غرائزهم » . وقال مونتيه[1] السويسرى : « لما كان الإسلام ديناً من الأديان أصبح قوة أدبية عظيمة جداً جديرة بالاحترام من وراء الغاية ، ولذا تقضى الحال بأن تقوم الصلات مع أهله على أساس الإخاء والحب ، وأهم الشروط فى هذه الروابط الحسنة احترام الإسلام احتراماً مطلقاً . وإن هذا الدين بفضل ما نشره بعض الباحثين من العلماء المجردين عن الأغراض ، وما وقف عليه بعض أرباب الرحلات قد أصبح معروفا فى أوربا معرفة تامة ، وغدا يقدر قدره أكثر من قبل » .

ورأينا عظماء من الغربيين لا يذكرون الإسلام إلا بالتعظيم ، وعهدنا لبعض كبار رجال العقول من مؤلفيهم الذين اشتهروا بين العامة والخاصة كأناتول فرانس ، أن لا يذكروا الإسلام بأقل تعريض فى كتبهم الكثيرة ، واستعملوا حريتهم فى الكلام على دينهم الخاص . وهذا لأن العقل لا يجوّز أن يخوض المرء عباب مسألة عظيمة ، إن لم يكن استعد الاستعداد الكافى للنظر فيها بالدرس والتمحيص ، ومن أعظم ما يعاب به العالم أن يقول جزافاً ، ويتكلم بلا وزن ولا روية ، والعاقل من يحرص على أن لا تبدو مقاتله ، ولا يستحى إن لم يكن عارفاً من قول « لا أدرى » وقد قالوا : إن لا أدرى نصف العلم .

وقال آرثر جلين ليونارد[2] : « يجب أن تكون حالة أوربا مع الإسلام بعيدة من كل هذه الاعتبارات الثقيلة ، وأن تكون حالة شكر أبدىّ بدلا من نكران الجميل المقوت والازدراء المهين ، فإن أوربا لم تعترف إلى يومنا هذا بإخلاص طوية وقلب سليم ، بالدّين العظيم المدينة به للتربية الإسلامية والمدنية العربية ، فقد اعترفت به بفتور وعدم اكتراث عند ما كان أهلها غارقين فى بحار الهمجية والجهل فى العصور المظلمة فقط . ولقد وصلت المدنية الإسلامية عند العرب إلى أعلى مستوى

(١) الاسلام لمونتيه .

(٢) إيقاظ الغرب للاسلام لهيدلى .

من عظمة العمران والعلم ، فأحيت المجتمع الأوربي وحفظته من الانحطاط . ولم نعترف ، ونحن نرى أنفسنا في أعلى قمة من التهذيب والمدنيـة ، بأنه لولا التهذيب الإسلامي ، ومدنيـة العرب وعلمهم وعظمتهم في مسائل المدنية ، وحسن نظام مدارسهم ، لـكانت أوربا إلى اليوم غارقة في ظلمات الجهل .

قال : هل نسينا أن التسامح الإسلامي كان يختلف اختلافاً شـديداً عن الحالة التي كانت عليها أوربا إذ ذاك ؟ هل نسينا أن الخلافة نشطت في أعظم أيام الانحطاط الروماني والفارسي ؟ وأن السواد الأعظم من أوربا كان في غشاوات الوحشية السوداء القاتمة . أتهمل أوربا ، حقداً منها وإنـكاراً للجميل ، تلك الأعمال التي قام بها العرب وتركوها وراءهم في كتبهم ؟ ألم نكُ ممن فقد نشاط العالم الإسلامي في عصره الذهبي العجيب ، وذلك في عصوره الأولى ، ولا سيما في زمن العباسيين ؟ وكيف ننسى الخسارة الفادحة التي جنيناها على آداب العرب ؟ بل الجناية التي جنيناها على العالم أجمع ، بتدميرنا عن جهل وغرور ألوفاً من كتبهم ، ساقنا إلى إبادتها التعصب النصراني . ألا يقال إن أوربا النصرانية بذلت كل ما في وسعها منذ أحقاب لتخفي يد العرب فيها ؟ وسوف لا يطول الأمر حتى يعترف بهذه الصنيعة . دع أوربا بل القارة النصرانية تعترف بخطئها ، دعها تعلن للعالم أجمع غباوتها الفزرة ، لقلة إسداء الشكر الواجب عليها . إنها ستضطر بعد إلى الاعتراف بالدّين الأبدي المدينة به للإسلام » . وقال إدموند بورك : « القانون المحمدي قانون ضابط للجميع ، من الملك إلى أقل رعاياه ، وهو قانون نسج بأحكم نظام حقوقي ، وأعظم قضاء علمي ، وأعظم تشريع منور ، لم يسبق قط للعالم إيجاد مثله » .

وقال جان مليا[1] : « من الواجب أن يطرح بعد الآن ما ادعاه في القرآن بعض المتفلسفين من الفرنسيين ، فالقرآن تجب تلاوته بتؤدة ، وليس فيه ما يتهمه به الأعداء من أنه ملقن التعصب ، والإسلام دين سماوي ، وهو دين حب وعاطفة وشرف ، وأكثر الأديان تساهلا » .

(١) قرآن فرنسا لجان مليا Jean Mélia : Le Coran Pour la France .

يقول لبون(١) خلال كلامه على أن وحدة الإسلام الخلقية واحدة من أساسها ، لأن الإسلام قام على كتاب واحد وهو القرآن : « إن هذا الكتاب قانون ديني وسياسي واجتماعي ، وأحكامه نافذة منذ عشرة قرون » ، قال : « ولقد انحلت بالتدريج السلطات السياسية الإسلامية من عهد المملكة العربية إلى دولة الأتراك الحديثة ، وبقدر ما كان يتراجع سلطانها كانت تفتح أرواحاً ونفوساً ... إن سذاجة الدين الإسلامي وإيمان المؤمنين به ، قد أورثاه قوة ، فهو يكتفي من منتحله بقول لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . قام الإسلام بالدعوة إلى هذه الحقيقة ، والمسلمون إخوة لأنهم يعبدون إلهاً واحداً وشريعتهم واحدة ، يبغضون ما يبغضون ، ويحبون ما يحبون ، ويجمع الحج كل سنة في مكة جماعات المؤمنين من كل صقع ولغة . وعلى ما عرف به الشرع الإسلامي من الصلابة ، قد أخذ يسير على قاعدة النشوء والارتقاء ، وبعبارة أخرى على الأسلوب الأوربي ، وإذا كره العلماء فتح باب الاجتهاد ، فإنهم يعدلون الأحكام القرآنية في المسائل المهمة ، وقد تم الإصلاح بمصر في هذا المعنى » .

وقال أيضاً : « إنه بفضل تجار من المسلمين يدخل في إفريقية ألوف من الوثنيين في الإسلام حتى ليكاد هذا الدين يعدنهم ، وإن المسلم حيث يمر يترك أثراً من دينه ، وإن من الممالك مالم يطأه المسلمون فاتحين ، فوطئها أناس منهم متجرين ، مثل بعض أنحاء الصين وإفريقية الوسطى وروسيا . والمسلمون في هذه الأقطار التي نزلها تجارهم أصبحوا يعدون بالملايين » . وقال نقلا عن دوفال : «إن الفتيشية(٢) وعبادة الأصنام تزول من الأرض بفضل الإسلام ، وكذلك الضحايا البشرية وأكل لحوم البشر ، وبالإسلام تقدست حقوق النساء ، وإن كان ذلك إلى حد أدنى بكثير من الحق المطلق ، وزواج ثنتين قد هذب من حواشيه ، وخفف من انتشاره ، وتوطدت

(١) النتائج الأولى للحرب لجوستاف لبون .

Gustave Le Bon : Premières conséquences de la guerre.

(٢) الفتيشية أو الفتيش هي عبادة الأوثان أو الحيوان ، ويعتقد منتحلوها بالسحر والتعاويذ ويذبحون البشر ويسترق بعضهم بعضا ، وقيل إن أصل هذه اللفظة برتغالي .

روابط الأسرة وأصبح العبد عضواً فيها ، وأخذت الزكاة تطهر الأخلاق العامة وترقيها ، والشعور بالعدل والإحسان يتخلل القلوب ، وأنشأ سادة الشعوب يعرفون أن عليهم واجبات مثل ما على رعاياهم ، واستقام المجتمع على أسس ثابتة ، فإذا كان هنالك كثير من سوء الاستعمال كما هو الحال عند غيرهم ، فإن على العدل الإلهى عقابهم ، والرجاء فى حياة مستقبلة سعيدة هنيئة يرى منه تعزية كل من خانهم الدهر وظلمتهم الأيام . هذه بعض الحسنات التى تنتشر فى كل مكان ينتشر فيه الإسلام فى وسط المجتمعات المتمدنة .

وقال : إن قليلا من الأمم فاقوا العرب فى المدنية ، وما عهد شعب نجح مثله هذا النجاح الباهر ، فى مثل هذه الحقبة الصغيرة من الدهر ، وقد أنشأوا فى باب الأديان ديناً من أعظم الأديان التى حكمت العالم ، وكان تأثيره ولا يزال شديداً ، وأقاموا فى باب السياسة مملكة من أعظم الممالك التى عرفها التاريخ ، ومن حيث التأثير العلمى والأخلاقى مدنت العرب أوربا ، وقد قلّ فى العناصر من بلغ مبلغهم كما قل فى العناصر من نزل إلى دركتهم فى السقوط .

وقالت فاليرى : « فرضت الأديان على من يدينون بها معتقدات ثقيلة يصعب القيام بأعبائها ، لبعدها عن مدى الأفهام ، على حين كان الإسلام عجيباً فى سهولته صريحاً فى فروضه ؛ وهذا كان سبباً آخر فى سرعة انتشاره بين الشعوب التى اضطربت أخلاقها كل الاضطراب ، بما أصابها من الشك المضنى بعقائدها الدينية ، وهذا أيضاً كان ولا يزال السبب فى انتشاره المتواصل بين الأمم المتوحشة فى آسيا وإفريقية لنفوذه إلى أرواحهم ، دون الحاجة إلى التطويل فى شرحه والتلطف فى الدعاية له » .

وقال جيبون : « جاءت الشريعة المحمدية عامة فى أحكامها ، يخضع لها أعظم ملك وأضعف صعلوك ، فهى شريعة حيكت بأحكم منوال شرعى ، وليس لها مثيل فى العالمين » . وقال ليودوروش : « إن الإسلام دين إنسانى طبيعى اقتصادى أدبى ، ولم أذكر شيئاً من قوانيننا الوضعية إلا وجدته مشروعاً فيه ، بل إننى عدت

إلى الشريعة التي يسميها جول سيمون « الشريعة الطبيعية» فوجدتها كلها أخذت عن الإسلام . ثم بحثت عن تأثير هذا الدين في نفوس المسلمين ، فوجدته قد ملأها شجاعة وشهامة ووداعة وجمالا وكرما ، بل وجدت هذه النفوس على مثال ما يحلم به الفلاسفة من حب الخير والرحمة والمعروف ، في عالم لا يعرف الشر واللهو والكذب ؛ فالمسلم ساذج لا يظن بأحد سوءاً ، ولا يستحل محرماً في طلب الرزق ، ولذلك كان أقل مالا من اليهود ومن بعض النصارى » . قال : « ولقد وجدت فيه حل المسألتين الاجتماعيتين اللتين تشغلان العالم طراً : الأولى في قول القرآن : (إنما المؤمنون إخوة) فهذا أجمل مبادئ الاشتراكية . والثانية فرض الزكاة على كل ذي مال ، وتخويل الفقراء حق أخذها غصبا ، إن امتنع الأغنياء عن دفعها طوعا ؛ وهذا دواء الفوضوية » .

وقال ماسينيون : « يمتاز الإسلام بأنه يمثل فكرة مساواة صحيحة بمساهمة كل فرد من أفراد الشعب بالعشر في موارد الجماعة ، والإسلام ينبذ التبادل غير المقيد ، كما يناوئ الأموال المصرفية (الربا) والقروض الحكومية والضرائب غير المباشرة على ضروريات الحياة ، في حين أنه شديد التمسك بحقوق الوالد والزوج والملكية ورءوس الأموال التجارية ؛ فهو بذلك يقف موقفا وسطاً بين البورجوازية الرأسمالية والشيوعية البلشفية ، وللإسلام ماض بديع من تعاون الشعوب وتفاهمها ، وليس من مجتمع آخر له مثل ما للإسلام ، ماض كله التوفيق في جمع كلمة مثل هذه الشعوب الكثيرة المتباينة على بساط المساواة في الحقوق والواجبات . ولقد برهنت الطوائف الإسلامية الكبرى في إفريقية والهند والهند الشرقية ، والجماعات الصغيرة منهم في الصين واليابان ، على أن الإسلام يستطيع أن يوفق بين العناصر التي لا سبيل إلى التوفيق بينها » .

وقال أحدهم في الزكاة : « وكانت هذه الضريبة فرضاً دينياً يتحتم على الجميع أداؤه ، وفضلا عن هذه الصفة الدينية ، فالزكاة نظام اجتماعي عام ، ومصدر تدخر به الدولة المحمدية ما تمد به الفقراء وتعينهم ، وذلك على طريقة نظامية قويمة ،

لا استبدادية تحكمية ولا عرضية طارئة ، وهذا النظام البديع كان الإسلام أول من وضع أساسه فى تاريخ البشرية عامة » ، « فضريبة الزكاة التى كانت تجبر طبقات الملاك والتجار والأغنياء على دفعها لتصرفها الدولة على المعوزين والعاجزين من أفرادها ، هدمت السياج الذى كان يفصل بين جماعات الدولة الواحدة ، ووحدت الأمة فى دائرة اجتماعية عادلة ، وبذلك برهن هذا النظام الإسلامى على أنه لا يقوم على أسس الأثرة البغيضة » .

هذا وقد رأينا بعض السفسطائيين ممن لا شأن لهم إلا المغالطة يدعون أن الإسلام لم يأت بجديد فى الأديان وأنه اقتبس من النصرانية واليهودية . وكيف يأتى دين الفطرة بجديد وهو يبتعد عن التعقيد فيما يصلح الناس فى معاشهم ومعادهم . فإذا أمر بالعدل والإحسان وأمرت بذلك الأديان الأخرى كيف يتأتى أن يقال إنه اقتبس ذلك من غيره ، وهل من سبيل إلى أن يحدث الدين الجديد شيئا يقال له عدل أو إحسان ، ويكون عدلا جديدا أو إحسانا لا عهد به للناس ، وهل يؤول العدل على معنيين ، فيكون فيه العدل القديم والعدل الجديد ؟ بل إن بعض الشعوبيين من الغربيين يدعون أن الإسلام أخذ حتى فقهه عن قانون يوستنيانوس الرومانى . ومعلوم أن الفقه الإسلامى مأخوذ من الكتاب والسنة والإجماع والقياس بما لا يقبل الرد. وممن قال بهذا الرأى جولدصهير[1] المجرى ، قال : إن العرب أخذوا من الفقه الرومانى ، وبنى قوله على الحدس والتخمين ، ذلك لأن العرب كانوا فى الفتح كما زعم على حالة ابتدائية وكلهم أميون ، فوجدوا فى العراق والشام فقهاً وفى إدارتها الخاصة فقهاً ، فأخذوه وتمثلوه . هذا رأى جولدصهير ولم يأت عليه بدليل ، بل دليله الاستنتاج العقلى الخاص . وقد قابل سعيد الخورى[2] الشرتونى الفقيه اللغوى اللبنانى بين القانون الرومانى والفقه الإسلامى ، وبين الأصول التى استند إليها المسلمون فى فقههم ، فأسقط دعوى المدعين على الشرع المحمدى فى مقالات له جوّدها ، ورد بها كيد

(١) معلمة الاسلام مادة فقه .

(٢) مجلة المقتطف : م ٢٩ ص ١٢٧ ، ٣٩٣ ، ٤٨٦ ، ٥٦٩ ، ٦٦٥ ، ٧٩٤ ، ٨٦٩ ، ٩٨١ ، ١٠٢٥ .

من كادوا للاسلام منذ أول ظهوره ، وما زالوا على كيدهم إلى هذا القرن . وبعد أن وضح الحق فى هذه المسألة لا ندرى إن كان المتفيهقون يعودون بعد إلى إثارة هذه الدعوى الباطلة ، شأنهم فى كثير مثلها ، يقولون ما يعتقدون وما لا يعتقدون ، بالرأى المجرد عن البرهان ، ويثيرونها فتنة شعواء مجاراة لحظوظ النفس .

عقيدة القضاء والقدر :

تعدّ عقيدة القضاء والقدر من أصول العقائد فى الإسلام ، وكان منها قوة المسلمين لأول أمرهم ، علمتهم الجرأة والإقدام ، وبعثتهم[1] على اقتحام المهالك ، ففتحوها : « هـذا الاعتقاد يطبع الأنفس على الثبات واحتمال المكاره ومقارعة الأهوال ، ويحليها بحلى الجود والسخاء ، ويدعوها إلى الخروج من كل ما يعز عليها ، بل يحملها على بذل الأرواح والتخلى عن نضرة الحياة » و «الذى يعتقد بأن الأجل محدود والرزق مكفول ، والأشياء بيد الله يصرفها ، كيف يرهب الموت فى الدفاع عن حقه ، وإعلاء كلمة أمته أو ملته ، والقيام بما فرض الله عليه من ذلك ، وكيف يخشى الفقر مما ينفق من ماله فى تعزيز الحق وتشييد المجد » . « هذا الاعتقاد هو الذى ثبتت به أقدام الأعداد القليلة منهم (أى العرب) أمام جيوش يغص بها الفضاء ، ويضيق بها بسيط الغبراء ، فكشفوهم عن مواقفهم ، وردوهم على أعقابهم ، بهذا الاعتقاد لمعت سيوفهم بالمشرق ، وانقضت شهبها على الحيارى فى هبوات[2] الحروب من أهل المغرب » . « وهو الذى حملهم على بذل أموالهم وجميع ما يملكون من رزق فى سبيل إعلاء كلمتهم ، لا يخشون فقراً ولا يخافون فاقة . هذا الاعتقاد هو الذى سهل عليهم حمل أولادهم ونسائهم ومن يكون فى حجورهم إلى ساحات القتال فى أقصى العالم ، يتولون سقاية جيوشهم وخدمتها فيما تحتاج إليه ، لا يفترق

(١) من مقالات محمد عبده فى مجلة العروة الوثقى .

(٢) يقال سطعت الهبوة والهبوات وصار هباء ، وهو دقاق التراب الساطع فى الجو كالدخان وما ينبث فى ضوء الشمس .

النساء والأولاد عن الرجال والكهول إلا بحمل السلاح » .

« وليس فى الطوائف المسلمة من يعتقد مذهب الجبر المحض القائل بأن الإنسان مجبور محض فى جميع أفعاله ، مسلوب الاختيار عن نفسه بالمرة ، وكلهم يعتقدون بأن لهم جزءاً اختيارياً فى أعمالهم ويسمى بالكسب ، وهو مناط الثواب والعقاب عند جميعهم ، وأنهم محاسبون بما وهبهم الله من هذا الجزء الاختيارى ، ومطالبون بامتثال جميع الأوامر الإلهية ، وطائفة الجبرية التى انقرضت أواخر القرن الرابع من الهجرة كانت تذهب إلى أن الإنسان مضطر فى جميع أفعاله اضطرارا لا يشوبه اختيار ، ولا يقول به أحد من أهل الإسلام اليوم ، ويزعم الإفرنج أن هذه العقيدة ما تمكنت من نفوس قوم إلا سلبتهم الهمة والقوة ، وحكمت فيهم الضعف والضعة ، وأن المسلمين بسبب هذه العقيدة التى كان بها تجلدهم وإقدامهم لن يبرحوا عرضة للفاقة والفقر ، والتأخر فى القوى الحربية والسياسية ، وقد فشا فيهم فساد الأخلاق فكثر الكذب والنفاق والخيانة والتحاقد والتباغض ، وقنعوا بحياة يأكلون فيها ويشربون وينامون ، ثم لا ينافسون غيرهم فى فضيلة » .

هذه حقيقة هذا الاعتقاد ، ولطالما حمل شعوبية الغرب على الإسلام بسببه ، وهو اعتقاد كان من دواعى فلاح أهله فى القرون الأولى ، وما فسدوا إلا باستيلاء الكسل[1] على المسلمين بما لقنهم أدعياء الصوفية من الاتكال ، ففهموا القضاء والقدر معكوساً . وكان لأول نشأتهم سبب سعادتهم ، فأصبح بعد القرن الثالث سبب حطهم وحطمتهم .

والاعتقاد بالقضاء والقدر فى مذاهب الغربيين أشد ظهوراً فى كتابهم منه فى الإسلام ، وآيات القدر فى الكتاب المقدس تربو على ما ورد فى القرآن الكريم من نوعها ، فما عاق هذا الشعوب النصرانية عن الجد فى الدنيا والانكماش فى العمل ، وما أفلح النصارى والمسلمون فى الحقيقة إلا يوم اعتدلوا فى اعتقاد ما اعتقدوه ، وأخذوا مختارين بالأسباب والمسببات .

(١) الاسلام والنصرانية وكتاب الرد على هانوتو وكلاهما لمحمد عبده .

ومن الانصاف أن لا نحكم على الغربيين بما نشاهد من سخافات عامتهم ، وما انغمسوا فيه من اعتقاد الخرافات ، والوقوف أمام البديهة فى كل ما يرده العقل السليم ، ومن حسن الذوق أن لا يحمل الغربيون علينا بعمل العوام منا ، والعامة ما كانوا ولن يكونوا المعيار الذى يحكم به على أمة ، وكان الخاصة فى كل عصر لا إلى إفراط ولا إلى تفريط فى هذه المسائل ، حكموا العقل وأولوا النصوص ، وساروا بروح عصورهم ؛ هذه العقيدة التى كانت من محسنات الإسلام ، أصبحت للجهل الطارىء من مضعفاته ، لأن المسلمين لم يعملوا بهذه العقيدة قلباً وقالبا كما كان أجدادهم فى الدهر الخالى ، ولا نبذوها من أصلها فاتكلوا على عملهم فقط . والضعف يعرض لأرق المجتمعات فيفسد الصالح ، والعوارض تهجم على الأمم ، ولا تزال تتوالى عليهم ما توالى الليل والنهار .

ومن تدبر الآيات الكثيرة الواردة فى الكتاب العزيز فى الحث على العمل ، ومن ألم إلمامة خفيفة بسيرة الرسول والصحابة ، يعرف أن عقيدة القضاء والقدر ما منعت المسلم يوما من تعاطى الأسباب . فقد قال تعالى : « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله » . « وإن جادلوك فقل لى عملى ولكم عملكم » . « وسيرى الله عملكم » . « لنا أعمالنا ولكم أعمالكم » . « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم » . «والله معكم ولن يتركم[1] أعمالكم » . « وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم[2] من أعمالكم شيئا » . « نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون » . « وإن كلا ليوفينهم ربك أعمالهم » . « وليوفيهم أعمالهم وهم لا يظلمون» . « أنى لا أضيع عمل عامل منكم » . « فنعم أجر العاملين » . « لمثل هذا فليعمل العاملون » . « إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه » . « وتوفى كل نفس ما عملت » . « من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » . « يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا ، وما عملت من سوء

(١) يتركم : ينقصكم . (٢) لايلتكم : أى ينقصكم ؛ من لاته يليته ، أو ولته يلته .

تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً » . « ووفيت كل نفس ما عملت وهو أعلم بما يفعلون » . « فأصابهم سيئات ما عملوا » . « ووجدوا ما عملوا حاضراً » . « لنذيقهم بعض الذى عملوا » . « إلا من آمن وعمل صالحا فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا » . « ولكلٍّ درجات مما عملوا ، وليوفيهم أعمالهم وهم لا يظلمون» . « فمن يعمل مثقال ذرّة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرّة شراً يره » . « سيجزون بما كانوا يعملون» . «جزاء بما كانوا يعملون » . «ويقول ذوقوا ما كنتم تعملون» . « وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم » . « أوَ لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا ؟ قل هو من عند أنفسكم » .

تعدد الزوجات والطلاق :

أصبحت بعض المشكلات التى نال بها شعوبية الغرب من الإسلام قروناً طويلة ، مما لا يستنكر أمره عند الغربيين اليوم ، ومن ذلك ما كان بعض مؤلفى الغرب يعدونه من جملة العوامل فى انحطاط المسلمين ، كالطلاق وتعدد الزوجات . ومن الغريب أن يصبح الطلاق اليوم عند المسلمين إلى جانب القلة ، ويشيع عند من كانوا إلى أمس ينكرونه أشد الإنكار ويهزأون بمن يرتكبونه ! أخذ أهل المدنيات الحديثة يعمدون إلى الطلاق من غير نكير وأوّلوا قوانين الدين والمدنية على ما يخرجهم من الحرج ، ولا يبعد أن يدخل الطلاق عليهم بعد قليل بمقياس أوسع مما كان عند المسلمين . فإنه يقع فى الولايات المتحدة الأميركية كل سنة أكثر من مائتى ألف طلاق ، وفى أوربا يبت فى عشرات الألوف من هذه القضايا ولا سيما فى فرنسا . وأكثر الطوائف النصرانية فى الغرب لا تتشدد لعهدنا فى الطلاق على نحو ما كانوا فى القرن الماضى ، ويوشك أبناء دينهم فى الشرق أن يسيروا بسيرتهم وإن عُدوا من حيث مراعاة القديم من أشد المحافظين .

كان الطلاق معروفاً عند الأمم القديمة كالعبرانيين واليونان والرومان ، وكان للرومانى الحق أن يقتل زوجته ، وكثر الطلاق فى عهد الجمهورية الرومانية ، ولولم تعدل

النصرانية من شرة الطلاق عند الأمم التى دانت بها ، لظل الطلاق يقضى على المرأة إلى العصور الأخيرة . وأبيح الطلاق للضرورة فى الإسلام وهو محظور فى نفسه ، وفى الحديث : «لا تطلقوا النساء إلا من ريبة ، إن الله لا يحب الذواقين ولا الذواقات» . وفيه أيضاً : « أبغض الحلال عند الله الطلاق » .

وفى آيات الطلاق فى الكتاب العزيز ضروب من الرفق بالمرأة وأساليب فى إقصاء الرجل عن الإقدام على الطلاق ، مثل : « فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيراً كثيراً » . « وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها ، إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما » . «وإن امرأة خافت من بعلها نشوزا[1] أو إعراضا فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحا والصلح خير » . « فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا » . « يا أيها النبى إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن وأحصوا العدة واتقوا الله ربكم ، لا تخرجوهن من بيوتهن ، ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة ، وتلك حدود الله ، ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه ، لا تدرى لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً ، فإذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف ، وأشهدوا ذوى عدل منكم » . « وبعولتهن أحق بردهن فى ذلك إن أرادوا إصلاحا » .

أما تعدد الزوجات للضرورة التى أباحها الشرع بقيود ، كما هو منطوق الذكر الحكيم فهو أيضاً مما أخذ يخف بين المسلمين ، ولا يلجأ إليه إلا للضرورة الحافزة فى البوادى والقرى على الأكثر . أبيح تعدد الزوجات بشرط العدل بين الزوجات وإلا منع . قال تعالى : « فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة » . والمراد بالعدل هنا العدل فى القسم أى المبيت والنفقة ، لا العدل فى ميل القلب وهو المنفى فى قوله : « ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم ، فلا تميلوا كل الميل » . قال سرير وهو من المشهود لهم بحل الأحكام الإسلامية : « أجيز[2] الطلاق ولكن وضعت

(١) النشوز : ترك المضاجعة والتقصير فى النفقة .

(٢) المرأة فى الاسلام ، عربها عبد الرحمن شهبندر عن كتاب روح الاسلام للقاضى أمير على الهندى . مجلة المقتبس م ٢ ص ٢٦١ و ٤٦٩

له قواعد تفضل إلغاء طلاق مستعجل لم يترو فيه ، ولكي يكون الطلاق مما لا يقبل الرجعة تلزم ثلاث طلقات يفصل بين كل منها قروء[١] معينة » . وقد رد لبون على الاقتصادي « لوروا[٢] بوليو » يوم زعم هذا أن نظام تعدد الزوجات عند المسلمين كان من موجبات جمودهم فقال : « إن تعدد الزوجات المشروع عند الشرقيين أحسن من تعدد الزوجات الريائي عند الأوربيين ، وما يتبعه من مواكب أولاد غير شرعيين » . وقال : « إن النساء المسلمات قد أخرجن في الدهر الغابر من المشهورات العالمات بقدر ما تخرج مدارس الإناث في الغرب اليوم » .

والواقع أن تعدد الزوجات في الإسلام ما كان من موجبات انحطاط أهله على ما صوره الشعوبيون ، بل دعت إليه لأول الأمر ضرورة تكثير سواد المسلمين يوم كان الرجال أقل من النساء بتواتر الحروب والفتوح ، وبه حفظ كيان المسلمين وكثر سوادهم ، ولولاه لدثرت عدة بيوت لقلة النسل فيها ، فلما رقي الزمن وكثرت مطالبه خف تعدد الزوجات بطبيعة الحال ؛ وما كان الإسلام مبتدعا في هذا التعدد ، فإن ذلك كان من المألوف عند الأمم حتى إن موسى وداود أكثرا من الأزواج . قال لبون : « إن شيعة المورمون الأميركية القائلة بتعدد الزوجات لم عنعها اعتقادها هذا من الارتقاء ، ومن منتحليها من يتزوج عشر نساء ، وقد كان البرتستانت هناك حاربوها إبان ظهورها حرب إبادة وتدمير ، فهرب من دانوا بالمورمونية إلى ولايات أخرى ، ونشأت لهم في خمسين سنة مدنية زاهرة ، وأسسوا بكدهم في أرض كانت قفراء ممحلة ما يغبطون عليه من الصناعات الراقية ، والزراعات المتقنة ، والمعامل والمصانع ، والمدن الزاهرة » . ولقد سئلت إحدى نساء المورمون عن رأيها في تعدد الزوجات فقالت : « أفضل أن أكون المرأة العاشرة لرجل سام بمداركه على أن أكون الزوجة الوحيدة لرجل متوسط » .

---

(١) القرء ويضم : الحيض والطهر ، وهو ضد ، ج أقراء وقروء وأقرؤ .

(٢) روح السياسة لجوستاف لبون Gustave Le Bon : Psychologie politique

وأكد العارفون[١] أن أخلاق المورمون هادئة ، يحافظون على الشرف ويعملون ويجدون ، لا شحاذ فيهم ولا متعطل ولا سكير ، يعاون أغنياؤهم فقراءهم ، وقد اشتهروا بذكائهم وفرط استعدادهم لتولى الأعمال . ولقد زارهم كثير من الأوربيين فى أوقات مختلفة فأجمعوا على امتداح أخلاقهم ؛ وكانوا قبل أن يبطل الاتحاد الأميركى قانونهم فى تعدد الزوجات من أحسن الشعوب أخلاقا وخلاقا ، لا يعرفون الزنا ، وليس بين أظهرهم حانات ولا مواخير ، وما زالوا إلى اليوم بعيدين عن هذه الوصمات ، يجيئهم غيرهم بهذه الفضائح وهم متوفرون على حربها ما وسعهم ، ويضيقون حلقة مساوئها المشئومة .

ولقد توسع الأوربيون بعد الحرب العامة وأثاروا حربا شعواء على عادة الاكتفاء بزوج واحدة ، وأرادوا شعوبهم على أن يرجعوا إلى تعدد الزوجات ، إذ ليس فى التوراة ما يناقضه إن لم يكن فيها ما يدعو إليه ، وهم أمم توراتية ما خرجوا عن أحكام كتاب اليهود . وذكروا أن عددا من الأنبياء كان تحتهم عدة زوجات وأوردوا أسماء كثير من الملوك لم تشبعهم الزوجة الواحدة ، فقالوا بتعدد الزوجات ، وأفتاهم رجال الدين بذلك ، حتى إن ألمانيا بعد حرب الثلاثين سنة أباحت هذا التعدد لمن أراده ، وذلك لكثرة ما كان هلك من رجالها . وقد نشرت فى ذلك كتب ومقالات وخطب وقالوا إنه لا يمنع من الجمع بين اثنتين فأكثر إلا ما تواطأت المدنية الغربية على استحسانه ، فلو تدرجوا فى التربية عليه لما شق على النساء كثيراً ، وقد رأينا هذه العادة دخلت على النساء المسلمات فأمست فيهن منذ القديم عادة مألوفة ودواعى الحياة اليوم تقلل من استفظاعها .

ولقد توسع كتاب فرنسا فى « كتاب الخليلة الشرعية » وأصدروا فتاوى من الرجال والنساء ذهب فيها أكثرهم إلى وضع تشريع جديد فى هذا الشأن وإلغاء المادة التى تعاقب من يتزوج من اثنتين ، وكلهم مجمعون على أن هذا التعدد

(١) الخليلة الشرعية لجورج اكتيل Georges-Onquetil : La maitresse légitime.

موجود في الغرب بالفعل وإن لم تعترف به القوانين الموضوعة ، وإنه قل أن يسلم أحد المتزوجين من اتخاذ خليلات يزني بهن . وحجتهم أن امرأة واحدة لا تقوم بحاجة الرجل طول السنة ، وأن الطبيعة جعلت للذكور من الحيوانات إناثا متعددات ، وكذلك حكم الإنسان ، وأن هذا التعدد وإيلاد أولاد شرعيين أشرف وأنفع من السفاح وما يعقبه من الأمراض السرية الوبيلة التي تنتشر انتشاراً هائلا ، حتى ربما أصيب بها نصف الناس فضعف النسل وتراجعت قوى الجنس والعنصر .

قال لبون[1] : ما جاءت العرب في تعدد الزوجات بأمر بدع ، فقد كان هذا الزواج شائعا قبل الإسلام عند العرب واليهود وغيرهم من أمم الشرق ، دعت إليه ضرورة الحياة عندهم ، وضرورة الهواء والعنصر ، وأمور أخرى في حياة الشرقيين . فإن تركيب جسم المرأة ، وضرورة الولادة والأمراض وغيرها تضطرها أحيانًا أن تبتعد عن زوجها ، وأصبح من المتعذر تحت سماء الشرق وفي هواء مثل هوائه ، ولمزاج المشارقة الخاص ، الصبر على هذا البعاد ، فغدا زواج اثنتين ضربة[2] لازب . وفي الغرب يتطلب المناخ من أهله أقل من ذلك . والزواج من واحدة مذكور في قوانين الغرب فقط . وقل أن كان محتفظا به في الأخلاق . ولماذا كان الضر الشرعي عند الشرقيين دون الزواج بواحدة عند الأوربيين ، على ما فيه عند هؤلاء من النفاق والرياء ؛ ونحن نعرف مكانة الزوجين وأهواءهما . ثم إن الشرقيين يرون الاستكثار من النسل ويحبون عيش الأسرة والبيوت ، وما عرف عنهم من الشعور بالعدل لا يسمح لهم أن يتخلوا عن المرأة الشرعية التي لم ترقهم ، كما هو الشأن في الغرب ، ولذلك وافقت الشريعة على ما كان راسخا من هذا القبيل في الأخلاق . ولا يبعد أن تقر قوانين أوربا الضر ذات يوم كما هو في الشرق لسرايته إلى الأخلاق . ثم إن من البيوت القائمة على الزرع والضرع في الشرق ما يضطر صاحبها إلى التزوج من اثنتين ، وقد يكون ذلك بإلحاح من الزوجة الأولى لضعفها وحدها عن

(١) حضارة العرب لجوستاف لبون Gustave Le Bon : La civilisation des Arabes

(٢) اللازب : الثابت ، وصار الأمر ضربة لازب : أي شديدا ثابتا .

تعهد شئون البيت والزراعة ، يضاف إلى هذا غرام الشرقيين بالإكثار من النسل وعدهم من الشقاء أن لا يولد لهم أولاد ، ومنهم من يتزوج لهذا الغرض .

قال : إن المنافسة والحسد لا شأن لها في هذا الزواج من ثنتين ، فأكثر أوهامنا الأوربية تقنعنا ولا شك بأنه من المتعذر أن تكون الحال كذلك ، ولا نستحسن هذا لأننا نراه من المستحيل ، وما ذلك إلا لأننا نقتل أبداً بعواطفنا ، ولا نحاول أن نتمثل عواطف غيرنا . وفي بضعة أجيال تزول أو تقوم بعض الأوهام . فعلينا أن ندرك كم تغير رأينا في هـذا الموضوع ، عندما رجعنا إلى العصور الابتدائية ، وقد كانت فيها النساء مشتركات بين أفراد القبيلة الواحدة ، أو إلى العصور الأقرب منها ، وإلى أيامنا حيث نجد هـذه الأخلاق محفوظة في بعض أنحاء الهند ، يكون للمرأة الواحدة عدة أزواج من أسرة واحدة ، قال ولم يقتصر الإسلام على الاحتفاظ بالضر الذي كان شائعاً عنـد العرب ، بل أثر تأثيراً حسنا في حالة المرأة ورفع من شأنها ، وحسن من حالتها الاجتماعية ، فقد رأينا القرآن رفع مقام المرأة أكثر من كثير من قوانيننا الأوربية ، وخير طريقة لنقدر قدر التأثير الذي أحدثه الإسـلام في تحسين حالة المرأة في الشرق ، أن نبحث عما كانت عليه حالها قبل القرآن .

ثم أورد من الـكتاب العزيز الآيات الآمرة بالتوصية بالمرأة ، وتوسع في بحث أخلاق المسلمين ، وفي أن تعدد الزوجات والاعتقاد بالقضاء والقدر لم يكونا السبب في تأخرهم ، فقال : إذا أريد البحث في أخـلاق أمة لا يكتفي بالبحث في دينها فقط ، لأن تعاليم الأديان كلها طيبة من حيث الأخـلاق ، ولو طبقت بحذافيرها لا نبسط على الأرض ظل العصر الذهبي . والطريقة المتبعة في مبادئ الأديان تختلف بحسب البيئة والعصر والعنصر وبأسباب أخرى كثيرة ، ولذلك كانت الشعوب المختلفة وهي تدين بدين واحد ، ذات أخلاق متغايرة على الغالب ، وهذا ما ينطبق على جميع الأديان المعروفة ، ومنها دين المسلمين ، فإن قواعد القرآن في الأخلاق تامة ، ولـكن تأثيرها يختلف بحسب العناصر والبيئات والأجيال . ولقـد كانت أخلاق العرب في أوائل الإسـلام أرقى من جميع الشعوب التي كانت تعيش لذلك

العهد ولا سيما النصارى ، وما ذلك إلا لأن عدلهم واعتدالهم ورفقهم وسماحتهم مع الأمم المغلوبة ، وحرصهم على مراعاة عهودهم ، وما امتازوا به من الأخلاق العالية ، كل ذلك كان مما يتجلى في صورة مدهشة تناقض سيرة الأمم الأخرى ، ولا سيما الأوربيين على عهد الحروب الصليبية .

قال وإذا أردنا أن ننسب إلى الدين التأثير الذي ينسبونه إليه في العادة ، وجب علينا أن نقول إن أدب القرآن كان أرقى من أدب الإنجيل ، لأن من دانوا بالإسلام من الشعوب كانوا أعلى أدبا من النصارى . وأدب المسلمين يختلف اختلاف أدب النصارى بحسب العوامل الكثيرة التي عددناها : كان عاليا كثيراً في بعض العصور ، ومنحطا للغاية في الأخرى . إن طول عهد الأتراك وما حملوه إلى الناس من أحكامهم السياسية قد حط من أخلاق الشرقيين الذين خضعوا لهم ، وكانت أهواء الرؤساء والمرءوسين القانون الوحيد في كل بلد حلوه . فالأخلاق عند من قدّر لهم أن يخضعوا لحكم الترك هي بالضرورة منحطة ، والقرآن بعيد عن هذا الانحطاط ، كما أن الإنجيل غير مسئول عن الانحطاط المماثل له الذي صارت إليه الشعوب النصرانية العائشة في ظل ذلك الحكم أيضا . ومما تقدم يتجلى فساد الرأي الشائع في أوربا من أن دين محمد أدى ببعض الشعوب الشرقية إلى هذه الغاية من الانحطاط في الأخلاق التي تحلوا بها ، ومثل هذا الرأي هو نتيجة تلك السلسلة من الأوهام ، ومنها أن القرآن قال بتعدد الزوجات ، وأن الاعتقاد بالقضاء والقدر الذي هو من أحكامه يؤدّي بالناس إلى الخمول ، وأن محمداً لم يطلب ممن يدينون بدينه إلا القيام بفروض سهلة على الاستعمال . وهذا من الأغلاط التي تسقط بالبداهة . فقد رأينا تعدد الزوجات شائعاً في جميع الشرق قبل بعثة محمد بقرون ، وأن القرآن لا يدعو إلى الاعتقاد بالقضاء والقدر أكثر من الكتب الدينية ، واعتقاد العرب بهذا لم ينزع من نفوسهم حب العمل ، فقد رأيناهم أنشأوا مملكة عظمى ، وأحكام القرآن في الأخلاق هي في الذروة العليا كسائر الكتب الدينية .

قال وإذا ثبت أن القرآن هو الذي أخر المسلمين في الشرق ، فعلينا أن نثبت أنه

كان على الشرقيين — الذين لا يقولون بتعدد الزوجات ، ولا بالقضاء والقدر كالنصارى في الديار الشامية — مثلا أن ينجوا من هذا الانحطاط . على أنني لا أعرف مؤلفا درس الشرق قليلا ، إلا وهو مضطر إلى الاعتراف بأن النصارى في الشام أحط أخلاقا من المسلمين . وبعد فقد آن لنا أن نقول إن أدب القرآن هو مثل أدب غيره من الأديان ، وأن الشعوب الخاضعة لسلطانه قد اختلفت أخلاقهم كل الاختلاف ، مثل الشعوب الخاضعة لشريعة المسيح ، بحسب العصور والعناصر ، وكانوا عرضة لعوامل ما كانت فيها قواعد الدين هي العامل الأكبر ؛ وأهم مايستنتج مما تقدم أن التأثير العظيم الذي أثره القرآن في الشعوب الخاضعة لأوامره ، قلما أثره دين في نفوس منتحليه ، وربما لم يكن لدين من تأثير دائم كما كان للقرآن ، وما القرآن إلا القطب الحقيقي الذي تدور عليه الأمور في الشرق ، ونرى تأثيره في عامة أعمال الحياة . اهـ .

الحجاب :

ربما كانت أهم مسألة يحمل بها اليوم على الإسلام شيوع الحجاب في المسلمات عند سكان بعض المدن الإسلامية . ويدعى الشعوبيون المحدثون أن الضعف المستولى على بعض الممالك أتى من تحجب المسلمات ، لصده لهن عن مشاركة الرجال في مضمار الحياة العقلية والمادية ، وأن الحجاب أهاب بهن إلى حياة الكسل ، وحبب إليهن البهيمية ، فانحطت البيوت وخملت الأسر ، وفقدت العناية بتربية البنين والبنات ؛ وهكذا تسلسل الانحطاط في أهل الإسلام بهذا السبب الذي جعل المرأة أداة عبث ولهو للرجل ، على حين خولها الطبيعة حقوقاً حال الحجاب دون التمتع بها ، وضيقت الشريعة خناقها فتعطل نصف الأمة عن الجهاد .

هذه خلاصة دعواهم وقد وضع القرآن قانوناً للنساء في الآداب والحشمة والابتعاد عن التبذل والتبرج ، إلى غيرذلك مما فيه سعادة البيوت وهناؤها ، والبعد بالمؤمنين والمؤمنات عن عادات الجاهلية الأولى ، وسن لنساء الرسول خاصة سنة

التستر حتى لا يؤذين ، ولا يدخل عليهن وعلى الرسول بدون استئذان ، على ما كانت عادة العرب ، بل الأعراب يأتون ذلك بخشونة يأباها العقل السليم ، وتقضى بخلافها قواعد حسن العشرة : « يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ، ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون ، فإن لم تجدوا فيها أحداً فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم ، وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا ، هو أزكى لكم ، والله بما تعملون عليم ، ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتاً غير مسكونة فيها متاع لكم ، والله يعلم ما تبدون وما تكتمون » . « يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه[1] ، ولكن إذا دعيتم فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا ، ولا مستأنسين لحديث ، إن ذلكم كان يؤذي النبي فيستحيي منكم ، والله لا يستحيي من الحق ، وإذا سألتموهن متاعاً[2] فاسألوهن من وراء حجاب ، ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن ، وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً ، إن ذلكم كان عند الله عظيماً » . والآية الأولى ظاهرة المعنى ، ومعنى الثانية الحظر على المؤمنين أن يدخلوا بيوت النبي وعلى أزواجه للطعام والتحدث أو غير ذلك ، إلا إذا أذن لهم ودعاهم إلى طعام حاضر ناضج لئلا يطول مقامهم بحضرته ، وأمروا إذا طعموا أن يخرجوا وإذا سألوا شيئاً أن يسألوه من وراء الستر ، لأن الرسول كان يتأذى بمن كان يطعم ولا يستأذن في الخروج ، وأنه لا يجوز نكاح نساء الرسول من بعده لأنهن أمهات المؤمنين .

كان نساء النبي يخرجن بالليل[3] لحاجتهن ، وكان أناس من المنافقين يتعرضون لهن فيؤذين ، فشكون أمرهن فقيل ذلك للمنافقين ، فقالوا : إنما نفعله بالإماء . فنزلت هذه الآية : « يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من

(١) إدراكه وانتهاء حره .
(٢) متاعا : شيئا .
(٣) طبقات ابن سعد .

جلابيبهن ، ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين ، وكان الله غفوراً رحيما » . فأمرن بأن يخالفن زى الإماء ويدنين عليهن من جلابيبهن ، تخمر المرأة وجهها إلا إحدى عينيها . وجاء فى آية أخرى : « قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ، ذلك أزكى لهم ، إن الله خبير بما يصنعون ، وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها ، وليضربن بخمرهن على جيوبهن ، ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بنى إخوانهن أو بنى أخواتهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن ، أو التابعين غير أولى الإربة(١) من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ، ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن ، وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون » . وفى هذه الآية إشارة إلى التستر وإلى من يسوغ له أن يرى المرأة بزينتها من أهلها . وفسر المفسرون (وليضربن بخمرهن على جيوبهن) أى يسترن الرؤوس والأعناق والصدور بالمقانع(٢). وقالوا : إن الشريعة أباحت للمرأة أن تظهر وجهها وكفيها بل ذراعيها وقدميها . وبكشف الوجه لا يجوز أن نقول إن هناك حجاباً بالمعنى الذى فهمه المتأخرون . ومعنى (ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن) أى لا يظهرن حركات من شأنها أن تشعر الرجل بأن هذه المرأة متحلية بحلى وخلاخيل وغيرها .

ومن آيات الحجاب : « يا نساء النبى لستن كأحد من النساء إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذى فى قلبه مرض ، وقلن قولا معروفا ، وقرن(٣) فى بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى » . « والقواعد(٤) من النساء اللاتى

(١) أصحاب الحاجة إلى النساء .

(٢) جمع مقنعة ما تقنع به المرأة رأسها ، أى تغطى .

(٣) من القرار وأصله اقررن بكسر الراء وفتحها من قررت بفتح الراء وكسرها .

(٤) القواعد من النساء : هن اللائى قعدن عن الحيض والولد لكبرهن ، ويضعن ثيابهن من الجلباب والرداء والقناع فوق الخمار .

لا يرجون نكاحاً فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن غير متبرجات بزينة ، وأن يستعففن خير لهن ، والله سميع عليم » .

هذا هو الحجاب في الإسلام ، أما في الأمم القديمة السالفة فقد كان شائعاً منذ أقدم العصور في بابل وأشور وفي فارس والروم والهند ، وعند بعض أهل الجاهلية من العرب ، فاحتفظ الإسلام بالقسم المفيد منه . وقد شعر المسلمون بالحاجة إلى حجب النساء بعد أن استحكمت عوائد الحضارة والترف ، وذلك خوف الفتنة ، وصيانة المرأة ممن يؤذيها ، فاشتدت مع الزمن وطأة الحجاب في الشام والعراق وفارس لتأصله فيها منذ القديم ، ثم سرى إلى معظم الأقطار الإسلامية . وهذا في المدن خاصة . وكان الحجاب خفيفاً في الأندلس[1] ، في مجالس بعض أكابر الملوك وأركان الدولة وأجل رجال الخلافة ، تخالط فيها النساء الرجال . واختلف الحجاب باختلاف الأصقاع ؛ فمنها ما كان فيه متأصلا قبل الإسلام ، ومنها ما لا عهد له به ، فكان خفيفا كما هو الحال في بلاد القوقاز ، والبنت فيها لا تحجب إلى اليوم مادامت عانسا غير متزوجة . وقد وصف ابن بطوطة في رحلته زيارته للسلطان محمد أوزبيك في مدينة استرخان ، وذكر كيف كان النساء سافرات في قصره[2] ، مما دل على أن التتر أقل من العرب أو الذين دخلوا في العرب المستعربة في الأخذ بمذاهب الحجاب ، والسبب فيه أن التتر أو جنس الترك أقرب إلى البداوة منهم إلى عيش الحضارة ، وتحجب التتريات والقوقازيات إلى اليوم لا يعد شيئا ، ولذلك كان نساء الأتراك العثمانيين أقل نساء تلك المملكة تحجبا ، لأن التركيات منذ الدهر الغابر لا يعرفن الحجاب ، فكان استعدادهن ظاهراً منذ القديم لقبول الأتراك مبادىء الكماليين اليوم ، القائلة برفع الحجاب بالمرة على صورة أشد مما هو عند الفرنج .

ولو كان الحجاب معروفا أوائل الإسلام على نحو ما صار إليه في العصر الأخير والذي قبله ، لما تيسر للصحابيات والتابعيات وغيرهن من نساء العرب أن يصحبن

(١) طوق الحمامة لابن حزم .
(٢) رحلة ابن بطوطة .

أزواجهن فى الحروب ، وكان من نساء المسلمات الممرضات يسلمون إليهن الرثيث[١] أو المرتث ، ولطالما غزا الرسول بالنساء يداوين الجرحى ويحذين[٢] من الغنيمة . ومنهن الداعيات المحمسات والمعاونات للمحاربين على تخفيف شظف العيش ، ومنهن من كن يبرزن سافرات كسكينة بنت الحسين وعائشة بنت طلحة وغيرهما على ما اشتهر من جمالهن ، يجتمعن إلى الرجال من غير نكير[٣] ، وعائشة زوج الرسول هل كان يتأتى الأخذ عنها وعن غيرها من نساء الرسول وغيرهن لو كان النساء محجبات بغير الحجاب الشرعى .

وفى تاريخ الإسلام عشرات من الأمثال والحجج يحتج بها السفوريون المعتدلون ، وهم لم ينسوا أن من النساء من كن يحاربن بالفعل ، أو يجلسن وراء الجيش يحمسن الرجال ، فإذا ولى أحدهم من الزحف ينهلن عليه بالضرب والتقريع . وما فات القائلين بالحجاب أن تستر المرأة فى القديم كان على حالة يرضاها الشرع ولا يأباها المجتمع ، فما منع نساء المسلمات من أخذ العلم والسعى للرزق والرحلة والتنقل ، والعمل على ما فيه السعادة الزوجية والبيتية ، بما لم يخرج المرأة عن طبيعتها إلى طبيعة أخرى لم تخلق لها ، وليس لها الاستعداد الكافى للقيام بها .

وبهذا عرفنا أنه كان للحجاب صورة أخرى مثل التى نراها اليوم فى القرى والبوادى . وفى الحقيقة أن الشريعة حظرت الخلوة بالأجنبى والتبرج أمام غير المحارم ، وأى عقل سليم لا يستحسن هذا منها . وهل أعظم فى باب المغريات من تبذل المرأة فى خلوتها بالغريب ، وظهورها بمظهر من الزينة ناب عن المعقول وقانون الحياء ؟ ولو كان الحجاب غليظا كما يصوره بعضهم بحيث كان مانعا للمرأة عن العمل ، هل كنا نرى هذا العدد الدثر فى التاريخ من النساء المتعلمات والمحدثات والواعظات والأديبات وغيرهن منذ عهد الصحابيات إلى اليوم ؟ وهل كنا نرى نساء كثيرات

(١) الرثيث : الجريح (٢) يحذين : يعطين .
(٣) طبقات ابن سعد ، وبلاغات النساء لأحمد بن أبى طاهر ، والمرأة فى جاهليتها وإسلامها لعبد الله عفيفى .

ساهمن الرجال في إدارة الممالك ؟ أو ساعدن أزواجهن على أعمالهم العظيمة ، فكان شطر من توفيق الرجال يحسب لأزواجهم المتعلمات .

روى الجاحظ قال : لم يزل الرجال يتحدثون مع النساء[1] في الجاهلية والإسلام حتى ضرب الحجاب على نساء النبي خاصة ، وإن النساء إلى عهده من بنات الخلفاء وأمهاتهم فمن دونهم يطفن بالبيت مكشفات الوجوه ، ونحو ذلك لا يكمل حج إلا به . قال : ولا يكون محادثة إلا ومعها ما لا يحصى عدده من النظر ، إلا أن يكون عني بالنظرة المحرمة النظر إلى الشعر والمجاسد[2] وما تخفيه الجلابيب ، مما يحل للزوج والولي ويحرم على غيرهما ، ثم لم يزل للملوك والأشراف إماء يختلفن في الحوائج ويدخلن في الدواوين ونساء يجلسن للناس . وذكر أسماء كثيرات منهن ، وقال : كن يبرزن للناس أحسن ما كن وأشبه ما يتزين به ، فما أنكر ذلك منكر ولا عابه عائب .

لا جرم أن عادة الحجاب قد نفعت وأضرت في بعض الأقطار في العهد الأخير لخروج الحجاب عن حقيقته ؛ فارتكبت باسمه موبقات مؤلمة ، وأخر سير المرأة في مضمار الترقي ، فضاعت الحكمة منه أو كادت . وقد عالج هذه المسألة الاجتماعية الخطيرة بعض علماء الأمة في أوائل هذا القرن ، وفي مقدمتهم قاسم أمين ، فأخذته الألسن ، ولغطت بما كتب وتعاورت الأقلام ما كتبه بالجرح والتعديل ، ونجح الفريق الذي قال بقوله إلى حد لم يكن يتصوره ، وذلك لإثبات قضيته بالحجج المستمدة من الشرع وتاريخ الملة . على أن تيار القائلين بكشف الحجاب قد فاض بفعل المدنية الحديثة ، بل بفعل الطبيعة التي لا تبقي إلا على الأنسب . وقد أزال الأتراك حجاب نسائهم بقانون سنوه وعملوا به ، وكاد الحجاب عن المصريات يزول ، بدون أن تعمد مصر إلى تشريع جديد ، أو تلجأ إلى الشدة والضغط ، ونشأ ذلك من اختلاط الشرق بالغرب ، وأهل مصر من أكثر الأقطار الإسلامية اختلاطا بأهل الغرب . وقد رأى المستنيرون منهم بقبس الحضارة الحديثة ، أن مضار عادة السفور أقل من مضار عادة الحجاب ، فاختاروا طوعا أو كرها أخف الشرين ،

(١) رسالة القيان للجاحظ . (٢) المجاسد جمع مجسدة : القميص الذي يلي البدن .

وهكذا سفرت نساء بلاد إيران ، ولا يمضى زمن طويل حتى يزول الحجاب ، أو يدخله تعديل كثير فى الممالك الإسلامية كافة ، فيصبح النساء فى تحجبهن إلى حالة وسط لا إفراط فيها ولا تفريط .

وقد رأى قاسم أمين نفسه ، وحقا ما رأى ، أن الغربيين[1] قد غلوا فى إباحة التكشف للنساء إلى درجة يصعب معها أن تتصون المرأة من التعرض لمثارات الشهوة ، ولا ترضاه عاطفة الحياء . وقد غلونا نحن فى طلب التحجب والتحرج من ظهور النساء لأعين الرجال حتى صيرنا المرأة أداة من الأدوات أو متاعا من المقتنيات وحرمناها كل المزايا العقلية والأدبية التى أعدت لها بمقتضى الفطرة الإنسانية ، وبين هذين الطرفين حجاب وسط وهو الحجاب الشرعى اهـ . وقال هملتن من علماء الإنجليز : « إن أحكام الإسلام فى شأن المرأة صريحة فى وفرة العناية بوقايتها من كل ما يؤذيها ويشين سمعتها ، ولم يضيق الإسلام فى الحجاب كما يزعم بعض الكتاب ، بل إنه تمشى مع مقتضيات الغيرة والمروءة » .

وبعد فليس من المعقول ما وصلت إليه أكثر نساء الغرب من التبذل فى السفور وحالتهن فى المجتمعات والسمر والشوارع مما لا ينطبق كثيرا على المعقول ويخشى منه الفتنة ، والرجل رجل مهما تهذب ، والمرأة امرأة مهما ارتقت ، بيد أن عادة ألفها الغرب قرونا وأدخلها فى قانونه مختارا ، ليس للشرق الإسلامى ما يوجب عليه السير فيها على أثره ، فما يلائم الغرب قد لا يلائم الشرق ، وما كان لأمة أن تتحدى أمة أخرى لها مميزاتها وعاداتها ، لتحملها على قبول ما اصطلحت هى عليه . والحجاب نفسه قد كان مألوفاً فى الغرب إلى القرن الثالث عشر . ثم أخذ يرق حتى وصل إلى ما وصل إليه .

وما نخال عقلاء الغرب وعلماء الأخلاق فى أوربا وأميركا إلا مقبحين عادة التبذل التى صار إليها بعض النساء عندهم ، لما ينبعث عنها من المفاسد التى لا يسع مكابراً إنكارها . وأى عقل سليم تجرد من المؤثرات يقول مثلا بالرقص الغربى ،

(١) تحرير المرأة والمرأة الجديدة لقاسم أمين .

وما يتبعه من مخاصرة وضم وشم ؟ وإذا كان الرقص فنا من الفنون كما يقولون ، ليس فيه ما يدعو إلى مواقف التهم ، فلم لا يرقص الرجل مع الرجل والمرأة مع المرأة . على حين اصطلحوا أن يرقص الرجل مع المرأة إلا ما ندر . ولولا ابتذال الحجاب والتفلت من التصوّن المحمود ، هل كانت تبلغ الفتنة إلى هذا الحد ؟ ومن أجل هذا رأينا بعض المدن الأوربية ثابت إلى رشدها فكبحت بعض الشيء من جماح الجامحات في هوى السفور ، ومن الأمم من غالت في السفور حتى أداها ذلك إلى مذهب العري ، وتناغى في فائدته الجنسان على صورة لا يجوّزها عقل إنسان ، لأنها تقرب الآدميين من جنس الأعجم من الحيوان .

وفي الغرب اليوم كثير من العلماء ينادون بالويل والثبور لترك النساء البيوت واختلاطهن بالرجال في المعامل والمصانع ، ولا سيما بعد الحرب العامة ، فقد قال برتراند[1] رسل : إن الأسرة انحلت باستخدام المرأة في الأعمال العامة ، وقد أخذ النساء في الحرب يكتسبن رزقهن فاستقللن استقلالا اقتصاديا . وأظهر الاختبار أن المرأة تتمرد على تقاليد الأخلاق المألوفة ، وتأبى أن تظل أمينة لرجل واحد إذا تحررت اقتصاديا . وقال صموئيل[2] سميلز : إن البنات العاملات في المعامل حرمن التبصر وسلامة الرأى ، فهن سريعات الشعور بالاستقلال ، ينبذن ما لآبائهن من النفوذ عليهن ، ثم يغادرن بيوتهن وينهمكن فيما ينهمك فيه إخوانهن من الرذائل ، وتساعد البيئة التي يعشن فيها على تحريك شهواتهن البهيمية ، فيكن سببا في نشر الفساد والشر . وقال أحد علماء البلجيك[3] ، ولقد شوهد في كل زمن أن النساء عندما تهيأ لهن الأسباب للانتفاع بمواهبهن ولإحراز الشهرة ، لا يلبثن أن يصبحن مستخفات — كالرجل نفسه — بمزية الطهارة والشرف ، وإن من الملكات والممثلات والمؤلفات وذوات الأعمال في القديم من عبثن بالعفاف .

(١) مجلة الشبان المسلمين المصرية .

(٢) كتاب الأخلاق لصموئيل سميلز تعريب محمد الصادق حسين .

(٣) هل هناك خلق جديد — بحث في مجلة الآداب وعلوم الأخلاق والسياسة في بلجيكا .
Ya-t-il une nouvelle morale ? Bulletin de la classe des Lettres et des Sciences morales et politiques de Belgique (1930)

نشرت فى الغرب مئات من المجلدات والرسائل فى أكثر لغاته ، وأنشئت عشرات من الجمعيات والنقابات ، لتقف أمام التيار الجارف للمدنية الحديثة بفعل الفساد الذى نشأ من إخراج المرأة عن طورها وإمتاعها بحرية مفرطة كان يجزئها بعضها ، ومساواتها بالرجل وإخراجها عن أنوثتها ، وزحزحتها عن حظيرة بنات جنسها وقطعها الصلة بعملها الأبدى السامى ، وما هى فى الحقيقة إلا حبيبة وزوجة وأم وشريكة الرجل وأم أولاده وجزؤه المتمم ونصفه . إن المرأة فى الشرق متخلفة جداً عن اللحاق بأختها فى الغرب من حيث التهذيب والتأديب ، ولكن الشرقية فى الجملة أسعد من الغربية وأكثرعفة ، لأن الغربيات المتجردات بل المتزوجات اللائى يعملن مع أبناء جنسهن وبنات جنسهن فى جميع أصناف الصناعات فى الأرياف والمدن ، يكثر اختلاطهن فيصبحن عرضة لمثار الشهوات ويسهل على بعضهن إتيان المنكر بفقدان الوازع ، فيحتقرن الرجل والزواج والولد . وهناك الويلات التى يئن منها الغرب ، لأن الأعراض تباع فى هذه المطارح بيع السماح . والعفاف لا يعبأ به ولا يتطال إليه . وإلى هذا فالمرأة بطبيعتها ضعيفة ، وما كان تشريح الجنسين ونفسيتهما وطبيعتهما متشابهة قط . ومن العوامل فيها أنها تمرض مرة ومرتين فى الشهر ، فتخرج إلى طور غريب وتفعل أيام الحيض فى خلقها ، فيتأثر المجموع العصبي فيها من هذه الموجات الدموية . وإنا لنرى الغرب متوفراً منذ زهاء ثلثمائة سنة على تعليم المرأة وما استطعن مع هذا أن يأتين للناس بكاتبة أو شاعرة أو مؤرخة أو قصصية عظيمة ، بل لم ينجحن فى الطب ولا فى المحاماة ولا فى العمل فى دواوين الحكومة ، ومن نجحن كن بتراكيبهن الجسمية أشبه بتراكيب الرجال من حيث العضلات والقوى ؛ وما نجح النساء فى تولى الحكومات لو لم يكن لهن مؤازرون عظماء من الرجال يعملون كل شىء وينسبون ما عملوا للملكات . وكان من الملكات والأميرات كثيرات على جانب من التهتك والخلاعة ، وما تعففن عن غمس أيديهن فى الدماء . فالنساء لم يخلقن لعمل الرجال ولا للحرية ولا لتحمل التبعات ، وما برّزت المرأة إلا فى مسائل الإحسان وتعهد المرضى وتربية اليتامى إلى غير ذلك من أنواع البرّ ،

وهذا أيضا ما خرج بالمرأة عن أصل فطرتها ، وليس بالطارئ عليها في الحقيقة وإن ألبسته المدنية ثوبا قيل إنه جديد ، هـذه خلاصة ما قاله توتش في كتابه رفعة المرأة(١) .

وقال أحد عظمائهم في كتاب له إلى إحدى بناته : إذا ادعى فولتير أن النساء قادرات على أن يعملن كل ما يعمله الرجال ، فما هو إلا للتقرب من قلوب بعض الغواني ، فالنساء لم يأتين بأثر يذكر في ضروب الآداب ، فهن لم يؤلفن «الإلياذة» ولا «الإنياد» ولا « القدس المنقذة » ولا «فيدر» ولا «أتالي» ولا «روذكون» ولا « الميزانتروب » ولا « تارتوف » ولا « زهرة ميديسيس » ولا « أبولون دى بلفيدر » ولا « البرسته » ولا « كتاب الأصول » ولا « خطاب التاريخ العام » ولا « تلماك » ، ولم يخترعن الجبر ولا المجاهر ولا المناظر ولا مضخات النار ولا صناعة الجوارب الخ . وما قامت امرأة عالمة جديرة أن تعد في العلماء ؛ فالمرأة ليست في حال تستطيع أن تفوق فيها الرجل إلا بأنوثتها ، وهي متمردة إذا أرادت التساوي مع الرجل .

وقالوا إن علة هذا الإخفاق أن النساء بأسرهن عبيدات حواسهن وأعصابهن وقلوبهن ، لا ينجع فيهن اعتراض إذا خالف قانون الطبيعة يعني الحب ، وأنهن مجموعة عواطف تحس بالحاجة كل الإحساس وتخشى أن تقع فيها ، حتى لتضن بالابتسامة صادرة عن امرأة لا تنافسها ، وقالوا إن المرأة تحسن أن تضحك من مثيلاتها ، لكنها لا تحسن الإضحاك ، والرجل يحسن نقد نفسه ، كما يحسن نقد غيره ، وإنهن ليس لهن قدرة على التفكير الصحيح والتوسع اللازم لوضع الفكر المجرد والإنشاء الفني ، حتى إنهن في فني الطبخ وتفصيل الثياب ، وهما من أخص خصائصهن ، لم يبرزن فيهما تبريز الرجال ، فكان كبار الطهاة والخياطين في العالم من النساء . ذلك لأن تشريح الجنسين متخالف كل التخالف ، فالقامة وثقل الجسم أقل في النساء من الرجال ، وقوة الأعصاب في الفتيات أقل مما هي في الرجال بنحو الثلث ، وجماجم

(١) Teutsch. Le féminisme

البنات أقل استعدادا للنمو ، وأدمغتهن أقل وزنا ، حتى بالقياس للوزن المادى ، وقالوا : إن حاسة الشم والذوق فى النساء أقل مما هى فى الرجال[١] . انتهى .

الاسترقاق :

لشدّ ما أنحى أرباب الأهواء على الإسلام لتجويزه الاسترقاق ، مع أنه كان شائعاً كل الشيوع عند الأمم الغربية[٢] وعند جميع الأمم القديمة ، بل إن الرق نشأ مع حياة الإنسان[٣] وكان معروفاً فى كل العصور وعند كل الأمم إلى يومنا هذا . قالت فاليرى : وحاول أعداء الإسلام أن يحطوا من قدره لإقراره الرق ، ولكن حالة الرقيق عند المسلمين باديهم وحاضرهم هى أكثر سماحة مما يظن فى أوربا ، على ما أجمعت عليه كلمة السياح الغربيين . وليس من العدل أن يقابل بين الرق فى الشرق وما هو عليه فى أميركا . قالت : وإذا نظرنا إلى هذا الأمر نظرا تاريخياً نرى رسول الله قد تفوق أيضاً فى هذا الباب بصورة عجيبة ، واستشهدت بحديث : « لا يقل أحدكم عبدى أمتى ، وليقل فتاى فتاتى وغلامى » . قالت : وأى إنسانية أحسن من هذه ؟ .

كان الرق معروفاً فى شريعة موسى ، يسترق العبد سبع سنين ، ثم يعتق ويعامل بالحسنى ، وأعطى الرومان للمسترق حرية مطلقة على عبده ، يميته ويحييه إن أحب ، وربما بلغ عدد الرقيق فى بعض أدوار الرومان ثلاثة أرباع الأحرار . ولا يسترق العربى ، وما المسترق إلا من كان غير عربى ، أو أخذ بالشراء أو فى الحرب . وقد حبب الإسلام العتق للمالك أى فك رقبته ، ووعده العفو إذا هو أطلق سراح عبده أو أمته . وفى الكتاب والسنة آيات وأحاديث كثيرة فى الاسترقاق والعطف على

(١) تاريخ الأدب النسوى فى فرنسا للارناك
Larnac : Histoire de la littérature féminine.

(٢) أصل الأفكار الأدبية وانتشارها لوستر مارك :
Edward Westermark : L'origine et le développement des idées morales

(٣) كتاب الرق فى الإسلام لأحمد شفيق ، و « محمد المثل الكامل » لمحمد احمد جاد المولى .

الرقيق وحسن معاملته ، حتى كاد الرقيق يعد نفسه من الأحرار ، وأهم جزء في البيت الذي استرقه . والمسلمون يعاملون الرقيق كما يعاملون أنفسهم ، يوسعون عليه ، ويعلمونه ويثقفونه ، ويرفعون منزلته ، ويزوجون الرجل ، ويتزوجون الأمة ، تعجيلا لإنقاذهما من الرق . وعد الكتاب العزيز من القربات العظمى تحرير رقبة ، وما ملكت الأيمان ، ذلك لأن البلية كانت قد عمت وطمت العالم بالرقيق ، ففتح الإسلام مخرجاً لمن قضى عليه سوء طالعه أن يقع في يد من يبيعه . وكان للنخاسة في الشرق والغرب ، ولاسيما في بلاد اليونان والرومان ، سوق وأي سوق . وكان النخاسون في رومية يصاحبون الجيش الروماني يسترقون أولاد المغلوبين لاستعبادهم ، وتعريض نسائهم للجند يقضون أوطارهم منهن .

يقول وسترمارك : إن المؤرخين في الغرب بالغوا كثيراً في زعمهم أن الكنيسة عاملت الرقيق برفق ، فقد جاء القرن الثالث عشر وللسيد على عبده الحق المطلق في إحيائه وإهلاكه ، وكان يباع في جميع بلاد النصارى ، كما تباع السلع . قال : وكانوا يمنعونه من تعلم القراءة والكتابة ، ويعاقب من يخالف ذلك عقابا شديداً ، لأن الناس يستفيدون من جهله ، لأنه لا يعمل ما يراد به إذا تعلم . ونقل «لابوريولا»[1] أن من جرى سبيهم من أهل الكونجو إلى العهد الذي ألغى فيه الرقيق كان ثلاثة عشر مليوناً وربع مليون ، وأن استرقاق العرب بعد أن استولت إمارة عمان على زنجبار وممبسة وغيرهما من المستعمرات البرتقالية في الشرق ، كان أرحم بكثير من استرقاق الأوربيين في إفريقية وأميركا ، وأن الرقيق في يد العربي يعيش ويقتني ويكرم ، بخلاف الرقيق عند الغربيين . وقال إن الكونجو أفنى من أهلها خلال ثلاث وعشرين سنة عشرون مليونا من الأنفس على أقل تقدير .

كثر الرقيق أوائل الإسلام بكثرة الفتوح ، ومن الإماء من استولدهن كبار العرب فجاء منهن أولاد نجباء خدموا الإسلام وأدخلوا في العرب دما جديداً بتمازج

---

(١) شفق المدنية لأرتورو لابوريولا

عنصرين مختلفين[١] ، وكان إذا أعتق المالك عبده أو أمته يبقى له الولاء عليه أو عليها ، وهذا ما نفع المعتيق والمعتق ، حتى قال الرسول: «إن الولاء لحمة كلحمة النسب» . ويكون الرقيق غالباً من الروم[٢] والفرس والحبشة والسودان وغيرهم من الأمم المجاورة لجزيرة العرب والتى حاربت العرب . ومن هؤلاء الموالى من دان بالإسلام ، أو من ضرب عليه الرق ثم أصبح مولى ، وكثير من أبناء الأسرى الذين رباهم المسلمون وعلموهم القرآن والسنة شاركوا الصحابة وكبار التابعين من العرب ، فى العلم والتعليم ، ولم يوجد مصر إلا وفيه من الموالى المتعلمين عدد وافر ، ومن الأمصار ما كانت الغلبة فيه للموالى أكثر من فقهاء العرب .

كان المولى عند العرب فى المنزلة دون الحر الصريح ، وفوق العبد الرقيق ، والمولى مولى عتاقة ومولى تباعة . فمولى العتاقة هو الذى يكون عبداً أو أسيراً فيعتقه صاحبه ، فيصبح المعتق للمعتق مولى ، ومولى التباعة هو من يصطنع ويحالف

---

(١) قال الجاحظ كان الناس لا يرغبون فى السرارى، فلما رأوا القاسم بن محمد بن أبى بكر وسالم بن عبد الله بن عمر وعلى بن الحسين بن على وليس فى المدينة ولا فى الحجاز ولا بالعراق ولا فى الأرض مثلهم وهم من أولاد السرارى رغبوا فى السرارى . وكان معاوية يقول لولا بيعة ليزيد فى أعناق المسلمين لجعلتها شورى بين القاسم ومحمد . ولم يكن فى شبان بنى مروان مثل عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز فى الزهد والبيان والسداد وهو ابن أمة ، ولم يكن فى بنى مروان أشجع ولا آداب ولا أحلم ولا أجمع ولا أكثر فتوحاً ولا أيمن نقيبة من مسلمة بن عبد الملك وهو ابن أمة ، وكفاك باسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام وهو ابن هاجر وهى أمة . قال : وأربعة من أئمة الحسينية أولاد الإماء : وهم على بن الحسين وموسى بن جعفر وعلى بن موسى ومحمد بن على بن موسى ؛ فهؤلاء خلفاء الشيعة . وبنو العباس الذين هم خلفاء أهل السنة والجماعة أكثرهم أبناء الإماء .

(٢) جاء فى تاريخ غزوات العرب لرينو أن عدد المسلمين الذين تنصروا فى فرنسا كان كبيراً ، وهذه نتيجة طبيعية للحالة التى كانت يومئذ . ولكن الفرنسيين الذين اتخذوا الاسلام ديناً كانوا أكبر عدداً . فإن الغزوات الإسلامية الأولى لفرنسا ، وسبى المسلمين الذرارى من أهلها ، وما كان التجار يتجرون به من الرقيق ، كل هذا قد أدخل فى الإسلام عدداً لا يحصى من الافرنج . ومن المعلوم أن المسلمين يتلقون النصارى الداخلين فى دينهم بمزيد التساهل ، ويعنون بهم ويوفرون حظوظهم وأرزاقهم ، وبهذا كثر عدد النصارى الذين صبأوا عن دينهم ودخلوا فى الإسلام .

أى يستتبع ، وفى كتب الفقه فصول ضافية قلما تقرأ اليوم إلا للاطلاع على أحكام الرقيق قبل أن تقوم إنجلترا فى القرن الماضى فتنفق عشرين مليوناً من الجنيهات لتعتق فى مدة قصيرة سبعمائة وخمسين ألفا من هذا الصنف المظلوم من البشر . هذا غاية ما يقال فى الرقيق فى الإسلام ، وهى مسألة كان لها شأن عظيم فى كل مجتمع وحشى ومتمدين . وفى بعض الأرجاء فى إفريقية وآسيا التى قضى عليها أن ينزلها الغرباء مستعمرين اليوم شيء يشبه هذا الرقيق ولكن بأسلوب آخر ، كأن يمتلك الأبيض الأسود أو الأحمر امتلاك السيد عبده ، ليشغله فى أرضه ومعمله ، ويصرفه على هواه ، ولكنهم يسمون هذا استعماراً لا استرقاقاً .

ولا يسعنا ونحن فى موقف المؤرخ إلا أن نشير إلى ما أنزله الجنس الأبيض من الانجليز والألمان والفرنسيين والإيطاليين والبرتقاليين من أنواع العذاب فى الجنس الأسود فى إفريقية ، فقد جرّد الانجليز جنساً من الرعاة اسمهم الماتبليون من قواهم المادية بما أرادوهم عليه من التوقيع على معاهدات راغ فيها الذين أملوها كما تروغ الثعالب ، أملوها على شعب فطر على السذاجة وسلامة القلب ، ومن هؤلاء البيض من يغالون فى تدخلهم فى شئون شعوب لا تستطيع الدفاع عن نفسها ، وذلك للرغبة فى تملك الثروات الطبيعية والأخذ بكل حيلة للتسلط والتوسع ، وتاريخ الكونجو البلجيكية والكونجو الفرنسية يذكر بأبشع ضروب الاستثمار ، وأفجع أساليب الاستعباد . فقد اعتاد الأوربيون بعد أن يصادروا الوطنيين فى أملاكهم أن يطالبوهم على صورة ضرائب بتسليم عصارة المطاط (الكاوتشوك) ، وكان الوطنيون يقايضون عليه من قبل بالسلع الأوربية ، فعمد الغربيون لأجل استخراج مقدار أوفر من هذا العصير الثمين إلى أساليب من إرهاق الزنوج البائسين ، هى العذاب بعينه . يستحلون ضربهم وتعذيبهم وحجز أموالهم واستباحة نسائهم وإجاعتهم ، فنتج من ذلك أن ركن السكان إلى الهجرة فخلت الديار من أهلها — قاله أدمون دى موريل الانجليزى فى كتابه «ألم الجنس الأسود» .

ولقد قال أحد المبشرين الانجيليين[١] : إن الأوربيين قد جنوا على السلالة السوداء جنايات كثيرة لا مندوحة لهم عن التكفير عنها ، فانقرضت أكثر أمم الونغوى والفالوة والفكومى وغيرها بما أتاه من الحيف فيهم النخاسون البيض ، وكانوا يصطادون أبناءهم ويستعبدونهم ويبيعونهم ، وكان أكثر أرباح التجار البيض من تجارة السلاح والبارود والمسكرات ، فانقرض السكان بما فشا فيهم بواسطة الأوربيين من الفجور . اهـ . وقال جوهان[٢] هجورت أثناء كلامه على ما قام به دعاة النصرانية فى أوربا من التخريب : إنه خلت أرجاء كثيرة من سكانها ، على حين كانوا ينقلون ملايين من الزنوج من إفريقية إلى أميركا ليجعلوهم فى حكم الحيوانات الأهلية ، وقد أبادتهم الأمراض والخمور التى جاءوهم بها من أوربا ، وطوردوا وعوملوا بأنواع الشدة وأبادوا لهم الحيوانات التى كانوا يتغذون منها . وقال لابريولا : إن البرتقال وإسبانيا وهولاندة وانجلترا خربت كل شىء ، وكان تخريبهم أحياناً عن توحش . فقد خرب الإنجليز بنين فى أفريقيا سنة ١٨٩٦ ، يخربون ما يخربون خوفاً من المتوحش أو طمعاً وجشعاً أو لمجرد شهوة التخريب ، ليثبتوا أنهم أقوى ممن نزلوا عليهم . وتخريب سائر المدنيات نتيجة الفتح الأبيض .

وما أرحم الرق القديم بالقياس إلى هذا الرق الفظيع فى القرن العشرين .

المسكرات :

تدرّج الشارع فى النهى عن الخمر ، وقد سئل عن الخمر والميسر ، فأجاب بلسان القرآن : «يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس، وإثمهما أكبر من نفعهما » . ثم نهى المؤمنين عن الصلاة وهم سكارى : « يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون » . ثم جاءت آية النهى المؤكد : « يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل

(١) حاضر العالم الإسلامى للوثروب استودارد .
(٢) أزمة الحقيقة لجوهان هجورت :

Gohan Hjort : La crise de la vérité.

الشيطان، فاجتنبوه لعلكم تفلحون، إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر، ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة، فهل أنتم منتهون» . وعن أنس : لقد أنزل الله تحريم الخمر وما بالمدينة شراب يشرب إلا من تمر .

وكان تعاطي الخمر من عادات الجاهلية التي لم يقرّها الإسلام ، وهناك عادات كانت مألوفة أبقاها بحالها ، وحرّم أشياء من المأكولات لثبوت ضررها ، فقال تعالى : « حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهلّ لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع إلا ما ذكيتم، وما ذبح على النصب[1] » .

وفي الحق أن القول بصلاح المسكرات وعدمه لا يحتاج إلى مناقشة بعد أن ثبت لأمم الغرب أنها ضارة ، وأخذت تقاومها بكل حيلة ، لما عرف من إضرارها بالعقول والأجسام ، حتى قال كليمانسو من كبار ساسة فرنسا : إن الغَوْل (الألكحول) بالقدر الذي يتناوله كثير من أهل عنصرنا هو سم زعاف يخرب النشاط البشري بل يقضي على كل مجتمع . وقال هريو[2] من كبار ساسة فرنسا أيضا : إن معظم من في ملاجئ المجانين — بسبب الغول — يكلفون الحكومة نفقات باهظة كان الأولى بها أن تنفقها على المعوزين البائسين ، والأمة التي تبقي على هذه السخافات تحكم على نفسها بالفناء .

ومن غريب الآراء التي قال بها أحد علماء الأميركان قوله إن المسلمين[3] كانوا

(١) الميسر : كمجلس اللعب بالقداح أو هو الجزور التي كانوا يتقامرون عليها ، إذا أرادوا أن يسيروا اشتروا جزورا نسيئة أي بالدين ونحروها وقسموها ثمانية وعشرين قسما ، أو عشرة أقسام ، فإذا خرج واحد واحد باسم رجل رجل ظهر فوز من خرج لهم ذوات الأنصباء وغرم من خرج له الغفل . والأنصاب والنصب جمع نصاب وهي الأصنام . والأزلام : جمع زلم (بفتح الزاي وضمها مع فتح اللام) قدح صغير لا ريش له ولا نصل ، وكانت سبعة عند سادن الكعبة عليها أعلام ، وكانوا يحكمونها فإن أمرتهم ائتمروا وإن نهتهم انتهوا . ومعنى ما أهل لغير الله به أي ما ذبح على اسم غيره . والموقوذة : المقتولة ضربا . والمتردية : الساقطة من علو إلى سفل فماتت . والنطيحة : المقتولة بنطح أخرى لها . وما أكل السبع إلا ما ذكيتم : أي أدركتم فيه الروح من هذه الأشياء فذبحتموه .

(٢) الإيجاد لهريو . Herriot : Créer .

(٢) فلسفة الحضارة لتوفنر R. H. Towner : La philosophie de la civilisation

أيام تعاطيهم الخمور تزهر مدنيتهم ، وتأتى بأعمال جليلة فى الفتوح والأفكار ، والمسلمون أبناء شعوب تشرب الخمور ، وقد اشتهرت بالفاتحين منهم فى إسبانية خمور مالقة وشريش ، ولما استبدل المسلمون القهوة بالخمور فى القرن الخامس عشر ، سقطت الحضارة الإسلامية من شاهق مجدها ، بعد ثلاثة قرون مضت على إبدالهم الغول بالقهوة .

ولا شك أن هذا الرأى المدهش صادر عن رجل أولع بحب الخمر ، وشق عليه أن يرى أمته تحظر تعاطيها لما ثبت لها من إضرارها بالناس . وأى إيغال فى الخيال ، وتضليل للعقول ، وإفساد للتاريخ ، أعظم من أن يدّعى هذا المؤلف أن كل حضارة قامت فى الأرض تمت على أيدى شعوب تشرب الخمور ومنهم المسلمون ، وأن يزعم أن هؤلاء كانوا أرقى كعباً فى الحضارة لما كانوا يعاقرون الخمر ، مع أن الثابت فى القرون الأولى للإسلام أن أهله كانوا أقل شرباً للمسكرات ، بل إن من أهل الجاهلية من صانوا أنفسهم عن تعاطيها حفظاً لمروءتهم . ولذلك اشتد العرب يوم قيام دولتهم بالإسلام فى إقامة الحدود على الشاربين . وما نتلوه من أخبار مجالس الشراب فى قصور بعض الأمراء والخلفاء والعظماء مبالغ فيه ، بل منه الموضوع بلا جدال ، وقد لا يقصد منه إلا النادرة ، أو الحط من قدر ملك أو خليفة أو أمير أو كبير ، لأنه كان من أهم المطاعن فى إنسان كونه يتعاطى شيئاً من مذهبات العقول . والظاهر من مضامين التاريخ الإسلامى أن من ابتلوا من الأمراء والسلاطين بشرب الخمور ، واسترسلوا فى بلائهم ، كان من إدمانهم خراب دولتهم ، وانقضاء أيام سلطانهم بما نال أعداؤهم منهم لكونهم ما قدروا وهم يشرّبون يخمّرون أن يجعلوا لأعمالهم وأقوالهم وزناً ، وشُغلوا بأنفسهم أى بسكرهم ، وألقوا الأعمال على عاتق من ائتمنوهم فخانوهم .

وإذا كان تعاطى أقداح الراح يؤدى كما قال المؤرخ الأميركى إلى تأصل الحضارة فى الأمة ، وقيام مرها على أمتن الدعائم ، فما بالنا لا ندعو إلى الخمور نشربها حتى نستعيد حضارتنا السالفة ، ولا نأتى ما أتته أميركا اليوم من هذا الترتيب الجاف

كما يدعونه ، أى الذى يدعو إلى الامتناع عن الفول مهما كان نوعه ، ونفجو بذلك من العار فى احتساء القهوة السوداء ، مستعيضين عنها بالقهوة الحمراء والبيضاء والدكناء والصفراء !

هـذا الأميركى يشتط هذا الشطط فى التغنى بتأثير الخمور فى إنهاض الأمم من كبوتها ، وهو من جلالة القـدر على ما ظهر لنا من كتابه بحيث يستغرب صدور مثل هذه الآراء من مثله . وبنتام الإنجليزى[1] يقول فى القرن الماضى : « النبيذ فى الأقاليم الشمالية يجعل الرجل كالأبله ؛ وفى الأقاليم الجنوبية يصيره كالمجنون ، ففى الأولى يكتفى بالمعاقبة على السكر على أنه عمل سيئ ، وفى الثانية يجب منعه بطرق أشد ، لأنه شبيه بالتشرد ، ولقد حرّمت ديانة محمد جميع المشروبات المسكرة ، وهذا من محاسنها » .

وقال القس إسحق طيلر الإنجليزى خلال كلامه على انتشار الإسلام فى افريقية : « إن الإسلام حيث سار تسير معه الفضائل ، فالكرم والعفاف والنجدة من آثاره ، والشجاعة والإقدام من جنوده وأنصاره » . وقال : إنه يأسف لانتشار السكر والفحش والقمار بين السكان بانتشار دعوة المبشرين بينهم . ثم صرح بأنه يختار إسلاماً لا سكر فيه على نصرانية فيها سكر . وقال مونتيه : « الواجب على المسلمين أن يحتفظوا بما حظرته الشريعة عليهم من تناول المسكرات ، فإن فى هذا المنع قوّتهم وتماسكهم » .

الربا :

بقيت مسألة الربا الذى ادعى بعض الغيورين على مصلحـة المسلمين أن امتناع المسلمين من تعاطيه كان فيه ضعفهم وفقرهم ! والحقيقة أن المسلمين لما غالطوا أنفسهم فى مسائل الربا ، وتحيلوا لأخذه ، ونسوا الآيات الصريحة الواردة فى كتابهم بتحريمه ، أصيبت ثرواتهم بالنقص ، بل حالفتهم الفاقة والذلة . وها كم آيات الكتاب العزيز فى التحريم : « يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون » . « الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى

(١) روح الشرائع لبنتام ، تعريب أحمد فتحى زغلول .

يتخبطه الشيطان من المس[١] ، ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا ، وأحل الله البيع وحرم الربا ، فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله ، ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » . « يمحق الله الربا ويربى[٢] الصدقات والله لا يحب كل كفار أثيم » . «ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا مابقى من الربا إن كنتم مؤمنين ، فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله ، وإن تبتم فلكم رءوس أموالكم لاتظلمون ولاتظلمون ، وإن كان ذوعسرة فنظرة إلى ميسرة[٣] » .

وهذه الآيات صريحة لا تحتاج إلى شرح ، ولا سيما فى الأضعاف المضاعفة . وفسر المفسرون آية : « الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس » بأن الآخذين للربا لا يقومون إذا بعثوا من قبورهم إلا قياماً كقيام المصروع ، فلا يقومون من المس ، أى الجنون الذى بهم بسبب أكل الربا ، ويكون نهوضهم وسقوطهم كالمصروعين لاختلال عقولهم ، لأن الله أربى فى بطونهم ما أكلوه من الربا فأثقلهم[٤] . أما نحن الدنياويين فقد رأينا فى الربا بلاء عظيما غير ما عرفه منه الأخرويون ، رأينا كثيرين من أكلة الربا يصابون وأولادهم بالجنون أو بشىء يقرب من الجنون ، والأمثلة كثيرة فى أيامنا . ونعلل هذا السر فى جنون آكل الربا أنه يكون غير مطرد فى توازنه ، لا يملك اعتداله أبداً ، فهو يفرح كثيراً ويكتئب كثيراً ، ويحصر وكده ويكد ذهنه فى دائرة معينة أقل ما يقال فيها أنها حساب الأرقام على الدوام ، والتخوف مما تخبؤه الأيام . ومن ضيق المجال على عقله ضعف تفكيره . ومن قل تفكيره كثرت هواجسه ، وكانت البلاهة فابعدها أقرب إليه من فكه ، ومن كان هذا حاله جاء منه الأبناء المغفلون يحاولون أن يعيشوا من بقايا ما ورثوه من ثراء ، وقد يكون تبعثر فى حياة جامعه .

(١) المس : الجنون .

(٢) يربى الصدقات : يضاعف ثوابها ويبارك فيما أخرجت منه .

(٣) النظرة : الإنظار والانتظار . والعسرة : قلة ذات اليد . والميسرة : اليسار ، أى وقت اليسر .

(٤) تفسير البيضاوى .

عدّ الشارع الربا من السبع الموبقات أي المهلكات ، وهي : الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا وأكل مال اليتيم ، والتولي يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات . وقال : « لعن الله آكل الربا ومؤكله» . وأثبتت الأيام أن التوغل في الربا في الغرب أدى ولا يزال يؤدي إلى محو الثروات . وذلك لأن الربا الفاحش ، وأكثره فاحش ، يربح أكثر من ربح الصناعة والزراعة والتجارة ، فاعتماد الناس عليه وحده غبن عظيم ، وتعطيل للأعمال المثمرة ، لأنه قد يزهد الناس في التجارة وعمران الأرض واستثمار موادها ، فيعمدون إلى الانتفاع بأموالهم بطريقة الربا لما فيه من ربح لا تعب فيه ، وربح مضمون مؤمن ، قد تكون الخسارة فيه أقل من الخسائر في سائر ضروب المعاش . على أن الربا ينافي سنة الكون ، لأن من يأتيه ربحه بدون عناء ، يبسط يده في إنفاقه كثيراً ، كالمقامر لا يرى إلا سمحاً على الأغلب ، لأن ماله أتاه هيناً ليناً ، وإذا خسر تكون خسارته من أصل رأس ماله . ولقد رأينا بيوتاً عظيمة في مصر والشام كانت في هناء وسعادة ، فلما تطوحت في الربا دائنة ومدينة ، انقرضت على بكرة أبيها ، سواء في ذلك أهل الأديان السماوية الثلاثة . وكان لهذه المصافق المالية (البورصات) ، وهي أشبه بالميسر دخل كبير في محق الثروات .

على أن الإسلام رخص في استثمار الأموال إذا لم يشترط في الأول ربح معين ، كأموال المقتصدين في صناديق التوفير ، وحظر الاسترسال في الربا الفاحش ، فالمحرم هو ربا النسيئة ، أي إنساء[١] أجل الدين المستحق ، وهو أخذ الزيادة في المال لأجل تأخير ما في الذمة منه ، ويكون من شأنه أن يتضاعف ، ويخرب البيوت ويفسد العمران ، ويبطل فضائل التراحم والتعاون[٢] بين الناس . أما ربا الفضل فلا ضرر فيه ، ولذلك اضطر الفقهاء إلى القول بأن تحريمه تعبدي لا يعقل معناه . وقال الزجاج في تفسير قوله تعالى : «وما آتيتم من ربا ليربو في أموال الناس فلا يربو

(١) تأخيره .

(٢) مجلة المنار — م ٣١ .

عند الله » ، يعنى به دفع الإنسان النسيء ليعوض أكثر منه ، فذلك فى أكثر التفسير ليس بحرام ، ولكن لا ثواب لمن زاد على ما أخذه ، والربا ربوان ؛ فالحرام كل قرض يؤخذ به أكثر منه أو تجرّ به منفعة ، وماليس بحرام أن يهب مايستدعى به أكثر منه أو يهدى ليهدى له أكثر منها .

والربا محرم فى الشرائع الثلاث ، حرم فى التوراة والإنجيل والقرآن . واليهود تحرمه تحريماً قطعياً شبيها بتحريم الإسلام ، إلا أن التحريم مقصور على معاملات اليهود بعضهم مع بعض ، والإسلام جامع شامل عام ، وحكم النصرانية قابل للتأويل[١] ، وأجازت القوانين العقلية القرض بدون ربح ولا فائدة ، وأجازت التعاقد على الربح والفائدة إلى حد معين ، منعاً للربا الفاحش ، وحرمت ربا الربا إلا فى معاملات تجارية مخصوصة ضيقت فيها بقدر الإمكان ، وأجازت للدائن المطالبة بربح المال الذى يتأخر المدين فى أدائه ، ولو لم يتفق معه على ربح .

« كان[٢] القرض من جملة التبرعات التى تعدّ من أعمال البر والإحسان ، كما كان حسن القضاء وإيفاء الدين من جملة المعاملات الحسنة ، فكان المدين يمشى إلى صاحب الحق لأداء الدين بلا تقاض ولا مطالبة ويسلمه أجود مما عليه ، ويزيد عليه زيادة فضل ، لكنه غير مشروط ولا ملاحظ ، فحث عليه الشارع واستحسنه وجعل ثوابه أعظم من ثواب الصدقة ، فقال عليه الصلاة والسلام : الصدقة بعشر أمثالها ، والقرض بثمانية عشر » . لأن الصدقة تقع بيد المحتاج وغير المحتاج ، والقرض لا يقع إلا بيد المحتاج ، كما حبذ حسن القضاء وحث عليه فقال : « خيركم أحسنكم قضاء » ، فكان الأقدمون يتسابقون لذلك قرضاً واستقراضاً كما يتسابقون لأعمال البر والمعروف ، فما لبث زمناً حتى انقلب هذا الإحسان وعمل المعروف إلى متجر لتنمية المال بأسوأ الطرق ، وأقبح السبل المؤدّية إلى الإضرار بالناس وإتلاف مالهم ، وإخراجه من أيديهم مجاناً بلا رعاية جانبه أصلاً ، وهو الربا الذى عرفه

(١) المقارنات والمقابلات لمحمد حافظ صبرى .

(٢) هذا كلام كتب لى به صديق عبد المحسن الأسطوانى من كبار فقهاء الحنفية بدمشق .

الشرع الأقدس أنه فضل مال خال عن عوض بالكيل والوزن مشروط لأحد المتعاقدين ، فكان الدائن إذا بلغ الدين محله زاد في الأجل فيستغرق بالشيء الطفيف مال المدين بلا مسامحة ولا حط ، وهو الأضعاف المضاعفة التي حرمت بالنص . قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون» فلم يدرك الغرب مضرته ، بل رآه سهل المأخذ ، كثير المغنم ، ينمو بسرعة ، فاتخذه وسيلة للثروة ، وسبباً للعمران ، وندّد على الإسلام بتحريمه ، وجعل تركه سبباً للانحطاط ، ولم يدرك أن هذه الثروة التي بنيت على أساس الجور والعسف تضمحل بسرعة كما تحصلت بسرعة ، وهذا النمو السريع يعقبه اضمحلال سريع ويدهمه المحق المشاهد : « يمحق الله الربا ويُربي الصدقات » .

« ولما ظهرت الإفلاسات بكثرة وتتابعت ممن يتخذونه متجراً ، وبحث الباحثون في الأسباب ، تبين لهم أن أغلبها من الربا ، وبتجارب الأيام وتوالى الحوادث ، ظهر سر الشرائع التي حرمت الربا ، وحسبك حجة عليهم أنه جلب منفعة بخراب بيت أو بيوت ، فهو شبيه بالاحتيال والإغراء ، ليتوصل به آخذه إلى اقتناص مال غيره بلا عوض كالميسر ؛ وقد شاهدنا منه خراب بعض القرى واستملاكها ونزعها من أهلها ، بسبب الربا لما وقعت في مخالبه . والربا لا يعدّ من أسباب العمران ولا من وسائط الثروة . إذ ليس من حسن النظر إغناء رجل بخراب آخر ، ولا إثراء جماعة بسلب مال الآخرين ، بل هو المعول في تخريب الثروة والفتك بالتاجر والزارع الذي ندر أن يفلس بسبب آخر غير الربا ؛ فلذا حرمه الله تعالى ، وشدّد على متعاطيه ، وأعلن بالحرب عليه فقال : (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين، فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله ، وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم ، لا تظلمون ولا تُظلمون) » .

وبعد فهل مضرة محسوسة أكثر ظهوراً في هذا العصر من تأثير الربا في مجموع الهيئة البشرية . وقد رأينا من أهم العلل في تقلقل الحالة الاقتصادية في العالم التطوح في الاستدانة والإدانة على طريقة توسعت حتى ظن بعض قصار النظر أن

هذه الثروات هي حقيقة ملموسة . مع أن الأيام أثبتت أنها كانت ثروات موهومة ، أو سرابا بقيعة[1] حسبها الظمآن ماء . وما وقع بعد الحرب العالمية من ضروب الإفلاس فى المصارف عند كبار الأمم المتمدنة أقوى دليل على ماينجم من مضرة بهذه الذريعة الكاذبة .

التصوير والنقش :

يقولون إن حظر الشريعة الإسلامية استعمال الصور المجسمة كان من دواعى تقهقر المسلمين أيضاً . ويعاب ذلك على الإسلام ، لأن التصوير من أهم أدوات الثقافة . وهذه من المسائل الدقيقة فى المدنية الإسلامية تحتاج إلى بسط طويل لا تتسع لها هذه الصفحات القليلة . ولعل نكتة النكات فى هذه المغالطة كون بعضهم يكتفون من الأمور بظواهرها ، دون التعمق فى أسرارها وأصولها ، فيرسلون أحكامهم عفو الساعة ، ويستنتجون استنتاجات ضعيفة ، ناسين أن الإسلام الداعى إلى التوحيد ، والعمل على إقصاء العرب عن عبادة الأوثان قد منع التماثيل ، وقضى على الأوثان لأول عهده ، مخافة أن يساق المسلمون بالتقليد إلى عبادتها ، على ما كان العرب فى الجاهلية ؛ فالسبب كان دينياً محضاً لأول الأمر ، وبولغ فى الحظر سداً للذريعة ، والدين غض ، وعهد العرب بالأصنام قريب . لم تهتم الشعوب السامية كثيراً بالتصوير والنقش ، لبعد ذلك عن طبيعتها وطبيعة أديانها . وهذا دين موسى قد حرم التصوير ونحت التماثيل فى التوراة ، وفن التصوير[2] والنحت عند اليهود عبارة عن نحت الحجر وتطريق المعادن والنقش على الخشب . وقد جاء فى سفر الخروج (الإصحاح العشرون) : « لا تصنع لك تمثالا منحوتا ولا صورة ما مما فى السماء من فوق وما فى الأرض من تحت وما فى الماء من تحت الأرض »

(١) القاع : الأرض السهلة المطمئنة ، ج : قيع وقيعة وقيعان ، بكسر أولهن .

(٢) تاريخ مدنية إسرائيل لبرتوله :

Bertholet : Histoire de la civilisation d'Israël.

ما يقضي بالحيلولة دون كل ارتقاء في هذا الباب . ولذلك كان التصوير عند أبناء إسرائيل في حالة ابتدائية ساذجة .

وليس التصوير والنقش مما أولع به العرب كثيراً لبعدهما عن طبيعة عنصرهم ، اللهم إلا إذا صح ما نقل عن عرب اليمن على عهد ملوك حمير والتبابعة ، وما كان من التماثيل في الكعبة ، وما روى من أنه كانت لهم في الحجاز أصنام جميلة كأجمل التماثيل[١] . وأفادنا التاريخ مع هذا أن التصوير ونحت التماثيل والنقش كانت معروفة في كل دور من أدوار الدول الإسلامية[٢] السالفة ، ولكن بقيود قليلة غير ثقيلة . وقد عهد التصوير والنقش عند الأمويين في الشرق ، والأمويين في الغرب ، وعند العباسيين في العراق وفارس ، والفاطميين في مصر ، وفي كثير من الدول الخالفة من غير حرج ولا نكير . وكلما أمنوا غائلة السجود للأصنام ، وابتعدوا عن عادات الجاهلية الأولى ، تسامحوا بوضع الصور والتماثيل في القصور والدور والحدائق . بيد أن التصوير والنحت لم يكونا على حصة موفورة عندهم ، كما هو الحال في الدول الغربية الحديثة .

ويقول سيديليو : إن فني النقش والحفر كانا راقيين عند عرب الجاهلية ، وقد صنعوا تصاوير البشر وتماثيل الأرباب ، فجاء القرآن بمنعهما فوقفا عن التقدم ، وجاء العباسيون فاشتغلوا بهما وتقدموا في مضمارها اشتغالهم بفني الموسيقى والبناء .

وإن ما ظهر في العهد الأخير في الجدار الداخلي الغربي من الجامع الأموي بدمشق من الفسيفساء العربية التي صوّرت فيها الأشجار والأمصار مثالا من ولوع القوم منذ القرن الأول بهذه التزاويق . وعثروا[٣] في سر من رأى وهي من بناء المعتصم العباسي ، على غرف وأبهاء زينت جدرانها بتصاوير شرقية بين بارزة وغائرة في الجص ، وصور ملونة للآدميين ، وغيرهم . وصور المتوكل في قصره في سامرا بيعة فيها رهبان ، وأحسنها صورة شهار[٤] البيعة . أما القصور المصورة في الأندلس

(١) الأصنام لابن الكلبي والإكليل للهمداني . (٢) خطط الشام للمؤلف .

(٣) مجلة الهندسة م ٨ ص ٣ — ٩ و ٥٠ — ٥٥ بحث لأحمد تيمور .

(٤) الشهار الرجل الذي يسهر في الكنيسة ليحافظ على القنديل لكي لا ينطفيء (انستاس الكرملي) .

فيطول ذكرها ، ومنها الزهراء أو مدينة الزهراء التى بناها عبد الرحمن الناصر على اسم جاريته ، ونقش صورتها على بابها ، وكان فى كل دور من المألوف تصوير جدران الحمامات فى بغداد ودمشق . وعمل خمارويه فى القرن الثالث مجلسا فى القاهرة[1] برواقه سماه بيت الذهب طلى جدرانه كلها بالذهب المجال باللازورد المعمول فى أحسن نقش وأظرف تفصيل ، وجعل فيه على مقدار قامة ونصف صوراً فى حيطانه بارزة من خشب معمولة على صورته وصورة حظاياه ، والمغنيات اللاتى يغنينه ، بأحسن تصوير وأبهج تزويق ، وجعل على رءوسهن الأكاليل من الذهب الخالص الإبريز الرزين ، والكوادن[2] المرصعة بأصناف الجواهر ، وفى آذانها الأجراس الثقال الوزن المحكمة الصنعة ، وهى مسمرة فى الحيطان ، ولونت أجسامها بأصناف أشباه الثياب من الأصباغ العجيبة .

ثم إننا لو رجعنا إلى تاريخ التصوير والنقش عند الغربيين أنفسهم لما رأيناها بلغا فى عصر من عصور الغرب الدرجة التى وصلا إليها الآن بعد أن ارتقى كل فرع من فروع الحضارة ، ويعذر العقل الغربى اليوم إذا تعذر عليه أن يقبل كيف تقوم مدنية بغير تماثيل وتصاوير وتهاويل ، وقد قبلت النصرانية بعض ما كان فى الوثنية من العادات والأوضاع على نحو ما فعل الإسلام ، فأقر أموراً بل أحكاماً كانت من مألوف الجاهلية ، لم ير فيها كبير ضرر فسكت عنها[3] . ولكن شدد الإسلام فى القضاء على الأصنام لأن التوحيد أول شرط فى الهداية الإسلامية ، ولا توحيد مع أصنام وأوثان ، خصوصا فى الصدر الأول .

ومن الإنصاف أن يعتبر القائلون بقصور العرب فى هذا الشأن بارتقاء أصناف العلوم والفنون مع الزمن ، وأن العقل البشرى يرقى الجيل بعد الجيل ، ويكتب له فى آخر الأمر الإبداع ، وهل من العدل أن نتطلب من مدنية قامت قبل ثلاثة

---

(١) خطط المقريزى . (٢) ثياب الخدر .

(٣) منها دية النفس مائة من الإبل . ومنها اتباع حكم المبال فى الخنثى ، ومنها البينونة بطلاق الثلاث .

عشر قرنا ما نتطلبه من حضارة قامت منذ أربعة قرون ، تحمل معها مدنيات الأمم الغابرة بأسرها ، ولعمرى هل يضر المدنية العربيـة أن لا يمهد فيها الـكهرباء والبخار ، ولا التمثيل والسينما ، وهل يسقط قدرها قصورها بعض الشيء في إقامة التماثيل واصطناع التصاوير والتزاويق . وهـذه أمم الغرب على كثرتها نجد بينها لعهدنا تفاوتاً في الغرام بالنحت والنقش والتصوير ، مع أن كل واحدة منها تسير على ما سارت عليه جارتها ، ولا تفتأ تقتبس مما عندها كل جديد ، لاتحادها كثيراً في الدين والبيئة !

إن العلم كما يقول شارل ريشه يسير إلى الأمام بسرعة تحير العقول ، ومع هذا لم يبرح فتياً غض الإهاب . وعلى ما كتب لطاليس وأرخميدس من النبوغ لم يعرفا شيئاً مما يعلم اليوم في المدرسة الابتدائية . وأجهل شاب حاز الشهادة الثانوية يحسن أموراً كثيرة كان جاليله يجهلها بالمرة . ولم يمض من عهد فرنكلين إلى إنشتين مائة وخمسون سنة كاملة ، ولـكم تقدم العلم في هذه الحقبة ، ولـكم تبدلت التصورات والأفكار ، ولم يكن يعرف علم مطمورات الأرض من النبات وغيره (باليونتولوجيا) ولا علم الجراثيم ولا الحاكي ولا الطيران ولا السكك الحديدية ولا الحل الطيفي . فعمر الإنسانية العلمي لا يقدر له أكثر من مائة وخمسين سنة ، وهي أربعة أجيال ، ترى وأنت ترى ، أن هذا العمر غير طويل . اهـ .

وقال سنيوبوس[1] : « لم يأت زمن في تاريخ البشر تبدلت فيه الأسباب المادية في الحياة بسرعة تبدلها في القرن التاسع عشر في أوربا . وكان هذا الانقلاب نتيجة الاختراعات التي قامت بالتجربة فقط ، أو بتطبيق أساليب العلوم العملية ، وكثير منها ينتهي إلى الثلث الأخير من القرن الثامن عشر ، بيـد أن نتائجها العملية لم يشعر بها في جمهور الشعوب في أوربا قبـل أواخر حرب الإمبراطورية الفرنسية ، فتغير الحياة المادية لم يبدأ إلا بعد سنة ١٨١٤ ، فهو أعظم حادث عصري ، بل هو

(١) تاريخ السياسة الأوربية الحاضرة لشارل سنيوبوس .
Charles Seignobos : Histoire politique de l'Europe contemporaine.

حادث دولي ، لأن تلك الاختراعات أوجدتها عقول العلماء والمخترعين من جميع الأمم ، فهي مشتركة بينهم ، بحيث يتعذر كل حين تمييز من له الحظ الأوفر من الأمم من هذه الخدمة ، لانتقالها من أمة إلى أخرى مفيدة لها كلها على السواء » .

وعلى هذا فليعذرنا الذين طالما أوجعوا رءوسنا ، وحاولوا إذلال نفوسنا ، لقصور أجدادنا في التصوير ، وما القصور في الحقيقة إلا قصور الزمن ، وربما كنا فقنا فيه ، لو ظللنا على تعهد مدنيتنا المسكينة . يقول جوتيه : إن محصول المدنية العربية في العلم على اختلاف أنواعه يفوق محصول المدنية اليونانية كثيراً . ذلك لأن العلم العربي كانت له أصول قديمة ، أما فيما يتعلق بالفنون والآداب فإن دائرة اليونان أوسع من دائرة العرب بكثير ، فقد كان قدماء المصريين نقاشين مبدعين ، وترك سكان بين النهرين صوراً نصفية جميلة ، أما خلفاؤهم فليس لهم تصاوير ولا تماثيل ، ما خلا تزييناتهم الهندسية ، وهذا نقص غريب . فقد رأوا أمام أعينهم نحو ألف سنة النحت اليوناني والنقش والتصوير البيزنطي ، فتخلوا عن كل ذلك دفعة واحدة .

قال : وينبغي أن نقدر في التصوير والنحت اليوناني والبيزنطي أن تمثيل الصورة البشرية كانت تمثيل الصورة الإلهية ، سواء كانت صورة المسيح أو أبولون أو غيرها من تماثيل الوثنيين . ولا يفوتنا ذكر من قاموا بإنكار تكريم الصور البيزنطية ، وأن فكرة المولى لم تنشأ في مصر ولا في كلدة بل نشأت في اليهودية ، ثم غرست في الإسلام أي غرس . وما فكر اليهود قط أن يصوروا « يهوه » ، ولم يجوّز المسلمون أيضاً تصوير الله ، وصوّر النصارى المولى فقط ، ومثلوه في لحية بيضاء وأجلسوه في السحاب . والمظنون أن الهندسة العربية البديعة كانت غريبة عن الماضي ، لا صلة بينها وبين القبور والمعابد المصرية ولا بين قصور الأخمانيين ولا مع الهندسة البيزنطية التي نشأت منها ، بل هي إبداع جديد . اهـ .

هذا وقد ثبت أن الرسول[1] أقر نقود العرب في الجاهلية ، وكانت ترد من

(١) خطط الشام للمؤلف مجلد ٤ ص ١١٢ .

الممالك الأخرى وهى مصورة ، وضرب عمر الدراهم على نقش الكسروية وشكلها وبأعيانها ، وضرب معاوية دنانير عليها تمثال متقلد سيفاً ، واستعمل زيد بن خالد الصحابى الستر الذى فيه صور ، ولم ينكر الناس عمله ، وكانت تأتيهم من اليمن ثياب وستور وحجال فيها تصاوير ، واستعمل يسار بن نمير مولى عمر بن الخطاب وخازنه الصور فى داره ، وصنعت الصور فى دار مروان بن الحكم وسعيد بن العاص وهما من التابعين . فلم يحرم الإسلام إذاً صناعة نافعة فى كثير من العلوم والأعمال ، ويحتاج إليها فى حفظ الأمن وفنون القتال . وكان تصوير الأشخاص بمنزلة تصوير النبات والشجر والحيوان فى المصنوعات .

وقد أبقت الأيام فى دور الكتب والآثار كتباً كثيرة مصورة من عهد العباسيين وبعدهم . ويقول محمد عبده : « ويغلب على ظنى أن الشريعة الإسلامية أبعد من أن تحرم وسيلة من أفضل وسائل العلم ، بعد تحقيق أنه لا خطر فيها على الدين ، لا من جهة العقيدة ولا من جهة العمل » . وفى التاريخ العام : «أن الإسلام حظر تمثيل الصور الآدمية . ولكن هذا الحظر لم يمنع الخلفاء من أن يكون فى قصورهم صور وتماثيل ، ومع هذا لم يخلف العرب فى النقش ولا فى التصوير آثاراً خارقة للعادة » . وهذا هو الصواب .

العرب قبل الاسلام

طبيعة بلاد العرب :

لا يحسن تصور حالة العرب فى الإسلام إبان عهد حضارتهم ، إلا إذا ألقينا نظرة عجلى على الثابت من تاريخهم فى الجاهلية ، وعلى آثارهم وعلمهم وثروتهم ، ولذلك يتقاضانا الوصول إلى هذه النتيجة أن ندرس حالتهم فى معظم مظاهرها ، لنتدرّج بهم من جزيرتهم إلى حيث درجوا من البقاع التى حلوا فيها ، وتمثلوا حضارة القدماء ، وانقلب فى الجزيرة بالإسلام طورهم الدينى والأخلاق ، كما انقلب فى الأرجاء المفتتحة طورهم المدنى والاجتماعى .

من الثابت أن طبيعة ديار العرب تختلف باختلاف بعدها وقربها من البحر وانخفاضها وارتفاعها عنه ، فجبالها ليست كسهولها ، وأواسطها تختلف عن أطرافها ، فليست الجزيرة إذاً نسقاً واحداً بخصبها واعتدالها . وفى الجزيرة واحات فيها نخيل وأعناب وبقول وحبوب ، وفى جنوبها أراض عالية ومنخفضة فيها الحرارة والبرودة ، وفيها المياه وإن قلّ الجارى منها ، وتكثر أمطارها وإمراعها ، ويقل الخصب فى الحجاز اللهم إلا فى بعض أنحائه كالطائف واليمن أعمر الأقاليم العربية ، ولذلك دعيت بالعربية السعيدة ، وعهدت لها مدنية قديمة ، وقامت فيها دول لأن سهولها وجبالها ممرعة ، وفيها من الحاصلات ما لا يوجد فى غيرها ، كالطيب والورس والكندر والعصب والشب واللبان والعقيق وخشب البنك والمرق من الجزع . قال ابن[1] الفقيه : « وباليمن من أنواع الخصب وغرائب الثمر وظرائف الشجر ؛ ما يستصغر معه ما ينبت فى بلاد الأكاسرة والقياصرة ، وقد تفاخرت الروم وفارس

(١) صفة جزيرة العرب للهمدانى .

بالبنيان وتنافست فيه، فعجزوا عن مثل غمدان ومأرب وحضرموت وقصر مسعود وسدّ لقمان وسلمين وصرواح ومرواح وبينون وهندة وهنيدة وفلثوم بريدة».

وفى جبال العرب التى لا تكاد تنقطع سلسلتها من شمالها فى أرض الشام حتى الطائف وصنعاء وما وراءها من الاعتدال، ولطف الهواء وطيب الماء، ومثمر الشجر، ما يستغرب وجوده، لأن الطائف يعلو ١٦٠٠ متر عن سطح البحر، وأبها فى اليمن ٢٢٧٥، وصنعاء ٢٣٤٢، وكوكبان ٢٠٠١؛ وفى اليمن والحجاز معادن كثيرة كالحديد والفضة والذهب. وهكذا يقال فى عمان وحضرموت وهجر «البحرين» واليمامة «نجد» والشحر والأحساء.

دول العرب القديمة:

قامت فى الأعصار القديمة عدة دول فى هذه الجزيرة أو شبه الجزيرة ضاعت معظم أخبارها؛ فمنها دولة العماليق نسبة لعمليق بن لاوذ بن سام، وكانت على حالة بداوة فى الصحراء، ممتدة من العراق إلى العقبة، ثم لما قويت عصبيتهم، تغلبوا على بابل، وأنشأوا دولة قبل المسيح بخمسة وعشرين قرناً دعيت دولة الساموآبيين، ومنهم ظهر الملك حورابى[1]، ويرى بعض الباحثين أنه عربى، فتغلب على مملكة أشور، وكانت دولته دولة راقية بآدابها وماديتها. ويدل ما اكتشف من شريعته على أن هناك أمة راقية ومدنية لا بأس بها. ولما تغلب الأشوريون على تلك المملكة اضطهدوا العرب، فهاجر قسم منهم إلى غرب الجزيرة وجنوبها.

ومن دولتهم دولة الرعاة أو عرب الشرق أى الهيكسوس، دخلوا مصر من أرجاء البحر الأحمر قبل المسيح بثلاثة وعشرين قرناً، واستولوا على الوجه البحرى من بلاد مصر، وجعلوا عاصمتهم «صان» حتى أجلاهم عنها تحوتمس ملك ثيبة

(١) هو سادس ملوك هذه الأسرة. قال ولفنسون: لا يعلم بالتحقيق كم من القرون ظل حكم هذه الأسرة، لأن تعيين التاريخ فى حوادث الأقدمين عسير جداً.

فى الوجه القبلى من صعيد مصر حوالى سنة ١٧٠٠ ق . م . وأسس العرب النازحون من أشور دولة عاد الأولى فى جنوب الجزيرة ، قبل الميلاد بعشرين قرنا ، وكانت منازلهم فى الأحقاف ، بين اليمن وعمان . وكانت للعرب دولة فى شرق اليمن فوق حضرموت يقال لها دولة المعنيين . قال الباحثون فيهم إنهم كانوا يقومون على زراعة الأرض فى سهول حضرموت وسفوح جبال اليمن ، وقد أقاموا السدود وفتحوا الخلجان . وهناك دولتان أو مجموعتان من القبائل يرد ذكرها فى التواريخ العربية وهما طسم وجديس ، كانتا تنزلان اليمامة شرقى الأرجاء التى يطلق اليوم على أكثرها اسم نجد ، وكانت الحجر أو القرية عاصمة طسم ، ونجد اليمن غير نجد الحجاز ، غير أن جنوبى نجد الحجاز يتصل بشمالى نجد اليمن . وبين النجدين وعمان برية ممتنعة كما يسميها ابن حوقل . وهى الربع الخالى الذى اجتازه فى العهد الأخير أحد أرباب الرحلات ووصفه أحسن وصف .

ومن دول العرب دولة ثمود ، وأصلها من اليمن ، ونزلت مدائن صالح ، وما تركته من العاديات والنواويس شاهد بمدنيتها . ومنها دولة قحطان كانت شمالىّ جزيرة العرب ، وأهلها من جملة من نزح إلى اليمن بعد اضطهادهم فى بابل . وأنشأوا دولة فى اليمن سميت دولة سبأ الأولى ، ودولة سبأ الثانية هى مملكة حِمْيَر ، وهذه قامت على أنقاضها ، وكانت مقطعة الأوصال ، لم تجمع شمل اليمانيين كالدولة الأولى . وللعرب من الدول دولة كِندة ، وكندة بطن من كهلان ، كانت نزحت من اليمامة وسكنت شمالى حضرموت ؛ فجعل ملك حمير سيدهم حجر بن عمرو ملكا على العرب ، فاتخذ عاصمته بطن[١] عاقل ، وأنشأت العرب دولة تنوخ فى العراق وخلفهم اللخميون . ولما تغلب الرومان على الشام وما إليها اعتمدوا على بنى غسان ، وأصلهم يمانيون نزحوا بعد سيل العرم . فجعلوهم أقيالا يرابطون فى سِيف البادية[٢] ليمنعوا عن

(١) بطن عاقل : موضع على طريق حاج البصرة بين رامتين وأمرة (ياقوت) .

(٢) القيل ، ج أقيال : الملك الصغير . والسيف بكسر السين : الطرف .

المعمور اعتداء البوادى من الجنوب ، ويأمنوا غائلة ملوك الفرس من الشرق . وكان هؤلاء يستخدمون ملوك الحيرة للغرض نفسه ، أى لاتقاء عادية الأعراب وعادية الرومان من غرب بلادهم .

هذا ما عرف من نشأة الدول العربية ، وربما تداخل بعضها فى بعض ، وقد قسم علماء التاريخ العرب إلى قحطانية وعدنانية ، والقحطانية سكان اليمن ، والعدنانية سكان الحجاز، وقسموا العرب إلى ثلاثة أقسام : بائدة كعاد وثمود وجُرهم الأولى ، وعاربة وهم عرب اليمن من ولد قحطان ، ومستعربة وهم أولاد إسماعيل سكان الحجاز . وقد سبق القحطانيون العدنانيين فى الحضارة لقرب ديارهم من بحرين ، بحر القلزم والبحر الهندى ، ولأن أرضهم خصبة ، وهم نقطة اتصال التجارة بين الشرق والغرب ، وكان القحطانيون والعدنانيون يتكلمون قبيل الإسلام لغة واحدة ذات فروق طفيفة .

ويقول بعض المؤرخين إن تلك الدول التى أنشأتها العرب خارج أرضها ، كدولة الرعاة فى مصر ، ودولتهم فى أشور ، ودولة الأنباط فى سلع ، ودولة أكسيوم (أليكسوم) التى أنشأها اليمانيون فى الشط المقابل لأرضهم ، كلها عربية . وكذلك دولة تدمر وأصل القائمين بها عرب ، ودولة الإيتوريين التى استولت على اللبنانين الشرقى والغربى ، وامتدت إلى فينيقية وجعلت عين جر (عنجر) فى البقاع عاصمتها الأولى ، ثم طرابلس عاصمتها الثانية ، كان أصل القائمين بها عربا من الجيدور وحوران — أن تلك الدول التى أنشأتها العرب كانت بفضل تفاهمهم[(١)] بالعربية مع اليهود والحبش والكلدان والأشوريين والفينيقيين . إذ كان عهد هذه اللغات قريبا بالتشعب فلم يكونوا يحتاجون إلى لغة أخرى للتفاهم مع تلك الأمم ، بل كانت العربية تكفيهم فى التخاطب ، وليس بينها وبين اللغات الأخرى كبير فرق ، وإن كان فكالفرق بين اللغتين النروجية والسويدية ، أو بين الصربية والبلغارية ،أو بين البرتقالية والإسبانية ، أو بين العربية الفصحى وإحدى اللهجات المتعارفة اليوم.

(١) تاريخ التمدن الإسلامى لجرجى زيدان .

وأهم ما حفظ ديار العرب من اكتساح غيرها لها من الأمم في غابر الدهر، كون العرب أهل شدة وبأس، وأباة ضيم لا ينامون على الثأر، ويصبرون على شظف العيش ويتبلغون بميسوره، وليست الرفاهية من شأن أكثر المعمور من أرضهم. ولذلك خاب الفرس والرومان والفراعنة والحبشة يوم حاولوا أن يستولوا على اليمن والحجاز وما إليهما، مقدرين أن جزيرة العرب لا تساوي اكتساحها، وأن من الصعب إجراء الأحكام على أهلها، لبعد المسافات في فلوات لا أول لها ولا آخر. قال جويدي[1] : إن الرومان فتحوا جميع العالم المعروف، وحاولوا على عهد الإمبراطور أغسطس أن يستولوا على بلاد العرب، ففتحوا مأرب عاصمة سبأ، ثم ردوا عنها خائبين. وقال: إن «أدينة» الذي كان معروفا عند الرومان باسم أداناتوس (Adenatus) ويعد من أباطرتهم هو عربي الأصل، وكذلك «وهبة اللات» وقد نشأ من أرض أخرجت أمثال خالد بن الوليد وعمرو بن العاص من قواد الإسلام العظام الذين قضوا على مملكة الساسانيين، وعلى جزء من مملكة بيزنطية.

العرب والتجارة :

وأهم عوامل المدنية في جزيرة العرب كون أهلها عرفوا في كل العصور معاناة التجارة، ينقلون مع حاصلاتهم حاصلات الشرق إلى الغرب، وحاصلات الغرب إلى الشرق، واشتهروا بذلك حتى قال الجغرافي استرابون، وكان بعد المسيح بقليل : كل عربي سمسار أو تاجر. ومن أجل هذا كانت معرفة العرب بالأقطار المجاورة لا غبار عليها. وكثيراً ما كانوا يقتنون الأملاك والضياع وينزلون الولايات المجاورة يساكنون أهلها كأن تلك البلاد أجزاء متممة لديارهم، على اختلاف بينهم وبين ساكنيها في الطبائع والألسن. وكانت[2] للعرب عشرة أسواق يجتمعون بها في

---

(١) جزيرة العرب قبل الإسلامى لجويدى Guidi : L'Arabie Antéislamique .

(٢) تاريخ اليعقوبى .

تجاراتهم ويجتمع فيها سائر الناس ويأمنون فيها على دمائهم وأموالهم ، فمنها دومة الجندل والمشقر وهجر وصحار وربا والشحر وعدن وصنعاء والرابية بحضرموت وعكاظ بأعلى نجد ، ينزلها قريش وسائر العرب وأكثر أهلها مضر ، وبها كانت مفاخرة العرب وحمالاتهم[١] ومهاداناتهم ثم سوق ذى المجاز . وكان فى العرب قوم يستحلون المظالم إذا حضروا هذه الأسواق فسموا المحلين ، وكان فيهم من ينكر ذلك وينصب نفسه لنصرة المظلوم والمنع من سفك الدماء وارتكاب المنكر ، فيسمون الذادة المحرمين .

واستولت قريش على التجارة فى الجاهلية ترحل فيها رحلتين : رحلة الشتاء نحو العباهلة من ملوك اليمن ونحو اليكسوم من أرض الحبشة ، وأخرى نحو الشام والروم فى الصيف ، وإلى ذلك الإشارة فى القرآن : «لإيلاف قريش، إيلافهم رحلة الشتاء والصيف» . والإيلاف شىء كان يحمله هاشم لرؤساء القبائل من الربح ، ويحمل لهم متاعاً مع متاعه ، ويسوق إليهم إبلا مع إبله ، ليكفيهم مؤنة الأسفار ، ويكفى قريشا مؤنة الأعداء ، فكان المقيم رابحاً والمسافر محفوظا . وهاشم هو الذى تنسب إليه غزة هاشم فى الشام ، لاتجاره فيها فى الجاهلية وفيها مات ، ثم جاء أبناؤه بعده ينسجون على منواله . فكان هاشم يؤلف إلى الشام ، وعبد شمس إلى الحبشة ، والمطلب إلى اليمن ، ونوفل إلى فارس ، يؤلفون الجوار بعضهم بعضاً ، ويجيرون قريشاً بميرهم ، وكانوا يسمون المجيرين . وكانت تجارة قريش قبل هؤلاء العظماء لا تعدو مكة[٢] ، إنما يقدم عليهم الأعاجم بالسلع فيشترون منهم ويتبايعون فيما بينهم ويبيعون ممن حولهم من العرب ، فجبر قريش بهؤلاء النفر الأربعة من بنى عبد مناف ، فنمت أموالهم واتسعت تجارتهم ، فكان بنو عبد مناف يسمون لأجل ذلك المجيرين ، والعرب تسميهم أقداح النضار ، لطيب أحسابهم وكرم فعالهم .

---

(١) الحمالة كسحابة : الدية أو الغرامة التى يحملها قوم عن قوم .

(٢) الاكتفاء فى مغازى المصطفى والثلاثة الخلفاء للكلاعى .

وبفضلهم أخذت قريش تضرب في البلاد إلى قيصر[١] بالروم والنجاشي بالحبشة والمقوقس بمصر وكسرى بالعراق ، تحمل من أرضهم متجراً لها ، ذلك لأن قريشاً زهدت منذ زمن بعيد في الغصوب ، فلم يبق لهم مكسبة سوى التجارة ، وبالتجارة عرفوا ما جاورهم من الأمم والشعوب وصاروا بأجمعهم تجاراً خلطاء .

أديان العـــرب :

كانت أديان العرب متشعبة ، بحسب الممالك التي يجاورونها والأرض التي ينتجعونها ، وهم في أديانهم[٢] على صنفين : الحمس[٣] والحلة ، فأما الحمس فقريش كلها ، وأما الحلة فخزاعة ، لنزولها مكة ومجاورتها قريشا ، وكانوا يشددون على أنفسهم في دينهم ، فإذا نسكوا لم يسلئوا سمنا ، ولا يجزون شعراً ولا ظفراً ، ولا يمسون النساء ولا الطيب ، ولا يأكلون لحما . أما الحلة فكانوا على العكس من ذلك ، ينعمون بالطيبات كلها ، لا يبالون ما صنعوا . ثم دخل قوم في دين اليهود وفارقوا هذا الدين ، ودخل آخرون في النصرانية ، وتزندق منهم قوم فقالوا بالثنوية . وزعم اليعقوبي أن اليمن تهوّدت بأسرها ، وتهوّد قوم من الأوس والخزرج ، بعد خروجهم من اليمن لمجاورتهم خيبر وقريظة والنضير ، وتهود قوم من بني الحارث بن كعب وقوم من غسان وقوم من جذام ، « وكان بنجران بقايا من أهل دين عيسى على الإنجيل أهل فضل واستقامة » . وكان من العرب من يميل إلى الصابئة ، ويعتقد في أنواء المنازل اعتقاد المنجمين في السيارات ، حتى لا يتحرك إلا بنوء من الأنواء ، ويقول : مطرنا بنوء كذا . ومنهم من أنكر الخالق والبعث ، وقالوا : وما يهلكنا إلا الدهر . وهم الدهريون . وقال بعضهم : كانت المجوسية في تميم ، والزندقة في قريش ، أخذوها من الحيرة . ويقول ابن الأثير[٤] : إن ديار تميم كانت تجاور

(١) المضاف والمنسوب : للثعالبي .
(٢) تاريخ اليعقوبي .
(٣) المتحمسون لدينهم .
(٤) أسد الغابة لابن الأثير .

بلاد الفرس وهم تحت أيديهم ، والمجوسية فى الفرس ، على أن العرب قبل الإسلام كان كثير منهم قد تنصر ، كتغلب وبعض شيبان وغسان ، وكان منهم من صار مجوسيا وهم قليل . وأما اليهودية فكانت باليمن ، وكان من العرب صنف اعترفوا بالخالق وأنكروا البعث ، وصنف عبدوا الأصنام ، وأصنامهم مختصة بالقبائل ، ومنهم من يعبد الجن ، ومنهم من يعبد الملائكة ؛ وكانوا يحجون البيت ويعتمرون ويحرمون ويطوفون ويسعون[١] ، ويقفون المواقف كلها ويرمون الحجارة . وللعرب أصنام[٢] فكان سواع لهذيل ، وود لكلب ، ويغوث لمذحج وقبائل من اليمن ، وكان بدومة الجندل ، والنسر لذى كلاع بأرض حمير ، ويعوق لهمدان ، واللات لثقيف بالطائف ، والعزى لقريش وجميع بنى كنانة ، ومناة للأوس والخزرج وغسان . وهبل كان فى الكعبة وكان أعظم أصنامهم ، وإساف ونائلة كانا على الصفا والمروة ، وسعد لبنى ملكان بن كنانة ، وكان عدد الأصنام فى الحرم لما فتح الرسول مكة بضع مئات كسرها وأصحابه . قال أبو عثمان[٣] النهدى : كنا فى الجاهلية نعبد صنما يقال له يغوث ، وكان صنما من رصاص لقضاعة تمثال امرأة ، وعبدت ذا الخلصة ، وكنا نعبد حجراً ونحمله معنا ، فإذا رأينا أحسن منه ألقيناه وعبدنا الثانى ، وإذا سقط الحجر عن البعير قلنا سقط إلهكم فالتمسوا حجراً .

ويؤخذ من هذا أنه كان للعرب فى الجاهلية المصوّر والمثّال ، فصوروا جدران الكعبة ، وملأوها بتماثيل أربابهم ، ومن جملة ما كان فيها صورة عيسى وأمه عليهما السلام ، بقيتا حتى رآهما من أسلم من نصارى غسان ، وكان على أحد عمد الكعبة تمثال مريم ، وفى حجرها ابنها مزوقا[٤] ، وقال ابن الكلبى : إنه

(١) العمرة : الزيارة ، ومعنى العمرة فى الشرع : الطواف بالبيت والسعى بين الصفا والمروة ، وأحرم الحاج أو المعتمر إذا دخل فى عملهما وحرم عليه به ما كان حلالا كالرفث والتطيب ولبس المخيط وصيد الصيد ، فهو محرم .

(٢) مفاتيح العلوم للخوارزمى . (٣) أسد الغابة لابن الأثير .

(٤) رسالة التصوير عند العرب لأحمد تيمور .

كان لقضاعة ولخم وجذام وعاملة وغطفان صنم فى مشارف[١] الشام يقال له الأقيصر كانوا يحجونه ويحلقون رءوسهم عنده ، فكان كلما حلق رجل منهم رأسه ألقى مع كل شعرة قرة[٢] . وكان ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر قوما صالحين ماتوا فى شهر فجزع عليهم ذوو قرابتهم فعملوا لهم خمسة أصنام على صورهم ، فمضت قرون ثلاثة وهم يعظمون ، وفى القرن الثالث أخذوا يعبدونهم ، وكان ود تمثال رجل كأعظم ما يكون من الرجال ، قد زر عليه حلتان ، متزراً بحلة ، ومرتديا بأخرى ، عليه سيف قد تقلده ، وقد تنكب قوسا وبين يديه حربة فيها لواء ووفضة[٣] .

المدنية اليهودية والنصرانية فى جزيرة العرب :

أثرت المدنيسة النصرانية فى الجاهلية بعض أثر — والجاهلية اسم حدث فى الإسلام للزمن الذى كان قبل البعثة النبوية — وكانت مملكة الحيرة[٤] ومملكة غسان نصرانيتين ، والنصرانية شائعة فى ربيعة وغسان وبعض قضاعة . واليهودية[٥] فى حمير وبنى كنانة وبنى الحرث بن كعب بن كندة ، ولم يكن لليهود الخارجين إلى خيبر وادى القرى ويثرب من الحجاز مدنية ذات شأن ، بل كانوا زراعا حملوا معهم — على الأرجح من فلسطين بعد قتل دولة الرومان لهم وبعد تخريب بختنصر بيت المقدس — أصول زراعتهم وأنواعاً جديدة من الأشجار ، وأقاموا حصوناً وآطاماً لاتقاء غارات البادية من الأعراب . وقالوا إن اليهود أدخلوا إلى جزيرة العرب هذه الآطام ، وكان عددها نحو سبعين جاء النهى عن هدمها . ومن الحصون التى أقاموها حصن الأبلق للسموءل وحصن القموص لبنى أبى الحقيق وحصون السلالم والوطيح وناعم وسعد بن المعاذ .

---

(١) المشارف من قرى العرب : ما دنا من الريف . ومشارف الشام قرى قرب حوران منها بصرى . ومشارف الأرض أعاليها .

(٢) القرة : قبضة من الدقيق .

(٣) الوفضة : الجعبة .

(٤) تاريخ اليهود فى بلاد العرب لولفنسون .

(٥) تاريخ اليعقوبى .

وتعرب اليهود فى الجزيرة وأخذوا يتكلمون العربية ، وامتزجت عاداتهم بعادات العرب وتخلقوا بأخلاقهم ، ونزلوا عن كثير من مصطلحاتهم ومواضعاتهم ، وأصبحوا يفاخرون كالعرب بالشجاعة وعلوّ الهمة وإكرام الضيف ، يوقدون النار فى الليل ليرشدوا السائرين ، ويدعوهم إلى الضيافة على عادة العرب ، ينظمون الشعر فى هذه الأغراض الكثيرة . ومن شعرائهم السموءل بن عادياء وكعب بن الأشرف والربيع بن أبى الحقيق وشريح بن عمران وشعبة بن غريض ؛ كما كان من شعراء النصارى أمية بن أبى الصلت وقس بن ساعدة وعدى بن زيد . عن مروان[1] بن الحكم عن معاوية بن أبى سفيان عن أبيه قال : خرجت أنا وأمية بن أبى الصلت الثقفى تجاراً إلى الشام ، فكلما نزلنا منزلا أخذ أمية سفراً له يقرؤه علينا . فكنا كذلك حتى نزلنا قرية من قرى النصارى .

وراجت اليهودية فى حمير فى اليمن على أثر جلاء اليهود من فلسطين إلى الحجاز ، وكان اليهود فى جزيرة العرب تجاراً ، ويمانون صنع الأمتعة والصياغة والسيوف والدروع وسائر الآلات الحديدية . ويقول ولفنسون : إن اليهود كانوا أساتذة العرب فى تعلم الكتابة العربية والفلاحة بالآلات . وقد بلغت عاد وثمود والعمالقة وحمير من بعدهم والتبابعة والأذواء الغاية من الحضارة ، ورسخت فيهم الصناعات أيما رسوخ . ويقول بعض علماء الآثار إن اليمن سبقت بتمدنها بابل ومصر ، ومنها هاجر أجداد الفراعنة ، ومنها كان أجداد البابليين والأشوريين . وإلى مصر وبابل وأشور حمل اليمانيون الصناعات والعلوم والتجارة. وقال آخر: إن اليمانيين أو الحميريين هم الذين مدنوا شواطئ آسيا وإفريقية وأوربا ، وكانوا فى القديم أميل فى مدنيتهم إلى التجارة ، لا إلى الغزو والغارة . ولذلك كان معظم الأذواء يتجرون ، فإذا كانت لرجل منهم مطامع فى السيادة تغلب على البلاد .

ولقد كانت الأمية غالبة على العرب ، ما خلا حمير فى اليمن وسكان الحيرة فى

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير .

العراق ، وقد تعلموا الخط من إياد ، وأصل إياد من تهامة ، ونزلوا العراق فكانوا يشتون فيها ويصيفون فى الجزيرة ، وكان منهم لقيط بن يعمر الإيادى كاتب كسرى بالعربية وترجمانه[(١)] ، وهو صاحب القصيدة[(٢)] المشهورة التى حذر فيها قومه من غزوة كسرى لهم ، يوم عرض رجلان من إياد لعروس اسمها شيرين من أشراف العجم ومعها جواريها فعبثا بهن . وكان عدى بن زيد من أهل الحيرة من تراجمة أبرويز ملك الفرس ، وكان أول من كتب بالعربية فى ديوان كسرى ، وكان أبوه شاعراً خطيباً وقارئاً كتاب العرب والفرس[(٣)] ، وابنه زيد بن عدى كان يلى الكتابة عند كسرى إلى ملوك العرب فى خاص أمور الملك[(٤)] . ومن إياد نقل أبو قيس بن عبد مناف بن زهرة ، وقيل حرب بن أمية ، الكتابة إلى قريش بمكة ، وتعلم بشر بن عبد الملك[(٥)] الكندى الخط العربى وهو الجزم فى الأنبار ، من مرامر وأسلم الطائيين ، وخرج إلى مكة فعلم الخط سفيان بن حرب وتعلمه معاوية من عمه سفيان ، وكثر من يكتب بمكة من قريش . وقيل إن أول من كتب فى جزيرة العرب بالعربية مرارة بن مرة من أهل الأنبار . وقالوا إن ورقة

---

(١) معجم ما استعجم للبكرى .

(٢) يقول فى جملتها :

لا تثمروا المال للأعداء إنهم ... إن يظهروا يحتووكم والبلاد معا
والله ما انفكت الأموال مذ أبد ... لأهلها إن أصيبوا مرة تبعا
يا قوم إن لكم من إرث أولكم ... مجداً قد اشفقت أن يفنى وينقطعا
ماذا يرد عليكم عز أولكم ... إن ضاع آخره أو ذل واتضعا
قوموا قياماً على أمشاط أرجلكم ... ثم افزعوا قد ينال الأمن من فزعا
وقلدوا أمركم لله دركم ... رحب الذراع بأمر الحرب مضطلعا
لا مترفاً إن رخاء العيش ساعده ... ولا إذا عض مكروه به خشعا
لا يطعم النوم إلا ريث يبعثه ... هم يكاد حشاه يقصم الضلعا
مسهد النوم تعنيه أموركم ... يروم منها إلى الأعداء مطلعا
ما انفك يحلب هذا الدهر أشطره ... يكون متبعاً طوراً ومتبعا
وليس يشغله مال يثمره ... عنكم ولا ولد يبغى له الرفعا

(٣) تاريخ ابن خلدون .

(٤) تاريخ الطبرى .

(٥) خزانة الأدب للبغدادى .

ابن نوفل كان يكتب ، وأجاد العربية وكتب بحروفها[١] . وكان سعد بن الربيع يكتب في الجاهلية[٢] . قال الأصمعي : زعموا أن قريشاً سئلوا : من أين لكم الكتابة ؟ فقالوا: من الحيرة . وقيل لأهل الحيرة : من أين لكم الكتابة ؟ فقالوا: من الأنبار .

ويستدل من ذلك أن إياداً كانت على جانب من الحضارة ، وأن العرب استفادت منهم ، وهم استفادوا من اختلاطهم بالفرس والروم ، ودام ذلك لإياد حتى كانت وقعة سابور ، وقد أوقع بإياد وعمهم القتل ، وما أفلت منهم إلا نفر لحقوا بأرض الروم وتنصروا ودانوا لغسان . ولما فتح المسلمون الأنبار رأوا أهلها يكتبون بالعربية ويتعلمونها ، فسئلوا : من هم ؟ فقالوا : قوم من العرب نزلنا إلى قوم من العرب قبلنا[٣] ، وقيل إن نفراً من أهل العرب من إياد القديمة هم وضعوا حروف ألف ب ت ث وعنه أخذت العرب . وذكروا أن أهل القرى ألطف نظراً من أهل البدو ، وكانوا يكتبون لجوارهم أهل الكتاب .

ويرى صاحب فجر الإسلام[٤] أن عرب الحيرة تسرب إليهم شيء من علوم اليونان وآدابهم . ذلك أن الحكومة الفارسية في عهد هرمز الأول أنشأت مستعمرات كونتها من أسرى الحرب الرومانيين ، وكان من بين هؤلاء الأسرى من ثقف بالثقافة اليونانية ، ومنهم من كان يفوق الفرس في الفن والهندسة والطب ، فاستخدموه في مهام شئونهم . ومن هؤلاء الأسرى من نزلوا الحيرة ، ويظن بعضهم أنهم هم منبع النصرانية فيها . وعلى كل حال فقد كان في الحيرة مبشرون بالنصرانية داعون إليها ، ولبى الدعوة منهم هند زوج النعمان الخامس ، وقد أنشأت ديراً سمي بدير هند كان إلى عهد الطبري . وهند هذه هي التي خطبها في الإسلام المغيرة بن شعبة وهي مترهبة في ديرها فأبت ، وسألها عن حال دولة أهلها فقالت :

---

(١) الأغاني للأصفهاني .

(٢) طبقات ابن سعد .

(٣) الموشح للمرزباني .

(٤) فجر الإسلام لأحمد أمين .

« أمسينا مساء وليس فى الأرض عربى إلا وهو يرغب إلينا ويرهبنا ، ثم أصبحنا وليس فى الأرض عربى إلا ونحن نرغب إليه ونرهبه[١] » . قال : وقد كان لعرب الحيرة وأمرائهم وتاريخهم أثر كبير فى الأدب العربى والحياة العقلية للعرب عامة ، فأحاديث جذيمة الأبرش وأساطير الزباء (وهى من الحيرة قبل إنشاء الإمارة) والخورنق والسدير والتغنى بهما وبعظمهما ، والأقاصيص حول سنمار بانى الخورنق ، والأمثال التى ضربت فيه ، ويوما النعمان يوم نعيمه ويوم بؤسه ، كل هذه وأمثالها شغلت جزءاً كبيراً من الأدب العربى ، وكلها تتعلق بعرب الحيرة وحياتهم . أضف إلى ذلك ما ذكره ابن رسته فى الأعلاق النفيسة من أن أهل الحيرة علموا قريشاً الزندقة فى الجاهلية والكتابة فى صدر الإسلام . وكان أمراء الحيرة مقصداً لشعراء عرب الجزيرة ينفحونهم بالمال الكثير ، ليبشروا بهم بين البدو فى أنحاء الجزيرة ، وديوان النابغة الذبيانى مملوء بالقصائد التى قيلت فى مدح النعمان والاعتذار إليه ونحو ذلك . أ هـ .

ويقول جويدى[٢] : إن شمالى بلاد العرب تأثر بمدنية البلاد المجاورة أى بالمدنية الفارسية والبيزنطية، بمعنى أنهم أخذوا من الساسانيين فى الشرق والبيزنطيين فى الغرب . ثم تأثرت بعد ذلك اليمن ، فاستفادت العرب إذاً من المدنيات اليونانية والرومانية والفارسية ، وكانوا مدينين لهؤلاء بكثير من ترقيهم الذى تقدم حوادث الإسلام العظيمة ، وكانوا قبل الإسلام بقرنين أو ثلاثة أنشأوا ممالك وتمرنوا على فنون الحرب ، وارتقوا فى حياتهم المدنية ، ونشأ شعرهم وأدبهم ، وقد وردت فى أشعار العرب العرباء ألفاظ آرامية مثل «دمية» . ولما كان العرب يحتقرون العمل فى الزراعة اعتمدوا على الآراميين ، فدخلت لغتهم ألفاظ آرامية كثيرة منها

(١) فى المحاسن والأضداد للجاحظ : قالت حرقة — كهمزة — بنت النعمان بن المنذر لزياد بن أبيه وقد سألها عن حال بيتها : كنا أهل بيت طلعت الشمس علينا وما على الأرض أحد أعز منا ، وما غابت تلك الشمس حتى رحمنا عدونا .

(٢) جزيرة العرب قبل الإسلام لجويدى . Guidi : L'Arabie Antéislamique

الأكار والحرث والنير والناطور والفدان ، وكثير من أسماء النبات والرياحين جاءتهم قبل الإسلام من لغات غير عربية ، ومنها « الزيتون » وأسماء المصابيح من مثل « قنديل » « سراج » « نبراس » ، ومثل « أتون » « تنور » « فرن » وكذلك « القميص » « السربال » « البرنس » « المرجان » « الجمان » « الزبرجد » « الدرة » انتهى قوله . وكما دخلت اللغة ألفاظ آرامية دخلت ألفاظ رومية وحبشية[1] ، فاستعاروا من اليونانية ألفاظ « أسطول » و « أبجر » و « نوتى » ، ومن السريانية أو الآرامية « سفينة » « قارب » « قرقور » « دقل » « زبان » « ملاح » « سكان » « قلع » « مجذاف » « صارى » . ومن الحبشية « بحر » « شراع » « مرسى » .

ونحن إذا نظرنا مليا فى لغة العرب نفسها قبل الإسلام نجدها تحوى كثيراً من الألفاظ التى تدل على أن هناك أسماء لم توضع لو لم يكن لها مسميات عندهم معروفة ، مثل قولهم برد « مرجل » فيه صور الرجال ، و « مطير » إذا كانت فيه صور الطير و « مخيل » إذا كانت فيه صور الخيل و « مهلل » إذا كانت فيه نقوش وصور كالأهلة و « المعين » إذا كانت ترى فى وشيه ترابيع صغار تشبه عيون الوحش . وقالوا ثوب مسيَّر مخطط شبهت خطوطه بالسيور ، وهل للغة أن يكون فيها اسم بلا مسمى ، وما كثرت الأسماء إلا بكثرة القبائل ، وهى تختلف بحضارتها ورفاهيتها . والحضارة كانت فى معظم العصور ، ولا سيما فى جزيرة العرب أشبه بواحات وسط البوادى ، ليس لها هذا التسلسل الذى عرفت به فى الأمم المتحضرة فى الغرب ، لاختلاف الأهوية وطبائع تلك الأصقاع .

ومع غلبة الأمية على العرب فإن علومهم كانت ابتدائية وأكثرها تجارب وأشعار تحمل فى الصدور . فمن علومهم علم النجوم وكان لهم يد فيه ، وعلم الأنواء والرياح والكهانة والعرافة أو معرفة المستقبل والغيب ، والأساطير والطب والنسب

(١) النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية للويس شيخو .

والتاريخ . ومن هذه العلوم ما كانوا يتوارثونه[1] آخر عن أول على قول ابن قتيبة ، كالنجوم ومناظرها وأنوائها والاهتداء بهـا والبروق والسحاب والرياح والعلم بالخيل والإبل والنبات ، هذا إلى ما خصوا به من القيافة والطرق والزجر ، وإنمـا يكون ذلك فى الواحد منهم والاثنين فى القبيلة وسائر من فيها لا يعرف من ذلك إلا النبذ اليسيرة . ودخل الإسـلام وليس فى قريش سوى سبعة عشر رجلا يكتبون ، وكان منهم جلة الصحابة ، وبضع نساء ، وليس فى جميع اليمن من يقرأ ويكتب . وأهم علومهم الشعر ، كانوا يقيمونه مقام الحـكمة وكثير العلم[2] ، فإذا كان فى القبيلة الشاعر الماهر ، المصيب المعانى ، المخير الـكلام ، أحضروه فى أسواقهم التى كانت تقوم لهم فى السـنة ، ومواسمهم عند حج البيت ، حتى تقف وتجتمع القبائل والعشائر فتسمع شعره ، ويجعلون ذلك فخراً من فخرهم ، وشرفاً من شرفهم ، ولم يكن لهم شىء يرجعون إليه من أحكامهم وأفعالهم إلا الشعر ، فبه كانوا يختصمون ؛ وبه يتمثلون ، وبه يتفاضلون ، وبه يتقاسمون ، وبه يتناضلون ، وبه يمدحون ويعابون . قال ابن سلام : إن أشعر شعراء القرى العربية — وهى خمس : المدينة ومكة والطائف واليمامة والبحرين — شعراء قرية المدينة . وعرفت للعرب ذاكرة قوية فى حفظ الشعر ، حتى ليروى العربى عشرات القصائد ومئات الأبيات على أيسر وجه ، وذلك لاعتمادهم أبداً على حافظتهم ، وقلما حفظوا شيئاً من خطبهم ، ولذلك كان المنقول عن الجاهلية من الشعر العربى أوفر كثيراً من المنقول من خطبهم .

قال الجاحظ : لم يكن العرب تجاراً ولا صناعاً ولا أطباء ولا حساباً ، ولا أصحاب فلاحة فيكونوا مهنة ، ولا أصحاب زرع لخوفهم من صغار الجزية ، ولم يكونوا أصحاب جمع وكسب ، ولا أصحاب احتكار لمـا فى أيديهم وطلب ما عند غيرهم ، ولا طلبوا المعاش من ألسنة الموازين ورءوس المـكاييل ، ولا عرفوا

(١) المسائل والأجوبة لابن قتيبة . (٢) تاريخ اليعقوبى .

الدوانيق والقراريط ، ولم يفتقروا الفقر المدقع الذى يشغل عن المعرفة ، ولم يستغنوا الغناء الذى يورث البلادة ، والثروة التى تحدث الغرّة ، ولم يحتملوا ذلاً قط فيميت قلوبهم ، أو تصغر عنده نفوسهم ، وكانوا سكان فياف وتربية عراء ، لا يعرفون الغمق ولا اللثق[١] ، ولا البخار ولا الغلظ ، ولا العفن ولا التخم : أذهان حداد ، ونفوس مفكرة ، فحين جلوا حدّهم ، ووجهوا قواهم إلى قول الشعر وبلاغة المنطق ، وتثقيف اللغة وتصاريف الكلام ، وقيافة البشر بعد قيافة الأثر ، وحفظ النسب والاهتداء بالنجوم ، والاستدلال بالآثار وتعرف الأنواء ، والبصر بالخيل والسلاح وآلة الحرب ، والحفظ لكل مسموع ، والاعتبار بكل محسوس ، وإحكام شأن المناقب والمثالب ، بلغوا فى ذلك الغاية وحازوا كل أمنية ، وببعض هذه العلل صارت نفوسهم أكبر ، وهممهم أرفع ، وهم من جميع الأمم أفخر ، ولأيامهم أذكر . اهـ .

حالة العرب الاجتماعية :

— جاء الإسلام وبعض العرب يئدون بناتهم أى يقبرونها ويهيلون عليها التراب مخافة العار والحاجة . وفى التنزيل : « ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم » . « ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم . إن قتلهم كان خطأً[٢] كبيراً » . وكانوا يجمعون بين الأختين ويخلف الرجل على امرأة أبيه إذا مات ، ويطلقون النساء حتى إذا قرب انقضاء عدتهن راجعوهن لا عن حاجة ولا لمحبة ، ولكن تطويلاً للعدّة ولتوسيع مدة الانتظار ضراراً . وكان الرجل يطلق امرأته أو يتزوج أو يعتق ويقول كنت لاعباً . ويعضون النساء أن يتزوجن

(١) بلد غمق كـكتف كثير المياه رطب الهواء . واللثق : حركة الندى . والعراء : كسماء الفضاء لا يستتر فيه شىء ، ج أعراء . والفيف : المكان المستوى أو المفازة لا ماء فيها ، ج أفياف وفيوف وفياف .

(٢) الخطء : الإثم . والإملاق : الفقر .

من أردن من الأزواج بعد انقضاء عدتهن حمية جاهلية . وإذا مات الرجل منهم كان أولياؤه أحق بامرأته إن شاء أن يتزوجها بعضهم ، وإن شاؤوا زوجوها أو عضلوها ، فهم أحق بها من أهلها . وإذا مات الرجل قام أكبر ولده فألقى ثوبه على امرأة أبيه فورث نكاحها ، فإن لم يكن له فيها حاجة تزوجها بعض إخوته بمهر جديد ؛ وهذا نكاح المقت . فأنزل تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها ولا تعضلوهن[1] » . وكان الرجل يقول لزوجته إذا طهرت من طمثها[2] : أرسلي إلى فلان فاستبضعي منه لتحمل ، ويعتزلها زوجها ولا يمسها أبداً حتى يتبين حملها ، يفعل ذلك رغبة في نجابة الأولاد . وهذا نكاح الاستبضاع . وكان يجتمع الرهط مادون العشرة فيدخلون على المرأة كلهم يصيبونها عن رضاً منها ، فإذا حملت ووضعت أرسلت إليهم وخاطبتهم فيما كان من أمرهم معها ، وألحقت الولد بمن أحبت لا يمتنع من قبوله . وينصب البغايا على أبوابهن رايات ليعرف محلهن . ومنه نكاح الخدن وهو المشار إليه بقوله تعالى : « محصنات غير مسافحات ولا متخذات أخدان » . وكانوا يقولون : ما استتر فلا بأس به وما ظهر فهو لوم . ومنه نكاح المتعة وهو التزوج إلى أجل . ومنه نكاح البدل وهو أن يقول الرجل للرجل انزل لي عن امرأتك وأنزل لك عن امرأتي . ومنه نكاح الشغار وهو أن يزوج الرجل ابنته أو أخته أو ابنة أخيه من رجل آخر على أن يزوجه هذا الرجل ابنته أو أخته ليس بينهما صداق .

ومنهم من كانوا يقولون : الملائكة بنات الله ، فألحقوا البنات به سبحانه ، وإلى هؤلاء القوم يشير تعالى : « ويجعلون لله البنات سبحانه ، ولهم ما يشتهون ، وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم[3] . يتوارى من القوم من سوء ما بشر به ، أيمسكه على هون[4] أم يدسه في التراب ؟ ألا ساء ما يحكمون » .

(١) تمنعوهن عن نكاح غيركم بإمساكهن .
(٢) الطمث : الحيض . (٣) ممتلئ غماً .
(٤) هوان وذل .

وقد كانت للعرب أوابد أى دواه تجافى الإسلام عنها وأبطلها ، حرصاً على حقوق المرأة وسلامة البيوت من العهر ، على أن قريشاً كانت أنكحتها قبل الإسلام مستقيمة إلا ما ندر . وقريش أصح العرب أخلاقاً وأنسابا وعفة وأنفة ، تجردت نفوس أكثرهم عن لوثات القبائل المجاورة ، وكانوا لا يحجبون نساءهم لما يعرفون من أنفسهم من العفة والحشمة ، وكان شعراؤهم يعشقون ويعفون ، وربما هلكوا بعشقهم وما باحوا به ، حتى لا يفتضحوا ويفضحوا غيرهم ، وأكثر حبهم عذرى لا ريبة فيه .

وكانوا يؤخرون شهر المحرم إلى صفر لحاجتهم إلى شن الغارات وطلب الثارات ، ويؤخرون الحج عن وقته تحريا منهم للسنة الشمسية وهو ما يسمونه بالنسىء . وفى التنزيل : « إنما النسىء[1] زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا ، يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ما حرم الله ، فيحلوا ما حرم الله ، زين لهم سوء أعمالهم ، والله لا يهدى القوم الكافرين » . وقد كانت قريش وأكثر العرب يطوفون بالبيت عراة ويحرمون على أنفسهم اللحم والودك[2] ، فنزل قوله تعالى : « يا بنى آدم خذوا زينتكم[3] عند كل مسجد ، وكلوا واشربوا ولا تسرفوا ، إنه لا يحب المسرفين » . ونهت السنة عن أربعة وهى : لا عدوى ولا طيرة ، ولا هامة ولا صفر . والعدوى معروفة ، والطيرة التطير أو التشاؤم ، والهامة ما كانت العرب تعتقده من أن القتيل إذا طل دمه فلم يدرك بثأره صاحت هامته بالقبر : اسقونى . وأما الصفر فهو كالحية يكون فى الجوف يصيب الماشية والناس ، وهو أعدى عندهم من الجرب ، وقيل : شهر صفر وكان العرب يعدونه شؤما .

« كان العرب يأكلون[4] الخنافس والجعلان والعقارب والحيات ، ويلبسون

---

(١) النسىء : التأخير لحرمة شهر إلى آخر .

(٢) الودك محركة : الدسم كالدهن ونحوه .

(٣) زينتكم : أى ما يستر عورتكم . وعند كل مسجد : أى عند الصلاة والطواف .

(٤) تاريخ الطبرى .

ما غزلوا من أوبار الإبل وأشعار الغنم » . « وكان الناس طعامهم بالمدينة التمر والشعير ، وكان الرجل إذا كان له يسار فقدمت ضافطة[١] من الشام من الدرمك ابتاع منها فخص بها نفسه ، فأما العيال فإنما طعامهم التمر والشعير » بل كانوا قبل الإسلام يأكلون ما دب ودرج[٢] ، إلا أم حبين وهى أشبه بالحرباء ، ولم يكن إلا لبعض قبائلهم القريبة من الحيرة والشام « شىء طريف ، ولقمة كريمة ، ومضغة شهية » . وقلما يعرفون « رفاغة العيش والناعم من الطعام » والإبل عندهم أفضل الذبائح ، ولأهل البدو اللبأ والسلاء والجراد والكمأة والخبزة فى الرائب والتمر بالزبد والخلاصة والحيس والوطيئة[٣] .

والفالوزق أو الفالوذج أشرف ما عرفوه من طعام ، ولم يطعم الناس أحد منهم ذلك الطعام إلا عبد الله بن جدعان من أجواد قريش ، ذهب مرة إلى كسرى فأطعمه إياه فاستطابه ، وسأل : كيف يصنع ؟ فقيل له : إنه لباب البر يلبك بالعسل ، فابتاع غلاما يصنعه له ، ورجع إلى مكة وصنع الفالوذج ، ودعا إليها أصحابه ، وكان له مناد ينادى : « هلم إلى الفالوذ » وكانت له جفنة يطعم فيها فى الجاهلية ، ويأكل منها القائم والراكب لعظمها ، وربما حضر النبى طعامه قبل النبوة ، وكان يسمى بحاسى الذهب ، لأنه كان يشرب فى إناء من ذهب . وقالوا فى المثل : « أقرى من حاسى الذهب » . وزعموا أن ابن جدعان هذا كان فى بدء أمره فقيرا مملقا ، وكان شريرا ، يكثر من الجنايات ، حتى أبغضه قومه وعشيرته وأهله وقبيلته ، فخرج ذات يوم فى شعاب مكة حائرا بائرا ، فرأى فى غار قبور الرجال من ملوك جرهم ، ووجد عند رءوسهم لوحا من ذهب فيه تاريخ وفاتهم وعدد ولاياتهم ، وإذا عندهم من الجواهر واللآلئ

(١) الضافطة : هم الأنباط كانوا يحملون الدقيق والزيت وغيرهما . والدرمك : دقيق الحوارى) .

(٢) مآكل العرب للمؤلف (مجلة المقتبس م ٣ ص ٥٦٩) .

(٣) السلاء : ما طبخ وعولج من السمن . واللبأ : أول اللبن فى النتاج . والوطيئة : ضرب من العصيدة . وقيل طعام يعمل بالتمر واللبن . والحيس : تمر يخلط بسمن وأقط . والأقط : الجبن المتخذ من اللبن الحامض .

والذهب والفضة شيء كثير ، فأخذ منه حاجته وانصرف إلى قومه فأعطاهم وحباهم وسادهم ، وكلما قلّ ما في يده ذهب إلى ذلك الغار فأخذ حاجته . روى ذلك ابن كثير[١].

وإذا عرفنا أن من شعراء الجاهلية كالنابغة الذبياني وحسان بن ثابت من كانوا مرفهين في معاشهم بل فوق المرفهين ، صح لنا أن نستأنس بحسن حالة العرب قبل الإسلام بعض الشيء . فقد ذكر صاحب الأغاني أن النابغة كان يأكل ويشرب في آنية الفضة والذهب من عطايا النعمان وأبيه وجده ، ولا يستعمل غير ذلك . وعلى الجملة فقد كانت مضر[٢] من قريش وكنانة وبني أسد وهذيل ومن جاورهم من خزاعة أهل شظف ومواطن غير ذات زرع ولا ضرع ، بعيدين من أرياف الشام والعراق ، ومعادن الأدم والحبوب . أما العرب الذين كانوا بالتلول وفي معادن الخصب للمراعي والعيش ، فهم حمير وكهلان من مثل لخم وجذام وغسان وطي وقضاعة وإياد . قال ابن خلدون : ولم تكن أمة من الأمم أسغب عيشاً من مضر ، لما كانوا بالحجاز في أرض غير ذات زرع ولا ضرع ، وكانوا ممنوعين من الأرياف وحبوبها لبعدها واختصاصها عن وليها من ربيعة واليمن ، فلم يكونوا يتطاولون إلى خصبها ، ولقد كانوا كثيراً ما يأكلون العقارب والخنافس ويفخرون بأكل العلهز وهو وبر الإبل ، يمهونه بالحجارة في الدم ويطبخونه ، وقريباً من هذا كانت حال قريش في مطاعمهم ومساكنهم .

وكانت للعرب قبيل الإسلام مجالس أدب وطرب فيها شيء من حياة المدن ورفاهية البشر ؛ ولا سيما في مدنهم الكبرى كمكة ويثرب ، وكان الحكم بن العاص أبو مروان بن الحكم ، وقيس الفهري أبو الضحاك بن قيس ، ومعمر بن عثمان جد عمر بن عبيدالله بن معمر ، يضربون بالعود ، وكان النضر بن الحارث بن كلدة يضرب بالعود ، وتعلم العلوم القديمة واطلع على علوم الفلسفة والطب وهو ابن خالة النبي ،

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير .
(٢) مقدمة ابن خلدون .

وكان والده الحرث بن كلدة يضرب بالعود ، تعلم ذلك بفارس واليمن [١] قال المسعودى : إنه تعلم الغناء من الحيرة وكذلك ضرب العود فقدم مكة وعلم أهلها ، فاتخذوا القينات ، وتعلم الطب بفارس فى الجاهلية وقبل الإسلام ، وكان النبى يأمر من كانت به علة أن يأتيه فيسأله عن علته . وكيف يضرب هؤلاء بالعود إن لم تكن لقومهم رفاهية أوشبهها ، والموسيقى لاتكون إلا فى أمة استكملت الحاجيات فتطلعت إلى الكماليات .

وكان عبد الله بن سعيد بن العاص يكتب فى الجاهلية ، وأمره الرسول أن يعلم الكتاب بالمدينة . وروى ابن أبى الدنيا أنه كان يعلم الحكمة بالمدينة . واشتهرت العرب بسيوفها المشرفية ورماحها السمهرية ، وسهامها التى تصيب فتصمى ، وعرفوا كثيراً من آلة القتال كالدبابات والضبور [٢] ونحوها . وعرفوا البرود اليمانية المشهورة وتطريق المعادن وصنع الحديد وما إلى ذلك من الصناعات . وكانت اليمن فى هذا المعنى أرق من الحجاز ، وأسباب المدنية فى الأولى موفورة أكثر من الثانية ، فكانت الطبقة الممتازة من الحجازيين تجاراً ، ومثلها من اليمانيين تجاراً وصناعاً وزراعاً .

حكومات العرب فى الجاهلية :

كان من دأب العرب « أن يقتل [٣] بعضهم بعضاً ويغير بعضهم على بعض » ويرجعون مع هذا فى حكومتهم إلى رؤساء قبائلهم وعشائرهم فى كثير من تراتيبهم ، وكلهم يحكمون فى أمورهم ومنافراتهم ومواشيهم ومياههم أهل الشرف والصدق والأمانة والرياسة والسن والمجد والتجربة منهم . وكان عمرو بن لُحَىّ ذا سلطان على عرب الجاهلية ، وكان قوله وفعله [٤] فيهم كالشرع المتبع ، لشرفه فيهم ومحلته عندهم وكرمه عليهم ، وإذ كانت قريش ترى أن من مصلحتها أن ينصفوا الناس لأنهم فى حاجة إلى جلبهم لزيارة البيت وترويج التجارة ، كانوا يمنون برفع الظلم

(١) طبقات الحكماء لابن أبى أصيبعة .
(٢) الضبر : جلد يغشى خشباً فيها رجال تقرب إلى الحصون للقتال ، ج ضبور .
(٣) تاريخ الطبري . (٤) البداية والنهاية لابن كثير .

عن الغريب عنهم و « حين كثر فيهم الزعماء وانتشرت الرياسات وشاهدوا من التغالب والتجاذب ما لم يكفهم عنه سلطان قاهر ، عقدوا بينهم حلفاً على رد المظالم وإنصاف المظلوم من الظالم » . واجتمعت بطون قريش في بيت عبد الله بن جدعان على رد المظالم بمكة ، وكان الرسول معهم وهو ابن خمس وعشرين سنة ، فعقدوا حلف الفضول ، فقال الرسول ذاكراً للحال : لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلف الفضول ، أما لو دعيت إليه في الإسلام لأجبت ، وما أحب أن لي به حمر النعم وأني نقضته ، وما يزيده الإسلام إلا شدة .

وكان الداعي إلى عقد حلف الفضول أن هاشماً[1] وزهرة وتيماً دخلوا على عبد الله بن جدعان فتحالفوا بينهم على دفع الظلم وأخذ الحق من الظالم ، سمي بذلك لأنهم تحالفوا أن لا يتركوا عند أحد فضلا يظلمه أحد إلا أخذوه له منه . وقيل سمي به تشبيهاً بحلف كان قديماً بمكة أيام جرهم على التناصف والأخذ للضعيف من القوي والغريب من القاطن . وسمي حلف الفضول لأنه قام به رجال من جرهم كلهم يسمى الفضل : الفضل بن الحرث والفضل بن وداعة والفضل بن فضالة . فقيل حلف الفضول جمعاً لأسماء هؤلاء ، كما يقال سعد وسعود . وقيل : إنه سمي[2] بذلك لأنه لما تداعت له قبائل قريش كره ذلك سائر المطيبين والأحلاف بأسرهم ، وسموه حلف الفضول عيباً له ، وقالوا هذا من فضول القوم على اختلاف في أصل الاسم . وهذا الحلف كان عقده المطيبون وهم خمس قبائل ، وقيل ست قبائل ، وهم : عبدالدار وكعب وجمح وسهم ومخزوم وعدي ، سموا الأحلاف لأنهم لما أرادت بنو عبد مناف أخذ ما في أيدي بني عبد الدار من الحجابة والرفادة واللواء والسقاية ، وأبت بنو عبد الدار ، عقد كل قوم على أمرهم حلفاً مؤكداً على أن لا يتخاذلوا ، فأخرجت عبد مناف جفنة مملوءة طيباً ، فوضعتها لأحلافهم ، وهم أسد وزهرة وتيم في المسجد عند الكعبة ، فغمسوا أيديهم فيها وتعاقدوا ، ثم مسحوا الكعبة بأيديهم توكيداً

---

(١) تاج العروس للزبيدي . (٢) الاكتفاء للكلاعي .

فسموا المطيبين . وتعاقدت بنو عبد الدار وحلفاؤهم حلفا آخر مؤكداً ، على أن لا يتخاذلوا فسموا الأحلاف .

ولم تكن العرب تملك عليها فى الجاهلية أحداً ، فإن كان حرب اقترعوا بين أهل الرياسة ، فمن خرجت عليه القرعة أحضروه صغيرا كان أو كبيرا ، فلما كان يوم الفجار[1] اقترعوا بين بنى هاشم ، فخرج سهم العباس وهو صغير فأجلسوه على المجنّ ويسمى ذلك حلوان النفر . ولم يكونوا يسودون عليهم فى الجاهلية[2] أحدا لشجاعة ولا سخاء ، وإنما كانوا يسودون من إذا شتم حلم ، وإذا سئل حاجة قضاها أو قام معهم فيها ، ولسان حالهم :

وقد يبغض الحيات أولاد آدم وأبغض ما فيها إليهم رءوسها
وما ابتليت يوما بشر قبيلة أضر عليها من سفيه يسوسها

وانتهى الشرف فى قريش أيام الجاهلية إلى عشرة رهط من عشرة أبطن ، وهم هاشم وأمية ونوفل وعبد الدار وأسد وتيم ومخزوم وعدى وجمح وسهم . وتسلسل هذا الشرف فيهم فى الإسلام فكانت هاشم تسقى الحجيج ، وبقى لها ذلك فى الإسلام ، ومثلها أمية كانت عندها الراية واسمها العقاب ، وكانت لنوفل الرفادة وهى أن تخرج مالاً ترفد به منقطع الحاج . وكان لبنى عبد الدار اللواء والسدانة والحجابة والندوة ، ولأسد المشورة ، ولتيم الأشناق وهى الديات والمغرم ، ولبنى مخزوم القبة والأعنة ، ولعدى السفارة ، ولجمح الأيسار وهى الأزلام ، ولسهم

(١) أيام الفجار (بكسر الفاء) كانت بعكاظ تفاجروا فيها واستحلوا كل حرمة ، ويوم الفجار يوم من أيام العرب كانت فيه وقعة عظمى نسبت إلى البراض بن قيس الذى قتل عروة الرجال ، وإنما سميت بذلك لأنها كانت فى الأشهر الحرم ، وكانت بين قريش ومن معها من كنانة وبين قيس عيلان فى الجاهلية وكانت الدبرة على قيس ، فلما قاتلوا فيها قالوا : قد فجرنا وهو مصدر فاجر مفاجرة وفجارا ارتكب بفجور ، وحضرها النبى وهو ابن عشرين سنة ، وقال : كنت أنبل على عمومتى يوم الفجار ، ورميت فيه بأسهم ، وما أحب أنى لم أكن فعلت . وأنبل أضرب بالنبل أى السهم .

(٢) روضة العقلاء لابن حبان البستى .

الحكومة والأموال المحجرة التي سموها لآلهتهم[(١)] .

ومعنى هذا أن أهم الأعمال التي فيها قيام مجتمعهم قد أحيل النظر فيه إلى أفذاذ من بطون معروفة ، فكان من ذلك نظام جمهورية صغرى تولى زمامها أمثل الناس وحمل تبعتها الزعماء راضين مختارين ؛ ذلك لأن قريشاً تريد أن تزين للعرب زيارة البيت . ولذلك كانت تبذل قصارى الجهد لإنصاف كل مظلوم وإشعار القلوب حب العدل ومراعاة عاداتهم في القضاء ، ومصطلحاتهم في تطبيق العقوبات ، ثم هم يحرصون على تعظيم شعائر الحرم ، فلا يسمحون بأن يرفع فيه صوت ولا يتكلم فيه بهجر ولا رفث ، ولا يرتكب منكر . يطعمون الطعام ويعاونون المحاويج من الحجاج ، إلى غير ذلك من جلائل الأعمال التي وسد إلى قريش أمرها دون جماع قبائل العرب منذ عهد الجاهلية .

---

(١) قال أبو عثمان الجاحظ : وأنشدت سهل بن هارون قول سلمة بن خرشب وشعره الذي أرسل به إلى سبيع التغلبي في شأن الرهن التي وضعت بين يديه في قتال عبس وذبيان ، فقال سهل بن هارون : والله لكأنه سمع رسالة عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه إلى أبي موسى الأشعري في سياسة القضاء وتدبير الحكم . والقصيدة قوله :

أبلغ سبيعاً وأنت سيدنا ... قدما وأوفى رجالنا ذمما
أن بغيضاً وأن إخوتها ... ذبيان قد ضرموا الذي اضطرما
نبئت أن حكموك بينهم ... فلا يقولن بئس ما حكما
إن كنت ذا خبرة(*) بشأنهم ... تعرف ذا حقهم ومن ظلما
وتنزل الأمر في منازله ... حكما(**) وعلماً وتحضر الفهما
ولا تبالي من المحقق ولا الـ ... ـمبطل لا إلة ولا ذمما
فاحكم وأنت الحكيم بينهم ... لن تعدموا الحكم ثابتاً صتما(x)
واصدع أديم السواء بينهم ... على رضا من رضي ومن رغما
إن كان مالا ففض عدته ... مالا بمال وإن دماً فدما
حتى ترى ظاهر الحكومة مثـ ... ـل الصبح جلى نهاره ظلما
هذا وإن لم تطق حكومتهم ... فانبذ إليهم أمورهم سلما

(*) في رواية : عرفة بدل خبرة . وقد نقل الجاحظ هذه القصيدة مرتين في البيان والتبيين ونسبها في الثانية إلى سلمة بن الحارث الأنباري .

(**) وفي رواية : حزماً وعزماً بدل حكماً وعلماً .

(x) الصتم : الصحيح القوي . يقال رجل صتم إذا كان شديداً .

وقد خصت قريش من بين العرب بمزايا جليلة وصفها الجاحظ بقوله : قد علم الناس كيف كرم قريش وسخاؤها ، وكيف عقولها ودهاؤها ، وكيف رأيها وذكاؤها ، وكيف سياستها وتدبيرها ، وكيف إيجازها وتحبيرها ، وكيف رجاحة أحلامها إذا خف الحليم ، وحدة أذهانها إذا كلّ الحديد ، وكيف صبرها عند اللقاء ، وثباتها فى اللأواء ، وكيف وفاؤها إذا استحسن الغدر ، وكيف جودها إذا حب المال ، وكيف ذكرها لأحاديث نجد ، وقلة صدودها عن جهة القصد ، وكيف إقرارها بالحق وصبرها عليه ، وكيف وصفها له ودعاؤها إليه ، وكيف سماحة أخلاقها ، وصونها لأعراقها ، وكيف وصلوا قديمهم بحديثهم ، وطريفهم بتليدهم ، وكيف أشبه علانيتهم سرهم ، وقولهم فعلهم ، وهل سلامة صدر أحدهم إلا على قدر بعد غوره ، وهل غفلته إلا فى وزن صدق ظنه ، وهل ظنه إلا كيقين غيره ؟ ! .

العرب فى الإسلام

حالة العالم فى الإسلام وحال الأولين من المسلمين :

كان أهل الأرض يوم قام الرسول يهدى من الضلالة وينقذ بمكانه من الجهالة — كما قال على بن أبى طالب — مِللاً متفرّقة ، وأهواءً منتشرة ، وطوائف مشتتة ، بين مشبه لله بخلقه ، أو ملحد فى اسمه ، أو مشير إلى غيره ، ضلالاً فى حيرة ، وخابطين فى فتنة ، قد استهوتهم الأهواء ، واستذلتهم الكبرياء ، واستخفتهم الجاهلية الجهلاء ، حيارى فى زلزال من الأمر ، وبلاء من الجهل . أرسل الرسول « على[1] حين فترة من الرسل ، وطول هجعة من الأمم ، واعتزام من الفتن ، وانتشار من الأمور ، وتلظ من الحروب ، والدنيا كاسفة النور ، ظاهرة الغرور ، على حين اصفرار من ورقها ، وإياس من ثمرها ، واغورار من مائها ، قد درست منار الهدى ، وظهرت أعلام الردى ، فهى متجهمة[2] لأهلها ، عابسة فى وجه طالبها ، ثمرها الفتنة ، وطعامها الجيفة ، وشعارها الخوف ، ودثارها السيف » .

جمع الإسلام من شمل العرب بعد تشتتهم ، وآخى بينهم مؤاخاة ما عهدوها ، وهذب نفوسهم حتى سلس قيادهم بعد شماسه ، وثقفهم ثقافة أفادوا بها ففادوا بالأهل والولد والنفس والمال فى نصرة دينهم ، فامتن تعالى عليهم بقوله : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون ، واعتصموا بحبل

---

(١) نهج البلاغة جمع الشريف الرضى .

(٢) جهم كـكرم ، جهامة وجهومة ، وجهمه كمنعه وسمعه : استقبله بوجه باسر كريه ، كتجهمه .

الله جميعاً ولا تفرّقوا ، واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا ، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ، كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون » . وأناس أصبح هذا حالهم لا يستعظم عليهم أن يفتحوا فى سنين قليلة الشام والعراق وفارس ومصر والجزيرة والروم والسند وبخارى والمغرب والأندلس وجزر البحر المتوسط ، وأن يأخذوا جزية من ملك الصين ، والتوفيق حليف رايتهم أينما حلت ، يفتحون بالعدل قلوب من يغلبونهم على أمرهم ، عقبى فتحهم ديارهم عنوة أو صلحاً ، يتحامون ما أمكن إهراق الدماء ، ويرفقون بالمستضعفين من الأولاد والنساء والرهبان ، وينشرون كلمة التوحيد بالحكمة والموعظة الحسنة ، ويعلمون الأمم المغلوبة لسانهم ومنازعهم ، مؤثرين فى كل حالة من حالاتهم الآخرة على الدنيا ، وكذلك كانوا فى أقوالهم وأفعالهم .

وعجيب وايم الحق أن تصدر مثل هذه الفعال من أمة كانت بالأمس ضالة بأخلاقها ، ضعيفة بكيانها ، فاسدة معظم تراكيبها ، وعجيب أن يصوغ محمد فى بوتقته أصحاباً كانوا مثال الحق والصدق فى العالمين ، يخرجهم بحرارة الإيمان ذهباً إبريزاً ، ومن قبل كان أكثرهم لا عيار له ولا وزن . وهذه أعظم معجزة بعد قرآنه الذى حمله لأمته ، فأشرب نفوسها حب الطاعة ، وما كان أعصاها على كل نظام . ولا غرو أن يغلب الألف منهم الألفين والثلاثة ، فقيمة الأمم بعددها لا بعددها ، ومن هان عليه الموت فى سبيل نشر دينه ، وتأييد سلطانه ، جاء بما يتعذر على غيره أن يقوم بمثله ممن كانت عقيدته إلى ضعف ، وأمره إلى تقلقل .

كان بعض من آمنوا بالرسول فى مبدإ الإسلام فى مكة[1] ممن لا عشائر لهم ، وليست لهم منعة ولا قوة ، تعذبهم قريش فى الرمضاء بأنصاف النهار ، ليرجعوا عن دينهم ، أو يحمون الحديد ويضعونهم عليه ، وما صبأ[2] منهم أحد ، ومازادتهم

(١) طبقات ابن سعد .

(٢) صبأ يصبأ ويصبؤ : خرج من دين إلى دين آخر ، كما تصبأ النجوم ، أى تخرج من مطالعها . وكانت العرب تسمى النبي الصابئ ، لأنه خرج من دين قريش الى الإسلام ، ويسمون من يدخل فى دين الإسلام مصبواً .

خشونة قومهم إلا ثباتا ، وكانوا يسمون المستضعفين ، وهم راضون بما ينالهم ، وسواء عندهم احلولى عيشهم أو املولح ، إذا كان فى ذلك نصرة الدين .

فالإسلام هو الذى جعل فى العرب خاصية فى أخلاقها ساقتها إلى العمل الصالح ، فوحد بين مقاصدها ووجهها إلى هدف واحد ، ومن حرص على الموت وهبت له الحياة . استهواهم القرآن فآمنوا به وبمن جاءهم به ، وما هى إلا أيام معدودات حتى هذبت مدرسة محمد بن عبد الله من نفوسهم ، وأنشأت منهم رجالا أصبحوا فى عقلهم وعدلهم موضع الاستغراب ، على توالى القرون والأحقاب . وليس فى وسع مؤمن أو جاحد ينظر فى تاريخ العرب النظر المجرد عن الهوى ، إلا وتأخذه الدهشة من صنيعهم ، وحسن بلائهم فى عهدهم الجديد .

مثال من سرعة تبدل الأخلاق بالدين : أكثرت الخنساء الشاعرة فى الجاهلية من رثاء صخر أخيها لأبيها وشقيقها معاوية ، وكان صخر أحبهما إليها ، وكان حليما جواداً[1] محبوباً فى العشيرة ، فلما جاء الإسلام وأسلمت شهدت وقعة القادسية مع أربعة بنين لها ، فخطبتهم مبينة لهم ما أعد الله من الثواب فى حرب الكافرين ، وأن الدار الباقية خير من الدار الفانية ، فخرجوا قابلين لنصحها واستشهدوا كلهم ، فلما بلغها الخبر قالت : الحمد لله الذى شرفنى بقتلهم ، وأرجو من ربى أن يجمعنى بهم فى مستقر رحمته . ولم تجزع على أفلاذ كبدها جزعها من قبل على أخيها لأبيها أيام الجاهلية .

بماذا امتاز العرب المسلمون :

حملت العرب إلى ما وراء جزيرتهم كتاباً مختصراً فيه ما يصلحهم ويصلح غيرهم ، وأهم سر فى غناء قانونهم المبتكر أنهم كانوا يعملون بأحكامه لا يخرمون منه حرفاً ، ويحفظون معه أموراً تنفعهم فى تمثل الحياة الفاضلة الساذجة ، ومنها قواعد

(١) أسد الغابة لابن الأثير .

القتال ، ومعرفة طبائع من يحتلون أرضهم . ومن أهم ما عرفوا به اعتصامهم بالصبر ، وتحليهم بالشجاعة والكرم والنجدة والوفاء . ونفوس شفافة سليمة من مثل هذه لا يستكثر منها سرعة انطباعها بطابع محدث من الحضارة ، وهي بفطرتها مستعدة لقبول الخيرات ، بعيدة في كل أحوالها عن اللغو والعبث ، ما عاقتها حرارة أرضها عن بلوغ أقصى مدى العمل المعجب ، وأكذبت بما فعلت دعوى من قالوا إن الحضارة وليدة الأرض الباردة . ومن زعم أن المدنيات والفتوحات ابنة العناصر والأجناس فقد ضلّ وأخطأ ، إذ كان الفتح العربي أعظم ظاهرة من ظواهر الفتوح التي رآها العالم بعد سقوط رومية[١] ، والقائمون به كانوا من أرض حارة جداً على الأكثر .

كان من الغارات التي تغيرها العرب على الأقطار المجاورة في القرون السالفة سواء احتلوها زمناً أو أنشأوا فيها دولة أو شبه دولة ، ومن غارات الغريب الذي حاول استعبادهم يوماً فردوه على أعقابه ، ومن تمرن فريق منهم كالغسانيين والتنوخيين والتغلبيين واللخميين والإياديين عند الروم والفرس على معاناة الإدارة والعسكرية — كان من ذلك ما أورثهم علماً عمليًّا أصابوا به حظاً من إدارة الممالك . « والحاجة تفتح باب المعرفة » على ما جاء في أمثالهم . ومما ساعدهم على توسعهم أنهم كانوا يعرفون عدوهم أكثر مما يعرفهم ، هو يحتقرهم في الجملة : أما هم فيمتدون به . يحتقرهم لأنهم كانوا ينتجعون بلاده[٢] ، ولا سيما إذا أقحطوا وضنت

---

(١) شفق المدنية للابريولا .

Labriola : Le crépuscule de la civilisation.

(٢) أرسل سعد بن أبي وقاص المغيرة بن شعبة إلى رستم قائد جيوش العجم قبل وقعة القادسية في سفارة ، فقال له رستم : « إن الله أعظم لنا السلطان ، وأظهرنا على الأمم ، وأخضع لنا الأقاليم ، وذلل لنا أهل الأرضين ، ولم يكن في الأرض أمة أصغر قدراً عندنا منكم ، لأنكم أهل قلة وذلة وأرض جدبة ، ومعيشة ضنك ، فما حملكم على تخطيكم إلى بلادنا ، فإن كان ذلك من قحط نزل بكم ، فإنا نوسعكم ونفضل عليكم ، فارجعوا إلى بلادكم » . فقال له المغيرة : « أما ما ذكرت من عظيم سلطانكم ورفاهية عيشكم ، وظهوركم على الأمم وما أوتيتم من رفيع الشأن ، فنحن كل ذلك عارفون . وسأخبرك عن حالنا ، إن الله وله الحمد أنزلنا بقفار من =

عليهم سماؤهم . نعم كانوا لا يستهينون بخصومهم بل ينصفونهم ويعترفون لهم بفضلهم . عن المستورد[1] القرشي قال سمعت رسول الله يقول : « تقوم الساعة والروم أكثر الناس » — يعنون بالروم من نعنى اليوم بهم أهل الغرب — فقال عمرو بن العاص : أبصر ما تقول . قال : أقول سمعت من رسول الله قال : « إن قلت ذلك فإن فيهم لخصالاً أربعة : إنهم لأحلم الناس عند فتنة ، وأسرعهم إفاقة عند مصيبة ، وأوشكهم كرة بعد فرة ، وأجبرهم لمسكين ويتيم وضعيف ، وخامسة حسنة جميلة : وأمنعهم من ظلم الملوك » . أليس هـذا القول المتناهى فى إنصاف المخالف هو كلام من يعرف خصمه ، وما انطوى عليه من مزايا وصفات .

مجموعة الأمة العربية وأخلاق خلفائها وقوادها :

ثم إذا تشابهت جزيرة العرب باللغة ، واعتمدت فى الإسلام على أفصح لهجاتها ، وهى لغة قريش ، فلا تتشابه كثيراً فى درجة ارتقائها فى المدنية ، ويغلط من يدعى أن العرب كانوا نصف متمدنين أو نصف متوحشين لما خرجوا من جزيرتهم ، وكما كان منهم أهل الوبر القائمون على الزرع والضرع ، كان منهم أهل المدر يعانون التجارة والصناعة . والمدن التجارية الصناعية تكون بطبيعتها على استعداد دائم للامتزاج بمن تعامله ويعاملها ، وعلى معرفة بمداخل الحياة ومخارجها . هـذا واليمانى يمتاز بصفات ليست للحجازى ، والنجدى غير الحضرمى ، والعمانى غير الأحسائى ، وابن الساحل غير ابن الداخل ، والجبلى غير السهلى . ومن مجموعهم كانت هذه الأمة العربية الفاتحة .

= الأرض مع الماء النزر ، والعيش القشف ، يأكل قوينا ضعيفنا ، ونقطع أرحامنا ، ونقتل أولادنا خشية الإملاق ، ونعبد الأوثان ، فبينا نحن كذلك بعث الله فينا نبياً من صميمنا ، وأكرم أرومة فينا ، وأمره أن يدعو الناس إلى شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن نعمل بكتاب أنزله إلينا فآمنا به وصدقناه ، فأمرنا أن ندعو الناس الى ما أمره الله به ، فمن أجابنا كان له ما لنا وعليه ما علينا ، ومن أبى ذلك سألناه الجزية عن يد ، فمن أبى جاهدناه ، وأنا أدعوك إلى مثل ذلك ، فإن أبيت فالسيف » وضرب بيده مشيرا بهالى قائم سيفه .

(١) صحيح مسلم

وإن خليفة يوصى قائده وهو يوجهه لقتال الروم فى الشام بقوله : «إنك ستجد قوماً حبسوا أنفسهم لله فذرهم وما حبسوا أنفسهم له — يريد بهم الرهبان — ويقول له : لا تغدر ولا تمثل ولا تقتل هرماً ولا امرأة ولا وليداً ولا تعقرن شاة ولا بعيراً إلا ما أكلتم ، ولا تحرقن نخلا ولا تخربن عامراً ولا تغل[1]» إن خليفة يقول لقائده هذا مضمون له التوفيق ، لأنه يملى عليه أجمل عظة فى العدل والإحسان. يقول روبنسون : إن شيعة محمد هم وحدهم الذين جمعوا بين محاسنة الأجانب ومحبة انتشار دينهم . هذه العاطفة هى التى دفعتهم فى سبيل الفتح وهو سبب لا حرج فيه ، فنشر القرآن جناحيه خلف جيوشه الظافرة ، إذ أغاروا على الشام ، وانقضوا انقضاض الصواعق على إفريقية الشمالية من البحر الأحمر إلى المحيط الأطلانطى ، ولم يتركوا أثراً للعسف فى طريقهم إلا ما كان لابد منه فى كل حرب ، فلم يبيدوا قط أمة أبت الإسلام . اه .

هذه سياسة العرب فى فتحها لم يحيدوا عنها قيد أنملة ، أما الرومان الذين بهت أنصارهم بعظمتهم ، ولم ينظروا إلى الصورة التى دوخوا بها الأرض واستتبعوا الشعوب ، فكانوا يبيدون كل عامر ويقتلون الأولاد والنساء والشيوخ ، ثم يسترقون بقايا السيوف استرقاقاً ممقوتاً مجرداً من كل عاطفة ومروءة ، كانوا إذا أطاعهم بلد قبلوا ما سقطوا عليه فيه من معبودات وأرباب ، يضيفونها إلى ما عندهم منها ، كأن المعبودات بعض الأعلاق والطرائف ، كلما كثرت مجموعتها كان لغواتها ما يفاخرون به ويباهون . أما العرب فكانوا ينادون علناً بدينهم ، موحدين الله ، مصلين على رسوله . يفيضون العدل بين الرعية ، ولا كبير أمام شريعتهم ، لأنها ساوت بين العظيم والصعلوك ، لا يكرهون أحداً على دينهم مهما عظم سلطانهم ، يكتفون بخراج أو جزية لا يعد مقدارها شيئاً بالقياس إلى ما كان على الناس أن يؤدوه من قبل . فلا عجب إذا دخل المغلوبون فى دين الغالبين أفواجاً ، ولا بدع أن

(١) الغلول : الخيانة فى المغنم .

تشبه المغلوب بغالبه ، فتلقف لسانه وهان عليه قبول أوضاع جديدة ما كان له بهـا عهد ، وعد ما أتاه به نعمة وأى نعمة ، لانطوائه على السلام والطمأنينة والعدل المطلق .

وإن خليفة كعمر بن الخطاب تدركه الصلاة فى كنيسة القيامة(١) فى القدس ، ويقول لبطركها صفرونيوس : أريد أن أصلى . فيقول له : صـل يا أمير المؤمنين موضعك . فيأبى ، ثم يخرجه إلى كنيسة قسطنطين فيأبى ، ويصلى وحده على بابها ، ويقول للبطرك : إن سبب امتناعه من الصلاة فى الكنيسة لئلا تخرج من يده ويأخذها المسلمون منه ، ويقولون ها هنا صلى عمر ، ثم يكتب له سجلا على أن لا يصلى أحد من المسلمين على الدرجة إلا فرادى ، ولا تجمع فيها صلاة ولا يؤذن عليها — إن خليفة يعمل هـذا ، وهو فى قمة عز الإسلام ، جدير بإعجاب العدو والصديق لبعد نظره ، وكثرة تسامحه ، ولمعرفته الواسـعة بإقامة الممالك واستمالة القلوب .

وإن قائداً كخالد بن الوليد يكتب إلى ملوك فارس قبل وقعة القادسية ، يريدهم على الدخول فى أمره ليدعهم وأرضهم ويجوزهم إلى غيرهم قائلا : « وإلا كان ذلك وأنتم كارهون على غلب ، على أيدى قوم يحبون الموت كما تحبون الحياة » ويكتب إلى مرازبة(٢) فارس : « أما بعد فأسلموا تسلموا ، وإلا فاعتقدوا منى الذمة وأدوا الجزية ، وإلا فقد جئتكم بقوم يحبون الموت كما تحبون شرب الخمر » . إن قائداً يقول هذا معبراً بلسان قومه عن استهانته بالموت فى سبيل هدفه الأعلى ، لايستعظم منهم أن يغلبوا يوم الزحف ، وهم أقل من ربع أعدائهم بعـددهم . بيد أن العرب كانوا يحاربون وهم يعرفون السبب الذى من أجله يحاربون ، فإذا ما سمعتهم كبروا التكبيرة ثم التكبيرتين والثلاث وهم زاحفون على أعدائهم أيقنت أنهم لا يرجعون

(١) تاريخ سعيد بن بطريق .

(٢) المرزبان رئيس العجم وهو المقدم على القوم ودون الملك ، ج مرازبة .

أو ينصروا . وكانوا مع هذا كما قال فيهم[١] أعداؤهم « فرساناً فى النهار ، رهباناً فى الليل ، يدوون بالقرآن إذا جن عليهم الليل دوى النحل ، وهم آساد الناس لا يشبههم الأسود » قوم كانوا بالأمس لإفراطهم فى الحرية لا يخضعون لنظام ، فلما دخلوا فى الإسلام رأيتهم لا يخالفون أمراً لكبيرهم ، يبايعونه على الطاعة والموت فى سبيل الجماعة .

وإن خليفة كابن الخطاب يقول : « إنى حريص على أن لا أدع حاجة إلا سددتها ما اتسع بعضنا لبعض ، فإذا عجز ذلك عنا تآسينا فى عيشنا حتى نستوى فى الكفاف ، ولوددت أنكم علمتم من نفسى مثل الذى وقع فيها لكم ، ولست معلمكم إلا بالعمل ، إنى والله ما أنا بملك فأستعبدكم ، وإنما أنا عبد الله عرضت علىّ الأمانة فإن أبيتها ورددتها عليكم واتبعتكم حتى تشبعوا فى بيوتكم وترووا سعدت ، وإن أنا حملتها واستتبعتكم إلى بيتى شقيت ، ففرحت قليلا وحزنت طويلا ، وبقيت لا أقال ولا أرد فأستعتب » .

إن خليفة كهذا يقول عام الرمادة ، وهو عام مجاعة وجدب وقحط : كيف يعنينى شأن الرعية إذا لم يصبنى ما أصابهم ؟ . ويقسم ألا يذوق سمناً ولا لبناً ولا لحماً حتى يحيى الناس ، وجعل يثرد بالزيت حتى تغير لون بشرته ، ثم ينحر جزوراً يطعمها الناس فيغرفون له طيبها ، فيؤتى بقدر من سنام ومن كبد فيقول : أنّى هذا ؟ فيقال له : يا أمير المؤمنين من الجزور التى نحرنا اليوم ، فقال : بخ بخ ، بئس الوالى أنا ، أكلت طيبها وأطعمت الناس كراديسها[٢] ، ارفع هذه الصفحة ، هات لنا غير هذا الطعام . فيؤتى بخبز وزيت فيكسر ويثرد فى ذلك الزيت ويرسل الجفنة إلى أناس مقفرين .

إن خليفة يعمل هذا فى أيام الشدة . وفى أيام الرخاء يقول لجماعة يطعمهم

(١) تاريخ الطبرى .
(٢) الكراديس : رءوس المنكبين والركبتين والوركين والقطع العظام من اللحم .

أكسار بعير وخبزاً : إنا لو نشاء لملأنا هذه الرحاب من صلائق وسبائك وصناب[١]، ولكنى رأيت الله عز وجل نعى على قوم شهواتهم فقال : (أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا) .

إن خليفة يفعل هذا غير متصنع ولا متعتع[٢] حرىّ بأن يحبه قومه ويطيعوه فى كل ما يأمرهم به .

لما فتح عتبة[٣] بن فرقد أذربيجان صنع سَفَطين من خبيص وألبسهما الجلود واللبود ثم بعث بهما إلى عمر ، فلما أتاه الرسول بهما كشف عنهما فذاق الخبيص فقال : إن هذا لطيب أثر ، أكلّ المهاجرين أكل منه ما شبعه ؟ قال : لا ، إنما هو شيء خصك به . فكتب إليه : من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى عتبة بن فرقد ، أما بعد ، فليس من كدك ولا كد أمك ولا كد أبيك ، لا تأكل إلا ما يشبع منه المسلمون فى رحالهم .

حمل بعض الفرس إلى أبى عبيدة بن مسعود آنية فيها أنواع أطعمة فارس والألوان والأخبصة وغيرها فقالوا : « هذه كرامة أكرمناك بها وقرًى لك » . قال : أأكرمتم الجند وقريتموهم مثله ؟ قالوا : لم يتيسر ، ونحن فاعلون . فرده وقال : « لا حاجة لنا فيه ، بئس المرء أبو عبيدة أن صحب قوماً من بلادهم ، أهرقوا دماءهم دونه أولم يهريقوا ، فاستأثر عليهم بشيء يصيب ، لا والله لا نأكل مما أفاء الله عليهم إلا مثل ما يأكل أوساطهم .

هذه سيرة من نهضوا بهذه الفتوح من خليفتهم إلى قائدهم ، وكيف لا يفتحون المشرق والمغرب ومثل سيرتهم الذكية تأخذ بمجامع القلوب ، وما عهدت قط عند من نزلوا عليهم

(١) الصلائق : ما عمل بالنار طبخاً وشيا ، والسبائك : ما يسبك من الدقيق الحوارى ، والصناب : صباغ يتخذ من الخردل والزبيب .
(٢) تعتع فى الكلام : إذا تردد من حصر وعى .
(٣) فتوح البلدان للبلاذرى .

رأى لبون ودوزى فى الفتوح العربية :

يقول لبون : « إن اعتياد العرب الحروب والغارات فى الجاهلية[١] كان منه قيام أمرهم فى الإسلام ، فبعد أن كان بأسهم بينهم ، وجهوا غاراتهم نحو الأجانب فكان فى ذلك قوتهم . ولما لم يبق أمامهم أعداء يقاتلونهم ، عادوا يتقاتلون فأدى ذلك إلى انحطاطهم . وأهم العوامل فى امتداد حكمهم اجتماع كلمة قبائلهم المختلفة تحت علم واحد ، وهو علم الإسلام ، فوجه هذا وجهتهم إلى هدف سام أورثهم حماسة ، فكانوا أبداً على استعداد للمفاداة بأنفسهم فى سبيله . وكان هذا الهدف دينياً صرفاً ، ودولة العرب قامت على هذا الأساس ، وكانت الدولة الوحيدة الكبرى القائمة باسم الدين ، ومنه انبعثت سياستها وحالتها الاجتماعية ، وساعد العرب على فتوحهم كون العالم القديم كان يهوى إلى السقوط ، فكان حرياً بأمة متوحدة المقاصد والمنازع أن تفتح الفتوح وتستبقيها . وما ضعف نشاطهم فى هذه السبيل ، بل تعلموا فى مدرسة مغلوبيهم ، ولما ساووهم فى الجندية كان نجاحهم مضموناً ، وكنت ترى كل جندى من الجيش العربى على استعداد لبذل روحه لإنجاح المقصد الذى يقاتل لأجله ، على حين كان كل إخلاص وحماسة وعقيدة قد اضمحلت من نفوس اليونان منذ زمن بعيد .

« وما كانت انتصارات العرب لتعمى أبصارهم لأول أمرهم ، وتحملهم على الإفراط المألوف عند الفاتحين فى العادة ، ولا اشتدوا فى إرهاق المغلوبين على أمرهم ، ولا فرضوا عليهم بالقوة دينهم الجديد الذى كانوا يريدون بثه فى أقطار العالم ، ولو عملوا ذلك لأهاجوا عليهم جميع الشعوب التى لم تخضع لهم ، فاتقوا حتى التقاة هذه التهلكة التى لم ينج منها الصليبيون الداخلون على الشام فى القرون اللاحقة . ولقد أدرك الخلفاء الأول بعبقريتهم السياسية النادرة فى اتباع معتقد جديد ، أن الأوضاع والأديان لا تفرض على الناس بالقوة ، ورأيناهم حيث دخلوا فى الشام ومصر

---

(١) حضارة العرب لجوستاف لوبون .

وإسبانيا يعاملون الشعوب بمنتهى الرفق ، تاركين لهم أنظمتهم وأوضاعهم ومعتقداتهم ، غير ضاربين عليهم فى مقابلة السلام الذى ضمنوه لهم إلا جزية ضئيلة ، كانت على الأغلب أقل من الضرائب التى كان عليهم أداؤها من قبل[1] . وما عرفت الشعوب فاتحاً بلغ هذا القدر من المسامحة ، ولا ديناً حوى فى مطاويه هذه الرقة واللطف . وكانت هذه السماحة وهذا اللطف اللذان تجاهلهما المؤرخون ، من بعض العوامل التى هيأت بسرعة انتشار فتوح العرب ، وأهم سبب دعا إلى قبول دينهم وأوضاعهم ولسانهم . ونحن ندرك كيف تأصلت هذه العوامل الثلاثة بين ظهرانى الشعوب التى رحبت بمقدمهم ، وأنها قاومت بعد جميع الغارات ، ووقت العرب من بوائق الاضمحلال . وما تم من هذا القبيل فى مصر من أعظم ما يسترعى النظر ، فقد حكم الفرس واليونان والرومان وادى النيل ، ولم يوفقوا لأن يقلبوا المدنية الفرعونية

(١) أرسل بطريرك القدس لما أخذ عهدا من عمر بن الخطاب إلى زميله فى القسطنطينية يقول له إنه لم يصبنا من المسلمين أقل أذى أو إهانة أو عنف . وهذه فقرة من كتاب أرسله البطريرك النسطورى إيشوياب الثالث إلى البطريرك سمعان زميله فى العجم بعد مرور بضع سنين على الفتح الإسلامى : « ها إن العرب الذين منحهم الرب سلطة العالم وقيادة الأرض أصبحوا عندنا . . . ومع ذلك نراهم لا يعرضون للنصرانية بسوء ، فهم يساعدوننا ويشجعوننا على الاحتفاظ بمعتقداتنا ، وإنهم ليجلون الرهبان والقديسين ، ويعاونون بالمال الكنائس والأديرة » . . . وهذه شهادة أخرى من أسقف نسطورى فى ذلك العهد : « أصبح العرب الذين أعطاهم الله حكم العالم فى هذه الأيام حاكمين علينا ، ولكنهم لا يكافحون النصرانية ، ويحترمون رهباننا وقديسينا ، ويجودون بالعطاء لكنائسنا وأديارنا » (عن السمعانى فى المكتبة الشرقية المجلد الثالث) ، وأرسل تيودوس بطريرك القدس إلى زميله إيناس بطريرك القسطنطينية رسالة يمدح فيها سماحة العرب الفاتحين لسماحهم للنصارى ببناء الكنائس ، ومنحهم العمل بقوانينهم وأصولهم الدينية ، ومما قال : « إن العرب رجال حق وعدل . لا يرى منهم إجحاف ولا إكراه » (من كتاب الكنيسة والشرق فى القرون الوسطى لبرتيه) . وعزا ميخائيل السوردى هذا الفتح العربى لإرادة الله . وإنه أنقذهم من بطش الرومان وظلمهم وتهديمهم بيوت الله من كنائس وأديار ، وسرقتهم تراثها ، واضطهاد المغلوبين على أمرهم . وأن العرب خصوا البيع والديرة بالطوائف التى كانت تتصرف بها حين الفتح ، فأبقوا للخلقدونيين كتدرائيات الرها وحران لأنها كانت يومئذ تحت تصرف الخلقدونيين . وعاد فشكر الله على خلاصهم من قسوة الرومان وعسفهم وظلمهم ، وحمده على ما أولاهم من راحة ومن به من أمن (عن كتاب القرن الثالث عشر لأدمون رباط) .

القديمة ، وأن يستعيضوا عنها بحضارتهم « أما العرب فكان شأنهم فى مصر غير هذا ، عربوها وأسلموها » . وهناك عوامل أخرى غير سماحة العرب ولطف حكمهم ، ضمنت لهم النجاح فى بث دينهم وما تفرّع من أوضاعه . فقد كانت هذه الأوضاع على غاية السذاجة بحيث امتزجت على أيسر سبيل مع الحاجات البسيطة فى أهل الطبقات المتوسطة من الشعوب المغلوبة . وإذا حدث أن هذه الأوضاع لم تلتئم مع تلك الحاجات ، كان العرب يعمدون إلى تعديلها بحسب الحال ، وهكذا كانت الأوضاع الإسلامية فى الهند وفارس وجزيرة العرب وإفريقية البربرية ومصر تختلف كل الاختلاف ، وكتابها واحد وهو القرآن .

« ومن العوامل الفعالة فى أصول المدنية التى وضعت العرب أساسها ، ذاك المحيط الجديد الذى صاروا إليه ، وشدّة ما كانوا عليه من الذكاء ، فإنهم ما كادوا يخرجون من صحاريهم ، حتى اتصلوا بالمدنية اليونانية اللاتينية ، مستغربين شأنها ، عارفين تفوقها الأدبى ، كما أدركوا من قبل تفوقها الحربى ، فحاولوا فى الحال أن يساموها ، فتمثلوا مدنية قديمة يقتضى لتمثلها فكر مهذب . وإن ما بذله البربر من الجهود خلال قرون كثيرة للأخذ ببقايا المدنية اللاتينية ، ليدل على مبلغ الصعوبة فى هذا الباب ، ولحسن الحظ لم يكن العرب متوحشين ، ونحن نجهل ما بلغوه من الحضارة فى العهد الذى سبق الرسول . وكانوا على اتصال بالتجارة مع العالم ، وكانت لهم ثقافة أدبية عالية لما ظهر صاحب الرسالة . وبديهى أن أديباً إذا قضى عليه أن يجهل أموراً كثيرة يكون له من استعداده العقلى ما يؤهله سريعاً لإدراك أمور لم يكن يعرفها . فكان تحمس العرب فى دراسة العالم الجديد الذى خرجوا إليه ، كتحمسهم فى فتحه واستصفائه ، ولم يحمل العرب فى دراسة هذه المدنية التى فاجأتهم شيئاً من تأثيرات الأوضاع التى كانت ترهق البيزنطيين منذ زمن طويل . وهذه الحرية فى الأفكار كانت أحد العوامل فى انبعاثهم السريع . وقد يفعل ماضى الشعوب فى حياتها ما يكون منه نفعها ، ثم يستعبدها لسلطان المواضعات العتيقة ويحول دون ارتقائها . وما عتم الاستقلال الطبيعى فى أفكار العرب ، وقوتهم

فى الإبداع والتصور أن تجليا فيما أحدثوه من أنفسهم . ولم يمض زمن قصير حتى طبعوا الهندسة والفنون والعلوم بطابعهم الشخصى الذى نعرف به آثارهم لأول وهلة ، وإذ كانت فلسفة اليونان النظرية غير موائمة كثيراً لطبيعة أفكار العرب ، لم يعنوا بها كل العناية ، فخصوا الفنون والعلوم والآداب بعنايتهم وأولعوا بها فدخلت شغاف قلوبهم » .

ومن قبله جاء دوزى[1] فقال : إن العرب لم يحكموا بتعاليم فلسفية فقط ، بل بالفطرة والغريزة ، حتى حققوا بادئ بدء مقالة الثورة الفرنسية الشريفة وهى الحرية والمساواة والإخاء ، ولقد كان البدوى يستمتع بحرية ليس أوسع منها على الأرض ، ويقول لا أعرف مولى غير مولى العالم ، وبلغ الحد الأعظم من الحرية التى يتمتع بها ، بحيث لو قرنت معها أصولنا فى الحرية الراقية إلى أبعد الغايات ، تسجل أنها تشبه قواعد الاستبداد . وعندنا أن الحكومة شر لازم لا يتقى ، والشرط فيه الخير . أما البدو فإنهم مستغنون عن كل حكومة . حقاً أن لكل قبيلة أميرها تنتخبه بنفسها ، ولكن نفوذه قليل وإن كان مبجلاً عندهم ، مسموع الكلمة بينهم ، لا سيما إذا كان مفوهاً لسناً . وليس من حق شيخ القبيلة البتة أن يصدر الأوامر والنواهى . ويطلب إليه أن لا يقبض راتباً ؛ بل يكره — إرضاء للرأى العام — على أن يقوم بإطعام الفقراء ، ويوزع بين أحبائه الهدايا التى تهدى إليه ، ويقرى الغرباء قرًى لا يتأتى لأىٍّ كان من رجال القبيلة أن يقوم بمثله حسناً ورونقاً . ويقضى عليه فى كل حال أن يأخذ رأى مجلس شورى القبيلة المؤلف من أمراء أسرات مختلفة ، وبدون رضى هذا المجلس لا يستطيع شهر حرب ، ولا عقد صلح ، ولا تقويض مضارب الجيش . وإذا منحت إحدى القبائل لقب أمير لأحد أفرادها ، فلا يكون ذلك على الأغلب إلا من قبيل الحرمة لا يعود عليه بشىء ، بل هو بمثابة شهادة عامة منها تمنحه إياها دليل إجلالها له ، واعترافاً بعظمة الرجل الممتاز باقتداره وجرأته وسماحته وإخلاصه فى قضاء شئون قبيله . قال أحد الأحرار

(١) تاريخ المسلمين فى أسبانيا لدوزى Dozy : Histoire des Musulmans en Espagne

الأقدمين : إننا لا نعطى هذه المرتبة لأحد ما لم يهبنا كل ما علكه ، ويسمح لنا أن نطأ بأرجلنا كل عزيز لديه ، وينزل عن كل ما يحب أن يراه مبجلا مشرفاً ، ويخدمنا خدمة الموالى والعبيد .

وبعد أن توسع المؤلف الهولاندى فى شرح معنى الحرية والمساواة والإخاء عند العرب ، وأتى بالشواهد التاريخية والأمثال الكثيرة ، وقارن بين هذه الأسماء عند العرب وفى أوربا ، رأى أنها أفضل عند العرب ، لأنها أدعى إلى الراحة ، ينجو أصحابها من الأطماع التى لا حد لها ، والآمال البعيدة غالباً ، كما هو الحال عند الأوربيين ممن دأبهم أبداً التفكر فى نيل حالة أحسن من حالتهم ، وهذا مما يهدم أركان المجتمع الإنسانى وقلما يأتى بالسعادة ، بيد أنه امتدح من التوسع فى الفكر عند الإفرنج ، ذاك التوسع الذى آل بهم إلى مواطن الارتقاء الحاضر ، ورزقهم هذا النجاح الماثل للعيان . وختم بقوله : إن العرب لما نزلوا فى الولايات الجسيمة التى افتتحوها بحد السيف اشتغلوا مع هذا بالعلوم ، إلا أنهم لم يظهروا فى غير مظهرهم الأول فى عدم الخنوع لحكم الخلائق ، وترجموا كثيراً من كتب الأقدمين وعلقوا عليها شروحاً فاغتنت بأعمالهم بعض فروعها ، واتسع نطاقها بملاحظاتهم الدائمة البالغة غاية الدقة والوضوح ، لكنهم لم يخترعوا شيئاً ولا ندين لهم بأدنى فكر عال أو واسع . وهكذا فإن بيننا وبينهم اختلافات أساسية ، وربما كانت أخلاقهم أسمى من أخلاقنا ، ونفوسهم أكبر من نفوسنا ، وهم أكثر ميلا إلى العظمة الإنسانية ، ولكنهم لا يحملون بذور النهضة والنجاح ، ومع ما هم عليه من الولوع بالاستقلال الشخصى ، وعلى قلة ما انطووا عليه من الأفكار السياسية ، يظهر أنهم غير قادرين على الخضوع لقوانين المجتمعات . اه .

هذا ما قاله دوزى وأكثر كلامه حقيقة لا مرية فيها ، إلا قوله إن العرب لم يأتوا بجديد ، ولا تدين أوربا لهم بأدنى فكر عال أو واسع . ذلك لأن ما تم على أيديهم فى باب العلم والمخترعات كان كثيراً بالنسبة إلى القرون التى فاقوا خلالها بسياستهم سائر أمم الحضارة ، على ما فصلنا ذلك فى الباب الذى عقدناه لعلوم العرب

وما وفقوا إلى كشفه ، واستندنا فيه إلى بعض علماء الغرب فى هذا الشأن ، أمثال لبون ودراپر وجوتيه وسيدليو وجبون .

مبدأ تمثل العرب للحضارة :

تمثل العرب الحضارة كأهل كل دولة ، فكانوا مقلدين فى طور المدنية وأحوالها للدولة السابقة قبلهم . ولما ملك العرب فارس والروم واستخدموا بناتهم وأبناءهم لم يكونوا على رأى ابن خلدون فى شىء من الحضارة . فقد زعم أنه قدّم لهم المرقق فكانوا يحسبونه رقاعاً ، وعثروا على الكافور فى خزائن كسرى فاستعملوه فى عجينهم ملحاً ، وأمثال ذلك . فلما استعبدوا أهل الدول قبلهم ، واستعملوهم فى مهنهم وحاجات منازلهم ، واختاروا منهم المهرة فى أمثال ذلك والقومة عليه ، أفادوهم علاج ذلك ، والقيام على عمله والتفنن فيه ، مع ما حصل لهم من اتساع العيش ، والتفنن فى أحواله ، فبلغوا الغاية فى ذلك وتطوروا بطور الحضارة والترف فى الأحوال ، واستجادة المطاعم والمشارب والملابس والمبانى والأسلحة والفرش والآنية وسائر الماعون والخرثى[1] ، وكذلك أحوالهم فى أيام المباهاة والولائم وليالى الأعراس فأتوا من ذلك وراء الغاية .

ولم ينتصف القرن الأول حتى جمع العرب فى المدن التى نزلوها أصنافاً من الرفاهية ، ومنهم من تجافت نفوسهم عن الانغماس فيها ، ومنهم من انغمسوا فيها إلى رءوسهم . وكان الصحابة إلى الخشونة ، فلما جاء بنو أمية جمعوا بين الرفاهية وشىء من أخلاق العرب فى الخشونة إلى آخر القرن الأول ، فكان من خلفائهم من لا ينزل المدن فى الشام إلا قليلا ، ويتخذون لهم قصوراً فى الأرياف[2]

(١) الخرثى بضم الخاء أثاث البيت وأسقاطه .

(٢) كان معاوية يقيم أحيانا فى غوطة دمشق ، وينصب الأبنية والأروقة والفساطيط ويشتو فى الصنبرة على ثلاثة أميال من طبرية ، وكان لكثير من بنى أمية قصور فى الغوطة وكان لعبد الملك فى البرية عدة قصور ، وابتنى الأبنية حول قصر الموقر على ساعتين من عمان =

والبوادى ، لئلا يغلب الترف على نفوسهم ونفوس بنيهم فيفسدها ، ويضيع بذلك مضاء العرب ومتانتهم .

وأخذ الحجاز وأعطى من هذه الحضارة الجديدة ، حتى يخيل للباحث أنه كان فى مكة ويثرب مدارس لتعليم الغناء والموسيقى . وكانت الجارية التى تتعلم فى مدرسة الحجاز تصيب حظاً عالياً من السعادة ، ذلك لأنه لم تكن أمة من الأمم بعد فارس والروم أولع بالملاهى والطرب من العرب . وفى النصف الأوّل من القرن الأوّل اتخذ عبد الحكم بن عمرو بن عبد الله بن صفوان(١) الجمحى بيتاً فى مكة وجعل فيه شطرنجات ونردات وقرقات(٢) ودفاتر فيها من كل علم ، وجعل فى الجدار أوتاداً ، فمن جاء علق ثيابه على وتد منها ، ثم جر دفتراً فقرأ ، وبعض ما يلعب به فلعب به مع بعضهم ، أى أن ذاك الجمحى أنشأ فى مكة نادياً فيه جد ولعب ، فيه قراءة صحائف وكتب ، وفيه لعب بالشطرنج والنرد وغيره ، وفيه مشجب يضع الداخل عليه ثيابه لئلا يتبرم به جلاسه .

= قرب قصر المشتى على مقربة من مادبا . وسكن حصن الموقر يزيد بن عبد الملك ورمه . واستقر الوليد بن يزيد والعباس بن الوليد فى القسطل فى البلقاء . والوليد فى الزيزاء وقصر الأزرق وقصير عمرا ، وكان قصر البخراء للنعمان بن بشير وهو قرب تدمر . وذكروا أن الوليد بن يزيد بن عبد الملك قتل فيه . وكان هشام ينزل فى الزيتونة فى بادية الشام ، فلما عمر الرصافة انتقل إليها . والرصافة غربى الرقة بينهما أربعة فراسخ على طرف البرية . وكان يزيد يقيم فى حوارين وتدمر ، وابنه خالد يسكن قصر الفدين فى البلقاء ، وكان سليمان بن عبد الملك يشتو بدابق وببطنان حبيب ، وينزل الوليد أيار فى حوران . وكان عمر بن عبد العزيز ينزل دير سمعان قرب معرة النعمان وبه مات ، كما كان ينزل خناصرة وهى تحاذى قنسرين ، وجميع خلفاء بنى أمية وأمرائها وعظمائها لا يغشون المدن كثيرا اتقاء الطواعين والحميات ، وانتجاعا للهواء الجاف فى البرية حتى روى عن عمر بن الخطاب أنه قال : « لبيت بركبة (من أرض الحجاز) أحب إلىّ من عشرة أبيات فى الشام » ، وذلك لتفشى الحميات فى الشام بسبب رطوبة الهواء ولجفافه فى ركبة .

(١) الأغانى للأصفهانى .

(٢) القرق : لعب السدر وهى لعبة يخطون بها أربعة وعشرين خطا مربعات كل مربع منها داخل الآخر ، ويضعون بين تلك المربعات حصيات صغيرة على طريقة مخصوصة ، وهذه اللعبة تعرف عند العامة بالدريس .

هذا ما كان من حال العرب أوائل الإسلام ، وبذلك رأينا كيف أخذت المدنية تتسرب إليهم من كل وجه ، فصح فيهم ما قاله عبد الله بن مخمر وهو على المنبر ، وقد رأى الناس تلبسوا : واحسناه واجمالاه ، بعد العدم والسدم من الأدم والحوتكية(١) والبرود ، أصبحتم زهراً ، وأصبح الناس غبراً ، وأصبح الناس يمطون وأنتم تأخذون ، وأصبح الناس ينتجون وأنتم تركبون ، وأصبح الناس ينسجون وأنتم تلبسون ، وأصبح الناس يزرعون وأنتم تأكلون .

وأجمل من هذا ما وصف به العرب فى الجاهلية والإسلام أحد تابعى البصرة قتادة بن دعامة السدوسى (١١٨ هـ) عند تفسير قوله تعالى : « وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون» — كان هـذا الحى من العرب أذل الناس ذلا ، وأشقاه عيشا ، وأبينه ضلالة ، وأعراه جلودا ، وأجوعه بطوناً ، معكومين على رأس حَجْر(٢) بين الأسدين فارس والروم ، ألا والله ما فى بلادهم يومئذ من شىء يحسدون عليه ، من عاش منهم عاش شقياً ، ومن مات رُدّى فى النار ، يؤكلون ولا يأكلون ، والله ما نعلم قبيلا يومئذ من حاضر الأرض كانوا فيها أصغر حظاً وأدق شأناً منهم ، حتى جاء الله عز وجل بالإسلام فورّثكم به الكتاب ، وأحل لكم به دار الجباء ، ووضع لكم به من الرزق وجعلكم به ملوكا على رقاب الناس ، وبالإسلام أعطى الله ما رأيتم ، فاشكروا نعمه فإنه ربكم منعم يحب الشاكرين .

---

(١) الحوتكية : عمامة للعرب .

(٢) الحجر : الغار البعيد الغور ، والحجر بفتح الحاء نقا الرمل ، والنقا الكثيب من الرمل ، ومعنى معكومين : مشدودين .

ثروة العرب وعلومهم

غنى بعض الصحابة فى الجاهلية والإسلام :

لم يكن العرب كلهم بادية لا يذوقون طعم الرفاهية ولا يحسنون شيئاً من مقوماتها ، بل كان بعضهم على شيء من الثروة . والثروة أم الرفاهية والنعيم ، كان عمرو بن لحيّ ذا مال جزيل جدا ، يقال إنه فقأ[1] أعين عشرين بعيراً ، إشارة إلى أنه ملك عشرين ألف بعير . وكان من عادة العرب أن من ملك ألف بعير فقأ عين واحد منها ، لأنه يدفع بذلك العين عنها ، وذكر السهيلي أن عمرو بن لحيّ ربما ذبح أيام الحجيج عشرة آلاف بَدَنَة وكسا عشرة آلاف حلة فى كل سنة ، يطعم العرب ويحيس لهم الحيس بالسمن والعسل ويلت لهم السويق .

وكان المخضرمون من العرب ، أى الذين مضى نصف أعمارهم فى الجاهليـة ونصفها فى الإســلام ، ولاسيما غطاريفهم وأهل البيوتات منهم ، على جانب من السعة فى الرزق ، ينعمون به ويفضلون من حُـرّ مالهم على الناس ، بهذا السخاء الذى لم يعهد لأمة أن دانتهم فيه ، ومنهم من صرف ماله فى الإسلام طائعاً مختاراً كأبى بكر الصديق[2] ، ولما بعث النبى كان عنده أربعون ألف درهم . فكان ينفق منها ويقوى المسلمين . وقد أنفق فى تجهيز جيش العسرة سنة تسع من الهجرة مالاً كثيراً ، قالوا إنه عشرة آلاف دينار ، وفى هذه الغزوة أنفق عثمان بن عفان نفقة عظيمة ، وكان يعدّ فى الجاهلية من الأغنياء ، فجهز الجيش بتسعمائة وخمسين بعيراً بأقتابها ، وأتمها ألفا بخمسين فرساً ، وأعطى ألف دينار ، وفى أيام خلافته كثرت

(١) البداية والنهاية لابن كثير .

(٢) تاريخ دول الإسلام للذهبى . ومبحث فى ثروة العرب للمؤلف م ٢ فى مجلة المقتبس ، والجمان فى مختصر أخبار الزمان للشطيبى (مخطوط) .

الأموال بالمدينة ، وكثر مال عثمان حتى كان له ألف مملوك ، ولم يخلط من أموال المسلمين وأخماس الغنائم فى ماله شيئاً قط . واستغنى عمر بن الخطاب فى الجاهلية فى مدينة غزة هاشم ، وكانت متجراً لأهل الحجاز . وكانت خديجة زوجة الرسول الأولى ، ذات مال كثير وتجارة ، تبعث إلى الشام فيكون عيرها كعامة عير قريش . وكانت تستأجر الرجال وتدفع المال مضاربة . وكان أبو سفيان بن حرب شيخ تجار مكة معدوداً فى الموسرين قبل الإسلام . يجهز التجار بماله وأموال قريش إلى الشام وغيرها من أرض العجم ، وكان يخرج أحياناً بنفسه ، وله صلات مع بلاد الروم والعجم ، وله تجارات وأموال ، وكانت له فى البلقاء من أرض الشام قرية اسمها بِنقنس . وكان يوم بدر مقبلا من الشام[1] فى عير لقريش عظيمة ، فيها أموالهم وتجارة من تجاراتهم ، وأبلى ذلك اليوم بلاء حسناً ليحفظ أموال المكيين . وكان لأمية من هذه الأموال أربعة أخماس ، وقدرت الأموال كلها بخمسين ألف دينار . « واتسعت الدنيا على الصحابة[2] حتى كان الفرس يشترى بمائة ألف ، وحتى كان

(١) تاريخ الطبرى .

(٢) اختلف الناس فيمن يستحق أن يطلق عليه صحابى ، والأكثر على أن الصحابى هو كل من أسلم ورأى النبى وصحبه ولو أقل زمان . وكان عددهم عند وفاته مائة ألف وأربعة وعشرين ألفاً . ورتبهم المؤرخون على طبقات : فالطبقة الأولى أول الناس إسلاماً ، والثانية أصحاب دار الندوة ، والثالثة المهاجرون إلى الحبشة ، والرابعة أصحاب العقبة الأولى وهم سباق الأنصار ، والخامسة أصحاب العقبة الثانية ، والسادسة أصحاب العقبة الثالثة ، والسابعة المهاجرون الذين وصلوا إلى النبى بعد هجرته إلى المدينة ، وهو بقباء قبل بناء مسجده ، والثامنة أهل بدر الكبرى ، والتاسعة الذين هاجروا بين بدر والحديبية ، والعاشرة أهل بيعة الرضوان الذين بايعوا بالحديبية تحت الشجرة ، والحادية عشرة الذين هاجروا بعد الحديبية وقبل الفتح ، والثانية عشرة الذين أسلموا يوم الفتح ، والثالثة عشرة صبيان أدركوا النبى ورأوه . ومن الصحابة أهل الصفة ، وكانوا أناساً فقراء لا منازل لهم ولا عشائر ينامون فى المسجد وصفّته مثواهم ، فنسبوا إليها ، هذا ملخص ما قاله أبو الفداء . ونقل غيره عن سعيد بن المسيب أنه قال : الصحابة لا نعدهم إلا من أقام مع رسول الله سنة أو سنتين ، وغزا معه غزوة أو غزوتين . وقال غيره : كل من رأى رسول الله وقد أدرك الحلم فأسلم وعقل أمر الدين ورضيه فهو عندنا من صحب رسول الله ولو ساعة من نهار . وقال البخارى : من صحب رسول الله أو رآه من المسلمين فهو من أصحابه .

البستان يباع بالمدينة بأربعمائة ألف ، وكانت المدينة عامرة كثيرة الخيرات والأموال والناس ، يجبى إليها خراج الممالك ، وهى دار الإمارة ، وقبة الملك ، فبطر الناس بكثرة الأموال والخيل والنعم » . وكان حكيم بن حزام باع داراً له من معاوية بستين ألف دينار . فقيل له : غبنك معاوية . فقال : والله ما أخذتها فى الجاهلية إلا بزق خمر ، أشهدكم أنها فى سبيل الله ، انظروا أينا المغبون . وقيل إن الزبير قال له : بعت مكرمة قريش ، فقال حكيم : ذهبت المكارم إلا التقوى ، وتصدّق بها . وحكيم بن حزام ابن أخى خديجة بنت خويلد وابن عم الزبير بن العوام من أشراف قريش ووجوهها فى الجاهلية والإسلام . وقد حج حكيم ومعه مائة بَدَنة[1] ، قد جللها بالحبرة ووقف بمائة وصيف بعرفة فى أعناقهم الفضة منقوش فيها « عتقاء الله عن حكيم بن حزام » وأهدى ألف شاة . وكان جواداً تاجراً يخرج إلى اليمن ، ويأتى الشام فى الرحلتين ، رحلة الشتاء والصيف ، وربح أرباحاً كثيرة .

ولما أراد عمر أن يفرض العطاء شاور المهاجرين والأنصار فأشاروا عليه به . ثم شاور مسلمة الفتح فأشاروا عليه بفرض العطاء إلا حكيما فإنه قال له : يا أمير المؤمنين إن قريشاً أهل تجارة ، ومتى فرضت لهم عطاء تركوا تجارتهم ، فيأتى بعدك من يحبس عنهم العطاء فتكون التجارة قد خرجت من أيديهم ، وكان رأى حكيم رأىَ حكيم ، لأن معنى إطلاق العطاء تعويد الفئة الراقية من العرب الكسل ، بعد أن كانوا أهل جد وعمل . فأصاب جزيرة العرب ، ولاسيما الحجاز ، ما أصاب أسبانيا فى العصر الذى فتحت فيه أميركا الجنوبية . أيام كانت ترسل من الولايات الجديدة إلى أسبانيا ألوف من سبائك الذهب والمعادن الغريبة ، حتى كثرت فيها الأموال ، وفشت للناس ثروة ، فمالوا إلى الدعة والترف ، وأضحت أرضهم بعد مدة غير طويلة أفقر الممالك الغربية . وهكذا كان من أمر هذا العطاء ، وسع على المهاجرين والأنصار ومسلمة الفتح بعض الشىء أعواماً قليلة ، فكثر بهم سواد من يعيش من

(١) سميت بذلك لأنها تبدن أى تسمن ، وهى من الإبل والبقر كالأضحية من الغنم تهدى إلى مكة .

خزانة الأمة ، بكثرة ما انهال على الحجاز من أموال الأنفال والغنائم والخراج والعشور والصدقات والجزى ، ولما تمت الفتوح كانت التجارة خرجت من أيدى قريش ، وعاد الحجاز إلى فاقته الطبيعية .

كان سعد بن أبي وقاص أكثر أهل المدينة مالا ، أرسل إلى مروان بن الحكم بزكاة عين ماله خمسة آلاف درهم ، وترك يوم مات مائتى ألف وخمسين ألف درهم . وكان عبيد الله بن العباس ذا مال وهو جواد سخى . وكان العباس بن عبد المطلب أكثر بنى هاشم مالا فى الجاهلية ، وكان أكثر الأسارى[١] فداء يوم بدر العباس ، وذلك لأنه كان رجلا موسراً فافتدى نفسه بمائة أوقية من الذهب . وكان يعلى بن منية أكثر الناس غنى . وكان عبد الله بن أبى ربيعة والد عمر بن أبى ربيعة الشاعر غنياً ، استقرض منه الرسول أربعين ألفا فجاءه مال فدفعه إليه ، وقال : بارك الله فى أهلك ومالك ، إنما جزاء السلف الأداء والحمد . وكانت قريش[٢] تلقب عبد الله هذا «العدل» لأن قريشا كانت تكسو الكعبة فى الجاهلية بأجمعها من أموالها سنة ، ويكسوها هو من ماله سنة ، فأرادوا بذلك أنه وحده عدل لهم جميعاً فى ذلك . وكان تاجراً موسراً ومتجره إلى اليمن . وأقرض حويطب بن عبد العزى النبى أربعين ألف درهم ، وباع داراً من معاوية بخمسة وأربعين ألف دينار .

وكان عبد الرحمن بن عوف ، أحد الثمانية الذين سبقوا الخلق إلى الإسلام ، تاجراً كثير الأموال ، وكان محظوظاً[٣] فى التجارة ، قيل إنه دخل على أم سلمة فقال : يا أمة خفت أن يهلكنى كثرة مالى . قالت : يا بنى أنفق . باع مرة أرضاً له بأربعين ألف دينار فتصدق بها كلها . وتصدق مرة بسبعمائة جمل بأحمالها قدمت من الشام ، وأعتق ثلاثين ألف رقيق ، وأوصى لأمهات المؤمنين بحديقة بيعت بأربعمائة ألف ، وأوصى بخمسين ألف دينار فى سبيل الله ، وأوصى لمن بقى ممن شهد بدراً لكل رجل بأربعمائة دينار ، وكانوا مائة فأخذوها . قالوا وكان فيما ترك

(١) تاريخ ابن عساكر . (٢) الأغانى للأصفهانى .
(٣) تهذيب الأسماء للنووى .

ذهب قد قطع بالفئوس حتى مجلت[1] أيدى الرجال منه . وكان على مربطه ألف فرس وله ألف بعير ، وعشرة آلاف من الغنم . وترك أربع نسوة فأخرجت امرأة من ثمنها بثمانين ألفا ، وتصدق على عهد الرسول بشطر من ماله أربعة آلاف ، ثم تصدق بأربعين ألفاً ، ثم تصدق بأربعين ألف ألف درهم ، ثم حمل على خمسمائة راحلة فى سبيل الله ، وباع ضيعة له بخمسة عشر ألف درهم فقسمها فى الأطباق[2] . قال سعد ابن الربيع الأنصارى ، وهو أكثر الأنصار مالا ، لعبد الرحمن بن عوف لما آخى[3] بينهما الرسول : أنا أكثر أهل المدينة مالاً فانظر شطر مالى فخذه ، وتحتى امرأتان فانظر أيتهما أعجب إليك حتى أطلقها لك ، فقال له عبد الرحمن : بارك الله لك فى أهلك ومالك . حتى إذا عمل عبد الرحمن فى التجارة أتى عليه زمن فباع أرضاً من عثمان بأربعين ألف دينار فقسم ذلك فى فقراء بنى زهرة .

وكان طلحة بن عبيد الله أحد العشرة من الأغنياء الأجواد ، وقيل له طلحة الفياض وطلحة الجود وطلحة الخير وطلحة الطلحات . ويقال : إنه فرق فى يوم سبعمائة ألف ، باع أرضاً له من عثمان بن عفان بسبعمائة ألف فحملها إليه فبات ورسله تختلف بها فى سكك المدينــة حتى أسحر وما عنده منها درهم ، ويروى أن طلحة وصل أعرابياً من أقاربه بثمانمائة ألف درهم ، ويقال إنه خلف من المــال ألفى ألف

(١) مجلت : صلبت وثخن جلدها وظهر فيها ما يشبه البثور .

(٢) الأطباق : الجماعات من الناس ، وقيل الأطباق السجون .

(٣) كان الرجل فى عصر الجاهلية يرغب فى خلة الرجل فيعاقده فيقول : ترثنى وأرثك ، وأيهما مات قبل صاحبه كان للحى من ميراثه ما اشترط . وكان هذا يسمى ميراث المعاقدة وميراث الحلف . كذلك كان الرجل منهم يتبنى ابن غيره فينسب إليــه دون أبيه من النسب ويرثه . واستمر إرث الجاهلية بالنسب والسبب بعد مجىء الإسلام على ما كان عليــه من قبل برهة من الزمن ، كما لم يتعرض الإسلام أيضا لـكثير من المعاملات التى كان عليها العرب فى الجاهلية من بيع ورهن وزواج وطلاق ، وإنما كانت عنايته موجهة أولا لما هو أهم من ذلك ، من إزالة الشرك بالله تعالى وإبطال ما يتقرب به المشركون إلى الأصنام ، ودفن البنات وهن أحياء وغير ذلك من القبائح التى تستنكرها العقول السليمة ، ثم تدرج الإسلام فى إصلاح معاملاتهم بما يجعلها مبنية على العدل وعلى ما يمنع الظلم والنزاع وبعيــدة عما يتنافى مع المروءة ومكارم الأخلاق ، ليكون بناء المجتمع الإنسانى أتم وأحكم — قاله أحمد إبراهيم فى بحث مقارن فى المواريث .

درهم ومائتى ألف دينار(١) ، وقومت أصول طلحة وعقاره بثلاثين ألف ألف درهم وكانت غلته ألفا وافياً(٢) . وفى رواية أخرى(٣) أن قيمة ما ترك طلحة من العقار والأموال شيء عظيم ، ترك من الناض ثلاثين ألف ألف درهم ، وترك من العين ألفى ألف ومائتى ألف دينار والباقى عروض(٤) . وكان يغلّ بالعراق ما بين أربعمائة ألف إلى خمسمائة ألف ، ويغل بالشراة عشرة آلاف دينار أو أكثر ، وكان لا يدع أحداً من بنى تيم عائلا إلا كفاه مئونته ومئونة عياله ، وزوّج أياماهم وأخدم عائلهم ، وقضى دين غارمهم ، ويرسل إلى عائشة إذا جاءت غلته كل سنة بعشرة آلاف . وأعان يعلى بن منية الزبير بأربعمائة ألف وحمل سبعين رجلا من قريش ، وحمل عائشة على الجمل الذى شهدت القتال عليه ، وكان جواداً معروفاً بالكرم .

وكان خباب بن الأرت من الأغنياء ، قال : لقد رأيتنى مع رسول الله لا أملك ديناراً ، وإن فى ناحية بيتى فى تابوتى لأربعين ألف واف . ولقد خشيت أن تكون قد عجلت لنا طيباتنا فى حياتنا الدنيا . وذكروا أن زيد بن ثابت(٥) خلف من الفضة والذهب ما كان يكسر بالفئوس ، غير ما خلف من الأموال والضياع بمائة ألف دينار . وخلف يعلى بن منية خمسين ألف دينار وعقاراً وغير ذلك ما قيمته ثلثمائة ألف درهم .

وأعظم من ثروة طلحة وحكيم بن حزام ثروة حوارىّ الرسول وابن عمته الزبير بن العوام وأحد العشرة المبشرين ، كان كثير المتاجر والأموال . قيل إنه كان له ألف مملوك يؤدون إليه الخراج ، فربما تصدق بذلك فى مجلسه(٦) ، وخلف ألف

(١) مروج الذهب للمسعودى .

(٢) الوافى وزنه وزن الدينار ، وهو وزن دراهم فارس التى تعرف بالبغلية .

(٣) تاريخ دمشق لابن عساكر .

(٤) الناض من المال : الصامت من الورق . والعين الدينار والذهب عامة . وعرض الدنيا حطامها ومتاعها ، وأما العرض بالتسكين فما خالف النقدين من متاع الدنيا وأثاثها والجمع عروض .

(٥) تهذيب الأسماء للنووى . (٦) طبقات ابن سعد .

فرس وألف أمة[١] ، ولم يدع يوم قتل ديناراً ولا درهماً إلا أرضين فيها الغابة قرب المدينة ، وإحدى عشرة داراً بالمدينة ودارين بالبصرة وداراً بالكوفة وداراً بمصر . وإنما كان دينه الذى عليه أن الرجل كان يأتيه بالمال ليستودعه إياه . فيقول الزبير : لا ولكن هو سلف ، إنى أخشى عليه الضيعة . وما ولى إمارة قط ولا جباية ولا خراجاً ولا شيئاً إلا أن يكون فى غزو مع رسول الله ومع أبى بكر وعمر وعثمان .

وكان دين الزبير ألفى ألف ومائتى ألف . فلقى حكيم بن حزام عبد الله بن الزبير فقال : يا ابن أخى ، كم على أخى من الدين ؟ فكتمه . وقال : مائة ألف . فقال حكيم : والله ما أرى أموالكم تتسع لهذه . فقال له عبد الله : أفرأيتك أن كانت ألفى ألف ومائتى ألف ! قال : ما أراكم تطيقون هذا ، فإن عجزتم عن شىء منه فاستعينوا بى . وكان الزبير اشترى الغابة بسبعين ومائة ألف ، فباعها عبد الله ابن الزبير بألف ألف وستمائة ألف ، ثم قام فقال : من كان له على الزبير شىء فليوافنا بالغابة . قال : فأتاه عبد الله بن جعفر وكان له على الزبير أربعمائة ألف ، فقال لعبد الله ابن الزبير : إن شئتم تركتها لكم ، وإن شئتم فأخروها فيما تؤخرون إن أخرتم شيئاً . وقال عبد الله بن الزبير : لا . قال : فاقطعوا لى قطعة . فقال له عبد الله : من هاهنا إلى هاهنا . قال : فباعه منها بقضاء دينه فأوفاه . وبقى منها أربعة أسهم ونصف . قال : فقدم على معاوية وعنده عمرو بن عثمان والمنذر بن الزبير وابن زمعة . قال وقال له معاوية : كم قوّمت الغابة ؟ قال : كل سهم مائة ألف . قال : كم بقى ؟ قال : أربعة أسهم ونصف . قال فقال المنذر بن الزبير : قد أخذت سهماً بمائة ألف . فقال معاوية : فكم بقى ؟ قال : سهم ونصف . قال : أخذته بخمسين ومائة ألف . قال : وباع عبد الله بن جعفر نصيبه من معاوية بستمائة ألف .

فلما فرغ ابن الزبير من قضاء دينه قال بنو الزبير : اقسم بيننا ميراثنا . قال : لا والله لا أقسم بينكم حتى أنادى فى الموسم أربع سنين ، ألا من كان له على الزبير دين فليأتنا فلنقضه . قال : فجعل كل سنة ينادى بالموسم . فلما مضت أربع سنين

(١) مروج الذهب للمسعودى وتهذيب الأسماء للنووى .

قسم بينهم . قال : وكان للزبير أربع نسوة . قال : وربع الثُّـمن ، فأصاب كل امرأة ألف ألف ومائة ألف[١] . قال : فجميع ماله خمسة وثلاثون ألف ألف ومائتا ألف . وقيل إن قيمة[٢] ما ترك خمسون ألف ألف ومائتا ألف .

ومن أغنياء الصحابة عثمان بن مظعون والمقداد بن الأسود ، وكان عند هذا غرائر من المال ، ومنهم عروة بن الجعد وأنس بن مالك وعمرو بن حريث القرشي المخزومي . ومن تجار الصحابة سعيد بن عائذ وأبو معلق الأنصاري وعبد الله وعبيد الله ابنا عمر ابن الخطاب وحاطب بن أبي بلتعة وسويد بن قيس العبدي .

صناعات بعض الصحابة وزهد الرسول وأصحابه :

ومن هذه الأمثلة القليلة يتمثل للنظر ما وصل إليه القوم من الثروة ، مع الأمانة والإيثار وحب الخير والزهد بما في أيديهم . فقد رأينا عبد الله بن الزبير لم يشأ أن يقسم تركة أبيه حتى نادى في الحج أربع سنين ليوفي دينه . وليس يغلو من يدعي أن تركة الزبير بن العوام تعد ثروة غني من أغنياء الغرب اليوم . وما ندري ما تعادل لو حسبناها بسكة زماننا ، وما هي أقل من بضعة ملايين من الجنيهات . وبعض هذه الثروات كانت لأكثرهم قبل الإسلام أو كان لهم أكثرها فزادت في العهد الجديد ، ولا شك أنهم جهزوا منها جيوشهم وغزاتهم ، واستعان الرسول بها على الفتوح الأولى ، وكلهم سواء في الإنفاق منها على مصالح المسلمين وفقرائهم ، واجتمعت لهم معظم هذه الأموال من التجارة ، وقليل منها من الزراعة والصناعة ، فقد كان أبو طالب[٣] يبيع العطر والبز ، وأبو بكر وعمر وطلحة وعبد الرحمن بن عوف كانوا بزازين[٤] . وكان سعد بن أبي وقاص يبري النبل « وفي رواية يحذق النخل » ، وكان أخوه عتبة نجاراً ، والعوام أبو الزبير خياطاً ، والزبير جزاراً ، وعمرو بن العاص

---

(١) تهذيب الأسماء للنووي (٢) صحيح البخاري .

(٣) المعارف لابن قتيبة والأعلاق لابن رسته .

(٤) المحاسن والأضداد للجاحظ .

جزاراً ، ثم يبيع الأدم والطيب ، وأبو سفيان بن حرب يبيع الزيت « الزبيب ؟ » والأدم وعبدالله بن جدعان نخاساً ، وعثمان بن طلحة خياطاً ، ولبعضهم موارد يعيشون منها وتزيد عن حاجته .

وغلب التقشف على أكثر هؤلاء العظماء عملاً بسيرة الرسول ، فقد ذكروا أنه كان عند رسول الله لما مرض مرضته التي مات فيها سبعة أو تسعة دنانير فقسمها في الأنصار وقال : ما ظن محمد لو لقي الله وهذه عنده . ولم يخلف عند موته درهماً ولا ديناراً ولا عبداً ولا أمة ولا شيئاً ، إلا بغلته البيضاء وسلاحه وأرضاً تركها صدقة ، وترك درعه رهناً عند يهودي بثلاثين صاعاً من شعير ، وكان يأخذ من الأنفال خمسها ويردها على المسلمين عملا بقوله تعالى : « يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول » . ثم بين توزيعها بقوله : « واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل » . وكانت العرب[١] في الجاهلية تغنم وتوزع الغنيمة على المحاربين وتجعل للرئيس قسطاً كبيراً منها أشار إليه أحد شعرائهم فقال :

لك المرباع منها والصفايا ... وحكمك والنشيطة والفضول[٢]

وقال الصديق لعائشة وهو يحتضر : « إنا منذ ولينا أمر المسلمين لم نأكل لهم ديناراً ولا درهماً ، ولكنا قد أكلنا من جريش طعامهم في بطوننا ولبسنا من خشن ثيابهم على ظهورنا ، وليس عندنا من فيء المسلمين قليل ولا كثير ، إلا هذا العبد الحبشي ، وهذا البعير الناضح ، وجرد هذه القطيفة[٣] ، فإذا مت فابعثي بهن إلى عمر وابرئي منهن » ففعلت . وسيرة ابن الخطاب في الزهد مشهورة مأثورة حتى إنه لما قدم الشام لقيته الجنود وعليه إزار في وسطه وعمامة ، وقد خلع نعليه وهو

(١) تاريخ التشريع الإسلامي لمحمد الخضري .

(٢) المرباع ربع الغنيمة ، والصفي ما يصطفيه الرئيس لنفسه مما يستحسن ، والنشيطة ما يقع في أيدي المقاتلين قبل الموقعة ، والفضول ما يفضل عن القسمة .

(٣) الناضح : البعير الذي يستقي عليه الماء ، والجرد : البالي .

يخوض الماء آخذاً بزمام راحلته ، وخفاه تحت إبطه ، فقالوا : يا أمير المؤمنين الآن يلقاك الأمراء بطارقة الروم وأنت هكذا . فقال : إنا قوم أعزنا الله بالإسلام فلن نلتمس العز بغيره . وهكذا كانت خلافة الأربعة الراشدين أشبه بالرتب الدينية من الرتب الدنيوية[١] في جميع الأشياء ، كان أحدهم يلبس الثوب من الكرباس[٢] الغليظ ، وفي رجله نعلان من ليف ، وحمائل السيف ليف ، ويمشي في الأسواق كبعض الرعية ، وإذا كلم أدنى الرعية أسمعه أغلظ من كلامه ، وكانوا يعدون هذا من الدين الذي بعث به النبي .

مبدأ الحضارة والتوسع في الإنفاق وثروة الأمويين :

بدأ الخليفة الثالث بإخراج الأمة من خشونة البداوة إلى حظيرة الحضارة ، وبنى سبع دور فخمة لبناته وزوجاته في المدينة ، وغير عمارة مسجد الرسول ، وكان سقفه[٣] على عهد صاحب الرسالة من الجريد ، وعمده من خشب النخل ، وأرضه مفروشة بالحصا ، فبناه عثمان بالحجارة المنقوشة والفضة ، وجعل عمده من حجارة منقوشة وسقفه ساجاً وزاد فيه ، وكان ذلك في المحرّم سنة ثلاثين . أما الخليفة الثاني فإنه بكى لما قدم عليه خمس الأسلاب من فارس وقد نظر إلى ياقوته وزبرجده وجوهره ، فقيل له : ما يبكيك يا أمير المؤمنين ، فوالله إن هذا لموطن شكر ! فقال عمر : والله ما ذلك يبكيني ، وبالله ما أعطى الله هذا قوماً إلا تحاسدوا وتباغضوا ، ولا تحاسدوا إلا ألقى الله بأسهم بينهم .

ولقد كثر الخراج على عهد عثمان وأتاه المال من النواحي ، فاتخذ له الخزائن العظيمة في المدينة ، وكان يقسم بين الناس فيأمر للرجل بمائة ألف درهم . وقالوا إنه كان لعثمان بن عفان عند خازنه يوم قتل ثلاثون ألف ألف درهم وخمسمائة ألف درهم

(١) الفخري لابن طباطبا .

(٢) الكرباس بالكسر : ثوب من القطن الأبيض .

(٣) معجم البلدان لياقوت .

وخمسون ومائة ألف دينار ، وترك ألف بعير بالرَّبَـذة ، وترك صدقات كان تصدق بها قيمة مائتى ألف دينار .

هـذه صورة من ثروة العرب قُبيْـل الإســلام وبُعيْـدَه ، إلى العهد الذى أخذوا فيه يتذوقون الترف ، وكان من معاوية رأس الأمويين منذ فتحت له خزائن الأرض أن أنفق كثيراً فى مصالح المسلمين ، ووصل الناشزين على الملك وغيرهم ، وأدر كثيراً على أعمال العمران ، وجرى أخلافه على طريقته ، ومن أهمهم الوليد ابن عبد الملك ، فقد توسع فى إقامة المصانع والجوامع فزين مسجد الرسول ، وكاتب ملك القسطنطينية ، فبعث إليه أربعين رجلاً من الروم وأربعين من القبط ، ووجه إليه أربعين ألف مثقال ذهباً ، وأحمالاً من الفسيفساء ، وحلى المسجد بالفضة والذهب وفرشه بالرخام وفرغ منه لانسلاخ سنة تسع وثمانين[1] . وكذلك فعل

(١) عن الصفدى : تقول للعشرة وما دونها خلون لأن المميز جمع والجمع مؤنث . وقالوا لما فوق العشرة خلت ومضت لأنهم يريدون أن مميزه واحد وتقول بعد العشرين لتسع إن بقين وثمان إن بقين ، تأتى بلفظ الشك لاحتمال أن يكون الشهر ناقصاً أو كاملا . ومنع أبو على الفارسى أن يكتب لليلة خلت كما منع من صبيحتها أن يقال لمستهل لأن الاستهلال قد مضى ، ونص على أن يؤرخ بأول الشهر فى اليوم أو بليلة خلت منـه . وقال الحريرى : والعرب تختار أن تجعل النون للقليل والتاء للكثير ، فيقولون لأربع خلون ولأربع عشرة ليلة خلت قال : ولهم اختيار آخر ، وهو أن يجعل ضمير الجمع الكثير الهاء والألف ، وضمير الجمع القليل الهاء والنون المشددة ، كما نطق به القرآن (إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً فى كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم ، ذلك الدين القيم فلا تظلموا فيهن أنفسكم) فجعل ضمير الأشهر الحرم بالهاء والنون لقلتهن وضمير شهور السنة الهاء والألف لكثرتها . وكذلك اختاروا أيضاً أن ألحقوا بصفة الجمع القليل الألف والتاء فقالوا أقمت أياماً معدودات ، وكسوته أثوابا رفيعات ، وعلى هذا جاء فى سورة البقرة (وقالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة) وفى سورة آل عمران (إلا أياماً معدودات) كأنهم قالوا أولا بطول المدة ثم إنهم رجعوا عنه فقصروا المدة انتهى . والواجب أن تقول فى أول الشهر ليلة خلت منه أو لغرته أو لمستهله ، فإذا تحققت آخره قلت انسلاخه أو سلخه أو آخره . قال ابن عصفور : والأحسن أن تؤرخ بالأقل فيما مضى وما بقى فإذا استويا أرخت بأيهما شئت . قلت : بل إن كان فى خامس عشر قلت منتصف أو خامس عشر وهو أكثر تحقيقاً لاحتمال أن يكون الشهر ناقصاً ، وإن كان فى الرابع عشر ذكرته ، أو السادس عشر ذكرته . وجرت العادة بأن يقولوا فى الشهر المحرم شهر الله ، وفى شهر رجب شهر رجب الفرد أو الأصم أو الأصب ، وفى شعبان شعبان المكرم ، وفى رمضان=

الوليد في الحرم المكي والجامع الأموي . فقد أنفق على جامع دمشق خمسة ملايين وستمائة ألف دينار ، وجلب له مائتي عامل من الروم ، ولما قيل له إنه محق بيوت الأموال في نقش الخشب وتزويق الحيطان خطب فقال : قد بلغتني مقالتكم وليس الأمر على ما ظننتم ، ألا وإني أمرت بإحصاء ما في بيوت أموالكم ، فأصبت فيه عطاءكم ست عشرة سنة . وكان سبق الوليد أبوه عبد الملك بن مروان فأنشأ المسجد الأقصى وقبة الصخرة ، وأرصد لذلك خراج مصر سبع سنين ، وفرغ منه سنة ثنتين وسبعين . هكذا توسع الأمويون في البناء بعد أن كثرت أسباب الثروة ، وكان من خلفائهم في الأندلس في باب العمران ما هو عجيبة الأيام والدهور . أما الثروة في عهد العباسيين فما كان الإنسان يعتقد صحة ما روى عنها لولا أنه ورد على لسان ثقات المدونين لها ، ولولا أنها أتت أخبارها من عدة طرق جُلّها موثقة .

خروج العرب من الأمية وعناية بني أمية بالعلم :

بعث الرسول « وليس أحد من العرب يقرأ كتاباً » فلم يجد لإفشاء العلم في الناس إلا أن يكثر فيهم سواد من يقرأ ويكتب ، وأن يحملهم على تعلم الكتابة ، فكان إذا أسر جماعة من العرب وصادف فيهم أناساً يقرأون ويكتبون ، ولم يكن لأحدهم مال يفتدي به نفسه ، يأمره أن يعلم عشرة من أولاد المسلمين القراءة والكتابة . وبهذه الطريقة فشت الكتابة في قريش وغيرها . وكان يقول : قيدوا العلم بالكتابة ، وفي رواية بالكتاب . هذا وهو النبي الأمي . والأمية فيه فضيلة « لأنها أدل على صدق ما جاء به أنه من عند الله لا من عنده ، وكيف يكون من عنده وهو لا يكتب ولا يقرأ ولا يقول الشعر ولا ينشده[1] » .

= رمضان المعظم ، وفي شوال شوال المبارك ويؤرخون أول شوال بعيد الفطر ، وثامن ذي الحجة بيوم التروية وتاسعه بيوم عرفة ، وعاشره بيوم النحر وتاسع المحرم بيوم تاسوعاء وعاشره بيوم عاشوراء ، فلا يحتاجون أن يذكروا الشهر ، ولكن لابد من ذكر السنة .

(١) في مجموعة الحفيد للهروي بحث في أمية الرسول .

وأمر الرسول زيد بن ثابت أن يتعلم لسان اليهود، وتعلم[١] زيد هذا بالفارسية من رسول كسرى، وبالرومية من حاجب النبي، وبالحبشية من خادم النبي، وبالقبطية من خادمه، وهذا كان مبدأ تعلم العرب لغات غير لغتهم، ويروى وهي رواية غريبة أنه كان لعبد الله بن الزبير[٢] مائة غلام يتكلم كل واحد منهم بلغة غير لغة الآخر، فكان يكلم كل واحد منهم بلغته، وكانوا يسمون القراء[٣] من يقرءون الكتاب وليسوا أميين، لأن الأمية صفة عامة في الصحابة، فقيل لحملة القرآن يومئذ قرّاء إشارة إلى هذا، فهم قراء لكتاب الله والسنة المأثورة عن رسوله. وهؤلاء بدأوا عقبي الفتوح ينتشرون في الأمصار.

كانت أول بعثة علمية أرسلت من الحجاز إلى الشام[٤] في إمارة يزيد ابن أبي سفيان، كتب هذا إلى عمر بن الخطاب أن أهل الشام قد كثروا وربلوا[٥] وملأوا المدائن واحتاجوا إلى من يعلمهم القرآن ويفقههم، فأعنّي يا أمير المؤمنين برجال يعلمونهم، فأرسل إليه معاذا[٦] وعبادة وأبا الدرداء، فصار الأول والثاني

(١) العقد الفريد لابن عبد ربه.

(٢) تاريخ دمشق لابن عساكر.

(٣) مقدمة ابن خلدون.

(٤) يقول ابن حزم في كتاب الأحكام: إن كل من يروى شيئا من الأخبار يوافق قطعاً بأن التابعين ملأوا الأرض من أقصى السند وأقصى خراسان إلى ارمينية وأذربيجان إلى الموصل وديار ربيعة وديار مضر إلى أقصى الشام إلى مصر إلى أفريقية إلى أقصى الأندلس الى أقاصي بلاد البربر إلى الحجاز واليمن وجميع جزيرة العرب إلى العراق إلى الأهواز إلى فارس إلى كرمان إلى سجستان، إلى كابل إلى السند وأصبهان وطبرستان وجرجان والجبال، وإن جميع هذه البلاد فشا فيها الإسلام وغلب عليها، وإنه لم يكن للمسلمين في جميع ما ذكرنا من البلاد ولا قرية ضخمة إلا كان فيها المفتي والمقرئ وربما أكثر من ذلك.

(٥) ربلوا: كثروا ونموا.

(٦) قال ابن حزم: إن جميع المؤرخين من أئمتنا السالفين والباقين دون محاشاة أحد، بل تيقنا إجماعهم في ذلك، متفقون على أن ينسبوا الرجل إلى مكان هجرته التي استقر بها، ولم يرحل عنها رحيل ترك لسكناها إلى أن مات، فإن ذكروا الكوفيين من الصحابة صدروا بعلي وابن مسعود وحذيفة، وإنما سكن علي الكوفة أربعة أعوام وأشهرا أو نحوها. وقد بقي ٥٨ عاما وأشهراً بمكة والمدينة. وإن ذكروا البصريين بدأوا بعمران بن الحصين وأنس=

إلى فلسطين ، وصار الثالث إلى دمشق . وكان الفضل الأول فى اقتراح إنفاذ هذا المشروع العظيم لأحد أبناء أبى سفيان النجباء ، كما كان الفضل الأعظم لعثمان بنسخ صحف القرآن فى المصاحف فأرسلت المصاحف التى كتبت منه إلى الكوفة والبصرة ودمشق ومكة والمدينة ، وضعت فى جوامع الأمصار يقرأ فيها القراء ويرجع إليها الحفاظ ، وأبقى عثمان لنفسه مصحفاً عرف بالمصحف الإمام ، وغبر الناس يقرأون فى مصحف عثمان نيفاً وأربعين سنة إلى أيام عبد الملك بن مروان ، ثم كثر التصحيف فى العراق ، ففزع الحجاج بن يوسف إلى كتّابه ، وسألهم أن يضعوا لهذه الحروف المشتبهة علامات ، فوضعوا النقط أفراداً وأزواجاً ، وخالفوا بين أماكنها ، فأصبح الناس لا يكتبون إلا منقوطاً ثم أحدثوا الإعجام ؛ وكان عثمان كسائر بنى أمية وبنى عبد شمس فى الغاية من الغيرة على بث الفضائل فى الناس ، يكرم صاحبها أياً كان ، وذكروا وهو من البراهين على حبه للعلم ، أن حرملة بن المنذر[1] الطائى كان شاعراً نصرانياً أدرك الجاهلية والإسلام ، وكان من وزراء الملوك وللملوك العجم خاصة ، وكان عالما بسيرهم ، فكان عثمان يقرّبه على ذلك ويدنى مجلسه .

وتوسع معاوية فى طلب العلم فقال يوماً : وددت أن عندنا من يحدثنا عما مضى من الزمن ، هل يشبه ما نحن فيه اليوم . فقيل له إن بحضرموت رجلا مُعمّراً اسمه أمد بن أبد الحضرمى فأتى به . وورد عليه من اليمن عَبيد بن شَرْية من المعمّرين ، وكان آية باهرة فى معرفة تاريخ اليمن وملوك العرب والعجم ، يرويها

= ابن مالك وهشام بن عامر وأبى بكرة ، وهؤلاء مواليدهم وعامة زمن أكثرهم وأكثر مقامهم بالحجاز وتهامة والطائف ، وجمهرة أعمارهم خلت هنالك . وإن ذكروا الشاميين نوهوا بعبادة ابن الصامت وأبى الدرداء وأبى عبيدة بن الجراح ومعاذ ومعاوية ، والأمر فى هؤلاء كالأمر فيمن قبلهم . وكذلك فى المصريين عمرو بن العاص وخارجة بن حذافة العدوى . وفى المكيين عبد الله بن عباس وعبد الله بن الزبير ، والحكم فى هؤلاء كالحكم فيمن قصصنا فيمن هاجر إلينا من سائر البلاد ، فنحن أحق به وهو منا بحكم جميع أولى الأمر منا الذين إجماعهم فرض اتباعه ، وخلافه محرم اقترافه ، ومن هاجر منا إلى غيرنا فلا حظ لنا فيه ، والمكان الذى اختاره أسعد به .

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر .

مشفوعة بالقصائد الرنانة ، فأمر معاوية كتّابه[١] أن يدونوا ما يتحدث به عبيد ابن شرْية فى كل مجلس سمر فيه معاوية ، وكان يعجب بما يلقيه عليه عبيد ، ويستزيده من إيراد الشعر ، لأن الشعر كما قال معاوية ديوان العرب والدليـل على أحاديثها وأفعالها والحاكم بينهم فى الجاهلية ، فكان بدء تدوين التاريخ على يد معاوية . واستصفى معاوية أيضاً كعب الأحبار وهو من حمير من آل ذى رعين ، أسلم وجاء الشام مع عمر بن الخطاب فى فتح القدس ، فجعله معاوية من مستشاريه لكثرة علمه . وكان يروى أشياء عن الجاهلية والإسلام ، وبعض ما نسب إليه معدود فى الإسرائيليات . وكان سعيد بن عريض بن عادياء ابن أخى السموءل[٢] بن عادياء من يهود الحجاز شاعراً يفد على معاوية فيدخل عليه وهو على طنفسة ، ونعلاه فى رجله ، وهو متوشح بملحفة[٣] ، فيكثر معاوية الترحيب به ويدنى مجلسه ويأخذ بيـده ، وإذا كان هذا النبوغ يظهر من معاوية ويزيد من أبناء أبى سفيان ، فإن أباها أبا سفيان وجدّها حرباً نقلا الخط العربى إلى الحجاز ، وهذا من أعظم مآثر بنى أمية على العرب . بل إن السُّـنة أى أحاديث الرسول لم تدون آخر المئة الأولى إلا بأمر أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز الأموى .

دخول العلوم المادية :

وعمر بن عبـد العزيز هو الذى أمر بنقل كتاب أهرن بن أعين فى الطب إلى اللغة العربية ، وهو الذى أمر عاصم[٤] بن عمر الأنصارى وكان ثقة كثير الحديث عالماً ، أن يجلس فى مسجد دمشق فيحدث الناس بالمغازى ومناقب الصحابة ، وقال إن بنى مروان كانوا يكرهون هذا وينهون عنه ، فاجلس فحدث الناس بذلك . وسبق

(١) أخبار عبيد بن شرية الجرهمى والفهرست لابن النديم .
(٢) نص ابن قتيبة على أن عادياء بالهمز .
(٣) اللحاف : اللباس فوق سائر اللباس من دثار البرد ونحوه كالملحفة والملحف بكسرها .
(٤) تاريخ دمشق لابن عساكر .

حكيم آل مروان وعالم قريش ، خالد[١] بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان ، المتوفى سنة ٨٥ إلى ترجمة كتب الفلاسفة والنجوم والكيمياء والطب والحروب والآلات والصناعات من اللسان اليوناني والقبطي والسرياني « وكانت الترجمة — أحياناً — من لغة يونان إلى العبرانية ، ومن العبرانية إلى السريانية ، ومن السريانية إلى العربية » ، وخالد بن يزيد هذا أول من جمعت له الكتب وجعلها في خزانة في الإسلام ، والأرجح أنها كانت في دمشق .

وبعد فالشام بل دار الإسلام مدينة لأمية بأمور كثيرة لإخراجها من غضاضة البداوة إلى غضارة الحضارة . والعلوم تسربت إلى العرب من بقايا علوم القبط واليونان والسريان ، بعد أن توطد أمر الخلافة ، وأخذت الجيوش تتقدم في إفريقية إلى الأندلس ، وفي الشرق إلى ما وراء السند وسمرقند . وكانت في أنطاكية والرُّها ونَصيبين وحَرّان أول الفتح مدارس[٢] عامرة تشبع أساتذتها بالثقافة اليونانية وفلسفة أرسطو والعلوم والطب المعروفة عند القدماء . قال دييل : « وراجع خلفاء الأمويين هؤلاء الأساتيذ لينقلوا إلى السريانية والى العربية أهم كتب العلم والأدب عند اليونان وبيزنطية ، وجاء العباسيون بعد الأمويين فكان همهم أن يجمعوا المخطوطات اليونانية وأن ينقلوا إلى العربية أشهر كتب العلم والطب والفلسفة اليونانية . ومضى القرن التاسع برمته وبغداد تترجم أقليدس وأرخميدس وبطلميوس وديسقوريدس وأبقراط وجالينوس وأرسطو وثاوفرسطس . قال ويحق ما قيل إن العرب لولا بيزنطية والتقاليد البيزنطية التي نقلتها إليها مدارس الشام لظلوا على الرغم من استعدادهم الباهر ، على ما كانوا عليه في عهد محمد ، شعباً نصف متوحش ؛ فبواسطة تراجمة شاميين عرف العرب العلم والفلسفة اليونانية ، وبفضلهم نشأت في الإسلام من أسبانيا إلى الهند حركة عقلية عظيمة أتت بأينع الثمرات . وبفضل المدارس العربية في قرطبة عرف الغرب النصراني نفسه فلسفة أرسطو » .

(١) خطط الشام للمؤلف ج ٤ ص ٢٠ .

(٢) كتاب بيزنطية لدييل Diehl : Byzance .

وقال لبون : إن حماسة المسلمين فى دراسة المدنية اليونانية واللاتينية مدهشة حقيقة ، وقد ضاهت العرب شعوب كثيرة ، وربما لم يقم من الشعوب من تقدمهم فى هذه السبيل . وقال لكرك : كان كل ما فى أيدى العرب من العلوم فى آخر القرن الثامن للميلاد ترجمة مؤلف فى الطب وبضعة كتب فى علم الكيمياء ، وما كاد ينصرم القرن التاسع حتى كان العرب قد امتلكوا ناصية جميع علوم اليونان وثقافة الأقدمين ، ونبغ فيهم عدد عظيم من المؤلفين . وقال نوبرجر : « فاقت المدنية العربية فى أوج إمبراطورية الإسلام مدنية رومية القديمة فى حيويتها وتنوعها ، على حين كان لحضارة الإسلام فى الأندلس مركز يشابه من عدة وجوه حضارة اليونان القديمة » وقال دوسن : « إن المدنية الأوربية ، بل المدنية الغربية كلها ، مدينة للمسلمين بميراث حكمة الأقدمين ، وإن فتوحات العرب فى إمبراطورية الإسلام من القرن السابع إلى الخامس عشر ، لتعد إحدى عجائب التاريخ . ومن المدهش أن يصبح العرب — وكانوا أول أمرهم على الفطرة — عنصراً فاتحا ، ويغدوا سادة نصف العالم فى مائة عام ، ومن أشد العجب حماستهم العظيمة ، وسرعتهم البالغة فى تحصيل العلوم ، وتكوين الثقافة اللازمة لعظمتهم ، حتى وصلوا إلى مستوى عال فى مائة سنة . بينا نرى الجرمانيين لما فتحوا الإمبراطورية الرومانية قضوا ألف عام ، قبل أن يقضوا على التوحش وينهضوا لإحياء العلوم » .

وفى الواقع أن العرب فى صدر الإسلام لم تعن ، كما قال صاعد[1] بشىء من العلوم إلا بلغتها ومعرفة أحكام شريعتها ، حاشا صناعة الطب فإنها كانت موجودة عند أفراد منهم ، غير منكورة عند جماهيرهم لحاجة الناس طراً إليها . وتولى النقل لى العربية اليعاقبة والسريان والفرس وغيرهم ، وكان المسلمون يصلحون الترجمات بلى الأكثر ، ويضعون المسميات للمصطلحات العلمية كالطب ونحوه ، فينحتون يشتقون ويضعون[2] ، حتى صار منهم التراجمة الحاذقون الذين ينقلون مباشرة

(١) طبقات الأمم لصاعد الأندلسى .

(٢) النقل والنقلة للمؤلف ، مجلة المقتبس م ١ ص ٦١٦ .

إلى العربية ، وساعدهم دخول كثير من الفرس والروم فى الإسلام ، والمسلمون يعنون بعلوم الدين واللغة ، وما يخدم الدين من علوم اللسان ، وأى فضل أعظم من فضل العرب على العلوم التى لم يعرفوها ، أن يقدم مثل خالد بن الوليد الأموى وينفق النفقات العظيمة على ترجمة كتب العلم ، ثم يجىء بعده عمر بن عبد العزيز الخليفة الزاهد ، ويأتى بعدهم عدة خلفاء من العباسيين ينفقون عن سعة على ترجمة الكتب ولاسيما المنصور والرشيد والمأمون . بل إن أفراداً منهم مثل أولاد موسى بن شاكر[(١)] ومحمد بن عبد الملك الزيات وغيرهم كانوا ينفقون من مالهم الخاص على ترجمة الكتب ما لا تكاد دولة من دول الغرب الصغرى اليوم تنفقه على جميع فروع معارفها .

عناية العرب بالشعر والنثر :

هذا ما كان من أمر النقل فى العلوم ، أما الآداب فكان العرب فيها سادة البلاغة فى الجاهلية والإسلام ، وشعرهم الجاهلى والإسلامى سواء فى بلاغته وفصاحته ، لا ينظم إلا بالمناسبات ، ويكفى فى بيان تأثير الشعر فى العقول أن الرسول كان «ينصب لحسان بن ثابت منبرا فى المسجد يقوم عليه ينافح عن الرسول» ومئات من الصحابة كانوا شعراء مجيدين ، وكان لهم فى الجاهلية من الدقة فى الموضوعات التى خاضوا عبابها ما كان ، وزاد شعرهم فى الإسلام رقة خصوصا بعد تمام الفتوح ، وغشيان شعراء العرب الأمراء والخلفاء فى مصر والشام والعراق وغيرها ، وكان الأمويون يفضلون كثيراً على الشعراء ، ومنهم النصارى أمثال الأخطل ونابغة بنى شيبان . قال عمر بن الخطاب[(٢)] : « كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه » فجاء الإسلام فتشاغلت عنه العرب وتشاغلوا بالجهاد ، وغزوا فارس والروم ، وتلاهت عن الشعر وروايته ، فلما كثر الإسلام وجاءت الفتوح واطمأنت العرب بالأمصار ، راجعوا رواية الشعر ، فلم يئلوا[(٣)] إلى ديوان مدون ،

(١) تاريخ الحكماء للقفطى . (٢) طبقات الشعراء لابن سلام .

(٣) وأل إليه يئل وألا ووُؤلا ووئيلا ، وواءل مواءلة ووئالا : لجأ وخلص ، ووأل إلى المكان : بادر إليه .

ولا كتاب مكتوب ، فألفوا ذلك ، وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل فحفظوا أقل ذلك ، وذهب عنهم منه أكثره ، وقد كان عند النعمان بن المنذر منه ديوان فيه أشعار الفحول ، وما مدح به هو وأهل بيته ، فصار ذلك إلى بنى مروان أو ما صار منه . اهـ .

هذا ما كان من الشعر ، أما النثر فأخذ يرتقى فى الإسلام ، ونبغ فى العرب خطباء عظماء أمثال زياد والحجاج وعتبة بن أبى سفيان ، وتلك الطبقة العالية من خطباء الخوارج[1] ، والمظنون أنه لم يأت بعد على بن أبى طالب أفصح ولا أخطب من زياد والحجاج . وعد الجاحظ[2] من الخطباء فى خلفاء بنى أمية معاوية ويزيد وعبد الملك ومعاوية بن يزيد ومروان وسليمان ويزيد بن الوليد ، والوليد بن يزيد والوليد بن عبد الملك وعمر بن عبد العزيز .

وكثر التدوين منذ أوائل عهد الصحابة ، وقوى فى أيام التابعين ، وألف زيد ابن ثابت كتاباً فى علم الفرائض ، وعبد الله بن عمر كتب الحديث ، وألف كتاب فى قضاء علىّ على عهد ابن عباس . وعن هشام بن عروة قال . حرق أبى يوم الحرة كتب فقه كانت له ، قال فكان يقول بعد ذلك : لأن تكون عندى أحب إلىّ من أن يكون لى مثل أهلى ومالى . ووقعة الحرة كانت سنة ثلاث وستين ، فأكد ذلك أن التدوين وقع من قبل حتى كانت لعروة مثل هذه الكتب فى الفقه ، وتقدم معنا أن عبد الحكم الجمحى فتح نادياً فى مكة جعل فيه دفاتر من كل علم فى النصف الأول من القرن الأول ؛ وهذا من البراهين الساطعة أيضاً على أن التدوين وكتابة الصحف والكتب بدأت فى الإسلام على عهد الراشدين ، فلم يكن الاعتماد من ثم على الحفظ فقط كما كانت الحال فى الجاهلية ، بل كان يعمد إلى الصحف ، وبقدر

---

(١) الكامل للمبرد .

(٢) البيان والتبيين للجاحظ .

ما كان يسهل تناول القراطيس أى الطوامير المعمولة بمصر من لب البردى ، كانت كتب العلم تزيد انتشاراً ، وكانوا أوائل الإسلام يكتبون على الأدم كعهد الحيريين [١] وككتاب النبى إلى كسرى ، وكتبت المصاحف فى جلود الظباء إلى أن استعمل الورق ، وكلما زادت أدوات التدوين كثر عدد القراء والحفاظ والأدباء والرواة واللغويين ، وهكذا تنافست المدن فى سبيل العلم وتلقف الثقافة العربية .

(١) فى «تحقيق ما للهند من مقالة مقبولة» للبيرونى .

مواطن العربية

وأثرها فى اللغات الشرقية والغربية

انتشار اللغة العربية وأسبابه :

كثر المسلمون بمواليهم وبمن دان بالإسلام فى كل بلد نزلوه وحكموه ، وهاجرت من جزيرة العرب قبائل كثيرة نزلت الشام[1] والجزيرة والعراق ومصر وشمال إفريقية والأندلس ، فكانوا الدمنة[2] التى قام عليها أساس تعريب هذه الأقطار العظيمة . وأنشأ أهل الذمة يتعلمون اللغة العربية بحكم الطبيعة ، وربما كان من أجمل السياسة فى تعريب العناصر فتح العرب للمجوس واليهود والصابئة والنصارى وغيرهم باب الخدمة فى الدولة ، فما أبى العرب استعمال القبطى والفارسى والرومى والاسبانى والكاتالانى والبروفنسالى ، والبرتقالى والإيطالى ، فاتحدت مصلحة الموافق والمخالف تحت علم الحرية العربية ، وأخلص أهل الذمة القصد

---

(١) يؤخذ مما قاله البكرى فى معجم ما استعجم أن الغالب على أسماء البلاد التأنيث ، والمؤنث منها على أحد أمرين : إما أن تكون فيه علامة فاصلة بينه وبين المذكر كقولك مكة والجزيرة ، وإما أن يكون اسم المدينة مستغنيا بقيام معنى التأنيث فيه عن العلامة كقولك حمص وفيد وحلب ودمشق ، وكل اسم فيه ألف ونون زائدان فهو مذكر بمنزلة الشام والعراق نحو جرجان وحلوان وحوران وأصفهان وهمذان ، فإن رأيت شيئاً من ذلك مؤنثاً فإنما يذهب فيه إلى معنى المدينة ، والأغلب على فيد التأنيث وكذلك بعلبك . وقال الفراء : الغالب على منى التذكير والإجراء ، والغالب على فارس التأنيث وترك الإجراء ، وهجر الغالب عليه التذكير وربما أنثوها ، وحجر اليمامة مذكر ويؤنث ، وعمان الغالب عليها التأنيث ، وقباء وأضاخ يذكران ويؤنثان ، وبدر وحنين مذكران ، والحجاز واليمن والشام والعراق ذكران ، ومصر مؤنثة ، ودابق يذكر ويؤنث ، ومن ذكر قال هو اسم للنهر ، ومن أنث قال هو اسم للمدينة وبغداد تذكر وتؤنث .

(٢) الدمنة : آثار الدار والناس ، ج دمن بالكسر .

للمسلمين فعاشوا فى ظل دولتهم الجديدة مغتبطين ، وتماون السكافة فكانت هذه المدينة الباهرة .

بذت العربية فى الإسلام[1] اللغة الفارسية والسريانية فى العراق وفارس ، والرومية والسريانية فى الشام ، والقبطية والرومية فى مصر ، واللاتينية فى شمالى إفريقية ، ولم يمض سبعون سنة حتى أصبحت العربية اللغة العامة فى هذه الأقطار ، وكان العرب من الغسانيين والتنوخيين والنبطيين والسبأيين واللخميين والتغلبين مثل الضجاعمة وعاملة وقضاعة ينزلون البلاد المجاورة للجزيرة العربية ويمازجون بأهلها ، حتى إن من قرى الشام ما كان اسمه عربياً صرفاً قبل الإسلام . وقد علل ابن خلدون انتشار اللغة العربية بقوله « لما هجر الدين اللغات الأعجمية ، وكان لسان القائمين بالدولة الإسلامية عربياً ، هجرت كلها فى جميع ممالكها ، لأن الناس تبع للسلطان وعلى دينه ، فصار استعمال اللسان العربى من شعائر الإسلام وطاعة العرب ، وهجر الأمم لغاتهم وألسنتهم فى جميع الأمصار والممالك ، وصار اللسان العربى لسانهم حتى رسخ ذلك لغة فى جميع أمصارهم ، وصارت الألسنة الأعجمية دخيلة فيها وغريبة » .

القبائل العربية فى بلاد الأعاجم وتعريبهم :

لا يعرف على التحقيق عدد القبائل النازحة من جزيرة العرب إلى الأصقاع المفتتحة فى آسيا وإفريقية وأوربا ، وكان عدد المسلمين فى غزوة تبوك ، آخر غزوات صاحب الرسالة ، مائة ألف وعشرة آلاف من مضر وقحطان ما بين فارس وراجل ، إلى من أسلم منهم بعد ذلك إلى الوفاة ، ثم كثر المسلمون وتفرقوا فى الأقطار ، وليست كثرتهم مما يقضى أن يكونوا السواد الأعظم فى البلاد التى نزلوها ، بل كانوا فى كل صقع حفنة صغيرة أشبه بفصوص الفسيفساء فى الرقعة العظيمة . ذلك لأن

(١) خطط الشام للمؤلف ج ١ .

القبائل العربية التى هاجرت إلى البلاد المغلوبة لا تزيد عددها عن نصف مليون نسمة فى الخمسين سنة الأولى ، فقد قدر بعضهم من نزلوا الشام بمائتين وخمسين ألفاً ، والشام أقرب الأقطار إلى الاختلاط بجزيرة العرب ، ومع هذا كان عدد المسلمين فى الشام إلى قلة حتى أواخر القرن الأول من الهجرة .

ومما ساعد على انتشار العربية كون الصلاة بها فرضاً على كل أعجمى انتحل الإسلام ، فالأعجمى يسلم ويتعرب ، وإذا لم يسلم تضطره الحال إلى تعلم لغة الدولة القائمة ، فيقرب من العواطف العربية . ثم إن هذا اللسان على سعته وسلاسته لم يقف ولم يجمد ، نقل ألفاظاً من الفارسية والرومية والسريانية والعبرانية والحبشية والقبطية والهندية ، وترك ألفاظاً عربية كانت مألوفة له فى عصر الجاهلية ، واصطلح على كلمات عربية كانت تؤدى معانى أخرى قبل الإسلام . وسعى العرب منذ كانت البلاد فى طاعتهم ، أن يجعلوا العربية لغة علم كما هى لغة دين وأدب وسياسة . ولم يحارب العرب لغات البلاد الأصلية على رسوخها فيها ، بل ساروا فى نشر لغتهم بتعقل ، وراعى دعاتهم سنن الطبيعة والنشوء ، وعملت قاعدة الانتخاب الطبيعى عملها فى اللغة كما عملت فى العناصر ، فبقى ما هو مفيد للناس فى مصالحهم على اختلاف نحلهم ومللهم .

كمال العربية وطرق بثها :

وقد عجب رنان (١) من كمال اللغة العربية وسعة انتشارها فقال : من أغرب ما وقع فى تاريخ البشر وصعب حل سره ، انتشار اللغة العربية . فقد كانت هذه اللغة غير معروفة بادئ بدء ، فبدت فجأة على غاية الكمال ، سلسة أية سلاسة ، غنية أى غنى ، كاملة بحيث لم يدخل عليها منذ ذلك العهد إلى يومنا هذا أدنى تعديل مهم ، فليس لها طفولة ولا شيخوخة ، ظهرت لأول أمرها تامة مستحكمة ،

(١) تاريخ اللغات السامية لرنان .

ولا أدرى هل وقع مثل ذلك للغة من لغات الأرض ، قبل أن تدخل فى أطوار أو أدوار مختلفة . قال : ما عهدت قط فتوح أعظم من الفتوح العربية ، ولا أشد سرعة منها ، فإن العربية ولا جدال ، قد عمت أجزاء كبرى من العالم ، ولم ينازعها الشرف فى كونها لغة عامة ، أو لسان فكر دينى أو سياسى ، أسمى من اختلاف العناصر إلا لغتان : اللاتينية واليونانية ، وأين مجال هاتين اللغتين فى السعة ، من الأقطار التى عم انتشار اللغة العربية فيها ؟. اه .

ظهرت العربية كاملة بالقرآن ، وكانت سرعة انتشارها على نسبة سرعة فتوح أهلها ، وهل أشدّ شكيمة من أمة اجتمع لها الغرام بالدين والغرام بالدنيا ، يخافها ويحترمها عدوّها وصديقها فى القاصية والدانية ، وما عهد فى أدوار اللغة العربية ، أيام قوة الدولة العربية وضعفها ، بل أيام الأعاجم الذين استولوا على الأرض العربية ، ما خلا دولة الترك العثمانيين ، أن صدرت عنهم عهود وعقود بغير العربية ، تتراً كانوا أو فرساً أو شركساً أو كرداً أو بربراً ، والغالب أنهم كانوا يضطرون الدول المجاورة لهم إلى أن يتخذوا لهم منشئين حاذقين بالعربية ، ليجيبوا الدولة الإسلامية على المكاتبات الرسمية بلغة العرب ، هكذا يستدل من تواريخ الأندلس والشام ومصر وبغداد والجزيرة وفارس وسائر المشرق . ولم تشبه العربية فى هـذا الشأن إلا اللغة اللاتينية فى الغرب قديماً ، واللغة الفرنسية إلى عهـد قريب ، ثم اللغة الانكليزية فى الأيام الأخيرة ، فقد أصبحت هذه الألسن الثلاثة كالعربية لغـات السياسة والتجارة ، بل لغات دولية عامة فى المعاملات ، وكتب الشرف للعربية أن كانت لغة الدول ذوات العلاقة بالشرق الإسلامى قرابة ألف سنة .

« وأصبحت[1] العربية فى النصف الثانى من القرن الثامن للميلاد لغة العلم عند الخواص فى العالم المتمدن ، وصارت حاملة علم التقدّم الصحيح ، وحافظت على تفوّقها وتصدّرها فى المرتبة الأولى بين جميع الألسن الأخرى إلى آخر القرن الحادى

(١) العلوم والعمران فى الأعصر الوسطى لجورج سرطون (المجلد ١٨ من مجلة الكلية) .

عشر على أقل تعديل . وبعد ذلك أخـذ التمدن الإسلامى واللغة العربية يفقدان منزلتهما تدريجا ، وقد نقلت فى القرن الثانى عشر والقرن الذى بعده أكثر التآليف إلى اللغة اللاتينية واللغة العبرانية ، وكان كل من يريد أن يطلع فى القرن الحادى عشر على آراء عصره مضطراً أن يتعلم أولاً اللغة العربية ، وزال هذا الاضطرار قبل آخر القرن الثالث عشر ، فأصبحت اللغة اللاتينية لازمة فى الغرب أكثر من اللغة العربية » . ولذلك اتهم المجددون فى النهضة الأوربية أمثال روجر باكون بالإسلام لأنهم كانوا يعرفون العربية . وكيف لا تكون الأفضلية للعرب فى تلك العصور ، وإرادة دولتهم هى التى تملى على الأمم ، ولا تملى عليهم دولة . وما اتجهت قط هممهم إلى قطر إلا فتحوه وأخضعوه ومدنوه .

يقول ابن حزم فى كتاب الإحكام: « إن اللغة يسقط أكثرها وتبطل بسقوط دولة أهلها ، ودخول غيرهم عليهم فى أماكنهم ، أو بنقلهم عن ديارهم واختلاطهم بغيرهم ، فإنما يفيد لغة الأمة وعلومها وأخبارها قوة دولتها ونشاط أهلها ، وأما من تلفت دولتهم ، وغلب عليهم عدوهم ، واستقلوا بالخوف والحاجـة والذل وخدمة أعدائهم ، فمضمون منهم موت الخاطر ، وربما كان ذلك لشتات لغتهم ، ونسيان أنسابهم وأخبارهم ، وبيور علومهم ، هذا موجود بالمشاهدة ومعلوم بالعقل ضرورة» .

ثم إن المغلوب قد يعتقد فى غالبه الـكمال فيقلده فى شعاره وزيه ولغته وسائر مناحيه ، فيرتضخ[1] لسان غالبه بالعادة والإلف والمصلحة . هكذا كان الناس منذ عرف تاريخهم ، وما خرجوا عن كونهم أبداً بين غالب ومغلوب . يلذهم أن يزينوا أنفسهم بالتخاطب مع من نزل عليهم أو نزلوا عليه ، وهـذا هو المشاهد اليوم فى لغات الأمم الـكبرى ، فإنها تنتشر فى الأصقاع التى اتصلت بإحدى الصلات مع أمة غالبة أو دخيلة ، رأينا ذلك فى شمـالى إفريقية مع اللغة الفرنسية والإيطالية

(١) ارتضخ لـكنة أعجمية : نزع فى لفظه إلى الأعاجم وما استمر لسـانه على العربية استمراراً .

والأسبانية ، وفى الهند ومصر مع اللغة الإنكليزية ، وفى جزائر جاوه وما إليها مع اللغة الهولاندية . فإذا لم تكن لأمة حاجة تجارية أو سياسية تدعوها إلى تعلم لسان من نزلوا عليها ، فإنها تحاول تعلمه كأنه أداة من أدوات الظرف والزينة .

انتشار العربية فى أقطار وتراجعها فى أخرى :

كانت العربية تتأصل على أيسر سبيل فى الأقطار بحسب قربها وبعدها من جزيرة العرب ، وكان من أول الأقطار التى دخلت فيها الشام فالعراق ، ثم فارس ومصر ، انتشرت فيها بعد تصرم جيلين من الناس ، وبقيت المجوسية غالبة على أهل خراسان إلى القرن الرابع ، فلم تكن ناحية ولا مدينة تخلو من بيوت النيران ، وظل المجوس أكثر الأمم بها[1] ، وغدت عواصم فارس وما إليها كأصفهان ومرو ونيسابور والرى وطبرستان وهمذان وغزنة مراكز العربية . ونشأت فيها طبقات مهمة من الأدباء والعلماء من القرن الثالث إلى السابع .

وعلى كثرة ما كان فى بلاد الفرس أيام الدولة العباسية من مراكز العلم ، كانت اللغة العربية لا تعرف إلا فى أندية الخاصة ، وهى اللغة الرسمية واللغة العلمية . أما البادية فكانت بمعزل عنها على ما يظهر ، ولذلك حفظت فيها الفارسية كما حفظت الكردية ، وكانت أحياء الأكراد[2] فى القرن الرابع فى فارس تزيد على خمسمائة ألف بيت شعر ، ولسان أهل أذربيجان وإرمينية الفارسية والعربية ، وقل من يتكلم بهما ، فمن يتكلم بالفارسية لا يفهم العربية ويفصح بها من التجار وأرباب الضياع ، وهناك لغات لا تزال إلى اليوم كما كانت منذ تسعمائة سنة ونيف .

أصبحت دولة العرب مدة ثلثمائة سنة الدولة الحية الوحيدة دون سائر الدول المعاصرة لها فى العالم ، وكادت لغتها القومية تكون لغة دولية أيضاً ، وانتشرت

---

(١) كتاب البلدان لابن الفقيه .

(٢) المسالك والممالك لابن حوقل .

العربية فى جنوبى أوربا وجزرها المشهورة ، انبعثت جذوتها فى تلك الأرجاء بعد استيلاء العرب على الأندلس ، فانتشرت فى شبه جزيرة إسبانيا ، وفى جزر ميورقة ومنورقة ويابسة المعروفة اليوم بجزائر الباليار ، ولم يحفظ إن كانت للعربية سوق فى جزيرة سردانية ، وإن استولى عليها العرب سنة ٩٢ على نحو ما كان فى جارتها صقلية ، لأن العرب لم ينزلوها للاستيطان ، ولا قامت بها دولة لهم كصقلية ، وقد دامت العربية معروفة بل رسمية فيها إلى ما بعد خروج العرب منها ، ولم يبق للعربية فى الأندلس من أثر بعد جلاء العرب الأخير فى سنة ١٠١٦ هـ . وفى خلال ذلك منع العرب من تكلم العربية ، وأصبح من آثروا التنصر على الخروج من أرضهم يكتبون الإسبانية بحروف عربية سموها الخميادو أى الأعجمى .

ولم تتأصل العربية على الأغلب فى جزائر البحر المتوسط ، لأن قبائل العرب لم ترحل إليها وتستوطنها ، فمنها ما فتحه المسلمون ليجعلوه مركزاً حربياً ، ومنها ما رسخت أقدامهم فيه مدة معلومة ، ولم تتأصل العربية إلا فى جزيرة أرواد على خطوات من أنطرطوس ، على حين كانت قبرص بعيدة عنها . أما بقية جزائر البحر المتوسط كاقريطش فكان منزل العربية فيها منزل قُلعة ، وكذلك الحال فى جزيرة مالطة ، اختلطت العربية فيها بالإيطالية وبغيرها من الألسن ، وجاء منها هذا اللسان الغريب إلى اليوم ، وأصل أهل هذه الجزيرة أو بعضهم (١) من بلاد ساحل القدس ، ولما جلا الفرنج من الساحل مع طوائف النصارى إلى بلاد الفرنج عين لهم ملك النصارى جزيرة مالطة فقطنوا فيها ، ولذلك كان لسانهم (٢) قريباً من اللهجة الشامية ، وفى لغتهم ألوف من (٣) الألفاظ العربية وأصلها عربية ، سطت عليها اللغات المجاورة فأفسدتها . يقول مليه (٤) : «إن اللغة العربية لن تتراجع من أرض

(١) تراجم الأعيان للبورينى (مخطوط) .

(٢) قاموس الأعلام لشمس الدين سامى .

(٣) الواسطة فى أحوال مالطة لأحمد فارس .

(٤) اللغات فى أوربا الحديثة لمليه .

دخلتها ، لتأثيرها الناشئ من كونها لغة دين ولغة مدنية ، وعلى الرغم من الجهود التى بذلها المبشرون ، ولمكانة الحضارة التى جاءت بها الشعوب النصرانية ، لم يخرج أحد من الإسلام إلى النصرانية » . وقوله هذا لا يصدق إلا على آسيا وإفريقية . فقد عرفت العربية فى جنوبى فرنسا مدة مائتى سنة ، وفى جزائر صقلية وقرسقة وإقريطش ، وأصبح القسم المناوح لشمالى أفريقية عربياً أو يكاد ، وصح أن يقال فى الجملة إن حوض البحر المتوسط غدا بحراً للعرب كما كان البحر الأحمر وبحر فارس وقسم من المحيط الهندى وبحر الظلمات من البحور العربية . ولو وفق معاوية بن أبى سفيان إلى فتح القسطنطينية لكانت العربية تناولت أوربا من جنوبها الشرقى ، كما تناولتها من جنوبها الغربى ، وربما كانت مملكة القسطنطينية وما وراءها أقرب إلى أن يحتفظ بها العرب من شبه جزيرة إيبريا ، إذ لا فاصل من البر يفصل بين أرض المسلمين وأرض الروم .

لم يمض على فتح الأندلس أكثر من خمسين سنة حتى اضطر رجال الكنيسة أن يترجموا صلواتهم[1] بالعربية ليفهمها النصارى ، لأن هؤلاء زهدوا فى اللغة اللاتينية ونشأ لهم غرام بالعربية ، فأخذوا يتقنون آدابها ، ويتغنون بأشعارها ، ويكتبون بها كأبنائها ، ويعجبون ببلاغتها إعجاب أهلها بها ، وأصبحوا يتكلمون بالإسبانية ، والبرتقالية والعربية على السواء ، ثم أخذوا لا يتعاقدون بينهم إلا باللغة العربية . وقد وجد من عقودهم نحو ألفى صك كتبها المستعربة من الوطنيين الأصليين باللغة العربية . وكان كثير من أذكياء الجلالقة والقشتاليين والليونيين والنافاريين ، دع من كانوا فى تلك الديار من النصارى ، يتكلمون العربية ويقصدون الخليفة الأندلسى أو أحد رجاله يستخدمون فى أرضه . وفى مكتبة الاسكوريال فى إسبانيا لعهدنا معاجم يونانية عربية ، ولاتينية عربية ، وعربية إسبانية ، لمؤلفين من المسلمين .

(١) غرائب الغرب للمؤلف ج ٢ ص ١٣٤ .

سراية العربية إلى اللغات اللاتينية :

وبعد هذا الاختلاط لا نستغرب أن نرى اليوم فى الإسبانية كثيراً من الألفاظ العربية كأسماء المدن والأنهار والنواحى وبعض المرافق والمصطلحات ، وكل كلمة تبدأ عندهم بأل التعريف العربية هى عربية لا محالة ، ومن الأسماء ما يبدأ ببنى ومنها ما يبدأ بوادى ، فدخلت مئات من الألفاظ فى اللغة الإسبانية وتأصلت فيها ، كما دخلت العربية فى البرتقالية والإيطالية والفرنسية لغات الأمم اللاتينية . والعربية ظاهرة كل الظهور فى اللغتين الإسبانية[١] والبرتقالية . بل ليس فى الأرض لغة تقرب بتعابيرها ومترادفاتها وجمالها وأمثالها من اللغة العربية كاللسان الذى يتحدثون به اليوم فى البرازيل والبرتقال[٢] ، والبرتقاليون أجداد البرازيليين ، ودخلت اللغة البرتقالية ثلاثة آلاف كلمة عربية ومعظمها يبتدئ بأل التعريف ، ولا يزال على حاله باللفظ الأفرنجى ، وقالوا إن ربع الإسبانية مأخوذ من العربية . وسراية العربية لم تقف عند حد اللغات اللاتينية ، بل تعدتها إلى اللغات الجرمانيــة والسكسونية ، فتجد ألفاظا عربية فى الإنجليزية[٣] والغالية القديمة والألمـانية ، واللغات الجرمانية الأصل كالهولاندية والاسكندناوية فى شمالى أوربا ، وفى الروسية والبولندية واللغات الصقلبية الأخرى .

ومعلوم أن العرب استولوا على إقليم سبتمانيا فى الجنوب الغربى من فرنسا على ساحل البحر المتوسط ، وعلى مدينة ناربون ، وجعلوها قاعدة أعمالهم البحرية ، واستولوا أيضاً على مدينة قرقشونة ونيم وأتون وبون وسانس وأفينيون وبوردو ، ثم اســتولوا على مرسيليا وأرل وعلى إقليم بروفنسيا ووصلوا إلى بواتيه على ٣٣٢

(١) معجم المفردات الأسبانية والبرتقالية المشتقة من العربية لأنجلمان .

Engelmann : Glossaire des mots espagnols et portugais dérivés de l'Arabe.

(٢) البرازيل والشرق لموسى كريم .

(٣) مقالة لعلى مظهر فى السنة الثالثة من مجلة المعرفة .

كيلومتراً من جنوبى غربى باريز ، ووقف العرب فى إقليم سبتمانيا حيث أقاموا مراكز دائمة ، وعقدوا عهوداً مع السكان ، وأدخلوا كثيراً من ألفاظهم فى الاصطلاحات اليومية .

قالوا وبينا كان التوحش ضارباً أطنابه[١] على غاليا أى فرنسا وعلى جرمانيا ، كان العرب قابضين على زمام الأحكام فى جنوبى فرنسا من جبال البرينات إلى جبال الألب ، يحملون من مستعمراتهم إلى برغونيا وسويسرا فى الشمال ، وإلى التيرول ولمبارديا فى الجنوب ، ما تعلموه من العلوم فى مدارسهم . وفى ذاك العهد انتقلت إلى الغرب عادة استعمال الأرقام العربية والكسور العشرية ، وبقيت أسماؤها مع ما لحقها من التعديل عربية صرفة ، وجاءت التعابير النادرة إلى اللغة الفرنسية من اللغة العربية أكثر من اللاتينية . وإن كان فى الفرنسية على عهد أول نهضتها لفظة واحدة يونانية مقابل خمسمائة لفظة لاتينية ، فمن العدل أن يقال إنه كان مثل ذلك من اللغة العربية ، فأخذ الفرنجة[٢] نحو تسعمائة كلمة من العربية وأدخلوها فى معاجمهم واستعمالهم ، ومنها ما دخل لغتهم فى الحروب الصليبية .

وقد حدث للغة الفرنسية وآدابها[٣] فى عهد الصليبيين ما يحدث فى مثل هذه الأحوال على قاعدة مطردة ، وهو أن الأمة التى استفاضت مدنيتها تؤثر لغتها فى لغة غيرها . وكان الشرقيون ولا سيما العرب واليونان أكثر الأمم تمدناً بلا مراء على ذاك العهد . وقد تعلم قليل من العرب والترك والكرد لغة الفرنج ، وهذا عدا بعض التراجمة الرسميين ، وتعلم على العكس كثير من الصليبيين لغة الوطنيين عقبى وصولهم إلى فلسطين . ولا ريب أن مجاورة المدنية الإسلامية قد ساعدت على زيادة النفوذ

---

(١) تاريخ العرب لسيديليو .

(٢) ملاحظات على الألفاظ الفرنسية المشتقة من العربية للامنس .

Lammens : Remarques sur les mots français dérivés de l'Arabe.

(٣) تاريخ اللغة الفرنسية وآدابها لبتى دى جولفيل .

Petit de Julleville : Histoire de la langue et de la littérature francaise.

الذى كانت العلوم العربية والفنون العربية تؤثرها فى الإفرنج منذ زمن طويل ... ومعلوم ما تدين به لهذا التأثير علوم الفلسفة والرياضيات والفلك والملاحة وتركيب النيران الصناعية والطب والكيمياء حتى فن الطبخ . فقد أخذ الإفرنج عن العرب أشياء كثيرة من مثل طريقة الأرقام وشروح أرسطو حتى حمام الزاجل والرنوك وأدوات الموسيقى والأزياء والألبسة والأزهار والبقول . وإذا حدث أن ما نقل لم يسم باسم المدينة الشرقية المأخوذ عنها ، مثل ثوم عسقلان وكساء دمشق ، فإن غيرها قد احتفظت بأسمائها العربية مع بعض التحريف ، وهى كثيرة ويتألف منها فى الفرنسية مجموع كبير . اه .

وقال يهودا من جامعة مجريط[١] : أخذ الناس يدركون الآن أن أوربا فى القرون الوسطى مدينة للحضارة العربية التى اغترف من مناهلها المسلمون واليهود والنصارى على السواء . وأدركوا أن العلوم الطبيعية والقوانين الأساسية فى الفلسفة والرياضيات وعلوم العمران كانت تستمد روحها فى زمن النهضة والإصلاح من ذلك المنهل العذب ألا وهو الحضارة العربية ، وصار علماء العصر ، كلما تعمقوا فى دراسة هذه الحضارة أدركوا أثرها البليغ فى حضارة اليوم ، وكشفوا مئات الكلمات الداخلة فى اللغات الأوربية من أيام تلك الحضارة .

تأثر اللغات الشرقية بالعربية :

هذا ما تأثرت به اللغات الأوربية المجاورة للعربية أيام بهائها ، وذلك بقوى دولها والروح السارى من حضارتها ، بقى الكلام على تأثر اللغات الشرقية بها ، فمن أهم اللغات التى تأثرت بها اللغة الفارسية[٢] ، مع أنها كانت لغة حضارة راقية ،

---

(١) من خطاب له فى الجامعة الأميركية فى القاهرة مارس سنة ١٩٢٨ .

(٢) ليست الفارسية من اللغات السامية ، وإنما هى من اللغات الآرية — والآرية نسبة إلى آريا وهو كما قال بعض علماء الجغرافيا لفظ يراد به جميع ممالك الفرس مثل لفظ إيران — وكأن نسبته إليها لكون مبدإ ظهورها كان منها ، ويقال لها أيضا اللغات الهندية الأوربية =

وربما كان نحو نصف ألفاظها اليوم عربياً ، ومثل ذلك يقال فى اللغة العثمانية أو التركية على اختلاف لهجاتها كالقرقز وايغر وقفجاق وبشغرت وجغطاى ، وتأثرت بالعربية اللغة الأوردية ولغة الملايو أى الجاوية ، واللهجة الأفغانية ولغات السودان المصرى واللغات البربرية فى إفريقية .

واللغة العربية اليوم فى السنيغال هى لغة المسلمين ، وتعتمد بقية اللغات الوطنية على الحروف العربية فى كتابة لغتها[١] ، وهى شائعة فى السودان الفرنسى وفى شاطئ العاج ، ويعتمدون فى النيجر على الحروف العربية ، وذلك فى التجارة وكتابة اللغات المحلية ، ويعتمد غير المسلمين فى ليبريا على الحروف العربية فى تدوين لغاتهم . وهكذا فى نيجيريا الشمالية تدرس العربية فى المدارس الابتدائية ، واللغات الوطنية تكتب بحروف عربية ، والعربية منتشرة فى أقاليم الشاد وجيبوتى والحبشة وأهل هذه الديار من المسلمين يتكلمون فى العادة لغتين ، ويعتمد مسلمو يوجوسلافيا على الحروف العربية فى كتابة اللغة الصربية والتركية ، وجميع علماء قازان والقريم يتكلمون العربية ، وكذلك علماء كرجستان وطاغستان وشركستان ، واللهجات المحلية فى أفغانستان تكتب بحروف عربية ، وتستعمل العربية فى سيام قليلا ، ويستخدم مسلمو الفيليبين العربية لتدوين لغتهم ، والعربية تدرس فى جميع مدارس المسلمين فى الهند ، ولها سوق رائجة فى جامعة عليكرة فى شمالى الهند ، وفى مملكة حيدر آباد الدكن ، وكذلك الحال فى إيران .

= ويدخل فيها الهندية واليونانية واللاتينية . وهى لغة إيطاليا القديمة التى تفرع منها فى القرون الوسطى معظم لغات أوربا . والفارسية من أكمل اللغات وأجملها ، وهى أنواع بينها من الاختلاف مثل ما بين لغة أهل الحجاز وأهل نجد من ذلك ، وأفصحها الفارسية الدرية وهى من أسهل اللغات وأقربها مأخذاً . وقد عنى بعض علماء الفرس بضبطها وتدوينها إلا ان ذلك لم يقع من المشهورين منهم لانصرافهم عنها إلى العربية التى شغفوا بها . وقد ألف بها في كل شىء وأدخل فيها من الكلمات العربية ما لا يحصى تقريباً للعربية على الفرس ، وفضل الفرس ظاهر للعيان وهو مما لا يحتاج إلى بيان (التقريب لأصول التعريب لطاهر الجزائرى) .

(١) تقويم العالم الإسلامى لماسينيون Massignon : Annuaire de monde Musulman.

وفى كتاب لغات العالم أن العربية كانت لغة الكتابة عند الشعوب القليلة التمدن كما كانت لغة شعوب إسلامية كتبوا بها لغتهم ، وقد حملت العربية من الألفاظ الدينية والعلمية ما لا يحصى عدده ، دخلت فى التركية والفارسية وغيرها ، وإذا أراد الزنوج المسلمون فى إفريقية ممن خرجوا عن الأمية أن يدونوا شيئاً فيكتبونه بالعربية ، وهم لا يتكلمونها فى كل مكان ، ولكنهم اتخذوا من العربية المكتوبة لغة علمية ولغة تراسل . يقول داربر : من الخطأ أن ينسب تقدم الإسلام إلى السيف وحده ، وقد يستطيع السيف أن يغير عقيدة قوم ، ولكنه لا يملك التأثير فى ضمائر الأفراد وأفئدتهم ، وإن عاملا أقوى من السيف ، وسبباً أشد تأثيرا من الخوف صحبا الإسلام ، فأخذ يتغلب على الحياة الخاصة والعامة فى آسيا وإفريقية ، وساعد ذلك على انتشار اللغة العربية فى أمم شتى تكاد لا تحصى .

الشعوب التى تتكلم العربية :

ويتكلم اليوم باللغة العربية[1] ، أو بها وبلغة أخرى ، فى جزيرة العرب والعراق والشام إلى تخوم آسيا الصغرى وفى إفريقيا الشمالية (طرابلس وبرقة وتونس والجزائر والغرب الأقصى) إلى حدود الصحراء ومالطة ومصر إلى أقصى الجنوب حيث الأنهار التى تتألف منها منابع النيل الغربية ، وانتشرت فى كردوفان ودارفور ووادای وبورنو ، وفى النيجر والسنيغال والصحراء الغربية الواقعة بين السنيغال والغرب الأقصى ، ولم يستعمر سكان بلاد العرب الجنوبية جزيرة زنجبار فقط ، بل استعمروا الأرض الإفريقية المناوحة لها ، وبعثوا المستعمرين إلى أرخبيل ماليزيا ، وقديما كانوا يتكلمون بالعربية ، وتكلموا العربية حتى القرن الثامن عشر فى جزيرة قوصرة « بنتيلاريا » بين تونس وصقلية .

وفى كلام أهل هذه الجزيرة وأهل جزائر الباليار كثير من المفردات العربية ويتكلم العربية بعض أهل مدغشقر ، ولا يعرف بالتحقيق إذا كانت العربية لسان

(١) معلمة الإسلام . مادة عرب .Encyclopédie de l'Islam

شعب الموبال فى الجنوب الغربى من الهنـد . وقد نشر الحضارمة من سكان اليمن اللغة العربية حيث حلوا من ديار الهند الانجليزية والمستعمرات الهولاندية ، وأصدروا بها جرائد وأنشأوا لتعليمها مدارس . ولا يقل عدد من يتكلمون العربية اليوم فى الأقطار العربية عن سبعين مليوناً ، هذا عدا من يتكلمها ويكتبها من المسلمين فى الصين والهند وجاوة وتركستان وإيران وأفغانستان والسودان . ولئن أصاب هذه اللغة فى القرون الأخـيرة بعض وهن لانقطاعها عن أن تكون لغة علم وسياسة ، وبقى حكمها باقياً فى الدين والخطب والشعر ، وعرا الضعف آدابها ، والآداب تبع لتقدم الأمة فى سلم الحضارة ، وهى صورتهـا الناطقة وأثر قوتها وانبمائها ، لئن أصاب اللغة ذلك فليس معناه أنها بليت ولم تعد تصلح لشىء كما يدعى بعض شعوبية الغرب ، ويتابعهم بعض البلهاء أو المتفاصحين فى الشرق .

العربية فى عهدها الأخير واللهجات العامية :

كانت اللغة الفصحى واسطة التفاهم بين عامة الشعوب الإسلامية فى القارات الثلاث منـذ قيام دولة الراشدين إلى اليوم . وهيهات أن يكون حظها حظ اللغة اللاتينية من أكثر الأمم الغربية ، فإن العربية رسخت قواعدها لمـكان الدين منها ثم لجعلها لغة مدنية راقية . ومن قارن بين حالتها اليوم وحالتها منذ مائة سنة ، وما أصابته من الترقى بإدخال المدنية الجديدة على أهلها ، لايلبث أن يعرف بالبداهة أن العربية وسع صدرها لقبول جميع الأفكار الجديدة قديماً وحديثاً . وما عاق هذه اللغة كون لغة التخاطب فى أكثر الأقطار العربية غير لغة التكاتب ، لأن شروط البقاء فيها متوفرة بوفرة مادتها الأصلية ، ولأن نفس كل مسلم تهوى إلى الاحتفاظ بها . وما أضر باللغة إلا انتشار الأمية زمناً طويلا بين أهلها ، ولما أخذ أهل كل قطر بأساليب التعليم الجديدة فى العهد الأخير ، قربت لغـة العوام بالضرورة من لغة الخواص . وكم من لفظ فصيح شاع بالاستعمال اليوم بين الجمهور ، وكان أكثر الأدباء بالأمس يجهلونه . وكلما تراجعت الأمية بين الشعوب العربية ، وربى الأولاد

على الفصيح ، يسمعونه فى الجامع والمعبد والبيت والمدرسة والسوق ، يتقارب عامى اللغة من فصيحها ، وتمشى لغة الكتابة مع الطبع ، مثل الكلام الدارج على الاستعمال .

وبأدنى نظرة فى اللغة العامية اليوم ، واللغة العامية فى مصر والشام مثلا ، قبل ثمانين سنة ، يتجلى لنا ما كان يبدر على لسان المدرسين والخطباء والمعلمين والتلاميذ من اللفظ المبتذل ، وما سرى إلى أقلامهم وكلامهم اليوم بل إلى العامة والأميين من الفصيح الجميل . وهناك ندرك الدرجات التى صعدتها اللغة فى هذه الحقبة من الزمن ، وسيكون الترقى بهذا النظر على مقياس أوسع فى مستقبل الأيام ، ومبادئ الترقى يبطئ سيرها لأول انبعاثها ، ثم تتسع خطاها بعد حين فتعدو عدوا ، ودور التأسيس أصعب من دور الاستثمار ، وليس من السهل إعادة الحياة إلى لغة كادت تفقد نضرة ملكتها ، بفعل قرون الجهالة وطول أيام الأعاجم الذين دانت لهم أقطار العرب قروناً ، فقد رأينا من هذه الدول من كانوا ولا يزالون يسرون إذا رأوا العربية تهوى إلى الحضيض مع أنها لسان دينهم ، وهم جماعات أخذوا بحب قوميتهم إلى الغاية ، فظنوا تلقف ما عداها مما يقدح فى وطنيتهم ، وحاولوا بزعمهم « تطهير » لغتهم من العربية ، وما ندرى إذا تم تطهيرهم المزعوم ، ماذا يبقى لهم من لغتهم الضئيلة بمفرداتها .

يريد بعض الغربيين الذين يخوضون فى شئون المسلمين أن يقلب العرب أوضاعهم ومشخصاتهم ، كأن الأمم ترتجل ارتجالا ، ومنهم من يزعم أن اللغة العربية لم تعد تصلح لغة علم ومدنية ، وأن العرب يجب أن يغيروا كل شىء فى أساليبهم ، وأن يكتفى أهل كل قطر باللغة العامية التى اصطلحوا على التخاطب بها . يقولون هذا وهم يعرفون أن لكل أمة مصطلحا ، وأن الأمة تعيش بماضيها وما هى إلا تتمته ، وقولهم إن لغة العرب لا تتسع للمصطلحات الفنية هو من الدعاوى الساقطة بالبداهة ، يكذبه ما يصدر اليوم من التآليف العلمية بالعربية فى مصر والشام والعراق وتونس ومراكش وغيرها ، وفى كتاب لغات العالم « أن

اللغة العربية الفصحى ، أى العربية القديمة الأدبية العلمية ، أى لغة القرآن ، هى من أهم اللغات التى عرفها التاريخ ، وكان مؤلفوها لا يحصون كثرة ، قالوا الشعر قبل الإسلام وبعده ، وخلفوا من تفاسير القرآن وكتب الحديث والعبادات ، وألفوا فى كل موضوع من التاريخ والمعاجم والكتب العلمية الصرفة والقصص والرحلات وكتب المغامرات ، وفى كل جنس من أجناس التأليف ما لا يقع عليه الإحصاء » .

نشأ تكاثر اللهجات العربية من تنائى أقطارها ، وانفصام عرى وحدتها . « وأهل الأمصار[1] إنما يتكلمون على لغة النازلة فيهم من العرب » . ولذلك كان هذا الاختلاف فى ألفاظ أهل الأمصار ، وليست كثرة اللهجات بضارة كثيرا ما دام المعول على الفصحى ، والعامية تقرب كل يوم خطوة منها ، والضار شيوع الأمية فى الأمة العربية . واللغة كما قال ابن حزم تتبدل بتبدل مساكن أهلها ، فإنه بمجاورة أهل البلدة الأخرى تتبدل لغتها تبدلا لا يخفى على من تأمله ، فتتبدل ألفاظ الناس على طول الأزمان ، واختلاف البلدان ، ومجاورة الأمم ، وإن كانوا يتكلمون فى الأصل لغة واحدة . ومثل هذا رأى الثعالبى[2] فى أن شعراء عرب الشام وما يقاربه أشعر من شعراء عرب العراق وما يجاوره فى الجاهلية والإسلام . والسبب فى تبريز الشاميين قديماً وحديثاً على من سواهم فى الشعر ، قربهم من خطط العرب ولاسيما أهل الحجاز ؛ وبعدهم عن بلاد العجم ، وسلامة ألسنتهم من الفساد العارض لألسنة أهل العراق بمجاورة الفرس والنبط ومداخلتهم إياهم . قال : إن شعراء الشام جمعوا بين فصاحة البداوة وحلاوة الحضارة .

ونحن اليوم لا نعلم الزمن الذى اضمحلت فيه اللغة الفصحى من الأفواه . ولكننا على يقين من أن هذا اللسان بقى محروساً[3] لم يتداخله الخلل إلى أن فتحت

---

(١) البيان والتبيين للجاحظ . (٢) يتيمة الدهر للثعالبى .

(٣) النهاية لابن الأثير .

الأمصار ، وخالط العرب غير جنسهم من الفرس والحبش والنبط وغيرهم من الأمم ، فاختلطت الفرق ، وامتزجت الألسن ، وتداخلت اللغات ، وما انقضى عصر التابعين إلا واللسان العربي قد استحال أعجمياً أو كاد . وقد قال عمارة[1] اليمنى من أهل المائة السادسة : « إن الزرائب وهي الناحية الشرقية من المخلاف السليمانى فى اليمن ، ما زال أهلها إلى عصره باقين على اللغة العربية من الجاهلية لم تتغير لغتهم ، وذلك لأنهم لم يختلطوا قط بأحد من أهل الحاضرة فى مناكحة ولا مساكنة ، وهم أهل قرار لا يظعنون منه » . وقال ياقوت : « إن جبل عكاد فوق مدينة الزرائب باليمن كان سكانه إلى القرن السابع باقين على اللغة العربية من الجاهلية ، لم تتغير لغتهم بحكم أنهم لم يختلطوا بغيرهم من الحاضرة » .

ويقول الرحالة بروكهارت : إن فى اللغة العربية المحكية عدة لهجات مختلفة كل الاختلاف ، وربما كان هذا الاختلاف مما يوجد من نوعه فى لغات أخرى ، وعلى الرغم من سعة البلاد التى يتخاطبون بها أى من موغادور إلى مسقط ، فإن كل من حذق لهجة واحدة يتيسر له أن يفهم جميع اللهجات . وقد يمكن أن يكون عزا التلفظ شىء من التأثير نشأ من طبيعة الأصقاع المختلفة ، واحتفظت العربية بعذوبتها فى أودية مصر والعراق . وغدت قاسية فى الأرجاء الباردة من أرض البربر والشام . قال : وبقدر ما يصل إليه علمى ، فإن الاختلاف شديد بين اللهجة المغربية فى مراكش والبدوية فى الحجاز على مقربة من مكة ، ولكن لهجاتهم الخاصة لا تخالف بينها ، إلا كما تتخالف الألمانية التى يتكلمها فلاح من بلاد سواب وآخر من سكسونيا .

(١) النكت العصرية فى أخبار الدولة المصرية لعمارة اليمنى .

حال الغرب في شباب الاسلام

همجية البلاد الأنجليزية والفرنسية :

في القرون التي كانت فيها العرب تنعم بلذائذ العقل والعمل ، وتأخذ من مسرات الحياة الفاضلة بأوفر نصيب ، ويهاب سطوتها البادى والحاضر في كل قطر استصفته أو لم تستصفه ، وتؤلف أمة منطوية على علم كثير ، وأدب غزير ، وتعرف لها وثبات ظاهرة ، وحكومات ناهضة — في هذه القرون كان الغربيون متوحشين جاهلين ، لا يعرفون الترف ، ولا يتذوقون عيش الرفاهيــة ، لا أمن ولا إدارة ، ولا ملوك يعرفون واجبهم في إقامة العــدل وتوطيد الأمن ، وهم في كل أحوالهم إلى حياة البوادى أقرب منهم إلى حياة المدن والحضارة . وإلى القرن الماضى لم يعرف ملوكهم فضلا عن سوقتهم المراحيض ولا الحمامات ويبصقون على الطنافس والمقاعد حتى في قصور العظماء .

كانت انجلترا[1] الانجلوسكسونية في القرن السابع الميلادى إلى ما بعد العاشر فقيرة في أرضها ، منقطعة الصلات بغيرها ، سمجة وحشية ، تبنى البيوت بحجر غير نحيت ، وتشيدها من تراب مدقوق ، وتجعلها في وطاٍ من الأرض : مساكن ضيقة المنافذ ، غير محكمة الإغلاق ، وإصطبلات وحظائر لا نوافذ لها ، تقرض الأمراض والأوبئة المتكررة المواشى والسائمة ، وهى المورد الوحيد . ولم يكن الناس أحسن مسكناً وأمناً من الحيوانات . يعيش رئيس القبيــل في كوخه مع أسرته وخدمه ومن اتصــل به ، يجتمعون في قاعة كبرى ، في وسطها كانون ينبعث دخانه من ثقب فتح في السقف فتحة غليظة ، ويأكلون كلهم على خوان واحــد ، يجلس السيد وقرينته في أحد أطراف المــائدة ، ولم تكن الشوكات معروفة ، وللأقداح

(١) التاريخ العام للافيس ورامبو .

حروف من أسفلها ، فكان على كل مدعو أن يمسك بيده قدحه ، أو يفرغه في فيه دفعة واحدة ، وينتقل السيد إلى غرفته في المساء ، بعد أن يتناولوا الطعام ويعربدوا على الشراب ، ثم ترفع المنضدة والصقالات ، وينام جميع المجتمعين في تلك القاعة على الأرض أو على دكات ، واضعاً كل فرد سلاحه فوق رأسه ، لأن اللصوص كانوا من الجرأة بحيث يقضي على الناس أن يقفوا لهم بالمرصاد كل حين ، لئلا يؤخذوا على غرّة .

وكانت أوربا في ذلك المهد غاصة بالغابات الكثيفة ، متأخرة في زراعتها ، تنبعث من المستنقعات الكثيرة في أرباض المدن روائح قتالة تجتاح الناس وتحصدهم ، وكانت البيوت في باريز ولندرا تبنى من الخشب والطين المعجون بالقش والقصب ، ولم يكن فيها منافذ ولا غرف مدفئة . وكانت البسط مجهولة عندهم ، لا بساط لهم غير القش ، ينشرونه على الأرض ، ولم يكونوا يعرفون النظافة ، ويلقون بأحشاء الحيوانات وأقذار المطابخ أمام بيوتهم ، فتتصاعد منها روائح مزعجة .

وكانت الأسرة الواحدة تنام في حجرة واحدة تضم الرجال والنساء والأطفال، وكثيراً ما كانوا يؤوون معهم الحيوانات الداجنة ، وكان السرير عندهم عبارة عن كيس من القش ، فوقه كيس من الصوف ، يجعل مخدة أو وسادة ، ولم يكن للشوارع مجار ولا بلاط ولا مصابيح . قال دراپر : وكان من أثر ذلك أن عمت الجهالة أوربا ، وساورتها الأوهام ، فانحصر التداوي في زيارة الأماكن المقدسة ، ومات الطب وحييت أحابيل الدجالين ، وكلما دهم البلاد وباء فزع رجال الدين إلى الصلاة وأغفلوا أمر النظافة ، فكانت الأوبئة تفتك بهم فتكا ذريعاً ، وقد زارت أوربا مراراً فاجتاحت الملايين من أهلها في أيام قليلة .

كان العالم القديم يقتسمه في القرن الحادي عشر [1] مدنيتان : في الغرب مدن حقيرة صغيرة ، وأكواخ فلاحين ، وقلاع لا هندسة لها ، وممالك مضطربة على

(١) التاريخ العام لمكسيم بتي .

الدوام بالحرب ، لا يتأتى أن يسير فيها السائر عشرة فراسخ دون أن يسلب وينهب ، وفى الشرق مدن القسطنطينية والقاهرة ودمشق وبغداد وجميع مدن ألف ليلة وليلة بما فيها من قصور المرمر وما حوت من المعامل والمدارس والأسواق والحدائق الممتدة على بضعة فراسخ ، وبرية تروى أحسن إرواء غاصة بالقرى والضياع ، وحركة التجار لا تنقطع ، يذهبون آمنين من إسبانيا إلى فارس . قال سنيوبوس : « ولا شك أن العالم الإسلامى والعالم البيزنطى كانا أغنى وأحسن نظاماً ونوراً من العالم الغربى ، فكان النصارى يشعرون بنقصهم فى التهذيب ، ويعجبون باهتين بما يبدو لهم من غرائب الشرق ، ومن يحب أن يتعلم يقصد إلى مدارس العرب . وبدأ العالمان الشرقى والغربى فى القرن الحادى عشر يتعارفان ، ودخل النصارى المتوحشون إلى حمى المسلمين المدنين من طريقين الحرب والتجارة» . ولقد دهش[1] الصليبيون فى القرن الخامس من الهجرة لما بلغوا الشرق ، ووقعت أعينهم على مدن حافلة منظمة فى بيزنطية والشام وغيرهما من بلاد الإسلام ، إذ ما كان لهم عهد بغير قرى حقيرة ، ودساكر لا شأن لها فى بلادهم .

الأمية فى الغرب والتوحش فى عامة أقطاره :

وبينا كان شارلمان أعظم ملوك أوربا ، وصاحب فرنسا وجرمانيا وشمالى إيطاليا ، وهو معاصر للرشيد العباسى ، أقرب إلى الأمية منه إلى النور ، كانت كتب الفلسفة والعلوم المادية والأدبية يتنافس فيها علماء العرب فى بغداد وقرطبة ، وتترجم المنصور العباسى الكتب من اللغة العجمية[2] إلى العربية ، وتترجم له كتب أرسطاطاليس من منطق وهندسة ونجوم ، وسائر الكتب القديمة من اليونانية والفهلوية والفارسية والسريانية ، وتخرج إلى الناس فينظرون فيها ويتوقون إلى علمها ومعظم الخلفاء الأول من بنى العباس يشرفون على علوم الناس وآرائهم فيمن

(١) التاريخ العام للافيس ورامبو . (٢) مروج الذهب للمسعودى .

تقدم وتأخر من الفلاسفة وغيرهم من أهل الشرائع ، وتجرى فى مجالسهم مباحث فى أنواع العلوم من العقليات والسمعيات فى جميع الفروع والأصول .

وبينا يقوم فى العرب أعلم خلفائهم المأمون العباسى الذى قلما جاء حتى فى ملوك الغرب من يدانيه بعلمه وعقله ، يطلب إلى ملك الروم لما غلبه كتب العلم التى عنده ، وهو عمل مدهش لم يعهد لملك ولا لحكومة أن طلبت مثله من عدوها فى قديم الدهر وحديثه ، وبه يعرف قدر المأمون وتفانيه فى خدمة الإنسانية كما قال فرّان[(١)] ، ويستمتع الناس فى أيامه بنعمة الحرية العلمية والوجدانية ، حتى عد عصره عند العرب كعصر بركليس فى آثينة وعصر أغسطس فى رومية — بينا كانت الحال عند الغرب على ما ذكر كان شارلمان يحاول أن يتعلم ويتحبب إلى الآداب[(٢)] تحبباً ساذجاً ، كما يحب غير المتعلمين أن يروا أحياناً السطور المكتوبة . وتشبه آداب عصره أدب صبيان المدارس وتمارينهم اليوم . ولم يكن فى غاليا شىء يشبه الأدب ، وما دون أهلها قط كتاباً ولا أخباراً . وكانت الكتابات الرسمية التى لا يستغنى عنها كالمواثيق والهبات والوصايا تكتب باللغة اللاتينية البربرية ، وهى من سقم الخط بحيث يصعب حلها ، ولا يمتاز شرفاء القرون الوسطى بتعلمهم وتهذيبهم عن الفلاحين ، وكان معظم الزعماء يجهلون القراءة ، ولا هم لهم غير الشراب والطعام والصيد والحرب ، وهم فى العادة جفاة غلاظ شداد . فقد قتل ريشاردس قلب الأسد مثال الفروسية خمسمائة وألفى أسير من العرب ، وفقأ عيون خمسة عشر فارساً كان لهم يد فى حرب أثارها على فيليب أغسطس ، وكثيراً ما كانوا يفقأون عيون النساء ويجدعون أنوفهن ، ولم يزل هذا الإغراق فى الشدة والقسوة البربرية مألوفاً إلى القرن الرابع عشر والقرن الخامس عشر ، وقست بحياة التشرد على هذا النحو قلوب الفرسان ، وغلظت طباعهم ، وغدوا يتقاتلون لأقل سبب ، ولا قصد لهم من تقاتلهم غير السلب والنهب ، ومن الفرسان من كان يقف على قارعة الطريق ،

(١) غرائب الغرب للمؤلف . (٢) تاريخ الحضارة لسنيوبوس .

يستوقف التجار ويسلبهم ويسجنهم ويعذبهم ، ليكرههم على أن يفتدوا بالمال أنفسهم ، وليس عندهم أمن ولا أمان .

بلى فقد من غاليا على عهد شرلمان ، وبعده بزمن طويل كل اهتمام بشىء يقال له الثقافة العامة[١] ، وأصبحت اللغة اللاتينية ، وهى اللغة المكتوبة الوحيدة على غاية من الفساد ، وأصبح الكتاب أندر من الكبريت الأحمر ، ولا يطمع الأفراد الذين كانوا يرغبون فى التعلم إلا أن يقرأوا التوراة ، ويكتبوا صكا رسمياً بالرجوع إلى دساتيرهم . أما صناعاتهم السائرة فهى من العبث والفساد بالمحل العالى . وذكر روبرتسون[٢] أنهم عثروا على عدة قوانين ووثائق صادرة عن أهل الطبقة الأولى من الأعيان ، يستدل منها أنهم كانوا أميين . ولذلك كانوا يعمدون إلى وضع صورة الصليب على الوثائق الصادرة عنهم ، بل كان هربون أعظم قضاة الدولة أميا ، وكان دجسلين رئيس الجيوش الفرنسية فى القرن الرابع عشر وأعظم رجال عصره أمياً ، وكان يسأل كل من يتطلب منصباً إن كان يقرأ الإنجيل ورسائل الرسل ، ويفسر معناها ولو كلمة كلمة ، من غير نظر إلى تفسير الجملة ، ذلك لأنه كانت الكتب نادرة الوجود لا تتعدى أسوار البيع . وما خرج الغربيون من الجهل إلا باختراع الطباعة فى القرن الخامس عشر . وذكر القزوينى[٣] أن تجاراً من العرب ذهبوا إلى شلشويق — من بلاد الدانيمرك اليوم — لاستحضار العنبر فوصفوا أهلها بأنهم وحوش عراة يسترون عوراتهم بقطع من الجلود .

هكذا كانت أوربا الغربية وما إليها ، أما حال أوربا الشرقية فكانت إلى الهمجية المطلقة ، بل إن تاريخ روسيا لم يكن بدأ فى القرن التاسع للمسيح . وكانت تلك الأصقاع الواسعة مسرحاً لبعض قبائل الصقالبة ، يتسلط التتر عليها ويسومونها سوء العذاب . بل دامت أيام الجهالة فى روسيا إلى ما بعد ذاك العهد بقرون . ولقد

---

(١) البرابرة للويز هالبن Louis Halpen : Les Barpares .

(٢) تاريخ شارلكان لروبرتسون . (٣) آثار العباد وأخبار البلاد للقزوينى .

شبت فيها نار حرب(١) أهلية لخلاف وقع فى معرفة عدد الأصابع التى يجب استعمالها فى عمـل إشارة الصليب . ولم تخلص روسيا فى الحقيقة من كابوس الجهل المطبق إلا فى القرن الثامن عشر على عهد مصلحها بطرس الأكبر . ومثل ذلك يقال فى سائر ديار الغرب حاشا إيطاليا ، فإن برابرة الشمال قضوا على مدنية الرومان فيها ، وسلمت لهم بعض عادياتها ومصانعها ، فـكانت حافزاً للأخلاف على الترقى ، انبعثت النهضة بعد قرون من بين أظهر القوم ، وعمرتها كتب العرب وسرى قبس نورها فى القرن الرابع عشر إلى معظم الأصقاع الأوربية .

المقابلة بين أصقاع العرب وأصقاع الافرنج :

كانت أوربا تحت سلطة البابوات ، يتصرفون فيهـا على هواهم ، ويتحكمون فى الأرواح والأشباح ، والناس تائهون كما قال « دوزى(٢) » فى ظلام الجهالة ، لا يرون النور إلا من سم الخياط ، والنور لا يسطع إلا من جانب الأمة الإسلامية ، من علوم وأدب وفلسفة وصناعات وأعمال يد وغير ذلك . وبغداد والبصرة وسمرقند ودمشق والقيروان ومصر وفارس وغرناطة وقرطبة هى المراكز العظيمة للعلم . وعواصم أوربا التى ندهش بها اليوم أشبه بقرى ، لا علم فيها ولا عمران ، وهى متأخرة فى شئونها المادية والأدبية كافة . وما كانت فى دار الإسلام مدرسـة ولا جامع ولا بلد ولا دار كبرى تخلو من خزائن كتب مسبلة على الطالبين . هذا مع عزة المخطوطات فى ذاك العهد ، يجتمع فى تلك الدور العالمون ، يقرأون ويتباحثون ويتدارسون ، تساوى فى ذلك الرجال والنساء . وكانت المعارف فى المدن والقرى وفى الأندلس خاصة مبذولة لـكل طالب ، حتى قال أحد مؤرخى الأفرنج إن معظم سكان إسبانيا الإسلامية كانوا يقرأون ويكتبون ، فى زمن كان أهل الطبقة العليا فى أوربا النصرانية أميين لا يقرأون عدا أفراداً قلائل من الشمامسة ،

(١) أصول الشرائع لبنتام . (٢) تاريخ المسلمين فى أسبانيا لدوزى .

جعلوا الكتابة صناعة لهم . وقال روبرتسون : كان فى أسبانيا فى ابتداء القرن الخامس عشر مدن كثيرة أعمر من باقى مدن أوربا حاشا مملكتى إيطاليا وبلاد القاع ، وكان العرب أنشأوا فى مدنهم معامل ومصانع أيام كانوا حاكمين فيها .

وغصت ديار المسلمين بالمجامع العلمية مؤلفة من علماء لا ينظر فى اختيارهم إلى الدين الذى يدينون به ، بل يُراعى فيه علمهم واختصاصهم ، وكان الخلفاء والملوك والعظماء يجمعون المشتغلين فى قصورهم ، يتذاكرون أصناف العلوم ، وما كان مجلس لهم يخلو من عالم أو علماء ، ينصت الحضور له ويأخذون عنه ، ومنهم من كان يستصحب العلماء فى غزواته ، أو يصحب أحمالاً من الكتب فى رحلاته ، لأن نفسه تفطم عن كل شىء إلا عن الأبحاث العلمية وغيرها ، وكان المنصور ابن أبى عامر الأندلسى ، وأمير المؤمنين المأمون فى بغداد ، فى جملة عشرات من رجال الإسلام كان هذا شأنهم .

وذكر جبون خلال كلامه على حماية المسلمين للعلم فى الشرق والغرب ، أن ولاة الأقاليم والوزراء ، كانوا ينافسون الخلفاء فى إعلاء مقام العلم والعلماء ، وبسط اليد فى الإنفاق على بيوت العلم ، ومساعدة الفقراء على طلبه ، فانتشر من ذلك الذوق فى الآداب ، ووجدت اللذة فى تحصيله بين الناس ، من سمرقند وبخارى إلى فاس وقرطبة . قال وقد أنفق وزير واحد لأحد السلاطين « نظام الملك » مائتى ألف دينار على بناء مدرسة ببغداد « النظامية » وجعل لها من الريع خمسة عشر ألف دينار فى السنة تصرف عليها ، وكان الذين يغذون بالمعارف فيها ستة آلاف تلميذ ، فيهم ابن أعظم العظماء فى المملكة وابن أفقر الصناع فيها ، غير أن الفقير ينفق عليه من الريع المخصص للمدرسة ، وابن الغنى يكتفى بمال أبيه ، والمعلمون ينقدون رواتب وافرة .

بينا كان فى الأندلس عبد الرحمن الثالث الأموى[1] (٣٠٠ — ٣٥٠) عالم

(١) معلمة الإسلام .

الملوك وحامى الآداب والعلوم والفنون والتجارة ورب السيف والقلم الذى أصبحت إسبانيا بأعماله وأعمال أخلافه أحسن الممالك حضارة وحسن إدارة فى القرون الوسطى ، كنت ترى فى رعيته بل فى عماله من يقرّعه ، لأنه بنى قصر الزهراء ، واستفرغ جهده[1] فى تنجيدها ، وإتقان قصورها وزخرفة مصانعها . وانهمك فى ذلك حتى عطل شهود الجمعة بالمسجد الجامع ، يقوم قاضى الجماعة بقرطبة منذر ابن سعيد البلوطى ، ويعظه على المنبر مبتدئاً خطبته بقوله تعالى : « أتبنون بكل ريع[2] آية تعبثون ، وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون ، وإذا بطشتم بطشتم جبارين ، فاتقوا الله وأطيعون ، واتقوا الذى أمدكم بما تعملون ، أمدكم بأنعام وبنين وجنات وعيون ، إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم » . ثم يفضى إلى ذم المشيد والاستغراق فى زخرفته والسرف فى الإنفاق عليه ، ويتلو فيه قوله تعالى : « أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا[3] جرف هار فانهار به فى نار جهنم ، والله لا يهدى القوم الظالمين ، لا يزال بنيانهم الذى بنوا ريبة فى قلوبهم ، إلا أن تقطع قلوبهم[4] ، والله عليم حكيم » . ويأتى بما شاكل ذلك من التخويف والوعظ ، فيبكى الناس والخليفة ، ويشكو هذا إلى ولده الحكم تقريع منذر بن سعيد له مقسماً أن لا يصلى خلفه الجمعة أبداً ، ويقول له الحكم : « وما الذى يمنعك عن عزل منذر بن سعيد والاستبدال به ؟ » فيزجره وينتهره ويقول : أمثل منذر بن سعيد فى فضله وورعه وعلمه وحلمه ، لا أم لك ، يعزل إرضاء لنفس ناكبة عن الرشد ؟ هذا ما لا يكون ، وإنى لأستحى من الله تعالى ألا أجعل بينى وبينه شفيعاً فى صلاة الجمعة مثل منذر بن سعيد ، ولكنه قد وقذ[5]

(١) مطمح الأنفس للفتح بن خاقان .

(٢) الريع : المكان المرتفع . وآية : بناء ، علماً للمارة . وتعبثون : تسخرون .

(٣) شفا : طرف ، والجرف : الجانب ، وهار : مشرف على السقوط ، وانهار به : سقط به .

(٤) ريبة : شك ، وتقطع قلوبهم : تنفصل بأن يموتوا .

(٥) الوقذ : شدة الضرب . وقذه يقذه وقذاً : ضربه حتى استرخى وأشرف على الموت .

نفسي وكاد يذهبها ، والله لوددت أن أجد سبيلاً إلى كفارة يميني بملكي . بلى يصلى بالناس حياته وحياتنا ، فما أظننا نمتاض منه أبداً .

وبينا أهل أوربا كلهم عبيد ملوكهم وباباواتهم وزعمائهم ، لا يجسر إنسان أن ينقد عملاً أو يعترض على سياسة ، كان رجال الإسلام يقدمون على وعظ الخلفاء ، ولا يهابون سطوتهم ولا بطشهم ، كقام رجل من العباد عند المنصور العباسي يوم قال له : « وهل دخل أحداً من الطمع ما دخلك ، إن الله استرعاك أمر عباده وأموالهم فأغفلت أمورهم واهتممت بجمع أموالهم ، وجعلت بينك وبينهم حجاباً من الجص والآجر ، وأبواباً من الحديد ، وحراساً مع السلاح ، ثم سجنت نفسك عنهم فيها ، وبعثت عمالك فى جبايات الأموال وجمعها ، وأمرت أن لا يدخل عليك أحد من الرجال إلا فلان وفلان نفراً سميتهم ، ولم تأمر بإيصال المظلوم ولا الملهوف ولا الجائع العارى إليك ، ولا أحد إلا وله فى هذا المال حق ، فلما رآك هؤلاء النفر الذين استخلصتهم لنفسك ، وآثرتهم على رعيتك ، وأمرت أن لا يحجبوا دونك ، تجبى الأموال وتجمعها ، قالوا هذا قد خان الله فما لنا لا نخونه ، فأتمروا أن لا يصل إليك من علم أخبار الناس شيء إلا ما أرادوا ، ولا يخرج لك عامل إلا خونوه عندك ونفوه ، حتى تسقط منزلته عندك . فلما انتشر ذلك عنك وعنهم عظمهم الناس وهابوهم وصانعوهم ، فكان أول من صانعهم عمالك بالهدايا والأموال ، ليقووا بها على ظلم رعيتك ، ثم فعل ذلك ذوو المقدرة والثروة من رعيتك ، لينالوا بالظلم من دونهم ، فامتلأت بلاد الله بالطمع ظلماً وبغياً وفساداً ، وصار هؤلاء القوم شركاءك فى سلطانك وأنت غافل ، فإن جاء متظلم حيل بينك وبينه . إلى أن قال : فإن قلت إنما تجمع المال لشديد السلطان ، فقد أراك الله عبراً فى بنى أمية ما أغنى عنهم جمعهم من الذهب ، وما أعدوا من الرجال والسلاح والكراع ، حين أراد الله بهم ما أراد ، وإن قلت إنما تجمع المال لطلب غاية هى أجسم من الغاية التى أنت فيها ، فوالله ما فوق ما أنت فيه إلا منزلة ما تدرك إلا بخلاف ما أنت عليه » .

هكذا كان المسلمون في العالم حكاماً ومحكومين ، السلطان يعمل والواعظ يعظ . والناس آمنون ، والحرية مشاعة شاملة . وبهذه الحرية التي تمتع بها العرب في دولهم ، قبل أن تعرف معناها أمة من الأمم قبلهم ، نشأ رجال في السياسة والحرب والإدارة والعلم والفن ، كانوا غرة في جبين الدهر ، ولو جئنا نعدهم ونشير إلى ما رزقوا من ثقوب أذهان ، ووفرة علم ، وسمو أخلاق ، ولطف حيلة ، لاقتضى الخروج عن حد الإيجاز ، وبأدنى نظر في سيرهم ، يثبت لنا أن دينهم لم يحل دون مدنيتهم من الظهور بهذا المظهر الخلاب الذي استهوى كل من عرفه ، ولا ريب أن قليلا في رجال الغرب قبل عصر النهضة من بلغوا في الفضل والكمال مبلغ رجال الأمويين في الشرق والأندلس وبعض رجال العباسيين ، بل مبلغ رجال ملوك الطوائف ، وقليل جداً في الغرب من كانوا متصفين بصفات الخير . كبعض من بيضوا وجه الإنسانية بأعمالهم الصالحة ، وبنبوغهم في معاناة أحوال الناس وحملهم على الجادة لينعموا بالسعادتين الدنيوية والأخروية .

وكان الغربيون خلال القرون الطويلة التي كان فيها العرب أنجب أمة من أمم الخليقة يترامى إليهم من طريق الأندلس وصقلية وإيطاليا أولا ، ثم من طريق الصليبيين ، ما تم في أمصار العرب والمسلمين من الرقي ، فتصبو نفوسهم إلى تحقيق مثله أو بعضه في ربوعهم ، وأنى لهم ذلك وسلطة رجال الدين عندهم تناولت فروع الحياة ، وفرسانهم وملوكهم كانوا أدوات للتدمير لا للتعمير ، تغلب الفظاعة على أعمالهم ، والسماجة تقرأ في تضاعيف مجتمعهم ، وحضارتهم على حالة ابتدائية ، كلما حفزها حافز عادت أدراجها بعوامل التقهقر المغروسة فيها .

رأي لبون في تأثير العرب في الغرب :

ولقد أجمل لبون دور الانتقال في الغرب وتأثير العرب فيه في صفحة واحدة فقال : « كان[1] تأثير العرب في الغرب عظيما ، وإليهم يرجع الفضل في حضارة

(١) حضارة العرب لجوستاف لبون .

أوربا ، ولم يكن نفوذهم فى الغرب أقل مما كان فى الشرق ولكنه كان يختلف عنه . أثروا فى المشرق بالدين واللغة والفنون ، أما فى الغرب فلم يؤثروا فى الدين ، وكان تأثيرهم فى الفنون واللغة ضعيفا ، وتأثيرهم بتعاليمهم العلمية والأدبية والأخلاقية عظيما ، ولا يتأتى للمرء معرفة التأثير العظيم الذى أثره العرب فى الغرب ، إلا إذا تصور حالة أوربا فى الزمن الذى دخلت فيه الحضارة ، وإذا رجعنا إلى القرنين التاسع والعاشر للميلاد ، يوم كانت المدنية الإسلامية فى إسبانيا زاهرة باهرة ، نرى أن المراكز العلمية الوحيدة فى عامة ديار الغرب كانت عبارة عن مجموعة أبراج يسكنها سادة نصف متوحشين ، يفاخرون بأنهم أميون لا يقرأون ولا يكتبون . وكانت الطبقة العالية المستنيرة فى النصرانية عبارة عن رهبان فقراء جهلة ، يقضون الوقت بالتكسب فى ديرهم بنسخ كتب القدماء ، ليبتاعوا ورق البردى اللازم لنسخ كتب العبادة .

« وطال عهد الجهالة فى أوربا ، وعم تأثيره حتى لم تعد تشعر بتوحشها ، ولم يبدو فيها بعض الميل للعلم إلا فى القرن الحادى عشر ، وبعبارة أصح فى القرن الثانى عشر . ولما شعرت بعض العقول المستنيرة قليلا بالحاجة إلى نفض كفن الجهل الثقيل الذى كان الناس ينوءون تحته ، طرقوا أبواب العرب يستهدونهم مايحتاجون إليه ، لأنهم كانوا وحدهم سادة العلم فى ذاك العهد . ولم يدخل العلم أوربا فى الحروب الصليبية كما هو الرأى الشائع ، بل دخل بواسطة الأندلس وصقلية وإيطاليا . وفى سنة ١١٣٠ أنشئت مدرسة للترجمة فى طليطلة بعناية ريموند رئيس الأساقفة ، وأخذت تترجم إلى اللاتينية أشهر مؤلفى العرب . وعظم نجاح هذه الترجمات ، وعرف الغرب عالماً جديداً ، ولم تفتر الحركة فى هذه السبيل خلال القرن الثانى عشر والثالث عشر والرابع عشر . ولم تنقل إلى اللاتينية كتب الرازى وأبى القاسم وابن سينا وابن رشد وغيرهم ، بل نقلت إليها كتب اليونان أمثال جالينوس وأبقراط

وأفلاطون وأرسطو وأقليدس وأرخميدس وبطلميوس ، وهى الكتب التى كان المسلمون نقلوها إلى لسانهم [1] .

وقد عدّ لكلارك فى تاريخ الطب العربى ثلثمائة كتاب نقلها الغرب من العربية إلى اللاتينية ، والقرون الوسطى ماعرفت المدنية إلا بعد أن مرت من لسان أشياع محمد . وبعض هذه المترجمات لكتب القدماء التى فقد أصلها ، حفظت هذه الأسفار من الضياع فوصلت إلى الغرب . فإلى العرب وإلى العرب وحدهم ، لا إلى رهبان القرون الوسطى ممن كانوا يجهلون حتى وجود اللغة اليونانية ، يرجع الفضل فى معرفة الأقدمين ، والعالم مدين لهم على وجه الدهر لإنقاذهم هذا الكنز الثمين .

(١) ألف العرب فى معظم المطالب ولا يكاد يخطر ببالك موضوع إلا وترى أنهم سبقوك إلى البحث فيه بعض البحث ، تفننوا فى ذلك وأكثروا من التآليف ، حتى إن كثيراً من العلماء خلفوا مئات من المجلدات والرسائل وجودوا فيها . ولقد تسرع أحد أساتذة مصر المعاصرين فى حكمه على العرب بالقصور فى نقل شىء من العلوم السياسية والإدارية زاعماً أنه لا يُعلم لهم مؤلف فى السياسة ولا مترجم ولا شىء من أنظمة الحكم ولا أصول السياسة ، اللهم إلا قليلا لا يقام له وزن إزاء حركتهم العلمية فى غير السياسة من الفنون . ومع أن ما وصلنا من تركة السلف فى التأليف هو بعض ما دونوه ونشروه ، نرى أن كثيرا من رسائل الخلفاء فى القرنين الأوّلين عبارة عن أنظمة للسياسة والإدارة . فكتب عمر بن الخطاب وعلى بن أبى طالب ، ورسالة الصحابة لابن المقفع فى نصح الخليفة ، ورسالة عبد الحميد الكاتب فى نصيحة ولى العهد ورسالة طاهر بن الحسين إلى ابنه عبد الله بن طاهر ورسالة حفيده أبى عبيد الله بن عبد الله ابن طاهر بن الحسين فى السياسة الملوكية ، كل أولئك لا يخرج عن هذا ، وللعرب من ذلك شىء كثير ولكنه لم يصل إلينا ، وقد عربوا وصية أرسطو للاسكندر ورسالته إليه فى السياسة . وعربوا عهد أزدشير بن بابك الملك ، هذا إلى ما كتبه بعد أمثال الفارابى وابن سينا من هذا القبيل ، ومنه ما يدخل فى سياسة المنزل والنفس والولد ، ومنه ما يتعدى ذلك إلى المصالح العامة . أما كتاب السياسة لأرسطو فقد ندب المأمون ابن البطريق إلى الروم ليأتيه به فحمله إليه ونقله إلى اللغة العربية ، ولم تصل إلينا الترجمة . وإذا عرفنا أن العرب كانوا يتوخون الايجاز فى كل ما كتبوا فى صدر الإسلام نقطع بأن فيما انتهى إلينا من رسائلهم الموجزة فى هذا الباب ما يكفى لقيام أمرهم ، وكان على الخلف الصالح ، أن يتلقى تراث أجداده باليمين ، وينشره على وضع جميل مبوباً مفهرساً مقطعاً مجزءاً . والواجب أن لا ننسى أن عدم الاطلاع لا ينفى الوجود ، خصوصا وكلنا نعلم أن كثيراً من أخبار أمتنا قد ضاع بما توالى عليها من النكبات والخطوب .

يقول ليترى : « لو حذف العرب من التاريخ لتأخرت نهضة الآداب عدة قرون في الغرب » .

وقال لبون فى مكان آخر : « تمتعت إسبانيا بمدنية سامية بفضل العرب ، بينا كانت بقية أوربا غارقة فى التوحش العظيم . ولو مشى الغرب تحت راية العرب ، لتسامت منزلته ، ولو رقت أخلاق أهله ما وقعوا فى الحروب الدينية ومذبحة سان بارتلمى وديوان التحقيق وكل ما شاكل ذلك من المصائب التى أغرقت أوربا بالدماء عدة قرون ، وما عرف المسلمون ما يشبهها فى أرضهم» . وقال أيضاً : «كان تأثير العرب فى عامة الأقطار التى احتلوها عظيما جداً فى الحضارة ، ولعل فرنسا كانت أقل حظاً فى ذلك ، فقد رأينا الممالك تتبدل صورتها حينما خفق علم الرسول الذى أظلها بأسرع ما يمكن ، وشاهدنا فيها العلوم والفنون والآداب والصناعة والزراعة تزهر فيها أى إزهار .

تأثير العرب فى البلاد المغلوبة

سوء حال مملكتى الأكاسرة والقياصرة :

أصبحت الأقطار الخاضعة لسلطان الفرس وسلطان الروم قبيل الإسلام منهوكة القوى بالحروب والمجاعات والأوبئة . ضرب هرقل صاحب الروم مملكة فارس ضربة شديدة ، فكان من ذلك ضعفه وضعف خصمه . وغزا الفرس الشام ومصر وخربوا فى مملكة قيصر ، فمقت الناس كسرى فى فارس وهرقل فى الروم . وكلاهما قاست أمته الأمرين من جائر أحكامه وفاحش مغارمه . حاصر كسرى مدينة القسطنطينية ست سنين ، حتى مات أكثر أهلها جوعاً ، وقتل هرقل فى فارس الرجال والنساء والصبيان وسبى سبياً كثيراً ، وكان ذلك فى السنة السابعة من الهجرة .

وكان يزدجرد بن شهريار آخر ملوك الفرس وهو ابن حفيد كسرى ، قد ملكه الفرس عليهم لما كانوا فيه من الانتشار ، ملكوه وهو ابن خمس عشرة سنة ، كما ملكوا طفلا آخر ، وقد ملكت عليهم بوران بنت كسرى ؛ ولما بلغ النبىّ خبرها قال : « لن يفلح قوم أسندوا أمرهم إلى امرأة » وكأن الفرس قد أدركوا قوة العرب فقالوا فيما بينهم : إنما أُتينا من تملك النساء علينا ، فاجتمعوا على يزدجرد ؛ وعلى هذا كان الملك فى فارس قبيل الإسلام ألعوبة بأيدى النساء والأطفال ، والرعية متشعبة إلى أديان وفيهم المجوس ، والمجوسية دين الدولة ، وفى البلاد اليهود والنسطوريون وهم ممن لا يستهان بهم .

وبلغ هرقل سن الشيخوخة وأغواه رهبان إيلياء ، فقتل اليهود حول بيت المقدس وجبل الجليل قتلا ذريعاً بدعوى أن اليهود لما وافى الفرس فلسطين أعانوا

هؤلاء على قتل النصارى ، وأخربوا الكنائس وأحرقوها بالنار ، وقتلوا النصارى في صور وخربوا بيعهم ، فقتل كما قال ابن بطريق ، من اليهود ما لا يحصى عدده ممن قدر عليه ، وأرضاه الرهبان بأن صاموا له غفراناً لنقضه العهد الذي كان أعطاه لليهود ، ولإيخاشه في قتلهم . وكان الخلاف الديني على أشده بين النصارى في مملكة الروم ، اختلفوا في المسيح ، وقال قوم إن للمسيح طبيعتين[1] بمشيئة واحدة وفعل واحد وأقنوم واحد ، وقال آخرون : إن للمسيح مشيئتين وفعلين كما أن له طبيعتين ، لأنه يستحيل أن تكون مشيئة واحدة لذي طبيعتين ، ولو كان ذا مشيئة واحدة لكان ذا طبيعة واحدة ، فلما كان ذا طبيعتين فهو ذو مشيئتين .

وليتصور المرء بلاداً منقسمة على نفسها ، خارجة من حروب أضعفت قوى أهلها لا مال لديها ينشلها من شقائها ، ولا شيء مما يقال له رخاء وهناء بات يمهد فيها ، الفقر يخرب في كيانها ، والمجاعات والجوائح من الأمور العادية في ربوعها ، وكل واحد من الفرس والروم يتطلب الفرج من أي سبيل جاءه ، النفوس امتلأت غيظاً على الأيام وعلى الحكام . وبينا الناس على ذلك جاء الفاتحون من العرب ففرح المظلومون بمقدمهم ، ومنهم من عاونوهم بالفعل ، وإن اضطر بعض الفرس والروم أن يحاربوا العرب مع كسرى وقيصر دفاعاً عن الحوزة . لا جرم أن الناس كانوا في أرض الأكاسرة والقياصرة زاهدين في المظاهر القومية ، ضعفت في نفوسهم معاني الاستقلال . وهم بما صاروا إليه من سوء الحال يحاولون أن يضعوا أيديهم في يد كل من ينتشلهم من سقطتهم وفاقتهم ، ويدفع عنهم عوادي الفوضى ولو إلى أجل معلوم .

ولا عجب إذا وجد السكان في الفاتحين أعظم منقذ لهم مما هم فيه من الشدائد ، وهان عليهم أن ينزلوا عن دينهم ولغتهم ويدينوا بالإسلام ، وكيف لا يتركون مشخصاتهم ، وقد رأوا فيما عرض عليهم نموذجاً يصلح لهم ، وأن الاختلاف يسير

(١) تاريخ سعيد بن بطريق .

بين ما عرفوا من التعاليم وما سيعرفون . هـذا إلى ما فى الجديد من روعة ، يزيد تأثيرها إذا كانت إلى السذاجة لا تعقيد فيها ولا التباس ، والناس من طبيعتهم أن يصفقوا لمن رفرف طير سعده ، فَـيُدهنوا له ويلتفوا حوله ، ويملقوا على مماشاته الآمال والأمانى .

كانت مصر والشام من جملة الأقطار[1] التى تحاول الانفصال عن المملكة البيزنطية ، شغل هرقل وشعبه بالمسائل الدينية والخلافات المذهبية ، ونزعت من النفوس الثقة به ، فهو إذا شفى أنفس الرهبان بالانتقام من اليهود ، وخان العهد الذى أعطاه لهم ، فشعبه يدرك باطناً أنه أسرع ما يكون إلى خيانتهم أيضاً ، متى تعارضت مصلحته الخاصة بمصالحهم ، أو توقفوا حيناً عن أداء الجبايات مثلاً ليصرفها فى حروبه ، وكلهم مستاءون من المظالم والمغـارم ، سئموا الغارات والغزوات ، وأصبحوا يتطلعون إلى دولة تنقذهم مما هم فيه من البلاء . وكانت هذه الدولة المنقذة دولة العرب الفتية القائمة وراء حدودهم ، تمدّ يدها القوية إليهم لتنعشهم من سقوطهم .

ومع كل هذا الضعف المستحوذ على العـالمين الفارسى والرومى كان فى الإمكان أن يبقى الفرس والروم أصحاب الـكلمة النافذة فى العالم قروناً ، لأنهم كانوا على فساد حكمهم ، واختلال التوازن بين الوازعين الدينى والمدنى فى ممالـكهم ، أصلح للبقاء من غيرهم ، لأن أهل فارس والروم فى معنى الخلل كانوا سواء وغيرهم ممن جاورهم من الحـكومات والقبائل ، لولا قيام العرب بذهنيـة جديدة ، وقوة خارقة ، وَقَرَت فى نفوس الـكبير والصغير منهم . وأدرك القاصى والدانى أن إليهم مرد السيادة ، وبأيديهم مقاليد الخير والسعادة .

---

(١) خطط الشام للمؤلف .

تساهل ملوك العرب وانتشار الإسلام :

كان النصارى والمجوس فى الفتح وبعده كلما رأوا تساهل العرب ومحاسنتهم زادوا ثقة بهم ، وإقبالا على دعوتهم ، ورجوا لأيامهم طول البقاء . رأوهم بعد استقرار حكومتهم لا يعارضونهم فى إقامة شعائر دينهم[(١)] ، وأن سلطانهم عليهم ناعم الملمس كثير المحاسنة ، يوفون بعهودهم لا يجورون ولا يخونون . رأوا أبا عبيدة ابن الجرّاح وهو أمير على الشام يقول : أيها الناس إنى امرؤ من قريش ، وما منكم أحد من أحمر ولا أسود يفضلنى بتقوى إلا وددت أنى فى مسلاخه[(٢)] . رأوهم يحافظون على النصارى واليهود ، ويرعون لهم عهدهم ، ويحافظون على بيعهم وكنائسهم ، فلئن[(٣)] أمر يزيد بن عبد الملك فى سنة ١٠٤ هـ بكسر الأصنام كلها ومحو التماثيل فى مصر ، فقد أذن موسى بن عيسى العباسى والى مصر من قبل الرشيد فى بنيان الكنائس التى هدمها على بن سليمان ، فبنيت كلها بمشورة الليث ابن سعد وعبد الله بن لهيعة من أخيار الأمة ، وقالا هو من عمارة البلاد ، واحتجا أن عامة الكنائس التى بمصر لم تبن إلا فى الإسلام ، فى زمن الصحابة والتابعين .

وما حاذر ملوك المسلمين فى القرون التالية إلا أن تنبعث من الديرة والكنائس أمور تفسد عليهم سياستهم ، ولذلك كانوا يراقبونها ، ولشدّة اعتمادهم على البطاركة كانوا يكلون إليهم أمور طوائفهم ، ويسألونهم عن كل ما يأتيه جماعتهم مما يخل بأمن . وكان لرئيس اليهود التحدّث فى كنائس اليهود المستمرة فى أيديهم من حين عقد الذمة ، وكان على بطريرك النصارى الملكانية النظر فى الكنائس والبيع ، وعليه أن يتفقدها فى كل وقت ويرفع مافيها من الشبهات ، ويحذر رهبان الديارات من جعلها مصيدة للمال . وأن يتجنبوا فيها الخلوة بالنساء ، ولا يؤوى إليها أحداً

(١) الإسلام خواطر وسوانح لهنرى دى كاسترى .

(٢) المسلاخ : الإهاب أى الجلد .

(٣) تاريخ الولاة والقضاة للكندى .

من الغرباء القادمين عليهم يكون في ريبة . ولا يكتم ما اطلع عليه من ذلك عن المسامع السلطانية ، ولا يخفي كتاباً يرد عليه من أحد الملوك ، أو يكتب له جواباً ، ويتجنب البحر وما يرد منه من مظان الريب . وكان يشترط على بطريرك اليعاقبة أن يتوقى ما يأتيه سراً من تلقاء الحبشة . وأمور الديرة والكنائس مردودة إلى البطريرك ، ينيب عنه فيها من يأتمنه السلطان لا غيره ، إذا وقع ما يخالف فيها . ومنح ملوك العرب للكنيسة الرومانية حريتها في مفاوضة الأساقفة في دار الإسلام ، وهم في أعظم أيام قدرتهم ، مع أن هذه الكنيسة كانت ترعى الدولة المنقطعة أكثر من رعايتها الدولة الخالفة . واستحكم الوئام بين المسلمين والنصارى حتى آثر هؤلاء أن يتحاكموا في اختلافاتهم الطائفية في المحاكم الإسلامية . وقد لام البابا غريغوريوس السابع أهل ملته على تقاضيهم مع أسقفهم في محكمة المسلمين .

وكان العرب لأول أمرهم في الأندلس إذا شجر خلاف بين مسلم ونصراني من الجند يعطى الحق غالباً للنصراني[1] . فنشأت وحدة وطنية بين الغالب والمغلوب . وعزم عبد الرحمن الثاني أن يجمع مجمعاً مقدساً من النصارى برياسة رئيس أساقفة إشبيلية لقمع عادية التعصب الإسباني ، لأن دعاة الدين من أهل النصرانية أخذوا يتناولون الإسلام بالإهانة علناً حتى يقتلوا في سبيل دعوتهم ، وتكتب لهم الشهادة بزعمهم .

بهذه المسالمة العظيمة[2] البادية في أعمال الغالب مع المغلوب دخل المجوس أفواجاً في الإسلام ، وضعفت النصرانية جداً ثم زالت من شمالي إفريقية ، ولم يكن للإسلام دعاة يدعون إليه وينشرون أحكامه على ما هو الحال في النصرانية ، ولو قام أناس بهذا العمل لانحل الإشكال في معرفة السبب في تقدمه الغريب . فقد رأينا شارلمان يستصحب أبداً معه في حروبه ركباً من القسيسين والرهبان يباشرون

(١) غرائب الغرب للمؤلف .
(٢) الإسلام لهنري دي كاستري .

فتح القلوب ، بعد أن يكون هو بدأ بفتح المدائن والأقاليم ، بجيوش يصلى بها الأمم حرباً عواناً ، وتجعل الولدان شيباً . بيد أننا لا نعلم للاسلام مجمعا دينياً ولا رسلاً ولا أحباراً يسيرون وراء الجيوش ، ولا رهبنة بعد الفتح ، فلم يكره أحداً عليه بالسيف ولا باللسان ، بل دخل القلوب عن رضا واختيار ، وهـذه نتيجة لا زمة لتأثيرات القرآن وأخذه بالألباب ، وإذا حدث أن دان دين الإسلام قوم مشوا وراء منافعهم ، فهم قلائل إلى جانب من أسلموا عن عقيدة صادقة وميل صحيح .

نعم « كانت الملوك[1] من غير المسلمين إذا فتحوا مملكة أتبعوا جيشها الظافر بجيش من الدعاة إلى دينها ، يلجون على الناس بيوتهم ، ويغشون مجالسهم ، ليحملوهم على دين الظافر ، وبرهانهم الغلبة ، وحجتهم القوة ، ولم يقع ذلك لفاتح من المسلمين ، ولم يعهد فى تاريخ فتوح الإسلام أن كان له دعاة معروفون لهم وظيفة ممتازة ، يأخذون على أنفسهم العمل فى نشره ، ويقفون مسعاهم على بث عقائده بين غير المسلمين ، بل كان المسلمون يكتفون بمخالطة من عداهم ، ومحاسنتهم فى المعاملة ، وشهد العالم بأسره أن الإسلام كان يعدّ مجاملة المغلوبين فضلاً وإحساناً ، عند ما كان يعدها الأوربيون ضعة وضعفا .

« رفع الإسلام ما ثقل من الإتاوات ، ورد الأموال المساوبة إلى أربابها ، وانتزع الحقوق من مغتصبيها ، ووضع المساواة فى الحق عنـد التقاضى بين المسلم وغير المسلم . بلغ أمر المسلمين فيما بعد أن لا يقبل إسلام من داخل فيه إلا بين يدى قاض شرعى باقرار من المسلم الجديد أنه أسلم بلا إكراه ولا رغبة فى دنيا .. عرف خلفاء المسلمين وملوكهم فى كل زمان ما لبعض أهل الكتاب بل وغيرهم من المهارة فى كثير من الأعمال ، فاستخدموهم وصعدوا بهم إلى أعلى المناصب ، حتى كان منهم من تولى قيادة الجيش فى إسبانيا . اشتهرت حرية الأديان حتى هجر اليهود أوربا فراراً منها بدينهم إلى بلاد الأندلس وغيرها » .

---

(١) رسالة التوحيد لمحمد عبده .

« هذا ما كان من أمر المسلمين فى معاملتهم لمن أظلوهم بسيوفهم ، لم يفعلوا شيئاً سوى أنهم حملوا إلى أولئك الأقوام كتاب الله وشريعته ، وألقوا ذلك بين أيديهم وتركوا الخيار لهم فى القبول وعدمه ، ولم يقوموا بينهم[١] بدعوة ، ولم يستعملوا لإكراههم عليه شيئاً من القوة ، وما كان من الجزية لم يكن مما يثقل أداؤه على من ضربت عليه ، فما الذى أقبل بأهل الأديان المختلفة على الإسلام وأقنعهم أنه الحق دون ما كان لديهم ، حتى دخلوا فيه أفواجاً ، وبذلوا فى خدمته ما لم يبذله العرب أنفسهم ؟ » .

معاملة اليهود والنصارى والعناية بالنصارى خاصة :

مثال آخر من هذه المساحة . كان بين المغانم التى غنمها المسلمون فى وقعة خيبر صحائف متعددة من التوراة ، فلما جاء اليهود يطلبونها أمر النبى بتسليمها لهم ، فأخذ اليهود[٢] يشيرون إلى الرسول بالبنان ويحفظون له هذه اليد « لأنه لم يتعرض لصحفهم المقدسة ، ويذكرون بإزاء ذلك ما فعله الرومان حين تغلبوا على أورشليم وفتحوها سنة ٧٠ ب م . إذ حرقوا الكتب المقدسة وداسوها بأرجلهم ، وما فعله المتعصبون من النصارى فى حروب اضطهاد اليهود فى الأندلس ، وقد أحرقوا أيضاً صحف التوراة . هـذا هو البون الشاسع بين الفاتحين ممن ذكرناهم وبين رسول الإسلام » .

(١) أجمع الباحثون علي أن الإسلام دخل ولا يزال يدخل إلى أصقاع من إفريقية وآسيا بواسطة التجار كأن هواء هاتين القارتين مستعد لقبول هذا الدين أكثر من أى دين سواه ، تقوم بالدعوة إليه جمعيات تبشير منظمة غنية تحميها دول كبرى ، فقد ذكروا أن دعاة الكثلكة فى إفريقية فقط بلغوا مئات ينقسمون إلى خمسين جنسية بحسب عناصرهم ، وفيهم ١٣٣ ألمانياً و ١٠ أمريكان و ٩٩ انجليزياً و١٢ نمساوياً و ٣٨٥ بلجيكياً و ٥٠ كندياً و ٨٣ أسبانياً و ٩٤٠ إفرنسياً و ٢٠٩ هولانديين و ٢١٥ إيطاليا و ٤٣٧ برتقالياً . هذا عدا دعاة التبشير بالبروتستانتية من المرسلين . (مجلة لاروس الشهرية سنة ١٩٣٣
(Larousse mensuel illustré 1933

(٢) تاريخ اليهود فى بلاد العرب لإسرائيل ولفنسون .

ولو لم يشتط اليهود فى الحجاز بالنيل من المسلمين ، لما طالت إليهم يد مسلم بأذى ، ولكان حظهم من ذمة العرب حظ سكان نجران من نصارى اليمن ، فقد صالحهم الرسول سنة عشر صلحاً على الفيء وعلى أن يتقاسموا العشر ونصف العشر ، وجاء فى كتاب الصلح « ولا يفتن أسقف عن أسقفيته ولا راهب عن رهبانيته » واشترط عليهم أن لا يأكلوا الربا ، فعاشوا بسلام ما حافظوا على العهد ، فلما استخلف عمر بن الخطاب أصابوا الربا فأجلاهم ، واشترى منهم أرضهم ووصى بهم أهل الشام والعراق ، ليوسعوهم من حرث الأرض ، وما اعتملوا من شيء فهو لهم مكان أرضهم باليمن ، ويقول المؤرخون إن أهل نجران كانوا قد بلغوا أربعين ألفاً فتحاسدوا بينهم ، فأتوا عمر بن الخطاب فقالوا أجلنا ، فاغتنمها فأجلاهم ، فندموا بعد ذلك . نعم إن عمر[1] لم يُرهب فارس والروم بفرش الديباج ، وبسط الحرير ، وكئوس الجواهر ، والخيول المسومة ، والبيوت الشاهقة ، والأقواس المذهبة ، إنما أرهبهم بالعدل المحض ، وأفحم شوس رجالهم بالحكمة البالغة ، ألا وهى شريعة سيد الحكماء . ويقول أبو عبيد[2] : إن الرسول قال لأخرجن اليهود والنصارى عن جزيرة العرب حتى لا أدع فيها إلا مسلما . بيد أن نصارى نجران رأوا كل رعاية لأنهم راعوا العهد فى الجملة ، ولم يعبثوا بأمر الأمة القائمة ، وكانوا أول من أعطى الجزية من أهل الكتاب . وفى التنزيل : « لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ، ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ، ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون » .

جزاء ثقة ثقة مثلها ، وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان ، وأعظم بثقة صاحب الشريعة بأناس كانوا بالأمس يقاتلونه كأبى سفيان ، وعمرو بن العاص ، وخالد بن الوليد حتى إذا أسلموا[3] جبّ الإسلام ما قبله ونسيت الأحقاد والطوائل ، ولم يلبثوا

(١) عصر المأمون لأحمد فريد الرفاعى .
(٢) كتاب الأموال لأبى عبيد القاسم بن سلام .
(٣) جب : قطع .

أن غدوا أصحاب الشأن فى السلطان ، يرجع إلى آرائهم فى المهمات ، وتوسد إليهم الأعمال العظام ، وكيف لا يجيء من مثل هؤلاء الرجال خيرة الخلفاء والقواد والأمراء ، وقد أولى الخلفاء ثقتهم لمن دخلوا من غير العرب فى طاعة خليفة العرب ، وإن ظلوا على تمسكهم بدينهم القديم . وبدأ معاوية بن أبي سفيان ، فعهد إلى بعض نصارى الشام بإدارة أمواله وديوانه ، وكان لعمر بن الخطاب عبد نصرانى اقترح عليه أن يسلم حتى يستعين به على بعض أمور المسلمين قائلا : إنه لا ينبغى أن نستعين على أمورهم من ليس منهم ، فلما أبى أعتقه وقال له : اذهب حيث شئت .

ولطالما اعتمد الخلفاء والأمراء منذ القرن الثانى على عمال لهم من الصابئة والنصارى واليهود ، وتولى كثير من النصارى قيادة جيوش المسلمين فى بغداد والأندلس . قال على بن عيسى[1] من وزراء العباسيين لأبى الحسن بن الفرات الوزير : ما اتقيت الله فى تقليدك جيوش المسلمين رجلا نصرانيا . وجعلت أنصار الدين وحماة البيضة يقبلون يده ويمتثلون أمره ! فقال له : ما هذا شىء ابتدأته ولا ابتدعته ، وقد كان الناصر لدين الله[2] قلد الجيش إسرائيل النصرانى كاتبه ، وقلد المعتضد بالله مالك بن الوليد النصرانى كاتب بدر ذلك . فقال على بن عيسى : ما فعلا صوابا . فقال : حسبى الأسوة بهما وإن أخطأا على زعمك . هذا وقد رسم ابن الفرات فى وزارته الثانية أن يدعى كل يوم جماعة من فضلاء القوم إلى طعامه ، ويقعدوا إلى جانبه وبين يديه ، بينهم أبو بشر عبد الله بن الفرخان النصرانى ، وأبو منصور عبد الله بن جبير النصرانى ، وأبو عمرو سعيد بن الفرخان النصرانى . قال ويات[3] : ولقد أصدر الخليفة أمره عام ٩٧٥ (٣٦٥ هـ) بوجوب المساواة بين النصارى والمسلمين ، وهى ظاهرة من ظواهر التسامح لم تستطع أوربا أن تعمل بها إلا بعد عدة قرون .

(١) تاريخ الوزراء لهلال الصابى .

(٢) الغالب أنه المستنصر بالله أما الناصر فكان بعد ذلك بزمن طويل .

(٣) من مقالة لفاستون ويات نشرت فى جريدة البلاغ بمصر فى العدد ٣٠٧٨ (٢١ ذى الحجة ١٣٥١) .

و «السيد» المشهور فى تاريخ إسبانيا كان نصرانياً خدم الخلائف فى الأندلس ، وكان هذا شأن مئات مثله فى حكومة الأندلسيين والعباسيين يستخدمون فيخلصون ، ولا من ينكر عليهم ، ولا على من يقربهم ، ومثل هذه الثقة يدرك العاقلون مقدارها فيبادلونها بثقة مثلها . أليس هذا غريبا فى دولة كان للدين فيها المحل الأول ؟ أليس من الغريب أن يجعل العرب من أبناء ذمتهم أصحاب الأديان السماوية موضع ثقتهم ؟ ثم إنهم ما ارتكبوا مع الهندوس وغيرهم من وثنيى الهند وعبدة النيران فيها عسفاً ولا خسفاً ، ولما فتحوا بنارس مدينة الهنود المقدسة وكان سواد أهلها من البراهمة ، أحسنوا معاملتهم وراعوا شعورهم .

ولا بدع أن يمتد سلطان المسلمين بسياستهم الرشيدة من نهر التاج فى إسبانيا والبرتقال إلى نهر الكنج نهر الهند الأعظم ، ولا عجب أن رأينا الوفاق على أتم حالاته بين الحاكم والمحكوم ، وبين الأديان المختلفة ، وبين الأقلية والأكثرية ، وعجيب أن هذه الأقلية ما احتاجت إلى من يحميها ويرعى مصالحها ، بل كان راعيها وراعى غيرها سلطان العرب العادل ، وما شوهد مع هذا أن غدا وطن الغالب وطنا للمغلوب . لأن النفوس جبلت على حب من أحسن إليها . وما كان للفرس فى الشرق ولا للروم فى الغرب دولة قادرة كالعرب يفزعون إليها لتحميهم ويكونون فى ظلها أسعد مما هم فى دولة العرب .

أثر علوم العرب فى الغرب

المنصفون والشعوبيون فى تقدير الحضارة العربية :

فى كُتاب الغربيين أناس يحاولون إلى اليوم أن يقللوا من خدمة العرب للحضارة فمنهم من يزعم أن العرب نقلوا عن القدماء وحرفوا ما نقلوا ، ومنهم من يدعى بصورة مجملة أن هذه المدنية التى أبدعها العرب لا تستحق هذه العناية ، وأن اليونان والرومان هم أساتذة الغربيين وحدهم . والعرب لا فضل لهم عليهم فى شىء ، ومنهم من يحاول أن يصغّر ، ما وسعته المماحكة ، من تأثيرات مدنية العرب ، فيقول إنهم أتقنوا أصنافاً[1] من العلم لا تحتاج إلى تفكير كالتاريخ والجغرافيا ، وأنهم سقطوا فى الكتب السريانية على مواد وافرة فاقتبسوها ، دون أن يكون لهم فى باب النقد كبير أمر ، مدعين أن العربى عاجز عن استخراج شىء من عنده ، وأنه نقل واحتذى وقلد وغيّر الصور ، وأنه لم يعرف الشعر القصصى ولا الشعر التمثيلى ، لأنهما يتطلبان اختراعاً تجرد العرب منه ، وأن الإسلام الذى هو عصارة العقل العربى قد فلج الأفكار .

هذه بعض منازع الشعوبيين خصوم العرب من الإفرنج ، الجاهلين أقدارهم ، العاملين على الحط من مدنيتهم ، فاستمعوا لما يقوله المنصفون ، فقد قال درابر[2] : « من موجب الأسف أن الأدب الأوربى حاول أن ينسينا واجباتنا العلمية نحو المسلمين ، فقد حان الوقت الذى ينبغى لنا أن نعرفهم ، إن قلة الإنصاف المبنية

(١) الإسلام ونفس المسلم لسرفيه .
Servier : L'Islam et la psychologie du Musulman.

(٢) تاريخ الارتقاء العقلى فى أوربا .

على الأحقاد الدينية ، وعلى العنجهية القومية ، لا تدوم أبد الدهر » . وفي التاريخ العام[١] : « إذا وجب أن يذكر لكل واحد قسطه من العمل ، لا يسع المنصف أن ينكر أن قسط العرب منه كان أعظم من قسط غيرهم ، فلم يكونوا واسطة نقلت إلى الشعوب الجاهلة في إفريقية وآسيا وأوربا اللاتينية معارف الشرق الأدنى والأقصى وصناعاته واختراعاته ، بل أحسنوا استخدام المواد المبعثرة التي كانوا يلتقطونها من كل مكان ، ومن مجموع هذه المواد المختلفة التي صبت فتمازجت تمازجاً متجانساً ، أبدعوا مدنية حية مطبوعة بطابع قرائحهم وعقولهم ، وهي ذات وحدة خاصة وصفات فائقة » .

وقال أحد علماء الإنجليز[٢] من المعاصرين : لم يتمكن أهل أسبانيا من أن يحولوا دون تغلغل النفوذ الإسلامي في صميم حياتهم ، حتى إن ممالك إسبانيا النصرانية استعملت النقود الإسلامية أربعة قرون . واستحضر كثير من ملوك قشتالة وأرجون جماً غفيراً من علماء المسلمين واليهود ، وقدموهم في مجالسهم ، ورفعوا من أقدارهم ، كما استخدم كثير من ملوكهم مهندسين وبنائين من أهل الإسلام ، وفتحوا أبواب مجالسهم لكثير من الموسيقاريين والشعراء منهم للتلذذ بطيب أنغامهم وحلو حديثهم ، ومات روح التسامح هذا بالقضاء على الإسلام في إسبانيا ، وحل محله روح خبيث ملؤه التعصب الأعمى الذي أشعل ناره القساوسة الكاثوليك لتصبح إسبانيا أسيرة رقهم وعبوديتهم .

وكان المسلمون في الأندلس يفضلون أبداً أن تكون أمهات أولادهم من الأسر النصرانية العريقة في المجد والحسب ، فأخذ الدم العربي بطبيعة الحال يقل في عروقهم مع مرور الزمن ، ولذلك كان من الخطأ أن نقول إن كل مسلمي إسبانيا عرب ، أو أن كل نصاراها رومانيون أو قوط . كانت اللغة العربية في إسبانيا اللغة الرسمية ،

(١) التاريخ العام للافيس ورامبو . Lavisse et Rambaud : Histoire générale.

(٢) من مقالات عربها عن الإنجليزية مأمون عبد السلام وسماها تراث الإسلام أو أثر الإسلام في المدنية الحديثة ، نشرت في جريدة البلاغ المصرية في ١٤ من ربيع الثاني ١٣٥٣ وما بعده .

ولغة الرومان لغة دارجة يتكلم بها الجميع ، العرب والمستعربون ، وهى عامة فى جماع طبقات قرطبة حتى فى المحاكم ، وفى القصور الملكية ؛ فالفصحى لغة العلماء والأدباء ، والعامية لغة الحكومة والإدارة ، وهناك لغة رومانية اشتقت من اللاتينية وهى التى تولدت منها اللغة الإسبانية .

ومما زاد فى انتشار الحضارة الإسلامية فى الأقطار الإسبانية الشمالية النصرانية ، ومنها انتشرت فى أرجاء أوربا ، هجرة المستعمرين ، فرارا من الاضطهاد الذى لحقهم ، على عهد دولتى البربر المرابطين والموحدين ، خصوصاً فى الدور الذى انقضى بين سنة ١٠٩٠ و سنة ١١٤٤ م . وهذه أول مرة فى تاريخ الأندلس نشأ فيها تعصب دينى ، وقد جاء به ملوك البربر من الجنوب وقساوسة الكاثوليك من الشمال .

وما كاد القرن العاشر الميلادى يتبلج حتى كانت المدنية الإسلامية قد انتشرت فى إسبانيا كلها ، فى الولايات الإسلامية والنصرانية سواء . ولما سقطت مدينة طليطلة فى حكم الممالك النصرانية ، انتشرت حضارة الاسلام فى عامة أصقاع أوربا . وخلفت طليطلة مدينة قرطبة فى التفرد بالحضارة والعلوم ، واحتفظت بمكانتها إلى ما بعد سقوطها فى أيدى الإفرنج فى سنة ١٠٨٥ .

كان بلاط الملك الفونسو السادس متشبعاً بالمدنية الإسلامية ، على نحو ما كان بلاط فرديناند الثانى فى بلرم فى القرن الثالث عشر ، حتى لقد لقب الفونسو نفسه بإمبراطور الديانتين . وكان الطلبة يؤمون مدارس طليطلة من كل ممالك أوربا ، حتى من انجلترا واسكتلندا . ومن أعظم ما خلفه مسلمو إسبانيا للمدنية الغربية ما كتبه فلاسفة المسلمين ، وعلى ما كانت عليه دولتا المرابطين والموحدين من التعصب ، لم تتعرضا للفلاسفة بل شجعتاهم ، ولكن على أن لا ينشروا تعاليمهم بين الناس ، ولم يظهر أعاظم المفكرين فى المسلمين فى عصر خلفاء قرطبة الزاهر ، بل ظهروا فى عصر الفوضى والاضمحلال السياسى . وكان هؤلاء الفلاسفة همزة الوصل فى نقل فلسفة أرسطو إلى الغرب ، وكان الإنجليزى أو الاسكتلندى يضطر

إذا أراد أن يدرس الفلسفة اليونانية أن يرحل إلى طليطلة ليدرسها باللغة العربية على شيوخ المسلمين . كان الفونسو التاسع ملك قشتالة وليون (١٢٥٢ — ١٢٨٤م) أعظم علماء النصرانية فى إسبانيا ، استدعى كثيراً من اليهود ليترجموا له الكتب العربية ، وكتب بنفسه شيئاً كثيراً من النثر الإسبانى تجلى فيه الروح العربى .

ويقول رينو[1] : إن المسلمين فى مدن الأندلس ، كانوا يعاملون النصارى بالحسنى . كما أن النصارى كانوا يراعون شعور المسلمين ، فيختتنون أولادهم ، ولا يأكلون الخنزير . وقال إن النهضة الحقيقية فى أوربا لم تبدأ إلا منذ القرن الثانى عشر ، أى منذ زحف أهل الغرب لقتال أهل الشرق ، ووقفت النصرانية والإسلام وجها لوجه ، فوقع الاحتكاك بين المسلمين والنصارى ، وأفاق الفرنسيون والإنجليز والألمان من رقدتهم ، ونفضوا عنهم غبار الخمول ، ووجدوا ضرورة الاشتراك فى المدنية الإسلامية ، وكان علم اللغة اليونانية قد درس وصار العلم اليونانى غير معروف إلا عند العرب ، فأخذ النصارى من فرنسا وجوارها يؤمون إسبانيا لأجل ترجمة التآليف العربية المنقولة عن اليونان .

قال وبالجملة فقد كان العرب لذلك العهد هم الأمثلة العليا والأقيسة البديعة فى الشجاعة والشهامة وعزة النفس ومكارم الأخلاق والعفو عند المقدرة وقرى الضيف ، تشهد بذلك وقائع ونوادر كثيرة ؛ منها ما رواه بعض مؤرخى الأسبانيول من أنه فى سنة ٨٩٠ أراد ملك أشتورية أذفونس الكبير أن ينتدب مؤدباً لابنه وولى عهده فاستدعى اثنين من مسلمى قرطبة حرصاً على تهذيبه ، إذ لم يجد فى النصارى إذ ذاك كفؤاً لهذه المهمة .

هذا مثال من أقوال بعض المنصفين فى المدنية العربية ، وهناك فئات غير قليلة تتابعهم على آرائهم . أما ذاك الشعوبى فيحاول أن لا يجعل للعرب مزية لاشتغالهم بالتاريخ والجغرافيا ، لأنهما علمان لا يحتاجان إلى تفكير بزعمه السخيف . وقبله

(١) « تاريخ غزوات العرب » لرينو .

أعجب كثير من علماء المشرقيات الذين تفهموا هذه الحضارة من كتبها ، وأكبروا عمل المقدسي وابن حوقل وياقوت والمسعودي والطبري وابن الأثير والإدريسي وابن خرداذبه والبلاذري واليعقوبي والخوارزمي وابن الفقيه وابن رسته وابن فضلان وقدامة والبلخي والبيروني والبكري وشيخ الربوة وأبي الفداء وابن جبير وابن سعيد وابن سعد وابن فضل الله وابن أبي أصيبعة وابن القفطي وابن خلكان والصفدي وابن الخطيب وابن بسام وابن عساكر وابن طباطبا وابن بشكوال إلى عشرات غيرهم كتبوا في هذين العلمين وكتبهم موجودة مطبوعة لا تحتاج إلا لمن يقرؤها ، واستفاد منها الغربيون فوائد جلى ونوهوا بها في كل فرصة(١) . وما نظن أمم أوربا كلها أخرجت في فن التاريخ حتى اليوم كثيراً من عيار ابن خلدون واضع فلسفة التاريخ وعلم الاجتماع .

يقول جوتيه : إن الشريف الإدريسي الجغرافي كان أستاذ الجغرافيا الذي علم أوربا هذا العلم لا بطلميوس ، ودام معلما لها مدة ثلاثة قرون ، ولم يكن لأوربا مصور للعالم إلا ما رسمه الإدريسي ، وهو خلاصة علوم العرب في هذا الفن . ولم يقع الإدريسي في الأغلاط التي وقع فيها بطلميوس في هذا الباب . قال : من دار حول إفريقية ؟ فاسكودي جاما . ومن كشف أميركا ؟ خريستوف كولمبس . ومن السهل أن يدرك أن هذين الكشفين اللذين فاقا جميع ما تقدمهما قد تما على أيدي بحارة من العرب . وكان تحقيقهما متعذرا بدون ارتقاء علم الجغرافيا عند العرب . وتم هذان الكشفان العظيمان بعقول العرب وموادهم وأشخاصهم ، تحت إمرة النصارى .

وقال سارتيو(٢) : إن ما أتت به الحضارة الإسلامية في باب العلم ، ولا سيما العلوم وتطبيقها أعظم بكثير مما أتت به في هذه السبيل مملكة بيزنطية ؛ وفي الواقع أن تلك الحضارة لم تأت بفكر جديد ، وبحق ما قال دوهم : « ليس هناك شيء يسوغ أن يدعى العلم العربي » ، بيد أن الحضارة الإسلامية أكملت الطرق العلمية ، وأغنت

(١) أدبيات الجغرافيا والتاريخ واللغة عند العرب لجويدي .

(٢) الحضارة لسارتيو Sartioux : La civilisation .

بأبحاثها جميع فروع العلم اليونانى من جبر وحساب مثلثات وفلك ومساحة ومعادن وطبيعة وكيمياء وطب وأقرباذين ، وأقامت مراصد فلكية ومخابر وخزائن كتب ونشأ بها شخصيات عظيمة سامية من شعراء ومؤرخين وفلاسفة ، وكان لما نقلته من العلوم عن السريانية واليونانية ، ثم نقل إلى اللاتينية أعظم أثر معين قاطع وسريع ، خلافا لما كان من المدنية البيزنطية ، وعلى هذا كانت حضارة الإسلام محطة مهمة فى التمدين بين العالم اليونانى الشرقى وأوربا فى القرون الوسطى .

الفنون التى اهتمت العرب بها :

أما الشعر القصصى والتمثيلى فلم يزاولها العرب لأنهم أصحاب بديهة وارتجال[1] ، وقد شغلوا بأنفسهم عن النظر فيما عداهم ، وهم أشد الناس اختصارا للقول ، والشعر القصصى يحتاج إلى التطويل والتحليل ، وحرمتهم طبيعة أرضهم ، وبساطة دينهم وضيق خيالهم واعتقادهم بوحدانية إلههم — كثرة الأساطير ، وهى من أغزر مواد الشعر القصصى ، فزخرت بحور الشعر العربى بالفخر والحماسة والمدح والهجاء والرثاء والعتاب والغزل والوصف والاعتذار والحكمة ، وخلا مع اتساعه وتشعب أغراضه من الملاحم[2] المطولة التى تعلن المفاخر القومية ، وتشيد بذكر الأبطال والفروسية كالإلياذة لليونان ، والانبياد للرومان ، ومهابهاراته للهنود ، والشاهنامه للفرس .

وإذا عُير العرب بفقد خيالهم ، فقد اشتغلوا بعلوم أنفع لهم ولمجتمعهم من الشعر القصصى والتمثيلى . اشتغلوا بعلم الفلك حتى قال دلامبر فى تاريخ هـذا العلم : إننا إذا أحصينا راصدين أو ثلاثة من الروم رحنا نعد كثيرين من العرب فى هذا الفن ، مما دل على بعد غورهم فى علم الأفلاك . وقال بيكوردين : نشأ توسع علم الفلك عند العرب من توسع الرياضيين منهم فى الحساب ، لأنهم اخترعوا أساس حساب

(١) تاريخ الأدب العربى لأحمد حسن الزيات .
(٢) راجع فى مدخل الشاهنامه للفردوسى مبحثا فى الملاحم لعبد الوهاب عزام .

المثلثات . وحققوا طول محيط الأرض ، بما كان لهم من الأدوات ، وأخذوا ارتفاع القطب ودور كرة الأرض المحيطة بالبر والبحر ، وحققوا طول البحر المتوسط الذي قدره بطلميوس بـ ١٢ درجة ، فأرجعوه إلى ٥٤ أولا ثم إلى ٤٢ أي إلى الصحيح من مقداره تقريباً . وجمع المأمون بعض حكماء عصره على صنعة الصورة التي نُسبت إليه ، صوروا فيها العالم بأفلاكه ونجومه وبره وبحره وعامره وغامره ، ومساكن الأمم والمدن إلى غير ذلك ، وهي أحسن مما تقدمها من جغرافية بطلميوس وجغرافية مارينوس . هذا إلى عنايته بالفلك . وفلكيُّه الفزاري أول من استعمل الاسطرلاب من العرب ، وأقاموا المراصد الفلكية في بغداد والرقة ودمشق والقاهرة وسمرقند وقرطبة وفاس ، ونظروا في المجسطي لبطلميوس في الفلك ، وعملوا جداول فلكية مدققة .

اكتشف العرب منابع النيل قبل أن يتصدى الإفرنج لها[1] ، وقام في أذهانهم أن في الأرض أقطارا لم تعرف ، حتى قال أحد عارفيهم قبل كولمبس بقرن ونصف : « لا أمنع أن يكون ما انكشف عنه الماء من الأرض من جهتنا منكشفاً من الجهة الأخرى ، وإذا لم أمنع أن يكون منكشفاً من تلك الجهة لا أمنع أن يكون به من الحيوان والنبات والمعادن مثل ما عندنا أو من أنواع وأجناس أخرى » . وسبقت العرب[2] إلى اختراع طريقة الكتابة بالحروف البارزة الخاصة بالعميان اخترعها زين الدين الآمدي ٧١٢ هـ (١٣١٢ م) وكان فقد بصره في أول عمره ، فكان كلما اشترى كتاباً لخزانة كتبه لف ورقة على شكل حرف من الحروف وألصقها في الكتاب ، وكانت هذه الحروف هي التي يستعين بها على معرفة ثمن الكتاب ؛ وقبله كان أبو الفرج بن أبي الفتح كشاجم يقرأ نقش فص الخاتم باللمس خاصة دون الرؤية . وكان العميان يؤلفون ، ومنهم ابن سيده المرسي صاحب المخصص والمحكم

(١) « مسالك الأبصار » لابن فضل الله العمري .

(٢) من مقالتين لأحمد تيمور وأحمد زكي في مجلة المقتبس م ٦

ومثله عشرات فى الأمة على ماذكر ذلك الصفدى[١]، ومنهم من كان يطبّ على القارورة فيصفون له داء المريض فيصف له الدواء »، مثل ابن الحناط الكفيف الأندلسى[٢].

وسبقت العرب الأوربيين إلى الطيران، وقد حاوله عباس بن فرناس حكيم الأندلس وهو أول من استنبط صناعة الزجاج من الحجارة، وأول من فك الموسيقى ووضع الآلة المعروفة بالمثقال ليعرف بها الأوقات على غير مثال، ومثّل فى بيته السماء بنجومها وغيومها وبروقها ورعودها تمثيلا يخيّل للناظر أنه حقيقة. وكادوا يعرفون فى الأندلس الجراثيم، وكانت وقايتهم من الأمراض تكاد تشبه وقاية أهل العصور الحديثة، على ماذكر ذلك ابن خاتمة فى رسالته فى الوباء[٣]، وسبقوا إلى معرفة مرض النوم وسموه النُّوام وشرحوا أعراضه، وسبق العرب إلى معرفة الطباعة فألف أبو بكر القدسى الأندلسى كتاباً فى الخواص وصنعة الأمدّة وآلة الطبع غريب فى معناه[٤]، وكان عبد الرحمن بن بدر من وزراء الناصر ومن أهل المائة الرابعة « يتفرد بالولايات فتكتب السجلات فى داره، ثم يبعثها للطبع فتطبع، وتخرج إليه فتبعث فى العمال وينفذون على يديه » أى أن الأندلسيين عرفوا الطبع لا بالحروف قبل مخترعه المشهور جوتنبرغ الألمانى بأربعمائة سنة. ولو اطرد سير العرب فى الطباعة لأتقنوها، ولكان فضل هذه المدنية على العالم أضعافاً مضاعفة، ولما فقدت على الأقل معظم الأسفار التى خطتها أيدى العرب فى العلوم المختلفة التى كانت تضمها دور الحكمة فى بغداد وقرطبة والقيروان.

قال جوتييه: وللعرب فى باب الاختراعات شىء لا بأس به بالنسبة لعصورهم، وقد وجد فى كتاب عربى قديم، لم ينقل إلى اللغات الأوربية، أن العرب عرفوا طريقة عمل الجليد الصناعى، ولم تعرف أوربا سر هذه الصناعة إلا فى النصف الأول

(١) نكت الهميان فى نكت العميان للصلاح الصفدى . (٢) مجلة المقتبس م ١
(٣) بحث للمؤلف فى رأى ابن خاتمة فى الوباء نشر فى المجلد الـ ٢٨ من مجلة المقتطف .
(٤) الاحاطة للسان الدين بن الخطيب .

من القرن السادس عشر . وأدخلوا على أوربا الورق المعمول من القطن والورق الرخيص الثمن . وكان الناس من قبل يكتبون على البردى وهو غال جداً ، وكانت معامل شاطبة فى إسبانيا تصدر بضاعة الورق إلى أوربا الغربية ، بينا كانت أوربا الشرقية تبتاع ورقها من بلاد الشرق الأدنى مباشرة ، على مايشهد لذلك اسم الورق الدمشقى « شارتا داماسينا » . وصنع الورق من الحرير فى سنة ٦٥٠ م فى سمرقند وبخارى ثم استبدل يوسف بن عمرو سنة ٧٠٦م الحرير بالقطن ومنه الورق الدمشقى الذى ذكره مؤرخو اليونان . قال جوتيه : إن العرب علمونا صنع الكتاب وعمل البارود وإبرة السفينة ، فعلينا أن نفكر ماذا كانت نهضتنا لو لم يكن من ورائها هذه المخلفات التى وصلتنا من المدنية العربية ؟ .

عرفت العرب آلة الظل والمرايا المحرقة بالدوائر والمرايا المحرقة بالمقطوع ، وقطعوا شوطاً كبيراً فى الميكانيكيات . ولما بعث الرشيد العباسى إلى شارلمان الساعة الدقاقة الكبيرة تعجب منها أهل ديوانه ولم يستطيعوا أن يعرفوا كيفية تركيب آلاتها على ما حقق ذلك سيديليو[1] . ومع ذلك لم يكن فى عصر العباسيين أهم من مهنة الفلاحة . فقد أظهر العرب بمهارتهم مزايا فواكه الفرس وأزهار إقليم مازندران ؛ وقد أغنوا[2] العلم ولاسيا علم النبات بمسائل جديدة كثيرة ، ومعظم المستحضرات والأدوية المستعملة كالأشربة والدهون والمراهم والغول (الألكحول) واللعوق والسنامكى والراوند والخيار شنبر وجوز القيء هم الذين كشفوها ، واستلزمت أصول تداويهم أن يعمدوا إلى استعمال الفتائل وإلى الحجامة فى أمراض الصرع ، واستعمال الماء البارد فى الحمى الدائمة . واتخذ جراحوهم تفتيت حصاة المثانة وقدح العين ، واستخرجوا منها الجريم العدسى الشفاف ، ويظهر أنهم عرفوا البنج ، وفى التاريخ العام : وكل هذا المجد فى الطب العربى إن لم يبد لنا بأنهم كانوا فيه

(١) تاريخ العرب لسيديليو .

(٢) التاريخ العام للافيس ورامبو .

أرباب نظريات دقيقة ، فهم على الأقل أرباب ملاحظة عاقلة ، وأرباب تجارب حاذقة وأطباء عمل على غاية من المهارة . وكان الرازى وابن جابر أول من وضع أساس الكيمياء الحديثة ، وحاولا كشف الإكسير الذى يهب الحياة ويعيد الشباب ، وكانا يذهبان إلى معرفة حجر الفلاسفة الذى يحول المعادن إلى الذهب . ولم تذهب هذه الأبحاث الوهمية سدى ، لأنهم عرفوا بها التقطير والتصعيد والتجميد والتحليل ، وكشفوا الغَوْل من المواد السكرية والنشوية الخاثرة .

ومضى دهر طويل كان فيه شعوب المملكة العربية أول العارفين بالزراعة ، وأحسن العمال وأجرأ التجار فى العالم القديم ، وأصبحت الزراعة التى أخذوها عن أساليب بابل والشام ومصر علماً حقيقياً للعرب . أخذوا نظرياتها من الكتب ، ثم وسموها بتدقيقاتهم وتجاربهم ، وكانوا يطبقونها بمهارة ليس بعدها مهارة ، وكان رجال الطبقة الأولى منهم لا يستنكفون عن العمل بأيديهم فى زراعة الأرض ، بينا كان غيرهم يحتقرها ويعدها عملاً مهيناً .

ونهض العرب فى فارس والأندلس وصقلية وإفريقية لاستثمار المعادن يستخرجونها من مناجمها ، ويحسنون تطريقها والانتفاع بها . واستخرج الأندلسيون من مناجمهم الزئبق والتوتيا والحديد والرصاص والفضة والذهب ، وأخرج الصقليون جميع ما حوت جزيرتهم من معادن ومنها الفضة والذهب . واستثمر العرب المناجم التى صارت ملكاً لهم فى بلادهم فى الشرق والغرب ، واستخرجوا الحديد فى خراسان والرصاص فى كرمان والقار والنفط وطينة الأوانى الصينية ورخام طوريس والملح الأندرانى والكبريت .

ما كشفه العرب واخترعوه وأقوال أساطين علماء الغرب :

قال درابر : « ومن عادة العرب أن يراقبوا ويمتحنوا ، وقد حسبوا الهندسة والعلوم الرياضية وسائط للقياس ، ومما تجدر ملاحظته أنهم لم يستندوا فيما كتبوه فى الميكانيكيات والسائلات والبصريات على مجرّد النظر ، بل اعتمدوا على المراقبة

والامتحان ، بما كان لديهم من الآلات ، وذلك ماهيأ لهم سبيل ابتداع الكيمياء ، وقادهم لاختراع أدوات التصفية والتبخير ورفع الأثقال ، ودعاهم إلى استعمال الربع والاصطرلاب فى علم الهيئة ، واستخدام الموازنة فى الكيمياء ، مما خصوا به دون سواهم ، وهيأ لهم صنع جداول للجاذبية النوعية وعلم الهيئة على نحو ما صنع من مثلها فى بغداد والأندلس وسمرقند ، ففتح لهم بذلك باب تحسين عظيم فى قضايا الهندسة وحساب المثلثات واختراع الجبر واستعمال الأرقام فى الحساب . وكان هذا كله من نتائج استعمالهم طريقة الاستدلال والامتحان ، ولم يقرروا فى علم الهيئة لوائح فقط ، بل رسموا خرائط النجوم المنظورة فى فلكهم أيضاً ، مطلقين على ذوات القدر الأعظم أسماء عربية لا تزال تتردّد على كراتنا الفلكية .

« وعرفت العرب حجم الأرض بقياس درجة سطحها ، وعينوا الكسوف والخسوف ، ووضعوا للشمس والقمر جداول صحيحة ، وقدروا طول السنة . وأدركوا الاعتدالين ، ولاحظوا أموراً بعثت نوراً باهراً على نظام العالم ، واختص علماء الفلك منهم باختراع الآلات الفلكية لقياس الوقت بالساعات المتنوّعة ، وكانوا السابقين إلى استعمال الساعة الرقاصة لذلك . وهم الذين أنشأوا فى العلوم العملية علم الكيمياء ، وكشفوا بعض أجزائها المهمة كالحامض الكبريتيك وحامض الفضة (النتريك) والغول ، وهم الذين استخدموا ذلك العلم فى المعالجات الطبية ، فكانوا أوّل من نشر تركيب الأدوية والمستحضرات المعدنية ، وهم قرروا فى الميكانيكيات نواميس سقوط الأجسام ، وكان لهم رأى جلى من جهة طبيعة الجاذبية ، ورأى سديد فى القوّات الميكانيكية ، واصطنعوا فى نقل الموائع وموازنتها الجداول الأولى للجاذبية النوعية ، وكتبوا مقالات فى عوم الأجسام وغرقها فى الماء ، وأصلحوا فى علم البصريات خطأ اليونان بكون الشعاع يصدر من العين ويمس المرئى فيظهره ، فقالوا إن الشعاع يمرّ من المرئى للعين . وفهموا مساس انعكاس النور أو انكساره ، وكشفوا عن طريق الشعاع المنحنى فى الهواء ، وبرهنوا على أنا نرى الشمس والقمر قبل الشروق وبعد الغروب . قال : والذى يدهش كثيراً أن نتصوّر أشياء نفاخر بأنها من مواليد

وقتنا ، ثم لا نلبث أن نراهم سبقونا إليها . فتعليمنا الحاضر فى النشوء والارتقاء كان يدرس فى مدارسهم ، وحقاً أنهم وصلوا به إلى الأشياء الآلية وغير الآلية ، فكان العامل الأول فى الكيمياء عندهم ، والمظهر الطبيعى للأجسام المعدنية . »

وقال سنيوبوس[1] : « جرى أمراء العرب على أصول إسقاء الأرضين بفتح الترع ، فحفروا الآبار ، وجازوا بالمال الكثير من عثروا على ينابيع جديدة ، ووضعوا المصطلحات لتوزيع المياه بين الجيران ، ونقلوا إلى أسبانيا أسلوب النواعير لتمتح المياه ، والسواقى التى توزعها ، وإن سهل بلنسية الذى جاء كأنه حديقة واحدة ، هو من بقايا عمل العرب وعنايتهم بالسقيا . ونظم العرب ديوان المياه الذى كان يرجع إليه فى مسائل الرى » .

وذكر ويليام ويلكوكس من أعاظم مهندسى الرى فى هذا العصر أن عمل الخلفاء فى رى العراق فى الأيام الماضية يشبه أعمال الرى فى مصر والولايات المتحدة الأميركية وأوستراليا فى هذا العصر . ووصف المقدسى ميناء عكا التى بناها جده أبو بكر البناء المهندس لابن طولون والطرق التى استعملها فى هندستها حتى تدخل إليها المراكب آمنة ، فعدت هذه الميناء من العجائب . وذكر سنيوبوس أيضاً أن العرب استعملوا جميع أنواع الزراعة التى وجدوها فى مملكتهم وحملوا كثيراً من النباتات إلى صقلية وأسبانيا وربوها فى أوربا فأحسنوا تربيتها ، حتى لتظنها متوطنة متبلدة ، وذلك مثل الأرز والزعفران والقنب والمشمش والبرتقال والكباد والنخل والهليون والبطيخ الأصفر والعنب والعطر والورد الأزرق والأصفر والياسمين بل والقطن والقصب .

وظفر العرب فى الشام وفارس بصناعات قديمة نقلت إلى جميع الأقطار الإسلامية فتكملت ، ومنها نشأت صناعة أوربا الحديثة . ذكر سنيوبوس أنواع هذه الصناعات التى نقلوها من الشرق إلى الغرب ولا سيما إلى الأندلس فقال : عاشت الشعوب فى

(١) تاريخ الحضارة لشارل سنيوبوس .
Charles Seignobos : Histoire de la Civilisation.

أرض العرب الواسعة كما كانت الحال على عهد الرومان من أقصى المملكة إلى أقصاها بسلام وراحة ، يتقايضون حاصلات أرضهم ومصنوعات معاملهم ، ويرحلون إلى الهند والصين يبتاعون مصنوعات الأمم الصناعية ليحملوها إلى الشعوب البربرية فى أوربا ، ينقلونها فى البر والبحر . وذكر ريسون[1] أن العرب أحرزوا فضل السبق دون غيرهم فى مضمار التجارة ، ورقوا الصناعة البحرية ، ووضعوا قوانين حقوق الملاحة ، واقتبسوا من الصينيين استعمال إبرة السفينة ، وضبطوا التجارة بفن مسك الدفاتر ضبطاً جيداً ، وشرحوا الكفالة وأنشأوا المصارف للفقراء ، ووضعوا السفاتج (الكمبيالات) المألوفة وردود التمسك « البروتستو » وبعثوا الحركة فى مصارف الغرب الحديثة . قال : وكنت تراهم حيث نزلوا يمهدون السبل ، ويعمرون المرافئ والفرض ، ويصلحون الفنادق والرباطات ، ويرتبون سير القوافل . وكانت المدن الإسلامية أوساطاً تجارية كبرى . وبعد أن ذكر ارتباط المدن الإسلامية وعدد نفوس العواصم منها وعظم حركتها قال : وإن تعجب فاعجب للعرب كيف نبغ بينهم لأسفارهم المترامية أساتذة جغرافيون هذبوا فى وقت قصير كتاب بطلميوس ، وكشفوا بلاداً أخرى بغير أقدامهم لم توطأ ؛ ووسموا المصورات للغربيين ، وحببوا إليهم التنقل والترحال .

وكتب علماء العرب[2] أول كتاب فى الجبر ، ووصف علماء الجغرافيا منهم الأصقاع البعيدة التى كانت تختلف إليها القوافل ، واستخرجوا من كتب الطب اليونانى الطب التجربى ، وهو طب العقاقير والحبوب ، وأهم ما غلب على العرب من العلوم علم الكيمياء . وقال ريسون : إن استبحار عمران العرب مع سرعة انتشار سلطتهم فى المعمور عرفنا إلى مكانة المدنية العربية ، فكانت هذه الحضارة الباهرة فى القرون الوسطى مزيجاً من المدنية البيزنطية والفارسية ، وقد تم هذا المزيج المدنى بأمرين : عشق العرب التجارة وغرامهم بالاستعمار ، وأصبحوا لذكائهم

(١) العرب والتجارة لريسون بمجلة المقتبس م ٧

(٢) تاريخ الحضارة لسنيوبوس

الوقاد ، ولما غرس فيهم من حب الاطلاع على كل شىء ، يخوضون غمار العلوم الطبيعية والرياضية . فابتدعوا الكيمياء وبرعوا بها ، وطبقوا تلك العلوم على الزراعة والصناعة ، ولهم المنة على جميع الأمم بأرقامهم العربية وباستنباطهم فن الجبر والمقابلة وتهذيبهم الهندسة . وأعمالهم الجميلة الفلكية فى أبحاث سمت الشمس ، ومعادلة الليل والنهار ، والبقع الشمسية ، ولقد اصطنعوا الآلات العجيبة الفلكية كالاصطرلاب ونحوه ، وكشف كيماويوهم وأطباؤهم خواص الغول والنشادر وحامض الأزوت والكبريت والمياه المعدنية ، وأدخلوا فى كثير من أدويتهم مواد من نبات بلادهم كالكافور والرواند والسنامكى . وهم أسرع الناس لتدوين أنسابهم وملاحمهم وأبطالهم ورواية أشعارهم ، والكتابة فى فلسفة التاريخ وعلوم الاجتماع . وتوصل العرب إلى إثبات تناسب جيوب الأضلاع لجيوب الزوايا المقابلة لها فى أى مثلث كروى . ووضعوا هذه القاعدة أساساً للطريقة التى سموها الشكل المغنى فى حل المثلثات الكروية . وعرفوا حامض الكبريت استخرجوه من الزاج بواسطة التقطير ، وعرفوا ماء الفضة والقلى ، وطرق إذابة الذهب وملح النشادر وحجر الكى والسليمانى .

وكانوا يطبقون ما كشفوه على الطب والصناعة والحرب[1] ، ويعرفون صنع الصواريخ أخذوا سرها من الروم ، وعملوا البارود للمدافع ، وربما كان ذلك قبل الصينيين ، ولكن كان قبل الأوربيين على التحقيق ، فكانت جيوشهم تستعملها منذ القرن الثالث عشر ، وقالوا بكروية الأرض منذ ابتداء نهضتهم . وعنى العرب بصنع القاشانى وغيروا طرق صنعه وأشكاله ، واشتهرت فى القرون الوسطى الأوانى الزجاجية والمصابيح العربية الملوّنة التى انتقلت من الشام إلى معامل البندقية ونسجت هذه على منوالها ، وكذلك تعلم البنادقة صنع المرايا وكانت تصنع فى صور ، ومن البندقية انتقلت إلى أوربا ، ونقل من الشام والعراق إلى الأندلس صنع السيوف الدمشقية والأقمشة ، ومنها « الدمقس » نسبة إلى دمشق « والموسلين » نسبة إلى

(١) تاريخ الطب عند العرب لأسعد الحكيم (مجلة المجمع العلمى العربى المجلد السادس)

الموصل وهو الشفوف ، ثم عرفت هذه الأصناف فى بلاد الغرب .

وذكر رفول أن الإفرنج أخذوا[1] أصول الفرسان المخفّين من العرب يوم كانوا يقيمون السباقات فى كل مضمار من بلاد البحر المتوسط . كما أخذوا عادة الفروسية التى ليس لها مايعوقها من ثقل ومتاع . واقتبس الغربيون فى الحروب الصليبية من العرب أصول نسف حصون المدن ، وما كان فى معسكراتهم من يعرف معالجتها ، فاضطروا إلى أن يأخذوا من الشرق رجالاً أرباب إخصاء فى عملها ، وقد أخذوا يوم حصار صور سنة ١١٢٤م رجلاً أرمنياً من أنطاكية ليعلمهم صنعها ، وأن الصليبيين أخذوا أيضاً من العرب طريقة استعمال النار اليونانية Feu grégeois أى الصواريخ وهى من أفظع مايكون إحراقاً إذا اندلع لهيبها . عنوا بذلك عناية خاصة منذ أدخل أحد صناع دمشق تحسيناً كبيراً سهل استعمال هذه النيران ، فاستعملها صلاح الدين فى حصار عكا سنة ١١٩٠ م . قال رفول : وكانت دمشق فى الذروة العليا من حيث صناعتها ، يُصنع فيها دروع تقى وقع السهام ، وهى أطول حجما مما كان يصنع من طرازها فى أوربا . وكان يصنع فى دمشق أيضا خوذ ذات حافات كاملة وسيوف جميلة محلاة ممولة بالفولاذ . دع ما كان يصدر من تلك المدينة من الثياب الرقيقة الطريفة التى شاع استعمالها فى الغرب لدن عودة الصليبيين من الشرق . وقال إن اختلاط الصليبيين بالترك والعرب فى حروب الصليبيين علمهم التخفف من الأثقال ، وعرفوا أن الفارس الذى يخف حمله أقرب إلى السلامة من المثقل ، فتعلموا من العرب والترك المرونة فى الفروسية والاحتياط لما فيه سلامة المحارب ، وإن انتصار العرب فى القرون الوسطى قام على قوة فى الجندية لا شك فى تفوقها ، وهى غنية جملة وتفصيلا وإن الإفرنج نقلوا عن العرب عادة استعمال الدروع فى وقعة بواتيه بين العرب وشال مارتيل ، وإن العرب فى القرن الثانى عشر كانوا يحسنون التوقى من عدوهم ، وإنهم عرفوا فتح الخنادق فى الحروب على أصول الرومان منذ أول أمرهم

(١) تاريخ الجيش الفرنسى لرفول Revol : Histoire de l' armée francaise

واستخدموا الرماح والسيوف والسهام ، وما كانوا يزحفون جماعات نحو العدو ، بل يزحفون فرادى . هذا ما قاله : والغالب أن عادة استعمال حمام الزاجل فى المفاوضات البعيدة أخذها الأفرنج عن العرب فى الحروب الصليبية .

كان الفلك والرياضيات والعلوم الطبيعية تقرأ فى أوربا فى كتب العرب ، ولما كان العرب سادة البحر المتوسط فى القرن السابع وما بعده علموا الطليان والفرنسيين الألفاظ البحرية . وكان الطب العربى أساس علم الطب عند الفرنجة ، أخذوه مع كثير من الألفاظ العربية ، والعرب هم الذين أدخلوا إلى مونبيليه منذ سبعمائة سنة ، وإلى كثير من مدن فرنسا وإيطاليا ، بضائع العلوم جاءوا بها من الأندلس ، ودرس بعض الغربيين العلوم المختلفة على علماء العرب . ومن كتب العرب العلمية فى العلم الطبيعى والرياضى والفلك والكيمياء ما فقد أصله العربى وبقيت ترجمته اللاتينية ، وجميع المادة الطبية التى أخذها الغربيون من العرب بقيت إلى القرن السابع عشر هى المعوّل عليها وحدها . قال سنيوبوس : ويتعذر الحكم فى تحديد الطرق التى دخل منها إلى أوربا اختراع من اختراعات الشرق ، وفيما إذا كان انتهى إلينا من طريق الصليبيين فى فلسطين ، أو من طريق التجار الإيطاليين ، أو جاءنا من عرب صقلية أو من المغاربة فى أسبانيا ، بيد أن الحساب يمكن تقديره بما نحن مدينون به للعرب ، وإن كان هذا الحساب مما يطول شرحه . فقد أتتنا من العرب : (أولا) الحنطة والهليون والقنب والكتان والتوت والزعفران والأرز والنخيل والليمون والبرتقال والبن والقطن وقصب السكر . (ثانياً) معظم صناعاتنا فى التزين كالثياب الدمشقية القطنية والسختيان وثياب الحرير المزركشة بالفضة والذهب والشاش الموصلى والشفوف والحبر والمخمل والورق والسكر وعمل الحلويات والمشروبات . (ثالثاً) مبادئ كثير من علومنا كالجبر وحساب المثلثات والكيمياء والأرقام العربية التى اقتبسها العرب من الهنود فسهل بها الحساب مهما كان صعباً . ولقد جمعت العرب وقرّبت جميع الاختراعات والمعارف المأثورة عن العالم القديم فى الشرق (كيونان وفارس والهند والصين) وهم الذين نقلوها إلينا ودخل كثير من الألفاظ

فى لغتنا ، وهى شاهدة بما نقلناه عنهم ، وبواسطة العرب دخل العالم الغربى الذى كان بربرياً فى غمار المدنية ، فإذا كان لأفكارنا وصناعاتنا ارتباط بالقديم ، فإن جماع الاختراعات التى تجعل الحيـاة سهلة لطيفة ، قد جاءتنا من العرب ، وأخذ الأوربيون من العرب صنع الجوخ فى جملة ما أخذوا من الصنائع . وكان أهل بيزا الإيطاليون ينزلون مدينة بجاية فى الجزائر ، فتعلموا منها صنع الشمع ، ومنها نقلوه إلى ديارهم وإلى أوربا . هذا وقد عرف العرب فى القرن السابع من الهجرة الدورة الدموية الصغرى أى الدورة الدموية فى الرئة ، وادعى الإفرنج فى القرن السادس عشر من الميلاد أنهم أول من كشفوها .

ذكر سنيوبوس أن عبد الرحمن الثالث الأموى كان على اتصال دائم بأمراء أسـبانيا وفرنسا وألمانيا وممالك الصقالبة ، وكان القصر الملوكى فى تولوزة من فرنسا صورة من صور قصور الخلافة فى قرطبة ، يتبارى فيه الشعراء وتقوم فيه للآداب سوق . ولمـا انتقل أحد أمرائهم ليتولى عرش فرنسا سنة ٩٩٩ أدخل ما أخذ عن العرب تبدلاً حقيقياً فى باريز من حيث الأخلاق واللغة . وكان ملوك فرنسا من أهل السلالة الثالثة يقلدون العرب فى كل شىء . وتعلم الفرنسيون أشياء كثيرة فى حملة سان لوى الصليبية التى بقيت عدّة سنين فى الشرق . وفى الحروب الصليبية تعلم الفرنسيون صنع الورق من دمشق بواسطة أسيرين منهم قضيا زمناً فى هذه المدينة ، فلما عادا إلى بلادهما نشرا فيها هذه الصناعة المفيدة . وكان لـكثير من ملوك أوربا حرس من العرب إلى عهد قريب ، ولا سيما إيطاليا وفرنسا .

وذكر سيديليو أن بعض الإفرنج زعموا أن العرب لم يعملوا فى تقدم الصناعات شيئاً مع أنهم برعوا فى جميع الفنون الصناعية واشتهروا عند الأمم بأنهم دباغون سباكون جلاءون للأسلحة نساجون أصناف الثياب ، ماهرون فى أشغال المنقاش والمقراض ، ويؤيد علو كعبهم فى هذه الفنون سيوفهم الباترة ، ودروعهم الخفيفة الصلبـة ، وبسطهم ذات الوبر ، ومنسوجاتهم من الصوف والحرير والـكتان ، وما كشمير هذه الأيام إلا نموذجات دالة على تلك الصناعة . ويقول رينو : إن العرب

لما أغاروا من الأندلس على جنوبى فرنسا وافتتحوا بقيادة السمح الخولانى وعنبسة الكلبى والحر الثقفى مدائن أربونة وقرقشونه وأفنيون وليون كانوا مجهزين بأسلحة لم يكن للإفرنج مثلها .

وذكر لبون « أن خزائن الكتب والمخابر والآلات هى مواد للتعليم والبحث اللازم ، ولكنها ليست إلا أدوات ، وقيمتها مناط الطريقة التى تستعمل لها ، وقد يتلقف المرء علم غيره وهو عاجز عن أن يفكر بنفسه ويوجد شيئاً ، ويكون تلميذاً دون أن يوفق إلى أن يصبح أستاذاً . أما العرب فبعد أن كانوا تلاميذ عاديين ، أساتذتهم تآليف اليونان ، أدركوا للحال أن التجربة والملاحظة تساويان أكثر من أحسن الكتب . هذه الحقيقة اليوم معروفة لا يعد العمل بها بدعاً ، ولم تكن كذلك فى الدهر السالف . فقد ظل علماء القرون الوسطى يشتغلون ألف سنة قبل أن يدركوها . ينسب الناس إلى باكون قاعدة التجربة والملاحظة ، وهما الأصل فى أساس البحث العلمى الحديث ، بيد أن الواجب أن يُعترف اليوم أن هذه الطريقة كلها هى من مبتدعات العرب » . وقال بهذا الرأى جميع العلماء الذين درسوا كتبهم ولا سيما هومبولد . قال إن العرب بلغوا فى العلم العملى درجة لم يكن يعرفها أحد من القدماء .

وقال سيديليو : وقد اشتهرت مدرسة بغداد فى أول أمرها بفكرتها العلمية حقيقة ، وكان لها السلطان الأكبر على أعمال العرب ، فساروا من المعلوم إلى المجهول ، واستنبطوا أسرار المحسوسات ليرجعوا الأسباب إلى مسبباتها ، ولا يقبلوا إلا ما أثبتته التجربة . وهذه هى الأصول التى لقنها العلماء ، ولقد كان العرب فى القرن التاسع متمكنين من هذه الطريقة الخصيبة التى صارت بعد عند المحدثين أداة استعملوها للوصول إلى أجمل ما كشفوه . فكانت التجربة والملاحظة من أسلوب العرب ، وكان درس الكتب والاكتفاء بترديد رأى المعلم طريقة أوربا فى القرون الوسطى ، والفرق ظاهر بين الطريقتين . ولا تقدر طريقة العرب فى العلم حق قدرها إلا بالبحث فيها .

« ولقد اعتمد العرب على التجارب وسبقوا العالم ، وظلوا على سبقهم دهراً طويلاً ، وعرفوا فضل هذه الطريقة ، وليس لليونان في الكيمياء ولا مجرب واحد ، ويعد المجربون بالمئات عند العرب ، وقد أورثت عادة التجربة أعمالهم العلمية هذا الوضوح والإبداع الذى لا ينتظر أبداً أن يسقط عليها عند من لم يدرس الظاهرات إلا في الكتب ، ولم يفتهم الإبداع إلا في علم استحال عليهم فيه الرجوع إلى التجارب وهو علم الفلسفة ، وقادتهم الأساليب التجريبية التى كتب لهم فضل السبق فيها إلى كشف أمور مهمة وفقوا إليها في ثلاثة أو أربعة قرون ، لم يكتب مثله لليونان في زمن أطول من زمنهم بكثير . وهذه الذخيرة في العلم الماضي التى انتقلت إلى اليونان قبلهم ولم يستخرجوا منها كبير أمر منذ أمد طويل ، نقلها العرب برمتها مبدلة إلى أخلافهم . ولم يقف عمل العرب عند تثمير العلم بما أوجدوه ، بل نشروه بواسطة جامعاتهم وكتبهم . فالتأثير الذى أثروه من هذا النظر في أوربا كان عظيماً في الحقيقة ، وكانوا خلال عدة قرون أساتيذ متفردين ، عرفتهم الأمم النصرانية ، وإليهم يرجع الفضل في معرفتنا المدنيتين اليونانية واللاتينية . وفي العهد الحديث فقط تجرد تعليم جامعاتنا من الاعتماد على تراجم كتب العرب ، وكُفَّ عن الأخذ بواسطتهم » .

وذكر رينه مارسيال[1] أن النورمانيين الذين امتزجوا بالعنصر الفرنسي قد باضوا وفرخوا في انجلترا وساعدوا على عمران تلك الديار وكانوا أبداً مخاصمين للفرنسيين وأعداء لهم ومنافسين . أما العرب فكانوا على العكس من ذلك ، فإنهم لم يتركوا في غاليا وفي فرنسا غير حضارتهم وعدداً كبيراً من الخلاسيين بدون أن ينشأ منهم اختلاف جنسي أو عنصري . واليوم وقد أصبح شمالي إفريقية جزءاً من فرنسا أخذ الناس يدركون أحسن من ذى قبل أن الطابع الذى أبقاه العرب الفاتحون كان عظيماً ، وأنهم شاركوا مشاركة عظيمة في نشوء التهذيب العقلي والفنون في أوربا .

---

(١) العنصر الفرنسي لرينه مارسيال : René Martial : La race Française

لما ضرب العرب فى سنة ٧١١ الويزغوت فى وقعة شريش أصبحوا سادة أسبانيا ، ودخلوا بلاد غاليا من إقليم نربونة وكان اسمها إذ ذاك سبتمانيا . وفى سنة ٧٢١ حال « أود دوج اكيتين » دون تقدم العرب فى وقعة طلوزة ، وكان هاجمه العرب من كل جهة ، وبعد أن هاجموا الاكيتين تقدموا فى سمت الشمال حتى بلغوا مدينة تور ، فأنقذ شارل مارتيل هذه المدينة ، وقضى على العرب قضاء مبرماً فى وقعة بواتيه (أكتوبر ٧٣٢ م) وترك العرب من آثار حضارتهم ما لم تتركه الشعوب الجرمانية لتفوقهم فى الحضارة إذ ذاك ، ولما كان العرب مؤرخين وشعراء كان من إبقائهم لنا قصة (ألف ليلة وليلة) أجمل مصدر استقى منه أدباء الغرب ومتفننوه ، ونفعت هذه القصص العلماء من عدة وجوه . والقرآن نفسه كتاب عظيم من الطراز الأول ، حوى الدين والأدب والشرع ، وما زال تأثيره فى حياة العرب ولا يزال ، بحيث لايستطاع فهم روح المسلمين وفكرهم إذا لم يدرس ويقرأ فى ترجمة صحيحة ، لأن كثيراً من الترجمات كان رديئاً وأكثر منها التفاسير . وأرى أن قلائل فينا عرفوا العرب معرفة حقيقية ، ولا أستطيع أن أدخل فى هذا العدد القليل غير المارشال ليوتى والأستاذين جوتيه وريكاس .

ثم ذكر ما تفرّد به العرب فى خدمة الحضارة ، ومما قال إن اختراعهم الورق دعا إلى استكثارهم من خزائن الكتب ، وهى وحدها دليل على تقدّمهم فى سبيل الحضارة ، وإنه لا وجه للتشبيه بين غارات العرب وغارات برابرة الجرمان . وذكر ما كان من العلائق التجارية بين بلاد المسلمين ومرسيلية منذ الحروب الصليبية ، وقال إنه كان فيها جامع للمسلمين يؤدون فيه فرائضهم منذ الزمن الأطول ، دلت على ذلك المعاهدات التى عقدت بين فرنسا ودول الإسلام ، وإن مرسيلية مدينة بكثير من حضارتها ونجاحها لاتجارها مع العرب منذ القرن العاشر . قال : لو كانت العرب غلبت شارل مارتيل لكانوا تمثلوا تمثلاً حسناً فى الأرض الفرنسية أكثر من السلتيين فى الأرض الليغورية ، فإن مقامهم الطويل فى اسبانيا شاهد بذلك ، وكذلك يدل ما أبقوا من الآثار إلى أى درجة كانت حضارتهم متفوقة على حضارتنا إذ ذاك .

تفنن العرب في الهندسة والتصوير :

وللعرب في باب الهندسة الإبداع الذى أقرّهم عليه كل عارف ، ولم ينازعهم فيه منازع ، ولم يخترع العرب أبنية خاصة بهم ، بل تجلى في هندستهم حبهم للزخرف واللطف ، واخترعوا القوس المنطر ورسم البيكارين ، وجعل تفننهم فى هندسة القباب والسقوف والعرشات من الأشجار والأزهار ، لجوامعهم وقصورهم ، بهجة لا يبلى على الدهر جديدها ، ودلت كل الدلالة على إيغالهم في حب النقوش والزينة ، كأن أبنيتهم ومصانعهم ثياب من ثياب الشرق تفنن حائكها في رقشها ونقشها كما قال أحد العارفين من الإفرنج .

وعقد لبون فصلاً فى تأثير العرب في الصناعات ولا سيما فى الهندسة فى الغرب فقال : ربما ادعى بعضهم أن الهندسة الجوتية مأخوذة عن العرب ، وهذا وهم فإننا إذا قابلنا بين كاتدرائية جوتية من القرن الثالث عشر والرابع عشر وبين مسجد من ذينك القرنين نجد اختلافاً بيناً بين الهندستين . ولما كانت الفنون تعبر عن حاجات عصر وعواطف أهله ، اختلفت هندسة الغرب عن الهندسة العربية فى الشرق . وقد أخذت أوربا من العرب تفاصيل فى الزينة ، ووجدت على بعض البيع فى فرنسا صور حروف عربيــة منحوتة فى الحجر وأ كاليل على بعض الحصون تشبه الطراز العربي ، وكثير من كنائس فرنسا تأثرت بالهندسة العربية ولا سيما فى المدن التى كان لها علائق كثيرة مع الشرق . وقد جلب الصليبيون من الشرق أصول هندسة بيت المؤذن فى المنــارات والمشربيات والمرقات والمراصد فى الأبراج والزغاليل والأبراج الناتئة والأفاريز ذات الدرابزين ، واستخدمت فرنسا كثيراً من مهندسى الأجانب ، وكان فيهم العرب ، حتى إن كنيسة « نوتردام دى بارى » المشهورة فى عاصمة فرنسا عمل فيها مهندسون من العرب . أما تأثير العرب فى هندسة إسبانيا فظاهر ظهور الشمس والقمر . إلى أن قال : قد ينقرض شعب وتحرق كتبه ، وتهدم مصانعه ، ولـكن التأثير الذى أثره يقاوم أكثر مما يقاوم الفلز ، وليس فى طاقة

القوة البشرية أن تأتى عليه ، والقرون قد تفعل فى القضاء عليه أكثر من ذلك .

وقال أيضاً : إن من ألقى نظرة على المساجد والقصور وعلى غيرها من الآثار العربية من منقولها وثابتها يشهد أنها نسجت على غير مثال ، وأن الإبداع فيها ظاهر محسوس ، وإذا رجعنا إلى أوائل عهد المدنية العربية أيام كانت فى أوجها نجد تقليد الصناعة الفارسية والرومية ظاهراً فيها ، وكل شعب يقتبس عمن سبقه صناعاته ، وهـذا يصدق على كل الأمم ، وكان النـاس إلى عهد قريب يعتقدون أن الفنون اليونانية قامت على غير مثال . ثم أدى البحث إلى أن هذه الفنون أخذت عمن سلفها من الأشوريين والمصريين . فالعرب واليونان والرومان والفينيقيون واليهود وغيرهم أو جميع الأمم قد انتفعت من الماضى ، وكل شعب أخذ عن غيره وزاد من عنده ما وسعته الزيادة ؛ ولذا لا ينبغى أن يزعم الناس أن العرب لم يكن لهم فن فيه إبداع لأنهم اقتبسوا الأصول الأولى من أعمالهم من الأمم التى تقدمتهم ، ويعرف الإبداع الحقيقى فى أمة من السرعة التى بهـا تحول المواد التى بين يديها فتجعلها وَفق حاجاتها وتنشئ فناً جديداً ، وما من شعب فاق العرب فى هذا الباب ، فإن فـكر الإيجاد عندهم قد تجلى فى مصانعهم الأولى مثل مسجد قرطبة ، ولم يلبثوا أن ألقوا فى رُوع الفنانين الأجانب أنهم كانوا يعمدون إلى طرق جديدة فيهـا الحذق والمهارة بأكملهما . فقد كانت سوارى المعابد القديمـة التى بين أيدى العرب من القصر بحيث لا تتناسب مع عظمة الأبنية واتساعها ، فقاموا هم ينشئون فى أسفلها قواعد وغطوها بقناطر وضعت على غاية من الحذق ، ولو كان الترك مكان العرب ما خطر لعقولهم الغليظة مثل هذا الفـكر . وكان من أمر الشعوب التى خلفت العرب فى الأرجاء التى خضعت لسلطانهم أن رأوا مصانع قديمة سبقت العرب ، فما استطاعوا أن يدبروها تدبيراً جديداً ، وظل التقليد بادياً فى أصولها وفروعها . أما فى المصانع العربية كقصور إسبانيا وجوامع القاهرة ، فإن المواد الأصلية قد استحالت إلى ترتيبات بلغ من جدتها أن يتعذر أن يقال من أين جاءت .

قال : ومن ألقى نظرة على الأعمال الأدبيـة والفنية التى تمت على أيدى العرب ،

يتجلى له أنهم حاولوا أبداً أن يزينوا الطبيعة ، وطابعهم الذى يبدو فى الفن العربى هو التخيل والبهاء والضياء والتزيد فى الزينة والدقة ؛ فالعرب عنصر شعر ، وأى شاعر لا ينطوى على فنان ، اغتنوا بحيث تمّ لهم تحقيق جميع هذه الأحلام فأولدوا هـذه القصور البديعة التى تبدو للعيان كأنها تضاريس من الرخام المرصع بالذهب والأحجار الثمينة . وما من شعب حاز مثل هذه العجائب ، وما من شعب سيدانيهم فى حيازتها ، ومن العبث أن تتطلب مضاهاتها من الدور الذى دخلت فيه الإنسانية اليوم ، فأصبحت لا تعرف من الصناعات إلا المبتذلة والمقصود منها النفع فقط وهى شاحبة باردة .

وقال فى مناسبة أخرى(١) : إن العرب لما أنشأوا فى القرن السابع هذه المملكة الضخمة بفتحهم معظم أصقاع العالم القديم اليونانى والرومانى ، لم يلبث سلطانهم أن امتد من إسبانيا إلى أواسط آسيا مشاطئاً أرض شمالى إفريقية بأسرها ، رأوا أنفسهم أمام هندسة مقررة ثابتة وهى الهندسة اليونانية فاقتبسوها لأول أمرهم على علاتها لإقامة جوامعهم فى إسبانيـا ومصر والشام . ويدل المسجد الأقصى فى القـدس وجامع عمرو بن العاص فى مصر وغير ذلك من المصانع على هذا الاحتذاء ، ولم يطل هذا العهد كثيراً حتى شوهدت المصانع تختلف باختلاف القطر والعصر . وبلغ من عظم هـذه التبدلات أنك لا ترى أدنى أثر للتشابه بين بناء قام أوائل الفتح مثل جامع عمرو فى القاهرة (٧٤٢ م) وجامع قايتباى (١٤٦٨ م) من آخر الدور العربى التركى .

ولم ينكر ميجون(٢) على العرب بأن لهم الحظ الأوفر من هـذه المدنية وهم واضعو أسسها ، وقد أفرغوا هـذه العناصر المختلفة فى قالب متجانس متناسب ، فأوجدوا منها مدنية مطبوعة بطابع عظمتهم وسلامة ذوقهم ، ولم يمض قرن على فتوح العرب وبسط سلطانهم على الشرق وإفريقية الشمالية وإسبانيا ، حتى تبدل

(١) القوانين النفسية فى نشوء الشعوب لجستاف لبون
(G. Le Bon : Lois psychologiques de l'évolution des deuples).
(٢) مجلة المجمع العلمى العربى م ٥

النظام الاجتماعى فى الأقطار المغلوبة ، وحل موضعه دين وإدارة وعادات وأخلاق جديدة ، وهكذا يقال فى صناعاتهم وفنونهم وكثير من احتياجاتهم . وإن توحيد تلك الأقطار من بحر الظلمات إلى المحيط الهندى ، وإخضاعها لسلطان واحد ، ونظام شامل ، والعناية بالجندية ، وإقبال المسلمين على أداء فريضة الحج ، كل ذلك سهل سبل التعارف بين المؤمنين ، وجعل كل واحد منهم يحمل إلى أهله ما استحسنه فى البلدان الأخرى ، ولذلك رأينا التأثيرات الشرقية فى أقدم بناء إسلامى فى الغرب كالجامع الكبير فى قرطبة وجامع سيدى عُقْبة فى القيروان ، مغربية بطرز بنائها ، مشرقية بزخارفها .

وعلى الجملة فإن خاصة الإفرنج استفادوا ، بملابستهم العرب فى صقلية والأندلس ، الاطلاع على علوم العرب ومدنيتهم ، واختلاط الإفرنج فى الحروب الصليبية استفاد منه خاصتهم وعامتهم على السواء ، وكان من جملة فوائد الحروب الصليبية[1] أن اقتبس الإفرنج عادات الشرقيين فاستعملوا الحمامات والألبسة المسترسلة الفضفاضة ، ونظموا خيالة مسلحين على الطريقة الإسلامية . قال لبون : إن النضال الذى ناضله الصليبيون فى حملاتهم الأولى كان نضال عالم لم يزل على توحشه مع مدنية من أرقى المدنيات التى حفظ التاريخ ذكراها .

وكتب داوسون[2] : إن الحضارة العباسية ، ولسانها العربية ودينها الإسلام ، كانت مكملة بمظهرها العقلى للحضارات القديمة التى تمثلها مملكة العباسيين الواسعة ، ويصح ذلك على الخصص بما نشأ من الفلسفة العربية والعلم العربى اللذين ارتقيا فى ذاك العصر ، وأثرا تأثيراً عظيماً فى أهل القرون الوسطى عامة . ولقد كانت الحركة العلمية فى العالم فى أكثر من أربعة قرون بأيدى الشعوب الإسلامية ، وعن العرب أخذت أوربا الغربية أصولها العلمية ، ويرجع العمل العلمى والفلسفى فى العالم

---

(١) التاريخ العام لمكسيم بتى وتاريخ الحضارة لسنيوبوس .

(٢) أصول أوربا والمدنية الأوربية لداوسون .

Christopher Dawson : Les origines de l'Europe et de la civilisation européenne.

الإسلامى إلى العرب وإلى الإسلام نفسه ، هذا وإن لم يكن فيه إبداع جديد ، ولم يتوفر على غير إكمال العلم اليونانى ، فقد انضم إلى الثقافة الإسلامية أشياء بفضل رجال كانوا من أصول أرامية وفارسية . وإذا استثنينا السكندى فيلسوف العرب فقط نجد حظ العرب قليلاً من هذه الحركة . وقد أثمرت هذه الحضارة فى تخوم الأرجاء الإسلامية ، أثمرت فى آسيا الوسطى بأمثال الفارابى وابن سينا والبيرونى ، وفى إسبانيا والغرب الأقصى بابن رشد وابن طفيل .

وقال : إن النصارى السريان فى بابل والصابئة فى حرّان كانوا واسطة لنقل الثقافة اليونانية إلى الثقافة الإسلامية ، وإن علماء البصرة أخذوا منطق أرسطو عنهم ، وإن هذا الاقتباس عن اليونان كان قليلاً لا شأن له ، وإن العرب لم يأخذوا شيئاً فى الشعر ولا اقتبسوا التمثيل ، ومع هذا ترك البيان اليونانى أثراً ظاهراً فى الآداب العربية ، ولا سيما فى كتابات الجاحظ ، أكبر منشئ وأعظم أستاذ فى القرن التاسع . وعظم النفع بما أبقته الثقافة اليونانية فى العلوم والفلسفة ، وتلقى المسلمون باليمين ، ما كانت مدارس آثينا والاسكندرية تركته منذ القرن السادس . وكانت آراؤهم فى الفلسفة كآراء فلاسفة اليونان ، أى التوفيق بين الفلسفة الأرسطاطاليسية والأفلاطونية الجديدة ، ومزج كلّ منهما بالأخرى . أخذوا أصول هذا التحليل فحققوه بقوّة فكر ونزاهة علمية ، وكان عملهم فيها من أتم وأحكم ما وفقت إليه الفلسفة فى عصورها الماضية . ونجح علماء العرب بتنظيم الفلسفة ؛ فما كانت عندهم مجموعة معلومات مختصرة مركومة ، بل جعلوا لها قواعد تامة لا تتجزأ من مجموعها الأسطقسات أو العناصر . واحتفظت الحضارة الإسلامية بتفوّقها خلال القرون الوسطى فى الشرق وفى أوربا الغربية . وبينما كانت النصرانية سائرة إلى الاضمحلال بما انهال عليها من غارات العرب والفيكنغ (Vikings) والمجر ، كانت الحواضر الإسلامية على شواطئ البحر المتوسط الغربى تدخل فى أعظم طور من أطوار نهضتها . قال : إنا اعتدنا اعتبار مدنيتنا كأنها تألفت من جوهر الحضارة الغربية ، حتى صعب علينا أن نعتقد بأنه أتى زمن وأهم قطر متحضر فى أوربا الغربية

لم يكن سوى ولاية ذات مدنية غريبة عنها ، وأن البحر المتوسط مهد حضارتنا ، كان مهدداً بأن يصبح بحراً عربياً ، وكادت النصرانية فى الغرب والإسلام فى الشرق يكونان شيئاً واحداً فى زمن كانت فيه آسيا الصغرى نصرانية ، وكانت إسبانيا والبرتقال وصقلية تؤوى حضارة إســـلامية زاهرة . هكذا كانت الحال فى القرن العــاشر . وقد فعلت هذه الحضارة فعلها العظيم فى ترقى العالم فى القرون الوسطى ، فانتشرت الثقافة الغربية فى ظل حضارة الإسلام ، واستطاعت النصرانية فى قرونها الوسطى بفضل هذه الحضارة أن تأخذ طرفاً من التراث العلمى والفلسفة اليونانية ، وما كان ذلك قبل القرن الثالث عشر ، ولم يتم إلا عقبى الحروب الصليبية ، وبعـد فاجعة المغول العظمى تمكنت الحضارة النصرانية الغربية من بلوغ مكانة مساوية بعض المساواة للمدنية الإســلامية ، وبقيت مع هذا متأثرة بالمؤثرات الشرقية اهـ .

وقال لركيه فى كتابه الفن والتــاريخ : ورث العرب فيما ورثوا عن الأمم التى دخلت فى حوزتهم الفنون والصناعات ، وأخذوا « يحذقونها ويبرعون فيهـا فى مدارس المورّثين ، إذ لم يكن فى استطاعتهم أن يرتجلوا فناً كما ارتجلوا لهم ملـكاً . ومع ذلك لم يمض زمن طويل حتى نبغ فيهم البناؤون والحفارون والمصوّرون والنقاشون ، دون أن يروا فى شىء من ذلك مخالفة لنصوص كتابهم ، أو معارضة لشريعة نبيهم . ولم يقفوا عند حدّ الحذق والبراعة ، بل تعدّوه إلى التفنن والإبداع فنقحوا وصححوا وحذفوا وأضافوا ، ثم اخترعوا وابتكروا ، حتى طبعوا تلك الفنون بالطابع العربى ، وصبغوها بالصبغة الإسلامية ، حرصاً على شخصيتهم أن تفنى ، وعلى نبوغهم وعبقريتهم أن يذهبا ، فأصبح الروح العربى بارزاً واضحاً يندمج فيه غيره ، ولا يندمج فى شىء ؛ ولهذا خلقت العرب لها فناً يوافق ذوقها ، ويسير مع طبعها ، وسرعان ما انتشر فى أرجاء تلك المملـكة الواسـعة انتشار الـكهرباء» . قالوا : وقد خضعت الفنون الإسلامية لنواميس الطبيعة الإقليمية فاصطبغت فى كل قطر بصبغته الخاصة ، وكانت فى عامة أحوالها من أندلسى ومغربى

وصقلى ومصرى وشامى وعراق وفارسى وهندى ومغولى إسلامية أصلية كريمة نبيلة ، تنطق بما للإسلام من إباء ونجدة وشهامة ونخوة الخ .

هذا ما لقفه العرب وثقفوه ، وهذا مجمل ما اخترعوه وكشفوه ، استفادوا منه وأفادوا أهل المدنية الحديثة . عملوا فيه وحدهم بعقولهم وتجاربهم ، وتواضعوا على ما لم تشاركهم فيه أمة ، لا كما صار شأن العلم فى عصره الحديث ، كثرت فيه الأيدى العاملة حتى استحال فى بعض ما اخترع وكشف أن يعزى إلى أمة بعينها . أبرزت العرب علمها العملى فى زمن قصير ، فظهر وبهر ، وعم البدو والحضر ، كل ذلك من دون دعوة ولا إعلان ولا تبجح ولا مِنّة . نقلوه إلى الغرب حلالاً طيباً ، وما مَنُّوا على أهله ، ولا سألوهم ثمن ما أعطوهم ، واليوم وقد طويت صحفهم العلمية ، وأصبحت مغانيهم كأن لم تغن بالأمس . قام الشعوبيون أعداؤهم يصغرون من شأنهم ، ويبخسونهم أشياءهم ، ويتناولونهم بالنقد والتنقيص ، وما حقهم لو أنصفوا إلا الحمد والثناء .

أثر الشعر العربي والفنون الجميلة في الغرب

الموشحات الأندلسية وكلام شاعر الأسبان :

فعلت البيئة فعلها فى عقول العرب ، لما نزلوا الشام والعراق وفارس ، ولما انتقلوا إلى الأندلس جاء شعرهم خلاباً بمعانيه وتصويره وتأثيره ، كأنه نمط آخر من شعر المشارقة . احتفظ بجميع ضوابط الشعر وأصوله ، وجاء شعراً صادراً من أعماق القلوب ، يتميز برقة الشعور والعواطف وبدقة وصفها ، وفيه جميع أسباب جمال الشعر المشرقى ، ويزيد عليه الأسلوب الواقعى ، ممزوجاً بالخيال الواسع .

وارتقى الأدب فى أهل الأندلس حتى فى النساء لشيوع التعليم فى العامة والخاصة ، وغلب الشعر على أصقاع بعينها مثل شلب ووادى[1] آش ، حتى قل من أهل شلب من لا يقول شعراً ولا يعالج أدباً رائماً ، ولو مررت بالفلاح خلف فدانه وسألته عن الشعر قرض من ساعته ما اقترحت عليه ، وأى معنى طلبته منه .

ويقول ابن بسام فى الذخيرة إن إشبيلية صارت مجمعاً لصوب العقول ، لا سيما من أول المائة الخامسة من الهجرة « حين فرح كل حزب بما لديه ، وغلب كل رأس على ما فى يديه ، بعد الدولة الحامدية » ، « حتى اجتمع فى الجانب الغربى ما باهى الأقاليم العراقية ، وأنسى بلغاء الدولة الديلمية » وطريقتهم فى الشعر الطريقة المثلى التى هى على طريقة البحترى فى السلاسة والمتانة والعذوبة والرصانة .

وللأندلسيين فضل السبق فى اختراع الموشحات التى تهيج النفوس الخاملة . وتتشربها القلوب لسلاستها ، كأن سماء الأندلس أوحت إلى قرائحهم ما لم توحه سماء الشرق وتبارى هواة القريض فى نظم هذه الموشحات وترديدها[2] إلى الغاية ،

---

(١) معجم البلدان لياقوت ونفح الطيب المقرى .   (٢) مقدمة ابن خلدون .

واستظرفها الناس جملة ، لسهولة تناولها وقرب طريقتها . وقد كثرت اختراعاتهم في المعاني ، وألبسوا الشعر ديباجة مستملحة كسرت قليلاً من قيوده ، وألبسته حلة مدنية كالحلل العراقية والشامية أيام رواج الشعر في بعض أدوارها الراقية .

حمل العرب إلى الغرب في جملة ما حملوا روحهم الشعرى ، فأولع به من حذقوا اللغة العربية من أهل تلك الديار ، ولم يكن الشعر قد ارتقى في أمم الغرب . وكانت بعض الشعوب إلى عهد قيام العرب لا تعرف لها شاعراً يرفع رأسها بشعره ، اللهم إلا بعض أغان أشبه بشعر العامة منه بشعر الخاصة ، فكان من اختلاط العرب بالإفرنج في الأندلس وصقلية والجزائر الشرقية ما لقن تلك الأمم ولا سيما الأمم اللاتينية معنى الشعر ، فنقلوا عن العرب ما أولعت به نفوسهم ولاءم طباعهم ، وعالج العرب ما خلا الشعر جميع ضروب الأدب[١] كالملاحم والحب والفروسية ، وأحرزت الوقائع العجيبة التي كانت تتخلل قصصهم موقعاً عظيماً في النفوس ، فكانوا وهم الفنانون المنقطع نظراؤهم يزينون كل ما يمسونه بتصوراتهم الباهرة . واخترعوا في إسبانيا[٢] قصص الفروسية ، ومن عادة العرب أن يجتمعوا كل مساء تحت خيامهم ، يستمعون إلى من يدهشهم بقصصه ، وكانت هذه القصص في غرناطة يتبعها رقص وغناء .

كانت القصائد التاريخية والمواليا الإسبانية محتذاة أو مترجمة عن العربية تذكر فيها الأعياد والمواسم ، وألعاب الخاتم ، وصراع الثيران ، ورقص الفرسان ، ولم يتقن الإسبانيون شيئاً في هذا المعنى قبل القرن الخامس عشر . وهذا الظرف هو الذي جعل لعرب إسبانيا شهرة في كل أوربا .

وقد قال فرنسيسكو فيلاسباسا من شعراء الإسبان لهذا العهد : لم يُصب شعب[٣] من موهبة الشعر الإلهية بقدر ما أصاب الشعب العربي منها . فكان من ولوعه بالشعر ومن ثقافته التواقة إلى الحرية والبطولة ما وسم شعره بطابع خاص كان

---

(١) حضارة العرب لجستاف لبون . (٢) تاريخ العرب لسيديليو .

(٣) على بساط الريح لفوزى المعلوف .

شعاره منذ ظهوره . وما انتصار الإسلام الباهر إلا انتصار للشعر العربى أيضاً . وسيطر العرب إبان انتصاراتهم على أرقى شعوب الأرض وامتزجوا بهم ، فأخذ عنهم المصريون والبيزنطيون والرومانيون أصولاً جديدة ، بدأت منذ ذلك الحين تسود خشونة شعرهم القديم ، ولم يتعدّ هذا التأثير الخلابة فى التركيب والتلاعب بالألفاظ ، وظلت القصائد العربية القديمة سليمة لم يطرأ عليها فساد القلوب ، ولا تصرفت بها الألسن على هوى الرواة . فكانت كالإرث الثمين يتناقلها الناس جيلاً بعد جيل . وظل بدو الصحراء رعاة النجوم أوفى الشعوب خبرة فى تخير الأخيلة ، وأوفرها غنى بالمادة الشعرية ، ولم تتهيأ للشعر العربى فى عامة الأقطار التى اكتسحها العرب تربة أصلح من تربة الأندلس ، ولا زها فى بلد من البلدان زهوه فى هذا البلد .

قال : وكان قواد العرب أولاً ، ومن بعدهم الخلفاء والأمراء ، مثالا للشعب فى بث الفكرة الأدبية فى الأندلس العربية ، تكاد لا تستثنى منهم واحداً لم يخلد اسمه بقصيدة غرام أو حماسة ، منذ أنشأ عبد الرحمن الأول تحيته الوطنية الممتعة التى خاطب بها النخلة الأولى التى غرسها بيده على ضفة النهر الكبير ، إلى أن أنشد أبو عبد الله على ضريح مريم موشحته المشجية ، راصفاً قوافيها بفلذات قلبه المنفطر الدامى . وإن أنس لا أنس المعتمد آخر ملوك إشبيلية ، وفى رأيى أن شعره أجلى مثال للشعر العربى ، إن لم يكن بجماله ، فبالتشاؤم الذى فيه ، وبالشؤم الذى رافق حياة صاحبه ، وكان حلقة من سلسلة الأبطال الذين ناوأهم القدر فى مختلف أدوار التاريخ .

« ونسج الأشراف على منوال سلاطينهم ، فنمت رياض الأدب الغنائى ، وأزهرت فى ظلال السيوف . فتفشت عدوى الاشتغال بالأدب العربى بين أساقفة النصارى وقد استعربوا فى ذاك العهد ، فراحوا يقرضون الشعر بلغة عربية عالية ، وهو لعمرى حدث وحيد من نوعه فى التاريخ . وفاضت أرض الأندلس المترعة بعلوم الإسلام وآدابه التى عمت العالم ، وقامت النفوس التواقة إلى العرفان فى أقاصى البلدان ، تبرد شفاهها الظمأى بترشف ينابيع الحب والسلام المتفجرة من الشعر

العربي في قرطبة وطُلَيْطلة أولاً ، وإشبيلية وغرناطة آخراً ، ونظم سلفستر الثاني بابا رومية قصائد عربية لها أوزانها وقوافيها .

« وظلت اللغة العربية لغة التقاليد في الحب والعلم والشعر في كل من صقلية وبروفنسا وإيطاليا وبيزنطية ، بل في قلب بلاد ألمانيا . ورافق الشعر جيوش العرب الفاتحين وسفنهم الظافرة ، وواكبت قوافيه قوّادهم ، فكانوا يولجونها في الصدور على سنان الحراب ، ناشطين لإذاعتها نشاطهم لإذاعة سور القرآن الكريم . ولم يكن جل أناشيد طبقاته القديمة وكثير من أغاني شعراء الولايات الجوالين غير قصائد عربية لشعراء الأندلس ، أدخل عليها بعض التطور ، وبقيت محتفظة بأثر الروح الشرقي . وبالعربية نظم الإمبراطور فريدريك الثاني ملك صقلية مقاطيع ممتعة ، وجمع في بلاطه رهطاً من علماء الإسلام وشعرائه ليتخذهم ذريعة يبعث بها في ملكه ما كان للأدب العربي من بهاء في دمشق وبغداد وقرطبة وإشبيلية . وهي المدائن الأربع التي كانت في ذلك العهد قبلة أنظار النهضة الأدبية في العالم أجمع ، وقد اتضح للباحثين من المعاصرين أن في شعر دانتي الذي هو فخر أمة بأسرها ، مآخذ صريحة مردودة إلى الأدب العربي » .

قال : وإن روح الفروسية التي سادت القرون الوسطى ، وأحالت همجية الحروب إلى مداعبات على ظهور الخيل في ميادين الألعاب ، وأنتجت من الحب أدباً عالياً ، ومن المرأة صنماً معبوداً ، لهي روح خلقها الشعر العربي ، وحملها إلى العالم على أجنحة موشحاته ، فعم العالم « الأدب المنمق » الذي سبق « الروماطيقية[١] » ببضعة أجيال . ولئن كان للشعر العربي هذا التأثير في العالم ، فأحر به أن يكون في إسبانيا أشد بلوغاً منه في غيرها . كيف لا وقد عاش العرب سادة فيها مدة ثمانية قرون شادوا في خلالها أفخم صروحهم الهندسية والعلمية والأدبية . لا جرم أن

(١) يطلقون اسم الرومانطيق (Romantique) في الغرب على الكتاب الذين قاموا أوائل القرن التاسع عشر وتحرروا من قيود التراكيب والإنشاء التي عرفها القدماء باسم الكلاسيك (Classique) .

ملوك الكثلكة الظافرين أجلوا العرب منذ قرون عن شبه الجزيرة الإسبانية ، ولكن اللغة العربية ما برحت تمد معجمنا بما ينيف عن ربع مفرداته ، كما أن أنوار آدابها ما فتئت تلهب مخيلاتنا بأشعتها ، وتسعر دماءنا بحرارتها ، دافعة بنا إلى مجازفات تنطوى على جنة ، تراها ماثلة أيّ مثول فى حكايات « دون كيشوت » وأضرابه من الفرسان . وقد تأثر جل أدبنا الروائى وشعرنا بما اندمج فيه من الأسلوب العربى المحض ، حتى إن أوزان التفاعيل الثمان ، هى فى الأصل بحر اتخذه شعراؤنا ، ونظموا به على قافية واحدة ، تتكرر فى جملة الأبيات على نحو ما هو مألوف فى الشعر العربى .

ثم قال : « ويتعذر علينا نحن الإسبانيين إتمام أبحاث تاريخنا ، والنظر فى آداب لغتنا ، إن لم يستعن مؤرخونا ونقادنا فى مباحثهم بلغة المعتمد وأبى البقاء ، أو يستمدوا من المخطوطات العربية المبعثرة فى أنحاء العالم ، وإنك لتجد فى جميع الآثار التى خلفها كتابنا الأقدمون مسحة انتقادية هى أثر المعارف العربية الباسطة نورها على اللغات الحديثة منذ أنشأ « الدون خوان مانويل » كتابه المسمى « كونده لوكانور » إلى أن ألف « روخاس » كتابه « كالستنيا » ولا نغفل عن التنويه بمؤلفى « اللمح » وسواهم من كبار الكتاب والمنشئين . وليست جميع القصائد المجموعة فى كتب الأغانى الإسبانية لمختلف الشعراء سوى انتحال ما فى الدواوين الشرقية من شعر ، فإنك ترى ناظميها يرافقون فى أناشيدهم الإيقاع المتكرر فى ألحان الرباب .

« ليس فى طاقتنا معاشر الأندلسيين المؤمنين بالنصرانية ، أن نجحد دين أسلافنا المسلمين ، فلئن كان الأول دين سرائرنا ، فالثانى ما برح نتاج خيالنا القومى المزدان ببدائع التصور ، وإننا على رغم لباسنا الحديث ، وإهمالنا لغة أسلافنا العرب ، ما نزال أحفاد أولئك البدو الذين تعوّدوا فى وحشة الصحراء أن يخاطبوا الله ، وهم قعود أمام مضاربهم المنسوجة بوبر الإبل . ولو نزعنا بعض الكلس عن جدران جل كنائسنا ، لألفينا تحته لمعاً مذهبة لاسم الله الأقدس محفورة بحروف

كوفية ، ولو خدشنا بالأظفار بشرتنا الأوربية الصفراء لبرز لنا من تحتها لون بشرة العرب السمراء . إن قوميتنا الغربية هى العرض الظاهر ، أما القومية الشرقية فهى حقيقتنا الخالدة ، وما كانت عامة ثوراتنا الأدبية القديمة والحديثة فى الغالب غير أثر الروح العربى الذى يطفر من سويداء قلوبنا محتجًّا ناقمًا لأن ابن الصحراء المتمرد الحر الذى تعود الهواء الطلق تحت نور الشمس ، لا يقوى على الحياة خلف القضبان المتراصة فى الأقفاص المظلمة المثقل جوها بكثافة القواعد المنطقية والمناهج اللغوية .

« إن « غونغورا » أصفى شعرائنا روحاً يشبه كبار الشعراء فى بلاط الأمويين فى قرطبة ، أولئك الذين جمع لهم الحكم الثانى فى قصر مروان أغنى خزائن العالم ، جاعلاً لهم من حدائقها ميداناً لفنهم وخيالهم . وقد عرف « غونغورا » بالتباس فى تأدية المعنى ، وما ذاك إلا لتملك الطريقة العربية من نفسه ، إلى حد لم يجد معه فى مفردات لغته ما يستطيع أن يعكس بها ألوان معانيه الشرقية . لذلك تراه ينقل إليك بدمدمة غامضة ، الآيات العظيمة التى رفعت نفسه إلى درجة الذهول » .

هذا ما قاله الشاعر الإسبانى ، ثم عدّد تأثيرات النفوذ العربى فى الشعر الإسبانى والإيطالى والألمانى ، وقال : إن الأدب العربى أثر فى أعظم من رفع للرومانطيقية لواءها ، وبعد أن أورد أسماء كثير من الشعراء تأثروا بمؤثرات العرب ، قال إن التأثر بالأدب العربى البادى فى آداب اللغة الإسبانية ظاهر فى أناشيدهم الشعبية التى تمثل نفس أمته الشاعرة ، تستشف من خلالها إخاء الأمتين ، وإن النشيد الغرناطى لشديد الشبه بالنشيد البغدادى .

الموسيقى الأندلسية والرقص الأندلسى :

ذاك أثر الشعر العربى وتأثيره فى الغرب ، أما الموسيقى فكان العرب فى عامة أدوارهم مولعين بها منذ ذهبت عنهم وحشة البداوة ، وقد أعظم الخلفاء والأمراء والقضاة والعلماء والفلاسفة[1] والأدباء قدرها فى التهذيب[2] ، وأعطوها

(١) شرف الموسيقى للمؤلف فى كتابه (القديم والحديث) .

(٢) جورج سرطون (مجلة الكلية م ١٨) .

صدر المقام فيه ، حتى تخوّف بعض علماء الدين منها وبدأوا يفكرون : هل الموسيقى جائزة شرعاً ، وما هو القدر الذى يباح منها ، وهنالك تآليف كثيرة تعنى بالبحث فى العلاقة بين الموسيقى وحسن الأخلاق وسلامة الدين . وقد ألمّ الغزالى فى كتابه إحياء علوم الدين بهذا الموضوع ، وألف كبار رجال الإسلام فى فن الموسيقى فأبدعوا . وبدأت الموسيقى العربية تسرى من الحجاز ، نقلها إليه جماعة الموالى عن الفرس والروم ، وكانت الجارية التى تحسنها يبالغ فى قيمتها ، ويتنافس فيها الملوك والعظماء والأغنياء ، هكذا كان الحال فى كل بلد نزله العرب ، والمنكرون قلائل ، والمسمعون والمستمعون كثار .

وكان المسمعات والموسيقاريات يتعلمن صنوفاً من الأدب فيأخذن بمجامع القلوب ، بل كان منهن من يجتمع لها من أصناف العلوم ما لا يجتمع مثله إلا للأفراد مثل جارية ابن عبد الله المتطبب الأندلسى[1] فى النصف الأول من المئة الخامسة ، فإنها كما قال ابن حيان لم يرَ فى زمانها أخف منها روحاً ، ولا أسرع حركة ، ولا ألين أعطافاً ، ولا أطيب صوتاً ، ولا أحسن غناء ، ولا أجود كتابة ، ولا أجود خطاً ، ولا أبدع أدباً ، ولا أحضر شاهداً ، مع السلامة من اللحن فى كتبها وغنائها ، لمعرفتها بالنحو واللغة والعروض ، إلى المعرفة بالطب وعلم الطبائع ومعرفة التشريح ، وغير ذلك مما يقصر عنه علماء الزمان . وكانت محسنة فى صناعة الثقاف والمجاولة بالتراس ، واللعب بالرماح والسيوف والخناجر المرهفة ، لم يسمع لها فى ذلك بنظير ولا مثيل ولا عديل . ثم إن الأمير هذيلاً اشترى كثيراً من الجوارى الحسنات المشهورات بالتجريد ، طلبهن فى كل جهة فكانت ستارته أحسن ستائر[2] ملوك الأندلس ، واشترى تلك الجارية البديعة بثلاثة آلاف دينار . وروى أن بعض خلفاء العباسيين ابتاعوا بعض الجوارى من هذا الطراز البديع بمئة ألف دينار .

(١) البيان المغرب لابن عذارى (٢) أصحاب الستائر هم أرباب مجالس الغناء التى للقينات لأنهم كانوا يضربون ستارة تحول بينهن وبين المستمعين ويغنين من ورائها . فالمراد من وراء الستائر لا الستائر . وكان الخلفاء إذا أرادوا سماع الغناء سمعوه من وراء ستار يحجبهم عن الندماء والمغنين (تفسير الألفاظ العباسية لأحمد تيمور مجلة المجمع العلمى العربى م ٢) .

وكان فى مدينة آبدة فى الأندلس من أصناف الملاهى والرواقص المشهورات بحسن الانطباع والصنعة ما تظهن فيه أحذق خلق الله تعالى باللعب بالسيوف والدكر وإخراج القزى والمرابط والفتوخة . ولأهل الأندلس كما لأهل الشرق آلات من الطرب وألوان من الملاهى كادوا يتفردون بها . فنها خيال الظل أو الخيال الراقص والكرج والعود والروطة والرباب والقانون والمؤنس والكثيرة والقيثار والزلامى والشقرة والنورة والبوق[1] . ودام الغناء واللهو والأوتار والرقص فى الأندلس ، إلى عهد خروج العرب منها ، على حصة موفورة ، فكان من الطبيعى أن يأخذ الإفرنج عنهم ، ولا يزال إلى اليوم غناء الإسبانيين يشبه غناء العرب وموسيقاهم كأنها موسيقاهم ، وكذلك رقصهم وكثير من أدوات لهوهم .

هكذا الحال فى إسبانيا والبرتقال اليوم ، بل فى جمهوريات أميركا الجنوبية ، ولا سيما أهل الأرجنتين[2] والبرازيل ، وما زالت موسيقاهم وأنواع رقصهم عربية إلى اليوم أو تشبه العربية كثيراً ، ذلك لأنها منذ كان العرب سادة إسبانيا كانت موسيقاهم قائمة على علم مقرر محرر بفضل زرياب الذى رحل من المشرق ، فأدخل الموسيقى فى المغرب ، وعنه أخذ الأندلسيون وجيرانهم ، وما فتئت الموسيقى كالرقص إلى يومنا هذا فى إسبانيا ، أو فى الأصقاع التى تغلبت عليها إسبانيا فى سالف الدهر ، عربية لم يدخلها غير تعديل طفيف بحكم الزمن وطول العهد .

---

(١) الدكر نوع من الرقص . والقزى نوع من اللعب يعمد اللاعب إلى كيس أو جراب يريه للحاضرين أنه فارغ وبعد أن يتلو عليه بعض الآيات يخرج منه حبات أو قزى أو حبالا أو خيوطاً . والمرابط جمع مربوط وهو ما يربط به الدابة . والفتوخة خاتم كبير يكون فى أصابع اليد أو الرجل أو حلقة من فضة وإخراج المشعوذ الفتوخ من قبيل إخراج القزى والمرابط ، والكرج تماثيل خيل مسرجة من خشب معلق بأطراف أقبية يلبسها النسوان ويحاكين بها امتطاء الخيل فيكررن ويفررن ويثاقفن . والروطة ضرب من الرباب . والمؤنس قربة يركب فيها مزمار . والكثيرة ضرب من السنطور تنقر أوتارها بالأصبع . والزلامى نوع من المزمار وكذلك الشقرة والنورة وهما مزماران الواحد غليظ الصوت والآخر رقيقه . والبوق معروف (مجلة المقتبس م ١ ص ٤٣٥) .

(٢) رحلة محمد على إلى جنوبى أميركا .

مدنية العرب فى الأندلس

كلام على الأندلس وفتحها :

أطلقت[1] العرب على الأندلس اسم الجزيرة من باب التغليب ، كما أطلقت اسم الجزيرة على شبه جزيرة العرب . وذلك لأن الأندلس متصلة من أقصى الشمال بجبال البرينات أو الثنايا . وحدّها عندهم مسيرة ثلاثين يوماً طولاً ، وزهاء عشرين يوماً عرضاً ، يطوقها البحران الظلمات والمتوسط من أطرافها الثلاثة إلا من شمالها الشرق . ولا تعرف مساحة الأندلس على التحقيق أيام الحكم العربى ، وغاية ما يقال إن البرتقال داخلة فى الأندلس وكذلك برشلونة فى الشرق . ولم يبق من شبه جزيرة إيبريا أو إسبانيا والبرتقال اليوم أرض لم يصل إليها حكم العرب سوى مساحة ضئيلة وعرة من الشمال ، كانت تطلق عليها العرب اسم ديار الجلالقة وآشتوريا ، أو جبال قرقشونة وجبال بنبلونة وصخرة جليقية .

فالعرب ملكوا إذاً معظم شبه جزيرة إيبريا سنة ٩٢ هـ على يد موسى بن نصير وطارق بن زياد ، وتقدّم طارق بن زياد البربرى من بر العدوة[2] فى اثنى عشر ألف فارس من البربر وبعض العرب ، صيرها عسكرين قاد أحدها بنفسه ، ونزل به جبل[3] الفتح فسمى جبل طارق به إلى اليوم ، وقاد الآخر طريف بن مالك النخمى ، ونزل بمكان مدينة طريف فسمى به إلى اليوم . وقيل إن طارقاً أحرق السفن التى حملت عسكره فى هذا الزقاق بين العُدْوتين ، وخطب جيشه لما أطل عليه جيش

---

(١) تاريخ ابن خلدون .

(٢) العدوة بضم العين : المكان المتباعد ويطلق العرب بر العدوة على ما سامت الأندلس وشمالى إفريقية وبعد عن أرضهم إلى الغرب الأقصى والأوسط والأدنى .

(٣) وفيات الأعيان لابن خلكان .

صاحب طُلَيْطِلة فما قال : أيها الناس[١] أين المفر ، والبحر من ورائكم والعدوّ أمامكم ، فليس لكم والله إلا الصدق والصبر ، واعلموا أنكم فى هذه الجزيرة أضيع من الأيتام فى مآدب اللئام . وقد استقبلكم عدوكم بجيشه ، وأسلحته وأقواته موفورة ، وأنتم لا وزر[٢] لكم غير سيوفكم ، ولا أقوات لكم إلا ما تستخلصونه من أيدى أعدائكم ، وإن امتدّت بكم الأيام على افتقاركم ، ولم تنجزوا لكم أمراً ذهبت ريحكم ، وتعوّضت القلوب برعبها منكم الجرأة عليكم ، فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم ، بمناجزة هذا الطاغية ... واعلموا أنكم إن صبرتم على الأشق قليلا ، استمتعتم بالأرفه الألذّ طويلا ، فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسى ، فما حظكم فيه أوفر من حظى ، وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان من بنات اليونان ، ... وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك من الأبطال عرباناً ، ورضيكم لملوك هذه الجزيرة أصهاراً وأختاناً ، ...

وافتتحت برشلونة من جهة المشرق وحصون قشتاله وبسائطها من جهة الجوف ، وانقرضت أمم القوط ، وأوى الجلالقة ومن بقى من أمم العجم إلى جبال قشتالة وأربونة وأفواه الدروب فتحصنوا بها ، وأجازت عسكر المسلمين ما وراء برشلونة من دروب الجزيرة حتى احتلوا البسائط وراءها وتوغلوا فى بلاد الفرنجة حتى سكن المسلمون بعد حين أربونة (Narbonne) وصار رباطهم على نهر ردونة . وانقلب موسى إلى الخليفة الأموى بدمشق يحمل خبر الفتح ، ومن الغنائم ما تحار له العقول . وعرض عليه الأسرى وكانوا من أبناء ملوك البربر وملوك الروم وملوك الإسبان وملوك إفرنجة[٣] . وكان عهد الصلح مع الإسبان أن تحفظ على الأهلين دماؤهم ، فلا يُسبون ولا يفرق بينهم وبين أولادهم ونسائهم ، ولا يكرهون على دينهم ، ولا تحرق كنائسهم ، وجعلوا على كل رجل حر بالغ ديناراً فى السنة ،

(١) تاريخ ابن خلدون .

(٢) الوزر : الملجأ والمعتصم .

(٣) الإمامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة .

وأربعة أمداد قمح وأربعة أمداد شعير ، ومقداراً من الطلا والخل والعسل والزيت ، وعلى العبد نصف ذلك .

جيوش العرب وقبائلهم وحكومتهم فى الأندلس :

كانت جمهرة الجيش الذى فتح الأندلس مؤلفة من البربر ، وليس فيه من العرب إلا القليل . وأوّل من دخل الأندلس[١] مع طارق بن زياد نحو ثلاثمائة من العرب وزهاء عشرة آلاف من البربر ، فلما تم الفتح أرسل الأمويون قبائل من الشام أنزلوها فى كور مخصوصة من الأندلس ، وجعلوا لهم ثلث أموال أهل الذمة طعمة . فنزل فى البيرة جند دمشق من مضر وجلهم قيس وأفناء[٢] قبائل العرب . ونزل رية جند الأردن وهم يمن كلهم . ونزل شذونة جند حمص وأكثرهم يمن . ونزل مدينة « الجزيرة » البربر وأخلاط من العرب قليل . ونزل فى جيان جند قنسرين والعواصم وهم أخلاط من العرب من معدّ واليمن . ونزل قبائل البربر بلنسية وأكشونبة ، وفى باجة وتدمير جند مصر . وتمازج العرب بالسكان الأصليين واغتبط هؤلاء بمقدم العرب ، مؤملين السعادة فى أيامهم . وكانت المملكة قبل موافاة الفاتحين أصيبت منذ سنة ثمان وثمانين إلى سنة تسعين بمجاعة شديدة ، ثم وبئت حتى مات نصف أهلها أو أكثر . قال لسان الدين بن الخطيب : فلما استقر الفتح وبلغ حيث بلغ من التخوم ، سكنت العرب الأقطار وتبوأت الديار ، ثم دخلت بعد ذلك العرب الشاميون مع الأمير بلج بن بشر القشيرى فى عشرة آلاف فارس من أعلام أهل الشام ، وتسمى الطالعة البلجية ، فالداخلون مع موسى وطارق يسمون بالأندلس فى الرسوم والخطوط والإقطاعات بالبلديين ، والداخلون مع بلج بن بشر يسمون بالشاميين .

ومالبث الإسبانيون أن أحسوا بالفرق بين حكم العرب وحكم القوط « الويزغوت » ورأوا من تسامح الفاتحين وتفانيهم فى نشر العدل بين الناس ما يثلج له الفؤاد .

(١) غابر الأندلس وحاضرها للمؤلف . (٢) يقال أفناء الناس فنون الناس .

وأبقت العرب السكان الأصليين على قضائهم وإدارتهم ، وقلدوهم بعض الوظائف ، ثم وسدوا إليهم الجليل منها ، فأحب الإسبانيون العرب محبة خالصة . ورأوا البون الشاسع بين المدنية التى يحملها المسلمون ، وما كان للغوط من الثقافة المتـأخرة ، وكانت أقرب إلى الهمجية ، ولم يمض قرن حتى أخصبت القرى[1] وكثرت المزارع ، واتصل العمران اتصال الشؤبوب[2] ، وتزاحم الناس بالمناكب فى المدن ، وأمست قرطبة عاصمة الخلافة الأندلسية كعواصم أوربا اليوم ، تنار بالمصابيح ليلا ، ويستضىء المـاشى بسُرُجها ثلاثة فراسخ لا ينقطع عنه الضوء ، وأصبحت مبلطة أزقتها ، مرفوعة قاماتها ، وهى أول مدينة كان لها ذلك فى العالم . وغدت قرطبة عاصمة علم وصناعة وفن وتجـارة ، ولا تزال هذه المدينة قائمة ، وكانت فى الدهر الغابر تضم مليون نسمة ، ويتنزه المرء ساعات إذا أحب الوصول إليها . وقد تعدّ الاسـتعاضة عن الهلال بالصليب فى مدينة قرطبة انتصاراً عظيماً للنصارى كما قال لبون ، ولـكن الهلال كان يحكم أغنى المدن وأجملها وأكثرها سكاناً ، والصليب اليوم لا يخفق إلا على بقايا كامدة من تلك المدينة الزاهرة .

وناهيك ببلدة بلغ عدد مساجدها ألفاً وستمائة مسجد ، وحماماتها ستمائة ، وفيها مائتا ألف دار ، وثمانون ألف قصر ، ومنها قصر دمشق شيده بنو أمية بالصُّفاح والعمد ، حاكوا به قصرهم فى المشرق ، وأبدعوا بناءه ، ونمقوا ساحته وفناءه[3] . ودور قرطبة ثلاثون ألف ذراع ، وفى ضاحيتها ثلاثة آلاف قرية فى كل واحـدة منبر وفقيه ، وكان بالربض الشرقى من قرطبة مائة وسـبعون امرأة كلهن يكتبن المصاحف بالخط الـكوفى . هـذا فى ناحية من نواحيها فـكيف بجميع جهاتها . وكان فى مسجدها الذى بنى على طراز مسجد دمشق ١٤١٨ سارية تشبه غابة ملتفة ، ولما زرناه فى سنة ١٩٢١ م كان فيه ٨٦٠ سارية .

(١) تاريخ العرب لسيديليو وحضارة العرب لجستاف لبون وغرائب الغرب المؤلف .
(٢) الشؤبوب : الدفعة من المطر وغيره .
(٣) قلائد العقيان للفتح بن خاقان .

مدن الأندلس وعمرانها العربى :

ومن أهم مدن الأندلس على عهد العرب : الجزيرة الخضراء ، المَرِيّة ، بَطَلْيوس ، بَرْشَلونة ، بَسطة ، باجة ، قادس ، شَنترة ، شِلب ، قُلُمْرِية ، سَلمنقة ، وهاتان المدينتان اليوم من مدن العلم فى أسبانيا والبرتقال ، ومن مدنها جيان ، غرناطة ، وادى آش ، وادى الحجارة ، شاطبة ، شريش ، أشبونة ، لُوشة ، لُورَقَة ، مجريط ، مالَقة ، ماردة ، لاردة ، مُرْسية ، رُنْدة ، رَيّة ، شَنترين ، إشبيلية ، شَذونة ، طُرْطوشة ، طَركونة ، طُليطلة ، أُبدة ، ولنسية ، بلَنسية ، أَرجذونة ، أرجونة ، فحص البلوط ، الزهراء ، لُبْلة ، أُلب ، أُخشنبة ، قصر أبى دانس ، يابرة ، جِليانة ، طلبيرة ، قلعة رباح ، مدينة سالم ، مدينة غالب ، دانية ، شقورة ، قلعة حماد ، تدمير ، إستجة ، قبرة ، غافق ، المدوّر ، بياسة ، قسطلة ، المنكّب ، باغة ، اندراش ، أوديولة ، جزيرة شقر ، تُطيلة ، قرقشونة ، أُكشونبة ، قسطيلية .

ومن المتعذر استقصاء أعمال الأندلسيين فى العمران ، ووصف أبنيتهم ، وهندستهم وإبداعهم فى بناء مدينة الزهراء مثلا ، وكانت على أربعة أميال وثلثى ميل من قرطبة . والزهراء من بناء الملك الناصر ، وكان يقسم جباية البلاد أثلاثاً : ثلثا للجند ، وثلثا مدخراً ، وثلثا ينفقه على عمارة الزهراء . وكانت جباية الأندلس يومئذ خمسة آلاف ألف دينار وأربعمائة ألف وثمانين ألف دينار ، ومن الستوق[1] والمستخلص سبعمائة ألف وخمسة وستون ألف دينار ، وهى من أجمل بناء الأندلس وأجله خطراً وأعظمه شأناً كما قال مؤرخو تلك الديار . وما فتئت إلى اليوم بقايا قصور طليطلة وغرناطة وإشبيلية وغيرها موضع دهشة القادمين لزيارتها من الأمم الراقية . أما صناعاتهم وجميع أدوات ترفيهم فقد أدخلت فى الغرب

(١) درهم ستوق ، كتنور وقدوس وتستوق زيف : بهرج يلبس بالفضة .

أموراً لم يكن لأهلها عهد بمثلها ، ونشروا العلوم والآداب وطبقوا العلم على الزراعة والصناعة ، ولا تزال إلى اليوم السدود التى أقاموها فى ولاية بلنسية شاهدة بتفوقهم ، يعيش الإسبانيون بفضل هندسة العرب العجيبة بعد جلائهم عنها منذ أكثر من أربعة قرون . وبفضل هندستهم كانت المياه تجرى إلى كل مكان فى بسائط الجزيرة فتحمل الخصب والإمراع ، وقد عم الذوق باللذائذ العقلية جميع طبقات الأندلسيين وغدت المنافسة الشريفة على أتمها ، فكانوا يكتبون على جميع المصانع اسم من أمر ببنائها واسم بانيها ، والأمة تمدح المحسن بها والمحسن لبنائها ، ولم يبرح الغرب إلى اليوم يدرس أصول بناء العرب ، ويعجب بما نقشوه فيها من النقوش ، وما عمدوا إليه من الزينة المشفوعة بالمتانة والعظمة . وقصر الحمراء وجنة العريف فى غرناطة ، من آخر ما خلفه العرب من ذاك المجد المؤثل . وذكر بعض علماء الفرنجة أنه كان فى الأندلس على عهد الحضارة العربية أربعون مليون نسمة من أرباب الصناعات والأعمال ، وسكان إسبانيا اليوم نحو اثنين وعشرين مليوناً وسكان البرتقال ستة ملايين .

عمل العرب فى الأندلس :

غير عرب إسبانيا شكل الأندلس (١) فى بضعة قرون من حيث المادة والعلم ، وجعلوها فى منزلة دونها جميع الممالك . قال لبون : ولكن هذا التبدل لم يتناول الماديات والعقليات ، بل تعداها إلى الأخلاقيات ، فقد علموا وحاولوا أن يعلموا الشعوب النصرانية أثمن الصفات الإنسانية وأعنى بها « التسامح » ، ولقد كان من لطفهم مع الشعب الذى افتتحوا أرضه أن يعقد أساقفتهم مجامعهم الدينية فى إشبيلية سنة ٧٨٢م وفى قرطبة سنة ٨٥٢م ، وهذا من الأمثلة على حسن مأتاهم . ومنها

(١) راجع (غابر الأندلس وحاضرها) للمؤلف ، والسفر إلى المؤتمر لأحمد زكى ، وتاريخ العرب فى إسبانيا وتاريخ الأندلس لمحمد عبد الله عنان ، ورواية (آخر بنى سراج) مذيلة بخلاصة من تاريخ الأندلس لشكيب أرسلان ، وحضارة العرب فى الأندلس لعبد الرحمن البرقوقى ، ورحلة الأندلس لمحمد لبيب البتنونى ، وبلاغة العرب فى الأندلس لأحمد ضيف وغيرها من أقلام المعاصرين .

تلك الكنائس والبيع الكثيرة التى شادها نصارى الإسبان فى العهد العربى فى إسبانيا ، وكل ذلك دليل على الحرمة التى كان العرب يعاملون بها المعتقدات التى جعلت تحت حماية قانونهم . وقد انتحل الإسلام كثير من النصارى على حين لم يكن لهم فى ذلك غير مصلحة ضئيلة ، لأن النصارى الذين كانوا فى الحكم العربى ، ويطلق عليهم اسم المستعربين ، كانوا يعاملون كاليهود أيضاً على نصاب واحد من المساواة مع المسلمين ، ويمكنهم مثلهم أن يتولوا جميع أعمال المملكة ، وكانت إسبانيا العربية البلد الوحيد فى أوربا الذى كانت فيه حقوق اليهود مصونة حتى كثر فيها سوادهم . وكما كان يطلق اسم المستعربين على أبناء النصرانية الخاضعين لأحكام المسلمين فى الأندلس ، كان يطلق اسم المدجَّنين على المسلمين الخاضعين لحكومة إسبانيا .

وقال سيديليو ولبون وغيرهما : كان العرب فى إسبانيا من حيث الأخلاق والعلم والصناعة أرقى من النصارى ، وكان فى أخلاقهم وصفاتهم شىء من الكرم والإحسان ، مما لم يكن له أثر عند غيرهم ، وفيهم الشمم الذى امتازوا به ، وكان الإفراط فى حبه مولداً لجنون البراز المشئوم .

ونشر العرب فى الأندلس بما خصوا به من حسن المعرفة بالفلاحة وطرائقها المبنية على التجربة والمشاهدة ، ما هو العجب العجاب ؛ فزرعوا فلواتها ، وعمروا مدائنها ، وربطوا علائق تجارية مع الأمم المجاورة ؛ فظهرت بها الرفاهية ، وصفا العيش ؛ وكانت أساطيلهم التجارية تقلع من مالقة وبجاية والمرّية ولشبونة وبَرْشَلونة ، تحمل إلى الشرق والغرب حاصلات الأندلس ، وتأتى من الموانى التى أرست فيها بما يلزمها . وأهم ما كان الأندلسيون يهتمون له ، خصوصا بعد أن قطعوا صلاتهم بالعباسيين ، أن لا تقصر ديارهم عن العراق وفارس والشام ومصر فى سلوك سبيل الارتقاء . ولذلك كان كثير من خلفائهم يجعلون لهم عمالاً فى عواصم الشرق ينسخون لهم الكتب التى تؤلف حديثاً ، ليطلعوا على سير العلم فى العهد العباسى الأول والثانى ، ويبتاعوا كل ما تطول إليه أيديهم من الأسفار والطرائف ، لئلا يفوتهم شىء من علم علماء المشرق . على أن الرحلات ما انقطعت بين الأندلس

والمشرق ، وكذلك المشارقة لم يغفلوا عن الرحلة إلى تلك الجزيرة .

ومن أجمل ما وصف به عرب الأندلس قول صاحب فرحة الأنفس : « أهل الأندلس عرب فى الأنساب ، والعزة والأنفة ، وعلوّ الهمم ، وفصاحة الألسن ، وطيب النفوس ، وإباء الضيم ، وقلة احتمال الذل ، والسماحة بما فى أيديهم ، والنزاهة عن الخضوع وإتيان الدنية . وهنديون فى إفراط عنايتهم بالعلوم ، وحبهم فيها وضبطهم لها ورواياتهم . بغداديون فى نظافتهم وظرفهم ورقة أخلاقهم ، ونباهتهم وذكائهم ، وحسن نظرهم ، وجودة قرائحهم ، ولطافة أذهانهم ، وحدّة أفكارهم ، ونفوذ خواطرهم . يونانيون فى استنباطهم للمياه ، ومعاناتهم لضروب الغراسات ، واختيارهم لأجناس الفواكه . وهم أصبر الناس على مطاولة التعب فى تجويد الأعمال وتحسين الصنائع ، وأحذق الناس بالفروسية ، وأبصرهم بالطعن والضرب » .

قال سيديليو : والذى ساعد عرب الأندلس على بلوغ شأو العظمة اتساع نطاق العلوم والفنون والفلاحة والصناعة عندهم ، وقد ذاقوا كلهم لذة المعارف ، وتنافسوا فى ابتكار ما يمتازون به ، والشعر يرفع من أقدار نفوسهم . وكان على القضاة أن يتقنوا صنوفاً من العلم حتى يحلوا من الناس محل التجلة والكرامة .

العلم فى الأندلس :

أنشأ الأندلسيون فى كل ناحية المدارس وخزائن الكتب ، وأقاموا فى العواصم الجامعات التى كانت وحدها مواطن العلم فى أوربا زمناً طويلا ، ومما أعان على الاستكثار من الكتب ما كانت تصدره معامل شاطبة من الورق ، وبهذه الطرق الجديدة فاض النور على الرجال والنساء ، وعلى الموافقين والمخالفين ، حتى أصبحت قرطبة مدة ثلاثة قرون أكثر مدن العالم القديم نوراً . وكانت حضرة ملوكها وقصور خلفائها ، لكثرة عنايتهم بالعلم ، وحرصهم على استجلاب العلماء إليها من كل فج وصوب ، أشبه بمجامع علمية ، وقاعات خزائن كتبهم كأنها دور حكمة ،

فيها معامل كبيرة خصت بالنساخين والمجلدين والمذهبين والنقاشين . ومن خزائنهم ما كانت جرائد أسمائها تستغرق عشرات من المجلدات .

ولقد كان الحكم الثانى من أعظم المفضلين على الآداب ، نشر العلم فى أمته حتى قلّ فيها الأميون ، وأنشأ فى عاصمته خزانة كتب فيها من عامة العلوم نحو أربعمائة ألف مجلد ، وربما كان أعلم أمير جاء فى الإسلام(١) . وكانت جامعة قرطبة فى أيامه أعظم جامعات الأرض تقرأ فيها العلوم الطبيعية والرياضية والفلكية والكيمياوية . وكان عبد الرحمن الثانى عالماً أديبا شاعراً يعرف علوم الفلاسفة .

ولما ملك الأندلس أمير المسلمين يوسف بن تاشفين من المرابطين انقطع إليه « من الجزيرة من أهل كل علم فحوله ، حتى أشبهت حضرته حضرة بنى العباس فى صدر دولتهم ، واجتمع له ولابنه من أعيان الكتّاب وفرسان البلاغة ما لم يتفق اجتماعه فى عصر من الأعصار » ، وكان الفيلسوف ابن طفيل من رجاله هو الذى جلب إليه العلماء من جميع الأقطار ، ونبهه على فضل ابن رشد الفيلسوف .

وكان لملوك الأندلس غرام باصطفاء كبار العلماء للوزارة ، يشتملون على الدولة ويدبرون أمرها ، ومنهم من برزوا فى السياسة والإدارة وقيادة الجيوش تبريزهم فى العلم والأدب ، وكانوا يتشددون كثيراً فى البحث عن أصولهم ، والأغلب أنهم كانوا من أصول عربية ، وكذلك كانوا فى تولية القضاء ، فقد ولى قضاء الجماعة سنة خمسين ومائتين(٢) عمرو بن عبد الله من الموالى ، وهو أول من ولى قضاء الجماعة للخلفاء من الموالى ، فشق ذلك على العرب فبلغ ذلك الأمير فقال : وجدت فيه ما لم أجد فيهم . وجرى على هذه السنة الأمويون ثم المرابطون والموحدون ثم بنو الأحمر ، ومن تخلل هذه الدول الكبرى من ملوك الطوائف ، ونسجوا على أساليب الدولة العباسية وغيرها من دول المشرق .

كان عبد الرحمن الداخل بعد أن قطع صلاته بالعباسيين يريد الأندلسيين على أن

---

(١) معلمة الإسلام .

(٢) كتاب القضاة بقرطبة للخشنى

يعتبروا إسبانيا وطنهم الحقيقي ، ينفق دخل مملكته في الأعمال النافعة ، لعدم احتياجها إلى الجيوش الكثيرة والأساطيل البحرية ، وكان خلفاؤه يرون أبداً أن ينسجوا على منواله ، وصح أنه كان لبعض ملوكهم الخالفين جيوش دائمة تحت السلاح مستعدة للوثبة عند أقل بادرة ، مما لم يكن يعهد في الغرب ، ولم يعرف إلا في بعض الأدوار عند ملوك الشرق . وبلغ من عز الإسلام في عهد هشام الأموي ، وكانوا يشبهونه لتقواه بعمر بن عبد العزيز ، أن رجلا في أيامه ، كان أوصى أن يفك أسير من المسلمين من تركته ، فطلب ذلك فلم يوجد أسير يشترى ويفك ، لضعف العدوّ وقوّة المسلمين .

ترجم عرب الأندلس كتب اليونان واللاتين ، فكان لهم من ذلك حظ لا يقل كثيراً عن حظ خلفاء العباسيين في الشرق . ونجح العرب هناك من وراء الغاية في دراسة الرياضيات والفلك والطبيعيات والكيمياء والطب ، وكانت لهم المخابر والمصانع ، ولم يقلّ نجاحهم في الصناعة والتجارة عن دولة راقية من دول اليوم . فكانوا يبعثون بحاصلات المعادن ومعامل السلاح والحرير والجوخ والجلد والسكر والورق إلى إفريقية وسائر المشرق ، على أيدي تجار من اليهود والبربر . وأهم ما لإسبانيا اليوم من أعمال الري هو من صنع العرب ، فإنهم أدخلوا إلى سهول الأندلس الخصيبة زراعات منوعة ، فأصبحت الأندلس جنة كبرى بفضل ثقافتهم العالية ، وتناولت هممهم عامة فروع العلوم والصناعة والفنون ، وكانت مشاريعهم العمومية على مثال مشاريع الرومان بعظمتها وفضل غنائها . وقد أنشأوا الطرق والجسور والفنادق للسياح ، وشادوا المستشفيات والجوامع والرباطات ، وكان الأمويون في الغرب كالعباسيين في الشرق يجددون عهد بركليس على ما قال رينالدي ، وكان الحكم الثاني أكثر ملوك الأندلس اشتغالا بالعلم ونشره وعناية به ، وأجودهم في سبيله ؛ فقد أسس في قرطبة وحدها ٢٧ مدرسة كان يتعلم فيها أبناء الفقراء مجاناً . وروى دوزي[١] أنه كان كل فرد في الأندلس يعرف القراءة والكتابة ،

(١) تاريخ المسلمين في أسبانيا لدوزي

بينا كان فى أوربا جميع النصارى حتى النبلاء والأشراف منهم ، لايفكرون فى التعليم . وأنشأ الوزير رضوان النصرى (٧٦٠ هـ) المدرسة بغرناطة ولم تكن بها . قال ابن الخطيب وهو الرجل الذى قلّ فى الدولة أمثاله ذكاء ، لم يكتسب من غير التجر والفلاحة مالاً ، وقد أقام من أعمال العمران ما يحسده عليه أعظم طواغيت الزمان .

يقول بالستر المؤرخ الإسبانى : إن العرب فى الأندلس امتازوا بالسرعة الغريبة فى تلقف علوم العالم القديم ، من فلسفة وتاريخ وحساب وجبر وهندسة وفلك وعلوم طبيعية ، وتفردوا خاصة بعلم النبات ، نشروه فى مدارس لهم كثيرة ، ومن أعمرها مدارس قرطبة وطليطلة وإشبيلية . قال : والعرب أنفسهم لم يحملوا إلى إسبانيا ثقافة عظيمة ، وإن الفضل فى الجلال العلمى والأدبى الذى اشتهرت به الجامعات الإسلامية خلال سلطان العرب فى إسبانيا ، يرجع إلى جماعة من المغاربة واليهود ، وإنه جاءت من اليهود طبقة مشهورة من الأطباء . وأولع العرب من ألوان الأدب بالشعر الغنائى والقصة والمثل فى قوالب حكايات قصيرة .

ويقول لويس من علماء المشرقيات فى البرتقال(١) : إن المنوّرين من مواطنيه اليوم يقدّرون الأمة العربية المجيدة حق قدرها ويدرسون مآتيها فيما أبقته من آثارها الخالدة ، ولا سيما هندستها فى المبانى التى أصبحت خاصة بها ، تفتخر بها الشعوب المتمدنة لعهدنا وتعجب منها . قال : وتاريخ العرب حافل بذكائهم وتقدّمهم وسيادتهم فى كل العلوم والفنون حتى فى الزراعة ، فقد كانوا بعد غزوهم إحدى المقاطعات واضطرارهم إلى خرابها ، يجعلون منها بعد سنين جنات حقيقية ، وذلك بفضل مساعيهم وتفوقهم وتدابيرهم العجيبة .

ميزات الحكومات الأندلسية :

ويطول بنا مجال القول إذا حاولنا أن نعرض هنا ، لما خدم به الأندلسيون

(١) تأثيرات سياحة لموسى كريم .

العلم والأدب . فقد أشرنا إلى بعض ذلك فى فصول سابقة كمواطن العربية وأثرها فى اللغات الشرقية والغربية ، وحال الغرب فى شباب الإسلام ، وأثر علوم العرب فى الغرب ، وأثر شعر العرب وفنونهم فى الأمم الغربية ، وتأثير العرب فى البلاد المغلوبة . ويهمنا هنا أن نرسم صورة من صور الأندلس وعمرانها على عهد العرب ، لأن من هذه الجزيرة انبعث نور العرب فى غربى أوربا ، كما انبعث فى أواسطها من جزيرة صقلية . وبذلك يثبت أن العرب إذا فتحوا جنوبى أوربا بجيوشهم ، فقد حملوا إليها جيوش علمهم وفنهم وصناعتهم ، يحيون موات تلك الأقطار البعيدة من دار أعرابيتهم ، ويلقنون أهلها معنى الحياة الراقية ، ويذيقونهم طعم السعادة . والعرب وإن كانوا إلى قلة فى تلك الديار ، فقد أصّلوا فيها حضارتهم ثمانية قرون . ولولا تخالف نشأ بين رجال الأمر فيهم ، لظلوا يحكمون تلك المملكة ، وينتجون ماينفع الأرض وسكانها ، وإن حاربهم كثير من أمم أوربا بتحميس الباباوات لها ، حتى تعاون الجميع على إخراجهم ، بعد أن قاموا بعملهم الشريف ، ونقلوا إلى الممالك اللاتينية والجرمانية والإنجليزية وغيرها بضاعة علمهم الزاخر وخلقهم الباهر .

قال بعض الباحثين : لما استولى العرب على ناربون وبروفنسيا وغيرها عمروها فأحسنوا عمارتها ، وكان شانجه أمير ليون يستشير بنفسه أطباءهم ، وممن تعلموا فى مدارس قرطبة لفنرابل ولابيه دى كلونى . وأخذت فرنسا من العرب أساليبهم فى الزراعة ، وحفر الترع والخلجان ونظام الرى . وبلّدوا فى الأندلس النباتات والأشجار التى لم تكن تعرفها ، فانتقلت إلى أوربا ، وأتونا بصناعة السجاد وإنشاء السفن .

ضعف السياسة العربية :

وأصاب الأندلس إدبار بعد ذلك الإقبال ، فسقطت سياسة أهلها وإن لم تسقط مدنيتهم ، تفرّقت كلمتهم حتى أمسى بعض عمال الولايات وقضاتها يحاولون أن ينفعوا بالملك أو الأمير لاستبدادهم بالأمر دون من ولاّهم ، بل كثر فى بعض

أدوارهم الطامعون من أدعياء الخلافة ، والراغبون فى التلقب بأمير المؤمنين ، ومن أمرائهم من كان « منكمشة ولايته ، قليلة جبايته ، فإن نظره لم يزد على امتداد ناظر » . وجاء زمن ، كما قال ابن حزم ، وطرطوشة وسَرَقُسطة وأفراغة ولاردة وقلعة أيوب فى يد بنى هود ، وبَلَنسية فى يد عبد الملك بن عبد العزيز ، والثغر أى ما فوق طُلَيْطلة من جهة الشمال فى يد بنى رزين ، وطليطلة فى يد بنى ذى النون ، وقرطبة فى أيدى أبناء جهور ، وإشبيلية فى يد بنى عباد ، ومالقة والجزيرة الخضراء فى يد بنى برزال من البربر ، والمَرِيّة فى يد زهير العامرى ثم ابن صمادح ، ودانية وأعمالها والجزائر الشرقية فى يد مجاهد العامرى ، وبطليوس ويابرة وشنترين ولشبونة فى يد بنى الأفطس ، وقسمت الأندلس بعد سقوط الأمويين إلى تسع عشرة مملكة . منها قرطبة وإشبيلية وجيان وقرمونة والغرب والجزيرة الخضراء ومرسية وبلنسية ودانية وطرطوشة ولاردة وسرقسطة وطليطلة ولشبونة ، وكان ذلك بعد ذهاب الحكم من بنى أمية سنة ٤٠٧ ولو لم يتداركها ملك الغرب الأقصى ابن تاشفين أواخر المائة الخامسة لما بقيت فى أيدى المسلمين إلى سنة ٨٩٧ هـ . ولو لم يقم فى سنة ٦٣٥ رأس ملوك بنى الأحمر ويستولى على غرناطة ، ويضم إليها بلداناً أخرى مهمة من أمهات مدن الأندلس فيجمع الشمل ، لكان المتحتم انحلالها قبل الأوان .

كان من اختلاف كلمة المتغلبين ووجودهم وسط أعداء أشداء يسعون كل يوم إلى تأييد سلطانهم ، والأخذ بالقديم من ثاراتهم ، ما قبح أثره ، وساء خبره ومخبره . كل هذا وأمراء الطوائف ساهون لاهون « همة أحدهم كأس[1] يشربها ، وقَيْنَة تسمعه ، ولهو يقطع به أيامه » وبلغ من تخاذلهم أن كان ملوك النصارى يأخذون الإتاوة من ملوكها قاطبة مدة سنين طويلة ، وأن يلتجئ أحدهم إلى عدوه

(١) زعم ليفى بروفنصال فى كتابه أسبانيا الإسلامية فى القرن العاشر أن جميع طبقات المجتمع الإسلامى كانت تتعاطى الخمر كالنصارى واليهود ، وأن شاربى الخمر ما كانوا يعاقبون بشدة كما يقضى بذلك الشرع ، على أن الخمر ما كانت تشرب فى كل ناحية علناً .

الإفرنجى ليمينه على أبيه وأخيه . ولذلك رأينا عرب الأندلس يهلكون لانقسامهم على أنفسهم ، أكثر من هجمات الأجانب عليهم ، والمرض الداخلى أشق من المرض الخارجى .

هذا ما كان من فساد سياسة الأندلس ، وهناك عوامل اجتماعية كان منها ضعف الأندلسيين . وقد أشار إلى بعضها ابن خلدون فى المائة الثامنة فقال : إنه ذهب من أهل الأندلس رسم التعليم ، وقلت عنايتهم بالعلوم لتناقص عمرانهم بها منذ مئين من السنين ، ولم يبق من رسم العلم فيهم إلا فن العربية والأدب ، وأصبح الفقه رسماً خلواً وأثراً بعد عين ، والعقليات لا أثر لها ولا عين ، فانقطع سند التعليم بتغلب العدو على عامتها ، وشغل الناس بمعايشهم أكثر من شغلهم بما بعدها ، وأخذ القوم يتشبهون بالجلالقة فى ملابسهم وشاراتهم والكثير من عوائدهم وأحوالهم حتى فى رسم التماثيل فى الجدران والمصانع والبيوت . قال حتى لقد يستشعر من ذلك الناظر بعين الحكمة أنه من علامات الاستيلاء .

الانحطاط وتعصب الأسبان :

أظننا الآن رسمنا صورة صغيرة من الأندلس فى حكم العرب ، وما أنتجته من خير للمدنية فى الأصقاع التى نزلوها ، بقى أن نصف ما آلت إليه حالة تلك الأمة مع خصيمتها لما ضعف أمرها . عمل العرب منذ فتحوا أرض الأندلس ما ينفع الأندلسيين الأصليين ، وكانوا فى أيامهم الطويلة التى دامت ما يقرب من عمر مملكة الرومان مثال المسامحة واللطف والحرية . ولما عاد النصارى فافتتحوا غرناطة آخر معقل للإسلام[1] لم يروا الاقتداء بالتسامح الذى أظهره العرب نحوهم خلال عدة قرون ، بل كان منهم على الرغم من المعاهدات المعقودة مع المسلمين ، أن اضطهدوا هؤلاء اضطهاداً قاسياً ، ولم تصح عزيمتهم على طرد العرب طرداً نهائياً إلا بعد قرن ، فكان التفوق الفكرى فى العرب من موجبات بقائهم على رأس جميع الصناعات ،

(١) حضارة العرب لجستاف لبون .

رغم ما نالهم من الاضطهاد . والحق مع الإسبان فى اتهامهم العرب بالاستيلاء على الأعمال جميعها ، ولذلك طالب الشعب الإسبانى بطرد العرب فقط ، وأفرط رجال الدين فكانوا يقضون بتقتيلهم على بكرة أبيهم ، يحاولون أن لا يبقوا منهم دياراً ، وأن لا يعفى من هذا البلاء النساء والشيوخ والأطفال . واتخذ فيليب الثانى طريقاً بين بين ، مقتصراً فى سنة ١٦١٠ على إعلان طرد العرب ، ومصدراً أمره سراً ، بأن يذبح معظمهم قبل أن يتمكنوا من مغادرة أرض إسبانيا ، فأهلك نحو ثلاثة أرباعهم .

ولما انتهى الطرد والمذابح عمت الأفراح ، وظهر أن إسبانيا ستدخل فى طور جديد ، فنشأت نتائج عظيمة من هذه الإبادة العامة التى لم يقع لها مثيل فى التاريخ . ترك فردينـاند للعرب حريتهم الدينية وحرية لغتهم فى المعاهدة التى عقدها معهم ، ومنذ سنة ١٤٩٩ بدأ عهد الاضطهادات ، فأخذوا يُعَمِّدون أبناء العرب بالقوّة ، مدعين أن العرب كانوا نصارى ، وسيقوا إلى ديوان التحقيق الدينى فأحرق منهم من استطاع أن يحرقه ، وسار هذا العمل ببطء للصعوبة فى إحراق عدة ملايين من الأنفس . فاقترح الكردينال رئيس الأساقفة لتطهير أرض إسبانيا من العنصر العربى — وكان هذا الكردينال الحاكم المتحكم فى ديوان التحقيق فى المملكة ومن كبار أهل الصلاح والتقوى ! — أن يقتل بالسيف جميع العرب الذين لم يدينوا بالنصرانية وفى جملتهم النساء والأطفال . وكان الدومنيكى « بليدا » أشدّ قسوة ، فقضى أن يقتل العرب بدون استثناء ، لأنه رأى أنه لا يتأتى أن يعلم إذا كان جميع المهتدين هم نصارى فى قلوبهم . ولاحظ ، وهو على حق فيما لاحظ ، أنه من السهل على المولى أن يميز فى الدار الآخرة بين من يستحقون عذابه ومن لا يستحقونه . يقول فولتير لما فتحت العرب إسبانيا لم يرغموا قط النصارى الوطنيين على انتحال الإسلام ، ولما استولى الإسبان على غرناطة أراد الكردينال كسيمنس أن يُنَصِّر كل العرب ، دفعته إلى ذلك غيرة دينية ، أو طموح إلى إنشاء شعب جديد يخضع لصولته ، وأرغم خمسين ألف عربى على أن يحملوا رمز دين لا يؤمنون به .

الإفرنجي ليعينه على أبيه وأخيه . ولذلك رأينا عرب الأندلس يهلكون لانقسامهم على أنفسهم ، أكثر من هجمات الأجانب عليهم ، والمرض الداخلي أشق من المرض الخارجي .

هذا ما كان من فساد سياسة الأندلس ، وهناك عوامل اجتماعية كان منها ضعف الأندلسيين . وقد أشار إلى بعضها ابن خلدون في المائة الثامنة فقال : إنه ذهب من أهل الأندلس رسم التعليم ، وقلت عنايتهم بالعلوم لتناقص عمرانهم بها منذ مئين من السنين ، ولم يبق من رسم العلم فيهم إلا فن العربية والأدب ، وأصبح الفقه رسماً خلواً وأثراً بعد عين ، والعقليات لا أثر لها ولا عين ، فانقطع سند التعليم بتغلب العدو على عامتها ، وشغل الناس بمعايشهم أكثر من شغلهم بما بعدها ، وأخذ القوم يتشبهون بالجلالقة في ملابسهم وشاراتهم والكثير من عوائدهم وأحوالهم حتى في رسم التماثيل في الجدران والمصانع والبيوت . قال حتى لقد يستشعر من ذلك الناظر بعين الحكمة أنه من علامات الاستيلاء .

الانحطاط وتعصب الأسبان :

أظننا الآن رسمنا صورة صغيرة من الأندلس في حكم العرب ، وما أنتجته من خير للمدنية في الأصقاع التي نزلوها ، بقي أن نصف ما آلت إليه حالة تلك الأمة مع خصيمتها لما ضعف أمرها . عمل العرب منذ فتحوا أرض الأندلس ما ينفع الأندلسيين الأصليين ، وكانوا في أيامهم الطويلة التي دامت ما يقرب من عمر مملكة الرومان مثال المسامحة واللطف والحرية . ولما عاد النصارى فافتتحوا غرناطة آخر معقل للإسلام[1] لم يروا الاقتداء بالتسامح الذي أظهره العرب نحوهم خلال عدة قرون ، بل كان منهم على الرغم من المعاهدات المعقودة مع المسلمين ، أن اضطهدوا هؤلاء اضطهاداً قاسياً ، ولم تصح عزيمتهم على طرد العرب طرداً نهائياً إلا بعد قرن ، فكان التفوق الفكري في العرب من موجبات بقائهم على رأس جميع الصناعات ،

(١) حضارة العرب لجستاف لبون .

رغم ما نالهم من الاضطهاد . والحق مع الإسبان فى اتهامهم العرب بالاستيلاء على الأعمال جميعها ، ولذلك طالب الشعب الإسبانى بطرد العرب فقط ، وأفرط رجال الدين فكانوا يقضون بتقتيلهم على بكرة أبيهم ، يحاولون أن لا يبقوا منهم دياراً ، وأن لا يعفى من هذا البلاء النساء والشيوخ والأطفال . واتخذ فيليب الثانى طريقاً بين بين ، مقتصراً فى سنة ١٦١٠ على إعلان طرد العرب ، ومصدراً أمره سراً ، بأن يذبح معظمهم قبل أن يتمكنوا من مغادرة أرض إسبانيا ، فأهلك نحو ثلاثة أرباعهم .

ولما انتهى الطرد والمذابح عمت الأفراح ، وظهر أن إسبانيا ستدخل فى طور جديد ، فنشأت نتائج عظيمة من هذه الإبادة العامة التى لم يقع لها مثيل فى التاريخ . ترك فرديناند للعرب حريتهم الدينية وحرية لغتهم فى المعاهدة التى عقدها معهم ، ومنذ سنة ١٤٩٩ بدأ عهد الاضطهادات ، فأخذوا يُعَمِّدون أبناء العرب بالقوة ، مدعين أن العرب كانوا نصارى ، وسيقوا إلى ديوان التحقيق الدينى فأحرق منهم من استطاع أن يحرقه ، وسار هذا العمل ببطء للصعوبة فى إحراق عدة ملايين من الأنفس . فاقترح الكردينال رئيس الأساقفة لتطهير أرض إسبانيا من العنصر العربى — وكان هذا الكردينال الحاكم المتحكم فى ديوان التحقيق فى المملكة ومن كبار أهل الصلاح والتقوى ! — أن يقتل بالسيف جميع العرب الذين لم يدينوا بالنصرانية وفى جملتهم النساء والأطفال . وكان الدومنيكى « بليدا » أشدّ قسوة ، فقضى أن يقتل العرب بدون استثناء ، لأنه رأى أنه لا يتأتى أن يعلم إذا كان جميع المهتدين هم نصارى فى قلوبهم . ولاحظ ، وهو على حق فيما لاحظ ، أنه من السهل على المولى أن يميز فى الدار الآخرة بين من يستحقون عذابه ومن لا يستحقونه . يقول فولتير لما فتحت العرب إسبانيا لم يرغموا قط النصارى الوطنيين على انتحال الإسلام ، ولما استولى الإسبان على غرناطة أراد الكردينال كسيمنس أن يُنَصِّر كل العرب ، دفعته إلى ذلك غيرة دينية ، أو طموح إلى إنشاء شعب جديد يخضع لصولته ، وأرغم خمسين ألف عربى على أن يحملوا رمز دين لا يؤمنون به .

يقول بليدا الدومنيكي إنه قتل ثلاثة أرباع من جلوا من العرب في طريقهم إلى دار هجرتهم ، فقتل مائة ألف من حملة واحدة كانت مؤلفة من ١٤٠ ألفاً وذلك خلال ارتحالهم إلى إفريقية . وفقدت إسبانيا في بضعة أشهر مليوناً من رعاياها . ويقول سيديليو ومعظم المؤرخين إن عدد من فقدتهم إسبانيا بلغ ثلاثة ملايين ، وذلك من فتوح فرديناند إلى طرد العرب الطرد الأخير . وذكر فاريتي[1] وهو من أعظم مؤرخي إسبانيا أنه نفي من إسبانيا في مختلف العصور مليونان من اليهود ، وثلاثة ملايين من العرب والعرب المتنصرة « الموريسك » ، وبلغ من هلك من المتنصرة أو استرق منهم أثناء هذه الفاجعة زهاء مائة ألف . قال لبون : إذا قيست مذبحة سان بارتلمي بمثل هذه المجازر عدّت مناوشة لا شأن لها ، ولم يحدث من أشدّ الفاتحين توحشاً وأقساهم قلباً ، حادث مثل هذا نسب إليه ما نسب لهذه المذابح الثلاث ، ومن سوء حظ إسبانيا أن هذه الثلاثة ملايين من الرعايا الذين حرمتهم إسبانيا باختيارها كانوا يؤلفون الطبقة العالية في العلم والصناعة .

ويفهم من مجموع روايات بالستر[2] أن الشعب الإسباني متعصب بفطرته ، ومن تعصبه أن حكومته أصدرت أمرها في سنة ١٤٩٢ بإجلاء اليهود عن أرضها ، على أن لا يحملوا معهم ذهباً ولا فضة ولا شيئاً من النقد ، فنزلوا في البرتقال وإيطاليا وشمالي إفريقية ، ثم تدخلت حكومة إسبانيا فجلتهم أيضاً عن البرتقال . وما كان عددهم يقلّ عن مائتين وأربعين ألفاً اختصوا في الصناعات والتجارة ولا سيما في الصرافة .

ومع أنه كان في معاهدة تسليم غرناطة[3] شروط كثيرة لحماية أنفس المسلمين وأموالهم وإطلاق الحرّية الدينية لهم ليقوموا بشعائر دينهم على ما يحبون . لم تنفذ هذه الشروط زمناً طويلاً ، وبدأ التنصير في غرناطة بتحريض الكردينال

(١) ديوان التحقيق لمحمد عبد الله عنان .
(٢) تاريخ أسبانيا لبالستر .
(٣) معلمة الإسلام مادة موريسكو .

سيزصروس ورئيس الأساقفة فيها منذ سنة ١٤٩٩ وأخذ هذا الكردينال يدعو المسلمين إلى انتحال النصرانية بالمواعظ والخطب ، ثم حاول أن يرفع ما أمكن الكتب العربية فى مختلف فروع العلوم الإسلامية فأمر بإحراقها ، فثار المسلمون فى البيازين والبشرات والمرية وباجة وقادس ورُندة . ورأت إسبانيا فى سنة ١٥٠١ أن تخير المسلمين بين الهجرة أو التنصر ، والظاهر أن هذا الأمر لم يطبق بحذافيره وظل المسلمون فى الجبال فى حالة أشبه بنصف استقلال أكثر من نصف قرن ، ثم نُصّر جميع المسلمين فى قشتالة وترك مسلمو أرجون ، ثم تنصر كثير من المسلمين فى شنت مارية الشرق على الوادى الكبير فى السنين الأولى من القرن السادس عشر . وفى سنة ١٥٦٦ صدرت أوامر مجريط تحظر على من بقى من المسلمين فى إسبانيا استعمال اللغة العربية ، وكان ضعف أمرها حتى بين المسلمين ، وأمروا بأن يتركوا شعائرهم وينزعوا لباسهم ويبدلوا طراز معيشتهم ، فثار المسلمون فى غرناطة والبشرات ودامت الحرب سنين حتى صدر الأمر الأخير بطرد العرب سنة ١٦٠٤ فرحل فى سنتين عن إسبانيا نحو نصف مليون مسلم ، وطويت صحيفة الإسلام فى شبه جزيرة الأندلس .

أما بلاد البرتقال ، أو القسم المعروف عند العرب بالأندلس أيضاً من ديار البرتقال ، فقد استولى عليها العرب عدّة سنين وتخلوا عنها ثم عادوا إليها ، ولما جلا العرب من لشبونة قبل جلائهم عن غرناطة بزمان طويل عاملهم البرتقاليون بمعاونة[1] قرصان من الفرنسيين والإنجليز والنورميين والألمان والبلجيكيين معاملة قاسية : قتلوا الأطفال والرجال ، وسبوا الأعراض ودنسوا كل شيء وأحرقوا أقوات المدينة ، فهلك نيف وعشرون ألف نسمة ، ذكر ذلك المؤرخ البرتقالى هركولانو نقلاً عن مؤرخى البرتقال . وفى تاريخ البرتقال أن الملك الفونسو هنريك لما صحّ عزمه على ضرب المسلمين فى أرض البرتقال ودخل شنترين وشنترة ولشبونة (١١٤٧م) ، أعانه فى حصار لشبونة جماعة من الصليبيين من أهل اللورين

(١) تأثير سياحة لوسى كريم .

وفلامنديا كانوا مبحرين إلى بيت المقدس وبقى المسلمون فى تلك الديار بعد سقوطها بأيدى البرتقاليين لأنهم منعوهم من مغادرتها حتى طرد الملك عمانويل من بلاده المسلمين واليهود بلا قيد ولا شرط أواخر القرن الخامس عشر ، استجلاباً لرضا ملك قشتالة وأرجون وملكتها ا ه . ولما أراد الإفرنج القضاء على دولة الموحدين بالأندلس (٦٠٥هـ) نادى البابا بالحرب المقدّسة فخفت جيوش النصرانية من إيطاليا وفرنسا وألمانيا واتحدت قوّاتها بإسبانيا وتم للإسبان ما أرادوا .

أباد الإسبانيون فى الأندلس كل أثر للعرب ، فخرّبوا بيوتهم بأيديهم ، ومن أهم ما قضوا عليه كتب العرب فقد أمر[1] الكردينال كسيمنس — أعدى عدوّ للإسلام والمدنية — فى سنة ١٥١١ بعد أن أحرق فى ساحات غرناطة مقداراً من كتب العرب ، ولا سيما المصاحف المخطوطة ، أن تباد كتب العرب من إسبانيا ، فتم ذلك بغيرة عمياء مدّة نصف قرن ، ولولا تلك المترجمات إلى العربية واللاتينية لقضى هناك على الحضارة العربية بجملتها . وكاد ديوان التحقيق الدينى الذى أخذ على نفسه إبادة كل أثر للعرب أن يجعل طعاماً للنار تلك المخطوطات العربية التى حفظت فى خزائن كتب الأسكوريال ، لولا أن تلطف المركيز فيلادا وحال دون إحراقها .

قام العرب بصنيعهم من تمدين إسبانيا قروناً طويلة ، ونقلوا المدنية إلى الممالك الأخرى ، فكان جزاؤهم يوم ضعفت سياستهم ، أن يقتلوا شر قتلة ، وتباد آثارهم أى إبادة ، ولم يستفد قطر من أقطار الغرب ما استفادته إسبانيا من العرب ، ولما جلوا عنها نعق فيها غراب الدمار وفقدت صناعتها وزراعتها وعلومها ، وأصبحت إسبانيا بعد مدّة من خروج العرب أحط بلاد الغرب . قال ستانلى لانبول : « إن فضل مسلمى الأندلس يتجلى فى همجية الإسبان وتراجعهم فى مراقى النجاح ، بعد أن خلت أرضهم من الإسلام » . وقال لاربولا : لقد جعل العرب من إسبانيا جنة بديعة ، وكانت صارت إلى بربرية على عهد القوط ، وجعلوا إسبانيا أعظم مركز

(١) إسبانيا والعمران العربى لسكاباتون فى مجلة العالم الإسلامى الفرنسية .

للثقافة الأوربية ، فقضى الفتح الإسبانى على عمل سبعة قرون قضتها إسبانيا فى ظل مدنية العرب .

وقال لبون : « ظن الكردينال كسيمنس لما أحرق فى غرناطة كل ما طالت يده إليه من مخطوطات العرب وكانت ثمانين ألفاً — عدا ما أحرق فى المدن الأخرى — أنه يحذف إلى الأبد من كتاب التاريخ ذكرى أعداء دينه ، ولكن الأعمال التى قامت على أيديهم فى تلك الأرض تكفى لتخليد ذكرهم على عنق الدهر ، وإن نفدت آثارهم المكتوبة » .

مدنية العرب فى جزيرة صقلية

العرب فى حوض البحر المتوسط وغزو صقلية :

قلنا إن البحر المتوسط غدا لغزوات العرب بحراً عربياً منذ أوائل الفتح كبحر فارس وبحر الظلمات والمحيط الهندى . وغلب المسلمون كما قال ابن خلدون على هذا البحر « يعنى بحر الروم أو البحر المتوسط » من جميع جوانبه « وعظمت صولتهم وسلطانهم فيه ، فلم يكن للأمم النصرانية قِبَل بأساطيلهم بشىء من جوانبه ، وامتطوا ظهره للفتح سائر أيامهم . فكانت لهم المقامات المعلومات من الفتح والغنائم ، وملكوا سائر الجزائر المنقطعة عن السواحل فيه مثل ميورقة ومنورقة ويابسة وسَرْدَانية وصقلية وقَوْصَرة ومالطة وإقريطش وقبرص وسائر ممالك الروم والإفرنج » . قال : « والمسلمون خلال ذلك كله قد تغلبوا على الأكثر من لجة هذا البحر ، وسارت أساطيلهم فيه جائية وذاهبة ، والعساكر الإسلامية تجتاز البحر فى أساطيلهم من صقلية إلى البر الكبير المقابل لها من العدوة الشمالية ، فتوقع بملوك الإفرنج وتثخن فى ممالكهم ، كما وقع فى أيام بنى أبى الحسين ملوك صقلية القائمين بدعوة العبيديين ، وانحازت أمم النصرانية بأساطيلهم إلى الجانب الشمالى الشرقى من سواحل الإفرنجة والصقالبة وجزائر الرومانية لا يَعْدُونها . وأساطيل المسلمين قد ضَريت عليهم ضراء الأسد بفريسته ، وقد ملأت الأكثر من بسيط هذا البحر عدّة وعدداً ، واختلفت فى طرقه سلماً وحرباً ، فلم تسبح فيه للنصرانية ألواح » .

وهذا أجمل وصف لحال البحر المتوسط وما آل إليه فى الإسلام . وقد غزا العرب جزيرة صقلية أكبر جزائر هذا البحر فى خلافة عثمان يوم قضى أسطول معاوية بن أبى سفيان على الأسطول الرومى فى لجة الإسكندرية فى الغزوة المعروفة

بغزوة الصوارى (٣٤ هـ) . وكان قسطنطين بن هرقل فى ألف مركب ويقال فى سبعمائة والمسلمون فى مائتى مركب ونحوها ، فانهزم الروم . وغزاها عبد الله بن قيس الفزارى(١) من قبل معاوية بن حُدَيج الكندى ففتح وسبى وغنم ، وذهب اليها عبد الله بن قيس لكشف حالها سنة ٤٥ للهجرة (٦٦٥ — ٦٦٦ م) ثم وافاها لهذا الغرض غير واحد من القوّاد فى أوقات مختلفة ، وكان مما غنم عبد الله بن قيس من صقلية أصنام من ذهب وفضة مكللة بالجواهر ، فحملها معاوية بن أبى سفيان من دمشق ، وأنفذها إلى البصرة ومنها إلى الهند لتباع فيها ، لأنه رأى بيعها قائمة أكثر لثمنها ، ولم يبال انتقاد المنتقدين له من المسلمين(٢) . وأخرج معاوية الخمس من الغنائم ووجهه إلى عثمان وكتب إليه بسلامة المسلمين وعما كان من أمر صقلية ، ففرح الخليفة بذلك . ولم تزل صقلية تغزى فى أوقات مختلفة ، ويكون المتعهد لغزوها صاحب تونس . غزاها عياش بن أخيل من جماعة موسى بن نصير أواخر المائة الأولى ، ومحمد بن يزيد الأنصارى أوائل المائة الثانية ، وغزاها وسردانية بعد الثلاثين ومائة عبد الرحمن بن حبيب الفهرى ، وغزاها ابن الأغلب إلى أن استقر فيها المسلمون سنة ٢١٢ هـ على يد أسد بن الفرات ، أرسله إليها زيادة الله بن الأغلب من تونس

(١) معلمة الإسلام — مادة صقلية ، والمكتبة الصقلية لآمارى ، وأعمال الأعلام للسان الدين بن الخطيب ، وأحسن التقاسيم للمقدسى ، والخلاصة النقية فى أمراء إفريقية للباجى . وبالفرنسية استيلاء المسلمين على صقلية لحسن حسنى عبد الوهاب ، وبلرم وصقلية لشارل ديهل .

(٢) يعدّ عمل معاوية فى بيع الأصنام قائمة من الارتقاء الفكرى فى العرب . فقد ذكر التاريخ أن من جملة الغنائم التى وقعت فى أيدى الفاتحين قطف كسرى ، فلم تعتدل قسمته مع سعد بن أبى وقاص وأرسل به إلى عمر فقال : « أشيروا على فى هذا القطف » ، فأجمع ملأهم على أن يكون له فأبى ، فقام علىّ حين رأى عمر يأبى قبول البساط ، فقال : لم تجعل علمك جهلا ، ويقينك شكا ، إنه ليس لك من الدنيا إلا ما أعطيت فأمضيت ، أو لبست فأبليت ، أو أكلت فأفنيت ، قال صدقتنى ، فقطعه فقسمه بين الناس فأصاب علياً قطعة منه ، فباعها بعشرين ألفا ، وما هى بأجود تلك القطع . وكان هذا القطف ستين ذراعاً فى ستين ذراعاً بساطاً واحداً مقدار جريب ، فيه طرق كالصور ، وفصوص كالأنهار ، وخلال ذلك كالدر ، وفى حافاته كالأرض المزروعة ، والأرض المبقلة بالنبات فى الربيع من الحرير على قضبان الذهب ونوّاره بالذهب والفضة وأشباه ذلك .

(١٨)

فى عشرة آلاف مقاتل ومائة سفينة ثم عززها بعشرين ألف مقاتل وأسطول ضخم مؤلف من ثلثمائة سفينة ، ولما تم الفتح كتب زيادة الله إلى المأمون العباسى فى بغداد يبشره به ، ودام حصار بلرم عاصمة الجزيرة خمس سنين (٢١٥ — ٢٢٢ هـ) وغزاها ابن الأغلب فى سنة ٢٤٤ ، وغزاها الواثق العباسى وافتتح مدينة مسينة سنة ٢٢٩ وعبد الله المهدى سنة ٣٠٤ لأن أهلها خالفوه فهدم سورها ، وفتحها المعز سنة ٣٤٥ ، وافتتح بعض مدنها على بن يوسف بن تاشفين بعد سنة ٥١٥

يقول المؤرخ الإنكليزى سنجر[1] إن صقلية دانت للعرب بعد أن كانت تحت حكم الإمبراطورية البيزنطية ، وسقطت بلرم عام ٨٣١ وكان النصر حليف المسلمين وقد امتد سلطانهم عام ٨٤٦ إلى رومية نفسها ، كما سقطت من قبلها طارانت عام ٨٤٠ وتم امتلاك العرب ولايات جنوبى إيطاليا ، واستسلمت نابل وسالرن . أما مونت كاسينو المشهور بدير الرهبان البندكتيين العظيم الواقع فى موقع حصين على بعد ٢٥ ميلا إلى الداخل و ٧٠ ميلا من سالرن فوقع فى قبضة العرب سنة ٨٨٤ ، وبهذا تم فتح العرب هناك .

العرب فى جنوبى إيطاليا :

ويطيب لنا أن نقف هنا وقفة قصيرة بعد أن عرفنا استصفاء العرب جزيرة صقلية ، ورسوخ أقدامهم فيها أكثر من قرنين ، لنعرف إذا كانت هممهم فى البحر الرومى وقفت عند حدّ ما فتحوه من الجزر والبلدان والحصون ، أم أنهم تعدّوها إلى ما وراء ذلك ، فالتاريخ يحدّثنا أنهم استولوا على عدّة ولايات من جنوبى إيطاليا ، وكانوا يطلقون على أرض إيطاليا البر الطويل أو الأرض الكبيرة ، وقد أخذوا قلورية واستولوا على طارنت وبارة وريو وغيرها من بلاد[2] انكبردة وپوليه وفتحوا جنوة ووصلوا إلى رومية .

(١) مجلة الهلال المجلد الحادى والأربعون .

(٢) يقول صديقنا كارلو نالينو أحد علماء المشرقيات فى إيطاليا إنه يطلق اسم انكبردة =

كانت الأجزاء الجنوبية من أرض أبوليه وقلورية تعد من مملكة بيزنطية ، واحتفظت الثلاث دوقيات الواقعة على بحر تيرانو وهى جايتا ونابل وأمالفى باستقلالها فلم يكن لإمارة بنفنتو سلطان عليها ، وهى مرتبطة بالاسم بمملكة الروم البيزنطية . واضطرت دوقية نابل لدفع مطامع أمراء بنفنتو عنها إلى أن تحالف العرب فى صقلية سنة ٨٣٥ ، وقد دامت هذه المحالفة إلى سنة ٩٠٠ م .

يقول وازليف[١] إن المسلمين لما ظهروا أمام صقلية كان يهدد إيطاليا الجنوبية خطر عظيم ، ولا سيما بعد أن حالفوا نابل نحو سنة ٨٣٠ ، وكان من أثر هذه المحالفة الغريبة أن لقيت إيطاليا فى داخليتها صعوبات عظيمة . حالفت نابل المسلمين لأنها ظلت زمناً تدفع إتاوة لإمارة بنيفنتى ونشبت بينهما حرب فى سنة ٨٣٦ وما أعان إمارة نابل إمبراطور الغرب ولا إمبراطور الشرق ، فمدت يدها لمحالفة المسلمين

= (Longbardia) أو (Langobardia) ، أو لمباردیا (Lombardia) عند الإيطاليين على عدّة مدن : (١) مملكة لنكبردة الإيطالية أى الدولة التى أنشأها الغزاة من اللنكبرديين التى دامت من سنة ٥٦٨ — ٧٧٤م . وكانت فى أيام عظمتها عبارة عن إيطاليا الشمالية (ما عدا البندقية وايستريا ونيابة راقّنا اليونانية ، وهى جزء عظيم جداً من ايطاليا الوسطى ولإيطاليا الجنوبية ما عدا إقليم نابل وقلورية) . (٢) مجموع الدوقات اللنكبردية التى بقيت بعد سقوط مملكة لنكبردة أى دوقيات بنفنتو (Benevento) وكابوا (Capua) وسلرت (Salerne) فى إيطاليا الجنوبية . (٣) ما يعرف عند اليونان باسم لابوكليا (بوليه أو أبوليه) وقد عادوا الى استخلاصها أواخر القرن العاشر . وتبدّل اسم لنكبردة فى العهد الحديث باسم « لمبارديا » وهى تتناول الإقليم الذى كان منه نواة مملكة لنكبردة القديمة ، وهذا الاسم اليوم يطلق على مجموع ولايات ميلانو وبركامو وبرشيا وكومو وكرعونا ومانتوڤا وباڤيا وسوندريو وفاريسى ، ويطلق الشريف الإدريسى على هذه الولايات اسم « أنبرضية » .

وقد كانت جميع إيطاليا الجنوبية فى القرن التاسع من الميلاد داخلة فى الإمارة اللنكبردية المعروفة بإمارة بنفنتو الملاصقة من الشمال دوقيتى رومية وسبولتو (Spolto) بمعنى أن الحدّ الشمالى من الإمارة يبتدىء من مصب نهر ترنيو فى بحر الأدرياتيك (جون البندقية) واصلاً الى تراسينا فى بحر ترانو أو تيرين تاركا للإمارة الأرض الشمالية من إيزرينا وكاسينو وسورا ، وتتصل الإمارة من الجنوب بمعظم بلاد أبوليه أو پوليه (Pouille) ويدخل فيها أرض طارنت وبرندزى وبارة (Bari) وجميع بلاد قاورية (Calabre) الشمالية الى جنوب أرض كوزنزا اه .

(١) بيزنطية والعرب ودولة عمورية (بالفرنسية)

وحدثت مذابح عظيمة بين أميرين من أمراء تلك الأرجاء سنة ٨٣٩ فاضطر كلاهما أن يفزع إلى حماية الجيوش العربية ، ثم تصافيا فى سنة ٨٤٩ على تقسيم الإمارة إلى قسمين : أطلق على القسم الشرقى منها إمارة بنفنتو ، وعلى القسم الثانى الشرقى إمارة سالرن . وتولى المسلمون فى بلرم عاصمة جزيرة صقلية غزو البحر من ناحية إيطاليا الشرقية وفى سنة ٨٣٨ احتلوا برندزى ، فحاول أمير تلك الجهة أن يدفعهم عنها فما وفق ، ثم بلغ المسلمين أنه يعدّ حملة عظيمة فأحرقوا برندزى وعادوا إلى صقلية على مراكبهم . واحتل عرب صقلية طارانت سنة ٨٤٠ م وهى قاعدة بحرية مهمة فى بحر الأدرياتيك ، ثم خلفهم فيها بعد حين عرب جزيرة إقريطش (٨٤٢ أو ٨٤٣ م) .

وخاف البنادقة على تجارتهم ودفعهم إمبراطور الروم تيوفيل إلى حرب العرب ، فجهزوا أسطولا مؤلفاً من ستين مركباً فأقلع إلى صقلية والتقى بالأسطول الإسلامى أمام طارانت ، فهلك معظم البنادقة وأسر من ظل حياً ، وتقدّم المسلمون بأسطولهم إلى الجزء الشمالى من بحر الأدرياتيك من نحو دلماسيا فنهبوا وأحرقوا (٨٤٠ م) مدينة أوسرو فى جزيرة كرسو ، واجتازوا البحر فى العرض نفسه فأسروا أناساً من أنكونا ، ولما عادوا إلى مستقرّهم غنموا عدّة سفن للبنادقة . وهذه الغزوات هى التى أشار إليها ابن الأثير فى حوادث سنة خمس وعشرين ومائتين فقال : إن أسطول المسلمين سار إلى قلورية وفتحها ، ولقوا أسطول صاحب القسطنطينية فهزموه بعد قتال ، فعاد الأسطول إلى القسطنطينية مهزوماً فكان فتحاً عظيما . ويقصد بقلورية الجزء الذى يسمى اليوم شبه جزيرة سالانتينا ، وهو الجزء الجنوبى من أبوليه وفيه طارنت وبرندزى .

ودخل العرب فى سنة ٨٤١ خليج كارنارو وهزموا أسطول البنادقة شر هزيمة بالقرب من جزيرة سانسغو . والظاهر أن قوّات العرب فى صقلية انضمت هذه المرّة إلى قوات عرب أقريطش فاستولوا على بارة وأحرقوا مدينة كابوا . ثم قويت المنافسة بين الأميرين الحاكمين على تلك الأرجاء من الطليان ، فلجأ أحدهما

إلى المعسكر الإسلامى من الإفريقيين ، واعتصم الآخر بالمسلمين من أهل أقريطش . وعاد المسلمون فاحتلوا طارنت مرة ثانية فى تلك السنة . وتبدّلت الحال فى سنة ٨٤٩ م بين المتنازعين على الإمارة ثم تصالحا واقتسما إمارة بنفنتو مشترطين أن لا يلجأ أحدهما إلى المسلمين . وقتل القائد المسلم وجنده فى معسكر ملك فرنسا لويز الثانى سنة ٨٥١ ، وعاد العرب فحاصروا طارنت بأمر العباس بن الفضل الذى أسكن المسلمين فى أرض قلورية (٢٢٥ هـ) .

وظلت بارة إمارة إسلامية تواتر غزواتها على الأصقاع المتاخمة . وفى تلك الحقبة فى الغالب سار المفرّج بن سلام وفتح أربعة وعشرين حصناً استولى عليها كما قال البلاذرى ، وكتب إلى صاحب البريد بمصر يعلمه خبره ، وأنه لا يرى لنفسه ومن معه من المسلمين صلاة ، إلا بأن يعقد له الإمام على ناحيته ويوليه إياها ، ليخرج من حدّ المتغلبين ، وبنى مسجداً جامعاً . ولعل هذا الفاتح كان من أهل أقريطش لا صلة له مع الأغالبة فى إفريقية ، فعمد إلى الخلافة العباسية فى بغداد يراجعها مباشرة لتصح ولايته . والغالب أن سلطة المفرّج بن سلام امتدّت إلى سائر بلاد أپوليه ، ثم قام الأمير سَـعْران وأخرب إيطاليا الجنوبية ، ووصلت غاراته إلى جنوبى نابل وسالرن . واشتهر بالإثخان فى أهلها ، إلى أن جاء لويز الثانى ملك فرنسا فنزل إيطاليا وفتح بها سنة ٨٧١ مدينة بارة ، وقتل كثيراً من المسلمين ، وبذلك انتهت مدّة حكم العرب فى بارة بعد أن دام تسعاً وعشرين سنة (٨٤٣ — ٨٧١ م) ولم يخلف المسلمون شيئاً فى تلك الأرجاء من آثار علمهم وصنائعهم كما كان منهم فى جزيرة صقلية ، لأن مقامهم فيها لم يطل .

فالعرب أنشأوا والحالة هذه إمارة فى بارة ، وكان العراك بينهم وبين النصارى من أهل جنوبى إيطاليا على أشدّه من سنة ٨٧٥ إلى ٩٠٢ م . وأنشأوا إمارة صغرى فى سنة ٨٨٣ م فى البلاد الواقعة فى مصب نهر كاريكليانو (Garigliano) فى بحر تيرين (شرقى جايتا أو بحر طسقانة قديماً) ودامت هذه الدولة إلى سنة ٩١٥ م . واستولت العرب على جنوة سنة ٣٢٣ هـ . ثم رحلوا عنها بعد أن نهبوها ، واحتلال

المسلمين إقليم قلورية كان متقطعاً ، انتقلت عدّة أماكن ومقاطعات منها من أيدى العرب إلى أيدى النصارى وبالعكس .

وغزا المسلمون[1] رومية مرتين : الأولى فى سنة ٢٣١ هـ — ٨٤٦ م وفيها ضربوا الحصار على مدينة القياصرة ، فارتاع البابا سرجيوس واهتز الشعب الرومانى فرقاً ورعباً ، وبادر الإمبراطور لويس الثانى ملك الفرنج واللومبارد بإرسال حملة لمقاتلة الغزاة ، وجهزت ثغور نابل وأمالفى وجايتا حملة بحرية لمطاردتهم ، فرفع المسلمون الحصار عن المدينة بعد أن اقتتلوا مع جند الإمبراطور وسفن الثغور الإيطالية قتالا رائماً وعادوا مثقلين بالغنائم والأسرى . وفى سنة ٢٥٦ هـ ٨٧٠ م نشط أمراء البحر المسلمون فى ثغور إفريقية والأندلس إلى تجهيز حملة كبيرة فوصلوا إلى روميـة وهدّدوها حتى اضطر البابا يوحنا الثامن خلف البابا لاون ، أن يفاوضهم فى الجلاء على أن يدفع لهم جزية سنوية قدرها ألف مثقال من الذهب .

ويقول نالينو إن العرب لم يحتلوا رومية ولا نهبوها ، بل بلغوا ربضها فى سنة ٨٤٦ م ونهبوا بيعتى القدّيس بطرس والقدّيس بولس ، وكانتا إذ ذاك خارج أسوار المدينة ، وانهال عليهم أهل القرى فاضطروا إلى الرجوع عنها . وبنى الحسن ابن على فى ريو (Reggio) مسجداً كبيراً وجعل فى أحد أركانه مئذنة وشرط على الروم أن لا يمنعوا المسلمين من عمارته وإقامة الصلاة فيه والأذان وأن لا يدخله نصرانى ، ومن دخله من الأسارى المسلمين فهو آمن سواء كان مرتداً أو مقيما على دينه ، وإن خربوا حجراً منه هدمت كنائسهم كلها بصقلية وإفريقية، ووفى الروم بهذه الشروط كلها ، بيد أن مسجد ريو لم يدم عامراً غير أربع سنين .

تقويم جزيرة صقلية وعمل العرب فيها :

طول هذه الجزيرة بحسب تعريف القدماء سبعة أيام فى أربعة أيام ، تدار فى

(١) مواقف حاسمة فى تاريخ الإسلام لمحمد عبد الله عنان

خمسة عشر يوماً ، ومساحتها السطحية ٢٥٫٧٤٠ كيلومتراً مربعاً على اصطلاح المحدثين . وكانت فى كل أدوارها مطمح أنظار الفاتحين من الدول البحرية ، لأنها من أهم منازل الاتصال بين إفريقية وأوربا وآسيا . وقالوا إنه كان فيها آخر أيام العرب مائة بلد وثلاثون بلداً بين مدينة وقلعة غير ما بها من الضياع والمنازل والبقاع . ومن مدنها الخالصة ، أطرابنش ، مازر ، جرجنت بُثَيرة ، سرقوسة ، قطانية ، بطرنوا ، ميقُس ، مسينة ، رمطة دمنس ، قلعة القوارب ، قلعة الصراط ، قلعة البلوط ، قلعة أبي ثور ، بطرلية ، ثرمة ، قرليون ، برطفيف ، برطنة .

ولما استولى الفاتحون من العرب على صقلية تركوا لأهلها عاداتهم وقوانينهم وحريتهم الدينية المطلقة[1] ، واكتفوا منها بجباية قليلة ، وكان مقدارها أقل مما كانت عليه على عهد اليونان ، وأعفوا منها الرهبان والنساء والأولاد ، وحافظوا على جميع الكنائس التى وجدوها ، لكنهم لم يسمحوا بإنشاء غيرها ، على خلاف ما جروا عليه فى الأندلس ، وعمدوا إلى الزراعة والصناعات فأحيوها . وأدخلوا فى الجزيرة أصنافاً من الزراعة لم تكن تعرفها ، ومنها البردى والمران ، وأقاموا المجارى التى لم تبرح مائلة للعيان ، وعلموا الناس عمل القنى ذات الأنابيب المقفف « السيفونات » ، وكانت قبلهم غير معروفة ، وأنشأوا فى الجزيرة مصانع لصنع الورق ، ومنها انتشرت صناعة الورق فى إيطاليا .

وعدّنت العرب مناجم الجزيرة وفيها الذهب والفضة والشب والكحل والزاج والحديد والرصاص والنوشادر . وعلموا أهلها صنع الحرير ، وفى مدينة نورمبرج اليوم رداء حرير كان لملوك صقلية ، وفيه كتابة بحروف كوفية تاريخها سنة ٥٢٠ مما يدعو إلى الاعتقاد بأن صناعة صبغ الثياب انتشرت فى أوربا من صقلية . ومن مصانعهم كانت تصدر الثياب[2] المحلاة بالجواهر والطنافس المصوّرة أنواع الصور ، ويعمل الجلد المدبوغ ، ويعمل الحلى البديع فى مصانع بلرم ومازر ، وكان مما يتنافس

(١) حضارة العرب لجستاف لبون ومحاضرة لويجى رينالدى (المقتطف م ٥٩) .
(٢) الاستيلاء الإسلامى على صقلية لحسن حسنى عبد الوهاب .

فيه ، وله الصيت الذائع في قصور الملوك في الشرق والغرب . وكانت التجارة قبل العرب ضئيلة جداً في هذه الجزيرة ، فأصبحت على عهدهم متشعبة النواحي غزيرة المواد ، ويصنع العرب سفنهم في دار الصناعة في تونس وبعض موانى الجزيرة .

ويقول ديبل : إن العرب حملوا معهم إلى جزيرة صقلية مظاهر غريبة من فنهم ، وقناطرهم العالية الجميلة ، ونقوشهم من المقرنصات ، وجمال قاشانيهم ذي الميناء ، وفسيفساءهم المعمولة من الرخام الملوّن ، وصورهم الجميلة ، وبهيج صناعاتهم وليدة علمهم ، وكلها أعمال خاصة بالمترفين وأرباب النعيم ، ولم يضمحل ذلك كل الاضمحلال ، لما استولى على الجزيرة سادة جدد بعد أمراء المسلمين . فكانت مصانع الدور العربي مثالا ينسج عليه في إقامة مصانع العهد النورماني ، وكان المهندسون والبناؤون من أبناء العرب عملوا للأمراء وحملوا إلى ملوك النورمانيين علومهم وتقاليدهم ، وكانوا أسعد ممن سلفهم ، ذلك لأن الحظ حظهم ، فكانت أعمالهم أكثر خلوداً وبقاء . وقال أيضاً : لما سقطت بلرم في أيدي العرب سنة ٨٣١ م لم يكن فيها سوى ثلاثة آلاف نسمة ، فلما غدت عاصمة أمراء المسلمين دخلت حالا في مضمار الفنون ، وكانت خلال عدّة قرون في درجة عاليــة من الحضارة لم يسمح بمثلها .

وقال : خلف العرب في صقلية اليونان ، وفي خلال قرنين كانت لهم حكومة ذات مجد ورقي ، وأدخلوا إلى صقلية العنصر الإسلامي الذي زاد كثيراً في الغرب وفي وسط الجزيرة ، فأصبح نصف صقلية أواخر القرن الحادي عشر من العرب وباقيها من اليونان . قال : ثم سار النورمان في صقلية على سياسة لم يجعلوا لها فارقاً بين الكاثوليك واليونان والمسلمين ، فأحسنوا اقتباس العادات وتخلقوا بأخلاق رعاياهم ، ورعوهم جميعاً فأحسنوا رعايتهم ، وأفاضوا فيهم عطاياهم ، وهكذا ظلوا نورمانيين بأصولهم بزنطيين وعرباً بمدنيتهم ، وكانوا في وسط القرن الحادي عشر مثالا جميلا يندر مثيله في باب التسامح السياسي وعدم التحزب الديني .

ويقال على الجملة إن العرب استولوا على صقلية في زمن كانت تتلألأ فيه

مدنيتهم فى الشرق والغرب ، فنقلوا إليها علومهم وصناعاتهم وعاداتهم وآدابهم ، وطرائقهم فى الحكم ، وتسامحهم مع مخالفيهم فى معتقداتهم ، فنشقت الجزيرة بهم أَرَج الفَرَج .

يقول آمارى فى كتابه « المسلمون فى صقلية » : إن من غلبوا على أمرهم من سكان الجزيرة كانوا فى راحة وسرور على عهد أمراء المسلمين ، وكانت حالتهم أحسن بكثير من حالة إخوانهم الإيطاليين الذين كانوا يرزحون تحت نير اللنجورمانيين والفرنجة .

وقال توفنر[1] : منذ الفتح الإسلامى إلى القرن التاسع عشر لم يبرح الشعب النصرانى فى صقلية ينتقل من يد غريبة إلى يد غريبة ، وما استطاع أن يحكم نفسه بنفسه ، وقد بلغ أعلى درجات حضارته بعد القرن الرابع على عهد حكومة المسلمين غير النصارى وعلى عهد النورمانيين الذى دانوا بالنصرانية حديثاً .

عمران صقلية :

أكثر المسلمون فى جميع بلاد صقلية من بناء الجوامع والمساجد ، ومنها ما كان من الطراز الجميل وقد وصفها الإدريسى والقزوينى وابن حوقل وياقوت ، وكانت صفة الجامع الأعظم فى بلرم « تغرب عن الأذهان لبديع ما فيه من الصنعة والغرائب المفتعلة والمنتخبة والمخترعة . ومن أصناف التصاوير وأجناس التزاويق والكتابات » وكان فى بلرم نيف وثلثمائة مسجد ، وقد كثرت الجوامع فى أكثر المدن مثل قطانية ، وكان فى قرية البيضاء مائتا مسجد . قال ابن حوقل : « ولم أر مثل هذه العدّة فى بلد من البلدان الكبار على ضعف مساحتها ولا سمعت به » . ووصف الإدريسى مدينة بلرم فقال : « إن بها أحسن المبانى التى سارت الركبان بنشر محاسنها ، فى بنائها ودقائق صناعاتها ، وبدائع مخترعاتها ، وهى على قسمين قصر وربض . فالقصر هو القصر القديم المشهور فخره فى كل بلد وإقليم ، وهو فى ذاته على ثلاثة أسمطة : فالسماط الأوّل يشتمل على قصور منيفة ومنازل شامخة شريفة ، وكثير من المساجد

(١) فلسفة التمدن لتوفنر .

والفنادق والحمامات ، وحوانيت التجار الكبار ؛ والسماطان الباقيان فيهما أيضاً قصور سامية ومبان فاخرة عالية » . وكان للمسلمين فى القرن الحادى عشر فى كل مدينة من مدن صقلية أحياء خاصة ينزلونها ، ولهم أسواقهم وحكامهم وحرياتهم ، والجوامع مفتحة ، والحرّية الدينية شاملة ، والكنائس تناوح الجوامع .

رجال صقلية :

أخرجت صقلية جملة من العلماء والمحدّثين والفقهاء والأدباء والأطباء والفلاسفة ، وكان فى طليعتهم أسد بن الفرات وهو من أصحاب مالك ، وأسد بن الحرث صاحب الأسديات فى الفقه وكان من أعيان الكتاب ، والقاضى ميمون بن عمر ، وابن حمديس الصقلى الشاعر المبدع صاحب الديوان ، وهو القائل عند الجلاء يذكر صقلية :

ذكرت صقلية والأسى * يهيج للنفس تذكارها
فإن كنت أخرجت من جنة * فإنى أحدث أخبارها
ولولا ملوحة ماء البكا * ء حسبت دموعى أنهارها
ضحكت ابن عشرين من صبوة * بكيت ابن ستين أوزارها

ومن رجال صقلية أبو عرب الصقلى وابن بشرون وابن الفحام والشريف الإدريسى وابن ظفر وابن القطاع صاحب الدرّة الخطيرة والمختار من شعراء الجزيرة جزيرة صقلية ، أورد فيه مائة وسبعين شاعراً . والحسن بن يحيى يعرف بابن الخزاز وهو صاحب تاريخ صقلية ، وللجغرافى ابن حوقل كتاب فى محاسن أهل صقلية ، وكان زارها فى سنة ٣٦٢ هـ . ومنهم ابن سابق وعيسى بن عبد المنعم وابنه محمد ، وهذا من أهل العلم بالهندسة والنجوم والحكمة ، والطبيب أبو سعيد بن ابراهيم صاحب المنجح فى التداوى ، وابن القونى الكاتب ، وأبو عبد الله الصقلى الفيلسوف ، وعبد العزيز الأغلبى الكاتب ، والمهرى والقضاعى والصباغ ومنهم السرقوسى والمازرى صاحب التآليف المشهورة والبثيرى والكركنتى والشافى والطرابنشى

والبلنوبى والسمنطاوى ، نسبة إلى مدن فى الجزيرة معروفة ، هذا إلى عشرات غيرهم كان لهم الفضل على الأمة العربية بتصانيفهم وتحقيقاتهم وصناعاتهم ، وما فيهم إلا العالم والأديب والحكيم والمنجم والطبيب والمهندس ، وكان لهم يد على الجزيرة بإنهاضها فى مادياتها ومعنوياتها .

خروج المسلمين من صقلية واستيلاء النورمانيين عليها :

دان معظم أهل صقلية بالإسلام وكثر سكانها حتى قيل إن[١] أهل وادٍ واحد من أوديتها وهو وادى مازر بلغ سكانه ألفى ألف ساكن . ولما أخضع النورمانيون صقلية سنة (١٠٩٠ م) كان فيها أربعة عناصر الروم والعرب واللنكبرديون (النورمانيون والبروتونيون) واليهود ، يتكلم كل عنصر لغته ويخضع لشرائع البلد . وحاسن الأمراء الذين تولوها من فى جوارهم من الحكومات النصرانية . وكان من أمرائها بنو أبى الحسين المشهورون بالكلبيين[٢] وقد اتصلت أيام إمارتهم بها زمناً طويلا ، وإليهم أشار ابن خلدون وقال إنهم ملوكها . وكان واليها فى أواخر عهد حكم العرب فيها يدعى البمباع بعث إليه صاحب مصر فى بعض الروايات يطلب منه المال ، وكان عاجزاً عما طلب منه ، فبعث إلى الفرنج ففتح لهم البلد فدخلوه وملكوا الجزيرة . ويعنى بالفرنج ملك إيطاليا ولنكبردة وقلورية .

وفى رواية أن الاختلاف كان بين عمال الجزيرة ، وانفرد كل إنسان ببلد ، فاستنصر ابن التمنة[٣] المتغلب على سرقوسة وقطانية بالفرنج فى مدينة مالطة ، وكان ملكها روجر وهوّن عليه أمر المسلمين فسار الفرنج وابن التمنة إلى الأرجاء التى كانت فى حكم المسلمين فى سنة أربع وأربعين وأربعمائة واستولوا على مواضع كثيرة من الجزيرة ، ففارقها حينئذ خلق كثير من أهلها من العلماء والصلحاء وسار جماعة إلى المعز بن باديس فى إفريقية ، ولم يثبت بين أيديهما غير قصريانة

(١) معلمة الإسلام . (٢) تاريخ تونس لحسن حسنى عبد الوهاب
(٣) تاريخ أبى الفداء .

وجرجنت وحصرها الفرنج وطال الحصار عليهما حتى فتحهما روجر سنة ٤٨٤ ﻫ لانقطاع أمداد المسلمين ولاشتغال كل جهة بما يخصها من الفتن . ساق ابن الثمنة إلى هذه الخيانة خلاف وقع بينه وبين أمير قصريانة ، فدعا إلى معاونته جيرانه روبير كيسكار وروجر من أبناء تنكريت دي‌هوتفيل ودوجات پوليه وقلورية فجاءوا وعملوا لما فيه مصلحتهم لا مصلحة من دعاهم ، وكان من ذلك فتح الجزيرة .

وعقد ملوك صنهاجة ولا سيما ابن باديس هدنة مع ملوك النصارى فى صقلية ، وأخذوا يتبادلون الهدايا وكان ذلك فى سنة ٥٢٩ ﻫ . وقال الإدريسى إن روجر افتتح غربى بلاد الجزيرة فى سنة ٤٥٣ ﻫ وما زال يشن الغارات على الباقى حتى أكمل فتحها فى ثلاثين عاماً ، فنشر فى أهلها سيرة العدل وأقرهم على أديانهم وشرائعهم ، وأمنهم فى أنفسهم وأموالهم وأهليهم وذراريهم . وكانت المدنية قد بلغت أوجها[١] فى الفتح النورمانى ، ونجا العرب من الحروب فانصرفوا إلى العلم والآداب ، ورأوا من الفاتح الجديد حامياً لهم ونصيراً ، فأصبحوا فى عهده بمأمن ودعة .

اتهم روجر النورمانى بأنه دان بالإسلام لأنه حاسن المسلمين ، ولم يجعل سبيلا لرؤساء الدين من قومه إلى التسلط عليهم ، فأبقى الحكام والقوّاد منهم فى مناصبهم ، على ما كانوا عليه فى عهد العرب ، واستولى المسلمون على أزمة التجارة ، وكان كبار رجال المال منهم . ورأى روجر بثقوب ذهنه أن يسير فى سياسته مع السواد الأعظم من أهل الجزيرة وهم العرب ، وجعل فى بلاطه الأطباء والمنجمين وأرباب القرائح من المسلمين ، واحتفظ بأصول العرب فى الجباية ، وكان يحسن العربية ويحبها . والنورمانيون جاءوا لأول أمرهم من بلاد سكاندنافيا فى شمالى أوربا وظلوا مجوساً إلى القرن العاشر للميلاد وفيه انتحلوا النصرانية .

وروجر[٢] هذا هو الذى استقدم الشريف الإدريسى من بر العدوة ليضع له

---

(١) معلمة الإسلام .

(٢) الوافى بالوفيات للصفدى .

شيئاً فى شكل صورة العالم وبالغ فى تعظيمه من وراء الغاية ، وصنع له هذا الشكل فأعجب به ، وأراده على أن يبقى فى بلاده قائلا له : « أنت من بيت الخلافة ومتى كنت بين المسلمين عمل ملوكهم على قتلك ، ومتى كنت عندى أمنت على نفسك » فأجابه إلى ذلك ، فرتب له كفاية لا تكون إلا للملوك ، وطلب إليه أن يحقق أخبار البلاد بالمعاينة ، لا بما ينقل من الكتب ، فوقع اختيارهما على أناس أذكياء ، وجهزهم روجر إلى أقاليم الشرق والغرب جنوباً وشمالاً ، وسفر معهم قوماً مصورّين ليصوّروا ما يشاهدونه عياناً ، وأمرهم بالتقصى والاستيعاب لما لابد من معرفته ، فكان إذا حضر أحد منهم بشكل أثبته الشريف الإدريسى حتى تكامل له ما أراد ، وجعله مصنفاً ، وهو كتاب نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق .

ولما تم استيلاء العدو على الجزيرة غادرها كثير من العرب قاصدين إلى بر العدوة من إفريقية على السفن الكثيرة التى كانت لهم ، واختار السواد الأعظم منهم المقام فى الجزيرة فطاب لهم بما رأوا من الرعاية والأمنة ، حتى إن ابن جبير الرحالة لما مر بالجزيرة سنة ٥٨٠ أى بعد ست وتسعين سنة من خروجها عن حكم العرب ، أثنى على غليام صاحبها وقال : إنه عجيب[١] فى حسن السيرة واستعمال المسلمين ، وإنه كثير الثقة بهم ، وساكن إليهم فى أحواله ، والمهم من أشغاله ، وله الأطباء والمنجمون ، وهو شديد الحرص عليهم . وقال : إن زى النصرانيات فى مدينة صقلية مثل زى نساء المسلمين يخرجن ملتحفات متنقبات .

وحرص روجر الثانى وابنه وغليام على استعمال المسلمين جرياً على خطة روجر الأوّل ، فتركوا لهم حريتهم ، ينعمون بضياعهم وأموالهم ومتاجرهم ومصانعهم . وكان هؤلاء الملوك يحسنون العربية ويطربون لشعرها وأدبها ، وكان فريدريك الثانى كثير العناية بالعربية وآدابها ، وقد ضرب فيها بسهم وافر . وظلت اللغة العربية فى الجزيرة اللغة الرسمية ، وكان من العرب معلمون وأساتذة وعمال مهرة[٢] ،

(١) رحلة ابن جبير .

(٢) لويجى رينالدى (مجلة المقتطف م ٥٩) .

ولا تزال براءات ملوك النورمانيين مكتوبة بالعربية واللاتينية واليونانية . وكانت العربية إحدى اللغات التى تضرب بها نقودهم ، وعليها شارتا الإسلام والنصرانية ، ولم يقتصر الأمر على ذلك فقط ، بل كان يوضع عليها أيضاً « لا إله إلا الله محمد رسول الله » واستمر الأمراء الذين خلفوا النورمانيين على ضرب نقودهم بالعربية زمناً .

وما برح النورمانيون جارين على سنن روجر الأول فى الاعتماد على العرب ورعايتهم ظاهراً وباطناً ، وكذلك كان العرب فى إخلاصهم حتى إن القاضى جمال الدين بن واصل الفيلسوف المؤرخ سفير الظاهر بيبرس الى الإمبراطور صاحب صقلية فى سنة ٦٥٩ هـ ، قال فيه إنه كان مصافياً للمسلمين ويحب العلماء ، وإنه بالقرب من البلد الذى كان فيه مدينة تسمى لوجارة ، أهلها كلهم مسلمون من أهل جزيرة صقلية ، تقام فيها الجمعة ويعلن بشعار الاسلام ، وكان أكثر أصحاب الإمبراطور مسلمين ويعلن بالأذان والصلاة فى معسكره . وقال إنه عند توجهه من عند الإمبراطور اتفق البابا خليفة الفرنج « وريدا فرنس » على قصد الإمبراطور وقتاله ، بسبب ميله إلى المسلمين ، ولذلك كان البابا قد حرمه ، وقد غلبه الفرنج وذبحوه ، وملكوا أخا « ريدافرنس » فى سنة ٦٦٣ .

تنصير بقايا الصقليين :

وعلى رواية ابن واصل تكون صقلية قد ظلت فى حكم النورمانيين السعيد ١٧٩ سنة كان فيها المسلمون فى راحة . ويقول رينالدى : إن التعصب الدينى لم يتأخر لحظة واحدة عن الظهور بعد زوال ملك المسلمين من صقلية ، فاضطر المسلمون أن ينتحلوا النصرانية فاختلطوا بطبقة الشعب ، وهذا ما وقع أيضاً لمدينة لوشيرا « الغالب هى لوجارة » فقد سمح لهم شارل الثانى بالبقاء فى ملكه على أن يتنصروا وعرف أولادهم بعدهم باسم مرانه (Marrani) وهى كلمة عربية أخذها الطليان عن الإسبان ، وكانوا يلقبون بها المسلمين الذين دانوا بالنصرانية فى الأندلس ، وكذلك كانت مدينة لوشيرا مدينة إسلامية محضة حتى إن كلمة (Lucerini) «سكان لوشيرا »

كانت تؤدى معنى الشرقيين أو المسلمين . ولما استولى ملك سواب على الجزيرة (١١٩٤) بدأ اضطهاد المسلمين اضطهاداً شديداً يذكر بما لقوه فى إسبانيا ، فهاجر ألوف إلى إفريقية ولا سيما إلى سواحلها ، ومن تخلف منهم كان مستعبداً استعباداً حقيقياً : يزرع الأرض ، ويرعى الماشية ، ويعمل الأعمال الشاقة ، فى أملاك الملك .

وعلى هذا فقد تنصر بقايا المسلمين فى الجزيرة ، ولم يجلوا عنها على كل حال بفاجعة كفاجعة الأندلس التى مثلها البابا والقسس والأساقفة والكرادلة وديوان التحقيق الدينى والملك والملكة والشعب ، واتفقوا كلهم باطناً وظاهراً على إبادة المسلمين . والملك شارل هو الذى خلع الصقليون طاعته ، وقتلوا الفرنسيين على بكرة أبيهم يوم ٢١ آذار سنة ١٢٨٢ م = ٦٨٢ ﻫ .

أثر العرب والعربية فى اللغة الإيطالية :

أبقى العرب فى الجزيرة كثيراً من عاداتهم ، وهى باقية إلى اليوم ، وتركوا ألفاظاً كثيرة من لغتهم فى اللغة الصقلية والإيطالية ، ولا تزال عدّة أماكن بصقلية تحمل أسماء عربية ، ولا سيما أسماء القلاع والمراسى والشوارع ، وتبدأ أسماء القلاع بلفظ (قلتا) أى قلعة ، ومنها ما أصبح اليوم مدناً . مثل : قلعة النساء وقلعة فيمى وقلعة الحسن وقلعة البلوط ، وكذلك كلمة مرسى : مرسى على ، مرسى المينا : منزل الأمير ، منزل يوسف : رمل الموز ، رمل السلطانة ، القنطرة ، وادى الطين ، رأس القلب ، رأس الخنزير ، رأس القرن ، والقصر من أعظم شوارع بلرم . وفى بلرم الآن قصران جليلان من مبانى العرب : اسم أحدهما القبة واسم الآخر قلعة العزيزة .

كان تأثير العرب بعلمهم فى هذه الجزيرة أكثر من تأثيرهم بمبانيهم . يقول رينالدى : إن الجزء الأعظم من الكلمات العربية الباقية فى الإيطالية التى تفوق الحصر دخلت اللغة الإيطالية لا بطريق الاستعمار العربى بل بطريق المدنية التى كثيراً ما تؤلف بين مظاهر الحياة المختلفة . وقد عدّد من هذه الكلمات جانباً ولا سيما فى لغة العلم ، ثم قال إن جنوة اضطرت أن تؤسس سنة ١٢٠٧ م مدرسة لتعليم العربية . ويدل على

ذلك وجود كلمات عربية فى لغة هذه المدينة ، وفى اللغات العامية فى جميع المدن الإيطالية التى كانت تتجر مع الشرق وصقلية كلمات كثيرة من أصل عربى ، دخلت إليها مع التجارة العربية ، ولا تزال معاجم لغتهم تحفظ كثيراً منها . قال : وما الهندسة القوطية إذا أنعمنا النظر إلا الهندسة العربية تقريباً . ثم أورد أسماء الموازين والمكاييل والألفاظ البحرية التى سرت إلى الطليانية من العربية .

وقال إن آمارى « المستشرق الصقلى » أثبت أن صقلية مدينة للعرب ، وكذلك إيطاليا مدينة لصقلية ، بابتكار الشعر الوطنى ، بمعنى أنه مذ قلد البلاط الصقلى البلاط الملكى الإسلامى ، بدأت العناية بقرض الشعر ، تلك العناية التى كانت السبب فى نهوض الشعر الإيطالى . قال رينالدى : لم يساعد العرب فقط على إنهاض الشعر الصقلى والإيطالى ، بل إنهم أمدّوا قصصنا بشكلها ومادّتها . قلنا : وهذا يؤيد ما ذهب إليه وأثبته بالأدلة المقبولة آسين من رجال المشرقيات فى إسبانيا من أن دانتى شاعر الطليان اقتبس موضوع روايته المهزلة الإلهية من رسالة الغفران للمعرّى .

وفى بلرم أنشأ العرب أوّل مدرسة للطب ، وما عهد مثلها فى جميع أوربا ، بل إن مدارس الطب فى الغرب أنشئت بعد مدرسة صقلية العربية بأعوام ، ومنها انتشر الطب فى بلاد إيطاليا ، وساعد أن البابوات كانوا رحلوا إلى أفينيون من أرض فرنسا فخلا الجوّ للعلم العربى ، وأخذ يسرى إلى كل من استعدّ للأخذ بمذاهبه من الطليان . هذا مع أن المدنية التى أدخلها العرب إلى جزيرة صقلية كانت أضعف من مدنيتهم فى مصر والأندلس . ودلت الآثار أن العرب لما خرجوا من هذه الجزيرة كانت أرقى من اليوم الذى دخلوها فيه ، فعظم تأثيرهم النافع فى صقلية . والتحسين الذى يدخله شعب على شعب هو معيار نفوذ الحضارة التى يحملها الأوّل إلى الثانى على ما قال لبون .

ويقول آمارى : إنه لا يوجد اليوم فى صقلية كلها بناء واحد يرد عهده إلى الحكم العربى ، ويقول عبد الوهاب[1] : إن جزيرة صقلية تفاخر وحق لها الفخر

(١) استيلاء المسلمين على صقلية لحسن حسنى عبد الوهاب H. H. Abd ul-Wahab : La Domination musulmane en Sicile.

بأن فيها العزيزة والقبة والفوارة وفى بلرم ومدائنها الباسمة « البيضاء » ومعاملها الفنية ، ومازر وقلاعها التى كانت مما يذكر بالفخر خلال ثلاثة قرون على لسان الشعراء ، كان لهم من الشهرة وسلاسة الشعر ورقته ما كان مثله لمن خلدوا قديماً اسم قرطبة وإشبيلية وغرناطة .

المقارنة بين صقلية والأندلس :

كانت صقلية أزهر الممالك الأوربية فى الزمن الذى كان يُرعى فيه جانب العربى والرومى ، ويؤخذ بأيديهما ، وأثر الرجال الذين ظهروا فى جزيرة صقلية أقل بالطبيعة ممن أنبغت الأندلس من أمثالهم . والسبب فى ذلك ضيق مضطرب هذه الجزيرة ، وقصر الزمن الذى دام فيه حكم العرب عليها . ذلك لأنها كانت تبعاً لإفريقية يتولى أمرها الأغالبة والعبيديون وغيرهم . وحكم الأندلس أعاظم رجال بنى أمية ممن طالت أيامهم ، وكانوا وطدوا النفوس على اتخاذها وطناً أبديًّا لهم ، لا يلتفتون إلى ماوراءهم إلا بقدر ما ترتبط أمة بأمة بعيدة ، متفقة معها فى النزعة الدينية والعواطف . نقل العرب كل ما رأوه وسمعوا به فى أرجائهم الأصلية من أسباب القوّة والعلم والصناعة إلى الأندلس نقلا صحيحاً ، وزادوا عليه زيادات اقتضتها أذهانهم الثاقبة وطبائع الأقاليم التى نزلوها .

ولقد أدركنا من النتف القليلة التى اتصلت بنا من تاريخ صقلية العربية أن رجالها فى العلم كانوا أقل عدداً أو تأثيراً من رجال الأندلس ، وإنا إذا أعددنا فى هذه عشرات من النابغين ، لا نستطيع أن نعد فى صقلية سوى أفراد من عيارهم . ومعظمهم من حملة الشريعة والآداب . ويقال إن فيها ترجمت كتب أرسطو وأفلاطون . وليس فى صقلية من الملوك والأمراء الذين تولوا أمرها من دانوا عبد الرحمن الداخل ، وعبد الرحمن الثالث ، والحكم ، الذين أظهروا نبوغاً فى حكم الأندلس .

وما نبغ فى العلماء الذين قادوا الأفكار فيها أمثال ابن رشد وابن زهر وابن

باجة وابن الخطيب وأضرابهم . وهناك دواع أخرى فى هذا التفوق فى الأندلس ، فإن هذه على بعدها من مواطن العروبة ، هاجر إليها ألوف من صميم العرب ، وسكنوها وعمروها ، وأثر فى أنسالهم هواؤها ، فجاء منهم غربيون شرقيون على أجمل مثال فى الشعوب المختلطة الأنساب . أما صقلية فكان اعتمادها على أناس من العرب وكثير من البربر ، وكانت الجزيرة مهاجراً للاتين الذين جلوا من أفريقية يوم فتح العرب لها ، ثم جاءها العرب فاتحين فى صقلية ، فامتزجوا بأهلها ، وما كونوا فى الحقيقة أمة صقلية كما تكونت أمة أندلسية . وإن كان المسلمون فى صقلية كثرة غامرة فى أيام حكمهم وبعد زوال سلطانهم عنها .

آثار العرب فى صقلية بعد قرون من رحيلهم :

وتفيدنا الآثار التى وجدت فى المقابر وغيرها[1] أن اللغة العربية بقيت شائعة فى الجزيرة إلى أواخر القرن التاسع للهجرة ، يؤيد ذلك شواهد القبور التى عثر عليها حديثاً علماء العاديات ، فقد وجدت قبرية باسم القائد الأجل أبى النصر بن القائد أبى السرور الجالخيرى من سنة ٨٧٣ هـ . وشاهدة لآخر اسمه القسنطينى القاضى من سنة ٨٩٤ . وثالثة من سنة ٨٥٩ ، وشواهد كثيرة من القرن السابع والسادس من الهجرة ، وأغربها قبرية نصرانية كتبت بالعربية بعد خروج العرب من الجزيرة بستين سنة استعمل فيها التاريخ الهجرى وهى : «توفيت أنة أم القسيس اكريزنت قسيس الحضرة المالكية الملكية العالية العلية المعظمة السنية القديسية البهية المعتزة بالله الملزوزة بقدرته المنصورة بقوته ، مالكة ينطالية ولنكبردة وقلورية وصقلية وإفريقية معزة إمام رومية الناصرة للملة النصرانية صرمد الله مملكتها ، يوم الجمعة والعشر العشرين من أوسة سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة ، ودفنت بالجامع الأعظم ، ثم نقلها ولدها بالمستجد إلى هذه الكنيسة ، صنت مخايله يوم الجمعة أول ساعة

(١) وثائق فى تاريخ صقلية لآمارى (بالإيطالية) .
(Amari : Documenti alla storia di Sicilia)

العشاء : العشرين مائة سنة — أربع وأربعين وخمسمائة ، وبنى على قبرها هذه الكنيسة وسماها صنت أنة على اسم أمه (مر) يم . . . ودعا لها بالرحمة آمين آمين آمين » .

يدل هذا على أن العربية استحكمت ملكتها فى السكان ، حتى إن نصاراهم استخدموها لغة التخاطب والكتابة بعد خروج العرب بمدة طويلة ، وأرخوا بالتاريخ الهجرى ، ولا عجب أن حاسن روجر النورمانى فاتح الجزيرة وخلفاؤه جمهور المسلمين فلقوا منهم كل رعاية ولقى الفاتحون من المسلمين كل نصح وأمانة ، فقد روى مؤرخونا أن رجار مات قبل التسعين والأربعمائة ، وملك بعده ولده رجار فسلك طريق ملوك المسلمين من الجنائب والحجاب والسلاحية والجاندارية وغير ذلك . وخالف عادة الفرنج ، فإنهم لا يعرفون شيئا منه ، وجعل له ديوان المظالم يرفع إليه شكوى المظلومين فينصفهم ولو من ولده ، وأكرم المسلمين وقربهم ومنع عنهم الفرنج فأحبوه .

المسلمون والغربيون في الحروب الصليبية

اختلاق الصليبيين الأسباب لقتال المسلمين :

ظن الغربيون بعد انقراض الدولة الأموية من الأندلس فى سنة ٤٠٧ هـ أن العرب هناك يتراجع أمرهم فى الحال ويصبحون لقمة سائغة ، لما دب فيهم من الفساد السياسى المؤدى إلى الانحلال الطبيعى . ولكن عاد يوسف بن تاشفين ملك المرابطين من بر العدوة فجمع الشمل المنصدع ، وضرب المرابطون ملك الإسبان ضربة شديدة فى سنة ٤٨٠ هـ فى وقعة الزلاقة ، فأعادوا إلى الأندلس حياتها . وكان أمراء المسلمين ذلوا أمام أعدائهم وأخذوا يدفعون الإتاوات لملوك إسبانيا ، وخرجت جزيرة صقلية من أحكام المسلمين فى تلك الحقبة .

وما برح رجال الدين ورجال السياسة فى أوربا منذ طلعت طلائع العرب فى البحر المتوسط ، وقوى سلطانهم فى جزرها ، يفكرون فى مخرج يؤدى بالغرب إلى ساحل السلامة ، لأن الإفرنج أيقنوا أن العرب أعلى منهم كعباً فى الحرب ، وأرق منهم مدنية ، وهم لا يخلون فى كل زمان من رجل فذّ ينهض بهم ، كما كان من المنصور بن أبى عامر (٣٩٢ هـ) الذى غزا الإفرنج سبعاً وخمسين غزوة موفقة ، ورفع من شأن الأندلس بنبوغه فوقاها من السقوط .

واتفق أن اشتدّ إرهاق السلجوقيين لصاحب القسطنطينية ، حتى اضطروه إلى دفع جزية سنوية لهم ، فاستنجد بملوك أوربا على المسلمين ، وأثار العرق الحساس فى البابا ، واعداً إياه أن يدخل فى طاعة كنيسته ، ويتخلى عن أرثوذكسيته ، إذا هو ساعده على دفع صائل المسلمين . وصادف أن بعض زوار القبر المقدس من الإفرنج رأوا ما لا يروقهم من إلزام الحكومة الفاطمية حجاجهم بأداء ضريبة زعموا أنها فاحشة ، فأعظم الأمر بعض رؤساء الدين عندهم ، وأهاج أمثال بطرس الناسك

الخواطر فى الغرب على المسلمين ، وبالغوا وأكثروا فيما يلقاه النصارى من العنت فى حجهم . على أنه لم يحدث من الاعتداء[1] على حجاج القبر المقدس سوى حوادث فردية قليلة لا تخلو منها مملكة ، وذلك قبل الحروب الصليبية ، وقد قال بردناردى فيس فى مذكراته : إن السلام سائد فوق تلك الربوع بين النصارى والمسلمين ، حتى إننى لو كنت مسافراً ونفق بعيرى أو حمارى الذى ينقل أمتعتى على الطريق ، وتركتها كلها دون حارس ولا رقيب ، وسرت إلى أقرب مدينة لأجلب لى بعيراً أو حماراً آخر ، لوجدت عند عودتى أنها باقية على ما هى لم يمسها أحد .

ولغايات فى النفس جسم بعض رجال الدين فى الغرب حوادث الاعتداء على حجاجهم فى الأرض المقدسة ، فأثاروا ضغائن النصارى على المسلمين عند بدء ظهور الحركة الصليبية . قال منرو : كانت هذه الفظائع المنسوبة إلى المسلمين ممزوجة بكثير الأفاويه[2] ، لتوافق روح ذلك العصر الذى كان أشد توحشا من عصرنا هذا ، وكان النصارى يأخذون قصص هذه الفظائع على علاتها ، فعظم تأثيرها فى حماسة الكثير منهم ، ولجأ الغربيون إلى أنواع أخرى من الدعوة وإهاجة الأفكار على المسلمين ، فاتهموهم بعبادة الأصنام وأنهم يعتقدون بألوهية محمد .

واغتنم البابا فرصة عقد المجمع الدينى فى كارمون فعرض عليه ما يلقاه النصارى من الإرهاق ، وحرض أبناء النصرانية على حمل الصليب ليفتحوا القبر المقدس ، ومنحهم غفرانا عن كل خطاياهم ، وأحل لهم ما تجترحه أيديهم وجوارحهم ، حاميا بسيادته الروحية عيالهم وأموالهم مدة غيابهم ، واعداً إياهم بغانم دنيوية كثيرة ، يسقطون عليها إذا فتحوا الأرض المقدسة ، فسار بعضهم مدفوعا بسائق الدين ، ومنهم الطامع بالمغانم والأرباح . وكان الغربيون فى تلك الفترة قد عضهم الفقر

(١) نظرة الغرب إلى الإسلام فى زمن الحروب الصليبية لمنرو (مجلة الكلية م ١٨) .

(٢) الأفواه : التوابل ونوافح الطيب . قال الجوهرى : الأفواه ما يعالج به الطيب ، كما أن التوابل ما يعالج به الأطعمة ، مفرده فوه وجمع الجمع أفاويه .

بنابه ، وأصيبوا بأوبئة حصدتهم ، ومجاعات زادت فى عوَزهم ، فأوهمهم رؤساؤهم بأن الشرق الإسلامى بلاد الذهب ، لا يلبث نزيله أن يغتنى وينعم .

وفى أواخر سنة ٤٩٠ هـ ١٠٩٦ . اجتمعت فى القسطنطينية جيوش الصليبيين وبعد مصاعب شديدة لقوها فى آسيا الصغرى ، تقدّموا ففتحوا الساحل الشامى ، واستولوا على بيت المقـدس ظاهرين فى مظهر من التوحش والقسوة لا يُغبطون عليه ، ظانين أن المسلمين لا تهمهم كثيرا قبلتهم الأولى ، ولا يحسبون ألف حساب لاحتلال جزء مهم من صميم بلادهم ، وأنهم متى رئموا للمذلة مرغمين فى حاضرهم نسوا كل عاقبة وخيمة على مستقبلهم ، وما أدركوا أن المسلمين كانوا أسوداً ، لا مستأسدين إذا ما وُثبوا وثبوا .

جهل الصليبيين والتنظير بين أعمالهم وأعمال المسلمين :

أبان الصليبيون فى مبدأ غزواتهم عن جهل مطبق فى فنون القتال ، وما كتب لهم الفوز فى حملتهم الأولى إلا بكثرة جيوشهم ، وكانوا فى فوضى منـذ غادروا ربوعهم حتى دخلوا القسطنطينية واتجهوا إلى الشرق ، ونسوا أو تناسوا أن صاحب الروم حليفهم المعنوى ، وما تلـكأوا مع هـذا عن إهانة قومه ، وإطالة أيديهم بالأذى على ملـكه . فخرّبوا مصانع القسطنطينية ، وعبثوا ببيعها وكنائسها ، وجعلوها طعاما للنار . وارتكبوا كل كبيرة أورثتهم العار .

يقول ابن الساعى(١) إن الإفرنج لما دخلوا القسطنطينية فى سنة ستمائة من الهجرة نهبوا كل ما فى البيع من ذهب ونقرة ، حتى ما على الصلبان ، وما على صورة المسيح والحواريين وما على الأناجيل ، ثم أخرجهم الروم عن البلاد فعادوا إليها وقتلوا كل من اعتصم بالكنيسة وغيرها اهـ .

عدا الصليبيون على صاحب القسطنطينية وهو الذى زودهم بالطعام(٢) والمال

(١) الجامع المختصر لابن الساعى .

(٢) تاريخ الصليبيين لأيورجا N. Iorga : Histoire des croisades

وخولهم السلطة ووجههم وجهة أخرى ، وجههم إلى غير الحج إلى بيت المقدس ، وجههم لاسترجاع نيقية من السلجوقيين ، وإذا انتظم الصليبيون تحت إدارته ينجدهم بجيشه وأسطوله . ولكن الصليبيين أثبتوا أنهم من الجهل بحيث لم يهتدوا إلى طريقهم ، فضلوا فى أرض الروم ، وتخطف عسكر السلجوقيين رجالهم ونساءهم ، وغلوا فى القسوة على أهل كل بلد نزلوه ، مثل الرُّها وأنطاكية والمعرة وطرابلس والقدس ، فقاتلوا المحاربين والمسالمين على السواء ، وقتلوا النساء والأطفال والشيوخ ولم تأخذهم بهم رحمة .

وليس القصد هنا ذكر تاريخ الحروب الصليبية ، بل القصد بيان أثر هذه الحروب فى الغرب والشرق . اغتبط الصليبيون بأنهم أوقفوا المسلمين بحملاتهم على الشرق دون التوغل فى أوربا . والغربيون ما فتئوا يحذرون بطش المسلمين ، ويقدّرون أنه ربما بلغت بهم الجرأة ذات يوم أن يغيروا عليهم غارة شعواء فيكون فيها انحلال أمرهم . وحق لهم هذا التخوف ، لأن لهم من إذلال ابن تاشفين ملك المرابطين لملك إسبانيا ، وضغط السلطان ملكشاه السلجوقى على صاحب القسطنطينية ، براهين لا تقبل الرد فى إساءة الظن بالمستقبل .

وكان يظن أن العنف الذى شاهده المسلمون فى الشام من الصليبيين المتحمسين يدعوهم إلى أن يسيئوا معاملة المستأمنين منهم ، أو يعاملوهم على الأقل بالمثل . ولكن المسلمين فى جميع أدوار الحروب الصليبية ملكوا اعتدالهم وما خرجوا ، وبعض ما نالهم من أعدائهم مما يحرج الصدور ، عن حدود شريعتهم ، وما أمرت به من الرفق بالناس فى دار الحرب ودار السلم . وقد أقر بذلك أكثر مؤرخى الصليبيين ، وأعجب بهذه المسامحة كل صليبى ، أو من لا غرض له من الناظرين فى سير تلك الحروب العجيبة ، التى طالت أيامها إلى ما لم تطل مثله حرب .

مجازر الصليبيين :

عاهد الصليبيون ملك الروم على أن يسلموا إليه أول بلد يفتحونه ، ففتحوا مدينة نيقية ولم يسلموها إليه[١] ، وكانت بأيدى السلاجقة الأتراك ، فخانوا بذلك العهد الذى قطعوه على أنفسهم ، ولما جاءوا المعرة معرة النعمان قتلوا على رواية ميشو[٢] جميع من كان فيها من المسلمين اللاجئين إلى الجوامع المختبئين فى السراديب ، وأهلكوا صبرا[٣] ما يزيد على مائة ألف إنسان فى أكثر الروايات ؛ وكانت المعرة من أعظم مدن الشام ، وافاها سكان الأطراف بعد سقوط أنطاكية يعتصمون فيها . وفتح الصليبيون القدس بعد أن أفحشوا القتل فى المسلمين ، حتى هلك منهم عشرات الألوف ، فيهم جماعة من الأئمة والعلماء والعباد والزهاد . وارتكب الصليبيون كل محرم فى دينهم مع المسلمين واليهود . قال ميشو : تعصب الصليبيون فى القدس أنواع التعصب الأعمى الذى لم يسبق له نظير ، حتى شكا من ذلك المنصفون من مؤرخيهم ، فكانوا يكرهون العرب على إلقاء أنفسهم من أعالى البروج والبيوت ، ويجعلونهم طعاما للنار ، ويخرجونهم من الأقبية وأعماق الأرض ويجرونهم فى الساحات ، ويقتلونهم فوق جثث الآدميين ، ودام الذبح فى المسلمين أسبوعاً ، حتى قتلوا منهم على ما اتفق على روايته مؤرخو الشرق والغرب سبعين ألف نسمة ، ولم ينج اليهود كالعرب من الذبح ، فوضع الصليبيون النار فى المذبح الذى لجأوا إليه ، وأهلكوهم كلهم بالنار .

وكان من عادة الصليبيين أن يقتلوا أهل كل بلد يدخلونه فى الشام ويخربوا عمرانه ويحرقوا كتبه ومتاعه وآثاره . وفى إحراقهم دار الحكمة فى طرابلس ، وكان فيها نحو مائة ألف مجلد ، أكبر دليل على رعونتهم وخشونتهم ، أوقدوا بما صنعوا نيران التعصب بين المسلمين والنصارى من الشاميين ، ومع هذا أمسك

(١) خطط الشام للمؤلف م ١ . (٢) تاريخ الحروب الصليبية لميشو .

(٣) كل من قتل فى غير معركة ولا حرب ولا خطأ فإنه مقتول صبراً ، وكل من حبس لقتل أو حلف فقد صبر هو قتل صبر .

المسلمون عن مخاشنة أبناء ذمتهم ، وظلوا على ما قضى به الإسلام من حسن معاملتهم ، ومن نصارى لبنان من تطوعوا فى خدمة الصليبيين ، وحاربوا فى صفوفهم ، وكانوا أدلاء لهم وعيوناً على جيرانهم الذين كانوا عاشوا وإياهم خمسة قرون على غاية الوئام .

خالف الصليبيون تعاليم المسيح فى الشفقة والإحسان ، وامتثل المسلمون أوامر شريعتهم قائلين (ولا تزر وازرة وزر أخرى) وما خرج ملوك الإسلام فى كل دور عن مراعاة أهل ذمتهم ، عملا بوصية الشارع ، وتفادياً من وعيده من أذاهم ، وكانت سياسة الساسة منهم كما كتب الإخشيد إلى أرمانوس صاحب الروم على « ما يؤلف من قلوب سائر الطبقات من الأولياء والرعية ، ويجمعها على الطاعة واجتماع الكلمة ، ويوسعها الأمن والدعة فى المعيشة ، ويكسبها المودة والمحبة » ، وإذا وقع من أحد ملوكهم حيف على غير المسلمين كما فعل الحاكم بأمر الله الفاطمى ، فخرّب كنائس النصارى فى مملكته ، ثم بدا له فأمر بإعادتها إلى سالف عمارتها ، فهذا شاذ فى الملوك والشاذ لا تبنى عليه القاعدة المطردة .

معاملة صلاح الدين للصليبيين :

كان فى القدس لما استرجعها صلاح الدين (٥٨٣ هـ) من الصليبيين مائة ألف صليبى ، منهم ستون ألف راجل وفارس ، سوى من تبعهمْ من النساء والأطفال ، فأبقى صلاح الدين على حياتهم ، واستوصى بهم خيراً . ونابذ فقهاءه فيما ارتأوه من معاملتهم بمثل ما عامل به أجداد الصليبيين جمهور المسلمين يوم فتحهم القدس . واكتفى بأن ضرب على كل رجل منهم عشرة دنانير ، وعلى كل امرأة خمسة ، وعلى كل طفل دينارين ، وعجز بعضهم عن دفع هذه الفدية ، فأدى الملك العادل أخو صلاح الدين فدية عن ألفى صليبى ، واقتدى به صلاح الدين نفسه فأعفى كثيرين من هذه الغرامة ، وأغضى عن جواهر الصليبيين وناضّهم من الذهب والفضة ، وعامل نساء الإفرنج معاملة لطف وظرف ، وسهل سبيل الخروج لملكتين عظيمتين بما معهما من جواهر وأموال وخَدَم ، ورخص للبطريرك الأكبر أن

يسير آمناً بأموال البيع وذخائر الجوامع التي كان غنمها الصليبيون في فتوحهم . ولما قال المسلمون لصلاح الدين إن هذا البطريرك يقوى بما أخذ على حرب المسلمين ثانية ، قال : لا أغدر به . ولم يأخذ منه إلا عشرة دنانير فقط .

ولما عُقد الصلح بين المسلمين والصليبيين دخل خلق عظيم من الإفرنج إلى القدس فأكرمهم صلاح الدين وقدم لهم الأطعمة وباسطهم . فألقى صلاح الدين على الصليبيين درساً في مكارم الأخلاق وسماحة الإسلام .

عدد المؤرخ إيوركا ما لقى الصليبيون من حسن معاملة صلاح الدين لهم يوم فتحه القدس ، فقال : لقد أظهر الجند المسلمون الذين رافقوا المطرودين من أهل الصليب شفقة مؤثرة ، ولا سيما على النساء والأطفال ، ولا يتأتى إيراد البرهان على سمو أخلاق صلاح الدين بأكثر مما عامل به الصليبيين ، حتى لقد هدد أصحاب السفن من رعايا الجمهوريات الإيطالية ليركبوا هؤلاء البائسين من الصليبيين .

ونسى الإفرنج بعد حين هذه اليد لصلاح الدين عندهم ، وذلك أنهم لما استبطأوا دفع الغرامة التي فرضها ريشاردس قلب الأسد ملك الإنجليز على صلاح الدين ، ولم يردَّ إليه صليب الصلبوت ، أخذ ملك الإنجليز ألفين وسبعمائة من أسرى المسلمين[١] ، وقتلهم على رأس تل في عكا ، بمرأى من عساكر صلاح الدين ، وبقر عسكره بطون المقتولين ليروا إن كان فيها شيء من الجواهر والذهب ، ظناً منهم بأنهم ابتلعوا شيئاً منها ، وحباً بالانتفاع بمرائرهم يتخذونها دواء يستشفون به . ذلك ما عاملت به السياسة الإسلامية غزاة الصليبيين ، يوم ضعفهم وقوّة المسلمين ، وهذا ما عاملتهم به السياسة الصليبية .

بيد أن المسلمين قابلوا بعد حين هذه المذابح بمثلها ، فقتل منهم الملك الظاهر في الساحل ألوفاً وقتل منهم السلطان قلاوون مائة ألف في القدس ، لأن قومه ما نسوا أن الصليبيين في فتحهم الأوّل لها ، سفكوا الدماء حتى في المسجد الأقصى ،

(١) تاريخ الأمير حيدر .

بحيث كان الفارس منهم وهو راكب تصل[١] إلى رجليه دماء المسلمين الذين قتلوا فى ذاك الحرم المقدّس ، فكانت واحدة بواحدة والبادى أظلم .

ما أورثته الحروب الصليبية فى أخلاق المسلمين والصليبيين :

كان المسلمون مع الصليبيين أيام المهادنات والسلم على غاية اللطف والمياسرة ، يضيفونهم ويكرمونهم ويعاملونهم أحسن معاملة يعامل بها الضيف والغريب[٢] ، مع أن الصليبيين بإقرار مؤرخيهم كانوا مثال الخشونة فى الطباع ، والجهل فى الأوضاع . وأفضت معاملة المسلمين لأعدائهم بالحسنى ، إلى أن عَلِقَ هؤلاء يقلدونهم فى لباسهم وعاداتهم ، ومنهم من تعلموا العربية فأتقنوها ، وجروا على مصطلح المسلمين فى كثير من شئون حياتهم .

يقول منرو : إن اتهام المسلمين بالجبن قد زال من أذهان الصليبيين ، لما التحموا معهم فى القتال ، ولم يقف تأثير احتكاك الصليبيين بالمسلمين عند حدّ الإعجاب بشجاعتهم ، بل تجاوزه إلى إزالة تحاملات أخرى عليهم ، فقد امتزج الصليبيون فى الشام امتزاجاً متصلا بالشاميين نصاراهم ومسلميهم ، ولما كان عدد الصليبيين ضئيلاً ، اعتمدوا على السكان فى أعمال الزراعة وبناء الكنائس والقلاع ، وفى التجنيد أيضاً ، وقلما كانوا يميزون بين المسلمين وملاحدة النصارى ، وإذ كانوا يعيشون بالقرب من أشراف المسلمين ، كانوا يتبادلون وإياهم فروض المجاملات ، ويبرمون معهم عهود الصيد ، وأسر المسلمون كثيراً من الإفرنج وظلوا أمداً طويلاً فى أسرهم ، فكانوا يعاملونهم معاملة حسنة ، ويمنحونهم قسطاً وافراً من الحرّية ، فعرف الصليبيون المسلمين عن كَثَب ، وهكذا كان حظ بعض المسلمين فى أسرهم عند الصليبيين ، وقد نشأت بين الأُسر فى الأحايين علاقات ودّ بين الفريقين ، وكان اتجار كل فريق فى أرض الفريق الآخر من عوامل التعارف مع

---

(١) التاريخ العام للافيس ورامبو . (٢) الاعتبار لابن منقذ .

المسلمين ، وتزوّج الصليبيون من غير جنسهم من الشاميات والأرمنيات أو من العربيات اللواتى قبلن المعمودية ، ونشأت صداقات بين أفراد الفريقين ، عقبى المعاهدات التى عقدت بين المسلمين والصليبيين ، بسبب استعانة فريق بآخر ليقاوم منافساً له أو منازعاً من أبناء دينه . اهـ .

ومن أهم ما نفع الصليبيين من احتكاكهم بالمسلمين ، أن القابضين على زمام الأمر فى الغرب لم يعودوا كما كانوا فى الثمانين سنة الأخيرة التى مضت قبل سقوط القدس بأيدى المسلمين يأتمرون فى الحال بأوامر الكنيسة البابوية ، يحمسون الناس ليسيروا بهم على العمياء ، يقتلون ويُقتلون على غير فائدة محسوسة . كان الصليبيون يتجرون فى غضون المهادنات فى بلاد المسلمين أحراراً ، لا يؤدّون سوى رسم خفيف . وكذلك كان المسلمون فى العمالات التى احتلها الصليبيون . وأهم الأمم التى انتفعت من ماديات الحرب الشعوب النازلة على شواطىء البحر المتوسط ، ولا سيما البنادقة والبيزيون والجنويون من أهل إيطاليا ، وكانوا أصحاب السفن التجارية والموانى البحرية ، وكان من وراءهم من سكان أوربا مضطراً إلى أن يقصد موانيهم فى ذهابه إلى الأرض المقدّسة وفى عودته منها ، لأن القوم استطالوا طريق البر وهى غير أمينة ، وصاحب الروم يعارض فى مَقْدَمهم عليه ، لغدرهم وعيثهم ، وربما خادن المسلمين وعاهدهم ، وابتعد عن مخادنة الصليبيين لأنهم يغدرون ويخونون .

أما متعصبة الشعوبيين من الغربيين فما برحوا بعد أن تجلى تاريخ الحملات الصليبية ، وعرف معرفة لا مجال للشك فيها ، يتمدحون من نظام الصليبيين وحسن إدارتهم وسياستهم ، ويحاولون أن يبرئوهم من كل وصمة أُلصقت بهم بشهادة مؤرّخيهم أنفسهم ، وأن يظهروهم بمظهر العطف واللطف ، ويظهروا المسلمين فى صورة القسوة والخشونة . منكرين أنه كان بين أمم الشرق القريب ، وذاك الغرب البعيد ، بون شاسع فى الحضارة والثقافة على ما أجمع عليه عقلاء الفريقين ، إلا من أعمى الغرض قلوبهم وعيونهم .

من عاون المتحاربين ومن عاندهم :

وبعدُ فإذا أحب الشرق أن يحاسب الغرب فيما عادت عليهما هـذه الحروب من ربح وخسارة ، تكون الصوافى للفريقين على هذه الصورة إجمالاً : علّمت الحرب المسلمين أنه لا حياة لهم بغير اتحاد الكلمة ، ولقنتهم معنى الجامعة الدينية والمدنية ، وكانت ضعفت العصبية العربية فى الشام ، فحلت العصبية الدينية محلها واستحكمت أيما استحكام . رأى المسلمون جيوش الصليبيين مؤلفة من نورمانيين وإيطاليين وبريطانيين وافرنسيين وألمانيين ونروجيين وسويسريين وغيرهم من أمم أوربا(١) ، فاجتمع عربهم وتركمانهم وأكرادهم على قتال عدوّهم المشترك ، وتفانى فى تحقيق هذا المقصد أولئك الذين كان الاختلاف بينهم على أشدّ حالاته من الملوك والأمراء ، تساوى فى التماسك لبلوغ هـذا الغرض الفاطميون والأتابكيون ثم الدولتان النورية والصلاحية ثم المماليك من بعد ، وكذلك كان شأن غيرهم من صغار الأمراء . واتحدت كلمة أرباب المذاهب المختلفة من المسلمين ، ولم يخرج على الجماعة غير شيعة الساحل فإنهم اضطروا على ما يظهر إلى بذل الطاعة للصليبيين ، لمكان أرضهم من الأصقاع المحتلة . وكان الدروز إلى جانب أهل السنة ، والمعنيون والتنوخيون على رأسهم ، وكذلك فريق من النصيرية . وكان غرام الاسماعيليين فى الاستيلاء على بعض الحصون لينشئوا لهم دولة ، ولطالما اغتالوا كل من يعتقدون عداءه لهم من الأمراء والعلماء ، وبلغت بهم القحة أن يطيلوا أيدى أذاهم على مثل السلطان صلاح الدين ، ووثبوا بكثيرين ومنهم صاحب دمشق تاج الدين بورى ،

(١) فى كتاب الروضتين لأبى شامة رسالة للقاضى الفاضل عن لسان صلاح الدين إلى ديوان الخليفة ببغداد وصف أجناس الصليبيين جاء فيه : «واجتمع فى هذه الجموع من الجيوش الغربية والأندلسية الأعجمية من لا يحصر معدوده ، ولا يتصور فى الدنيا وجوده ، فما أحقهم بقول أبى الطيب : تجمع فيه كل لسن وأمة فما تفهم الحداث إلا التراجم

حتى إنه إذا أسر الأسير ، واستأمن المستأمن ، احتيج فى فهم لغته إلى عدة تراجم ينقل واحد عن آخر ، ويقول ثان ما يقول أول ، وثالث ما يقول ثان » .

ونظام الملك وزير السلجوقيين الأكبر . واعترف الصليبيون فى إحدى هزائمهم وحملاتهم ، أنه كان من نصارى الشام من خدموا الدولة الإسلامية وخاشنوا الصليبيين ، أى أن طائفة من النصارى ناصرت المسلمين ، لما رأوا من عطفهم وعدلهم فى الدول المختلفة التى تقلبت عليهم منذ كان الإسلام . وقاتل الأرمن فى صفوف الصليبيين وشكرهم على ذلك البابا .

ولم تأخذ الناس ولا قادتهم هوادة فيمن كانوا يفُتُّون فى عضد المسلمين ، ويُتهمون بأن هواهم مع الصليبيين ، فقد دبرت الخاتون صفوة الملك على ابنها شمس الملوك صاحب دمشق من يقتله ، لما أيقنت أنه استدعى الإفرنج ليسلم إليهم الملك . ذلك لأن دمشق والمدن الداخلية عصت على الصليبيين ، وحاول هؤلاء غير مرة الاستيلاء عليها بجيوش جيشوها ، ومكايد دبروها ، فضُربوا ضربة قاسية كانت لطخة فى تاريخهم الحربى ، ولطالما أتوا بجيوش جرارة إلى حوران ، بل إلى داريا من الغوطة ، بل إلى المرج الأخضر من رَبَض مدينة دمشق ، ورجعوا مدحورين مخذولين . ولما شعر صاحب دمشق سنة ٥٢٣ أن الباطنية فاوضوا الصليبيين ليسلموهم دمشق قتل المزدقانىّ وزيره الخائن ، وأمر الناس فثاروا بالإسماعلية فقتلوا منهم ستة آلاف فى يوم واحد ، وقيل أكثر من ذلك ، فطفئت فتنتهم ، وكانوا يحاولون تسليم دمشق إلى الصليبيين ، وتواعدوا وإياهم إلى يوم مخصوص يهجمون فيه عليها ، وأحرق الإسماعيلية أسواق حلب فى غضون ذلك ، فافتقر أهلها . وكثيراً ما استنجد بعض أمراء الصليبيين بالمسلمين فأنجدهم ملوكهم ، واستفادوا من تفرّق كلمة أعدائهم ، ولم يخرج أمراء المسلمين عن القوانين الحربية ، ولم يعطوا عهداً اليوم فينقضوه من الغد .

الفوائد التى عادت على المسلمين من حروب الصليبيين :

وعُنى المسلمون عناية فائقة بفنون الحرب التى طالت أيامها ، واستكثروا من السلاح والعدّة والحيل والمنجنيقات والدبابات ، واخترعوا أشياء فى هذا الباب

أدهشت الصليبيين يوم حصار عكا ، حارب المسلمون بكل ما يحسنونه من ضروب الكر والفر ، وصنوف الدهاء والخديعة ، وقاتلوا كما قال شاهد العيان من المؤرخين « مرة بالأبراج وأخرى بالمنجنيقات ، وراودفة بالدبابات ، وتابعة بالكباش ، وآونة باللوالب ، ويوماً بالنقب ، وليلا بالسرابات ، وطورا بطم الخنادق ، وآناً بنصب السلالم ، ودفعة بالزحوف فى الليل والنهار ، وحالة فى البحر فى المراكب » وصارت الحرب للمسلمين عادة وصناعة ، فكان منهم من يقاتل ساعة كذا من الليل أو النهار أو فى الشهر الفلانى والموسم الفلانى ، وذلك لئلا يتبرموا بالقتال ، ويبتعدوا كثيراً عن عيالهم وأشغالهم . وقد عرض[1] صلاح الدين العساكر لما تجهز لحصار عكا ، فكانت مائة وثمانية وأربعين طلبا حاضرة ، ذكروا أن منها عشرين طلبا غائبة ، ورأس كل طلب أمير مقدم بالطبول والأعلام والكوسات واللبوس والزردخانات ، وأقل عِبرة[2] الأطلاب من المائتى فارس إلى الخمسمائة غير الأتباع .

وظهر فى هذه النازلة الصليبية نبوغ ولاة المسلمين فى فن الحرب والسياسة ، وقدّر أن ينشأ ملكان نابغتان : نور الدين محمود بن زنكى وصلاح الدين يوسف بن أيوب ، ولولا هذه الغائلة ما ظهرت فضائلهما الكثيرة ، ولا اشتهرت مزاياهما النادرة ، فذكر المسلمون بسيرتهما سيرة العمرين ، وأرجعت قوة نفسيهما إلى الإسلام بهاءه . ولولا الحروب الصليبية ما ظهر طغتكين نابغة السياسة والإدارة ، ولا نوابغ الحرب : الكامل والظاهر وقلاوون والأشرف وعشرات من القواد والزعماء . ولذلك كان ملوك الصليبيين يرهبون ملوك المسلمين ، ويجلونهم ويدهشون لأعمالهم فى السلم والحرب . لأن القائمين منهم برد العدو عن دار الإسلام يومئذ كان رأيهم فى الملك يخالف رأى الملوك الآخرين ممن تقدمهم وعاصرهم . يرون عظم التبعة الملقاة على عاتقهم ، وأنه فرض عليهم فرض عين أن يبذلوا النفس والنفيس فى سبيل دفع العدو عن الملك الإسلامى .

(١) التيسير والاعتبار (للأسدى) مخطوط

(٢) عبرة : تقدير ، بكسر الأول .

ومن حسن التوفيق أن أمراء المسلمين فى العهد الصليبى قدروا كلهم حرج الموقف فاتفقوا ولم يختلفوا ، وربما لم تتآلف قلوبهم فى عصر من العصور السابقة واللاحقة تآلفها فى تلك الأيام العصيبة ، على حين كان أمراء الصليبيين يتنازعون بينهم ، وربما تقاتلوا وسفك بعضهم دماء بعض ، ولجأوا إلى المسلمين ليستعينوا بهم على منافسيهم .

وكان من المعقول أن تتعاون الأقطار الإسلامية كلها من أقصى آسيا إلى أقصى إفريقية لدفع صائل الصليبيين ، لكن بعض الملوك والأمراء لم يكونوا يهتمون بغير شهواتهم وراحتهم فى ملكهم . فقدّر لهذه الدولة الصغيرة برقعة ممالكها ، الكبيرة بعقول القائمين بسياستها ، أن تتولى سياسة الإسلام الخارجية ، وتقضى على خطط واسعة وضعها البابا فى رومية ، وقد جند جيوشاً جرارة من كل شعوب أوربا ما خلا الإسبانيين والبرتقاليين لشغلهم بحرب العرب فى الأندلس ، وما خلا الروس لأنهم ليسوا على مذهب البابا ، فلا سلطان له عليهم ، وبطلت بالطبيعة مدة قرنين غزوات المسلمين على الروم وبالعكس ، وانحصرت جهود الشام ومصر والجزيرة وإرمينية وآسيا الصغرى فى معالجة أعظم مشكلة دولية أصيب بها الإسلام منذ انبعث من جزيرة العرب .

وأجمع المسلمون فى مصر والشام والعراق والجزيرة (ديار بكر وديار ربيعة) وما وراءها أنهم إذا لم يشدّ بعضهم أزر بعض يضمحل الإسلام ، ويزول سلطانه فى الأنام ، لأن من ملوك الصليبيين من كانوا يحاولون فتح الحجاز ، وهو أرنولد صاحب الكرك ، فأنشأ لذلك أسطولا فى بحر القُلْزم (الأحمر) على أيلة مما يلى الشام . وسار فى البحر فرقتين : فرقة أقامت على حصن أيلة تحصره ، وأخرى سارت نحو عَيَذاب تفنى المسلمين فى تلك الأرجاء . وأهان صاحب الكرك الرسول مرة بكلام روى عنه ، فحلف صلاح الدين أن يقتله بيده إذا ظفر به ، فتمت لصلاح الدين أمنيته فى وقعة حِطّين ، لما أخذه أسيراً مع غيره من أمرائهم وملوكهم ، فأبقى عليهم كلهم وضرب عنق هذا بسيفه . وكانت وقعة حطين ،

وبعدها فتح الساحل والقدس ، أول وقعة فاصلة بين العدوين المتقاتلين ، ظهر فيها جيش الإسلام بمظهر من مظاهره العظيمة فى الفتوح العربية الأولى .

ويلات الحروب الصليبية ومعالجة المسلمين ما كان لهم من نقص :

ويعدّ فى باب الخسائر أن من مدن الساحل الشامى ما خرب برمته ، خربه أحد الفريقين عمداً لمقصد حربى ، وخرب المسلمون كثيرا من الحصون والأسوار ، مخافة أن تقع ثانية فى أيدى العدو ويتحصن بها فتطول مدة الحرب ويهلك الناس على غير طائل ، وكانت أكثر أيام الحرب فى ضيق شديد من العيش لارتفاع أسعار الحاجيات خمسة أو ستة أضعاف ، فظهر البؤس لانقطاع الناس عن الزراعة ، ولأن غلات الأرض لا تكاد تسد حاجة جيوش المسلمين الجرارة ، ولأن من الأرضين الصالحة للزراعة ما تعطل بحكم الطبيعة ، فكانت حمًى يحجز بين المتقاتلين ، وربما ابتعد الزراع عن هذا الحمى فراسخ وأميالا ، لأن العدو يتقدم ويتأخر فى أرض عدوه تبعاً للأحوال العسكرية ، وهلك عشرات الألوف من المسلمين فأحدث فقدهم نقصاً فى الصفوف ، وقلة فى اليد العاملة . أما الغربيون فكانوا يقاتلون ، فإذا نقص عددهم أتتهم النجدات من أوربا . وجملة حملاتهم الكبيرة سبع حملات ، منها ماجاوز عدده نصف المليون ، وقلّت فى بعض الأحايين نجدات المسلمين ، وعددها أقل من عدد نجدات الصليبيين .

يقول ولز[1] لما أصاب البالغين فى الغرب ملل من حروب الصليب ، أقنعوا الأولاد بالجملة على بلاد المسلمين ، فسار من جنوبى فرنسا ووادى الرون بضعة ألوف منهم ، وركبوا البحر من مارسيليا ، فأسروا وبيعوا فى مصر .

قدَر المسلمون قوة أعدائهم حق قدرها ، وعرفوا كثرة سوادهم فى بلادهم ، واعترفوا لهم بالشجاعة ، وإن عدّوا أحيانا شجاعتهم خرقاء ، بالقياس إلى من يقدّرون المسائل بقدرها ، لا يجبنون عند اللقاء ، ولا يغامرون حين لا تنفع المغامرة

(١) باكورة فى التاريخ العام لولز H.G. Wells : Esquisse de l'histoire universelle

وكان التهور يبدو فى صفوف الصليبيين ، فيكثر قتلاهم على غير طائل . ومن النقص فى المسلمين أنهم قلّت معرفتهم بالغربيين . وقلما عُنوا باستطلاع طلع أحوالهم ، ولو كانوا على اتصال بهم بادئ بدء ، ملمين بأحوال الغرب حق الإلمام ، ربما استطاعوا أن يثنوا عزم الغربيين عن شهر هذه الحرب الزبون ، فيعقدوا معهم معاهدات ومحالفات ، ويمنحوهم امتيازات ومسامحات ، ويزيلوا أسباب الشكوى . وأيقن المسلمون أن الصليبيين كانوا أشد منهم عناية بأخذ أخبار دار الإسلام فى أوقاتها . ولذلك كُتب لهم النصر أحياناً ، وما لبث المسلمون أن أتقنوا أيضاً فن استقاء الأخبار ، بحيث لا تفوتهم صغيرة ولا كبيرة من أحوال أعدائهم . « وكان الرسم فى أيام الديلم ومن قبلهم ومن بعدهم من الملوك أنهم لم يخلوا جانبا من صاحب خبر وبريد ، فلم تخف عندهم أخبار الأقاصى والأدانى » واحتال الصليبيون لاستمالة جيرانهم من المسلمين ، فما عدوهم إلا غاصبى أرضهم ، دخلاء على الملك الإسلامى ، لا يهدأ لهم بال إلا إذا طردوا آخر صليبى عن وطنهم .

استعمل أمراء المسلمين أنواع الخدع الحربية مع أعدائهم ، فتوصلوا بدهائهم إلى أن يرشى صاحب دمشق جماعة الصليبيين فى القدس بمائتين وخمسين ألف دينار ، وأرسلها زيوفاً طُليت بالذهب كما قيل . وكان أمراء المسلمين فى هذه الديار يعترفون للخلفاء العباسيين بالخلافة ، ويستخدمون نفوذهم المعنوى فى تقوية أمرهم وسوق الناس إلى الحرب ، ولكن كان نفوذ بنى العباس إلى ضعف ، وتقل الماديات التى تصل إلى الجيش الإسلامى من طريقهم .

سياسة المسلمين مع ملوك الصليبيين :

لقى أمراء المسلمين عجباً من شطط ملوك الصليبيين أيام انتصارهم وأيام انكسارهم ، وما عاملوهم إلا بالسياسة الرشيدة ، حاسنوهم ما ساعدتهم الحال بما لا ينتظر أكثر منه من خصم شريف . هكذا كان طُغتكين ثم نور الدين ثم صلاح الدين فى الحملات الأولى . أما فى الحملات الأخيرة فنفد صبر أمراء المسلمين

من تعسف الصليبيين ، وما نجح فيهم لين الجانب ، ثم إن الحال تبدّلت فى الغرب ، ففترت حماسة المتحمسين لنجدة الصليبيين فى الشرق ، فكان من الحزم فى ملوك الإسلام أن يستأصلوا الفرنج من أرضهم .

كان نور الدين رجل الإسلام العظيم أسس ملكاً ضخماً ما كلفه فتحه مالاً ولا رجالاً ، فلما توطد أمره أكثر من الغارات على حصون الصليبيين ففتح أكثرها بقوّة نفسه وشدّة إخلاصه وإجماع الناس على محبته ، فتح أكثر من خمسين حصناً وبلداً ، وكان إذا كسر الصليبيين لا يشتط فى الطلب ، ولا يتسامح كل التسامح بحقوق أمته . كسر الصليبيين على حارم وكانت عدّتهم ثلاثين ألفاً من الروم والأرمن والفرنج(١) ، ووقع بيمند أحد ملوكهم أسيراً فى قبضته فباعه نفسه بمال عظيم أنفقه فى الجهاد . وافتدى أحد ملوكهم نفسه أيضاً بمبلغ جسيم فأخذه وبنى به مستشفى عظيماً ، واشترط عليه ألا يحارب المسلمين سنين عيّنها ، فما إن وصل الصليبي إلى أهله حتى قضى نحبه . وكان أمراء الدولة لا يرون إطلاقه بحال لإيقانهم بأنه ينكث عهده .

أما صلاح الدين فكانت علائقه بالصليبيين أشدّ ظهوراً ، وعلى يده كانت الوقائع الحاسمة ، وفى أيامه جاء أعظم ملوك أوربا إلى الشام فى حملة عظيمة ، وهو ريشاردس قلب الأسد ملك الإنجليز (الانكتار) ، وحاول أن يفض الحرب ونوّع لذلك الأساليب ، فصادق جماعة من مماليك صلاح الدين ، ودخل معهم دخولاً عظيماً بحيث كانوا يجتمعون به فى أوقات متعدّدة ، وكان فى كل هذا يخلط الجد بالهزل ، حتى يتوصل إلى مأربه من استرجاع الأرض المقدّسة ، وصلاح الدين يعرف ذلك ويغضى عن هذا التلاعب .

كتب ريشاردس إلى صلاح الدين إن المسلمين والفرنج قد هلكوا وخربت ديارهم ، وتلفت الأموال والأرواح ، وقد بلغ الأمر حقه ، وليس هناك حديث سوى القدس والصليب ، والقدس مُتَعبَّدنا ما ننزل عنه ولو لم يبق منا أحد ،

(١) كتاب الروضتين لأبى شامة .

وأما البلاد فيعاد إلينا ما هو قاطع الأردن ، وأما الصليب فهو خشبة عندكم لا مقدار له وهو عندنا عظيم ، فيمنّ به السلطان علينا ونستريح من هذا العناء الدائم . فأرسل السلطان فى جوابه : القدس لنا كما هو لكم وهو عندنا أعظم مما هو عندكم ، فإنه مسرى نبينا ومجتمع الملائكة ، فلا يتصوّر أن ننزل عنه ، ولا نقدر على التلفظ بذلك بين المسلمين ، وأما البلاد فهى أيضاً لنا فى الأصل ، واستيلاؤكم كان طارئاً عليها لضعف من كان بها من المسلمين ، وأما الصليب فهلاكه عندنا قربة عظيمة ، لا يجوز أن نفرط فيه إلا لمصلحة راجحة على الإسلام هى أوفى منها .

وبعث ريشاردس أيضاً إلى صلاح الدين يقول له : لا يجوز لك أن تهلك المسلمين كلهم ولا يجوز لى أن أهلك الفرنج كلهم . قال ابن شدّاد[1] بعد أن ذكر ما عرضه ملكهم من شروط الصلح العجيبة : فانظر إلى هذه الصناعة فى استخلاص الغرض باللين تارة وبالخشونة أخرى ، وكان مضطراً إلى الرواح ، وهذا عمله مع اضطراره ، والله المسئول فى أن يكفى المسلمين مكره ، فما بلوا بأعظم حيلة ولا أشدّ إقداماً منه اهـ . ووقّعت هدنة فى سنة ٥٨٨ هـ ، بين المسلمين والفرنج ، وحلف ملوك الفرنج وعظماؤهم ، أما ملك الإنجليز فأعطى يده واعتذر عن الحلف مدعياً أن الملوك لا يحلفون .

بعض ما استفاده الصليبيون من حربهم :

أخذ الصليبيون عن المسلمين حياة الرفاهية ، وفارقوا عيش البداوة ، واشتد ولوعهم بالزراعة والتجارة ، وعرفوا أن فى ممالك الشرق الإسلامى صناعات أرقى من صناعاتهم ، وزراعات ناجحة ، وتجارات رابحة ، ورقة معاملة ، وتسامحاً غريباً ، وأخلاقاً فاضلة . وحبب إليهم الترحال فربطوا صلات تجارية مع الشرق ، وأيقنوا أن المسلمين إذا سكتوا زمناً عن طلب الثأر لا يقعدون عنه طويلاً ، متى

(١) سيرة صلاح الدين لابن شداد .

أعدّوا أسباب الغلبة ، وجاء فيهم أعاظم القوّاد والزعماء ، وهؤلاء يُخلقون فى الأزمات عادةً ، وهم لا يَخلقون الحوادث ، ولا يرتجلون زعامتهم ارتجالاً .

يقول هرنشو[١] المؤرخ الإنجليزى لقد تماست النصرانية والإسلام فى الأرض المقدسة وما يجاورها وفى صقلية وجنوبى إيطاليا والأندلس ، ولم يكن هذا التماسُ بحال من الأحوال عدائياً ، لا فى جملته ولا فى نفس الأساس الذى قام عليه . فكما أن بَلعام خرج ليدعو على بنى اسرائيل فإذا به يدعو لهم ، فكذلك الصليبيون خرجوا من ديارهم لقتال المسلمين ، فإذا هم جلوس عند أقدامهم يأخذون عنهم أفانين العلم والمعرفة . لقد بهت أشباه الهمج من مقاتلة الصليبيين عند ما رأوا « الكفار » الذين كانوا ينكرون من الناحية اللاهوتية دياناتهم على حضارة دنيوية ترجح حضارتهم رجحاناً لا تصح معه المقارنة بينهما . اهـ .

عرف الصليبيون[٢] أن عدم التجانس فى جيوشهم وقلة الوحدة فى قيادتهم ، دعا إلى أن ركب أعداؤهم أكتافهم فى الروم وأرض الإسلام ، وقرّبت هذه الحرب بين شعوب أوربا ، وجمعتهم تحت لواء واحد ، وأشعرت قلوبهم حب الوحدة الأدبية ، وساعدت على إيجاد فكرة أوربية ، وعلمتهم كيف يحترمون خصومهم ، وعلمت خصومهم كيف يحترمونهم ، وعقدت بينهم المعاهدات والصلات ، خلال المهادنات وأيام السلام ، وقد جهز ريشاردس قلب الأسد فئة من العرب جعلهم فرساناً ، وعقدت عقود أنكحة بين الطائفتين ، ودخل التسامح المتبادل فى الأخلاق .

قال منرو : كان النصارى يؤثرون استشارة أطباء المسلمين لتفوّقهم على أطباء النصارى فى علاج الأمراض ، ولتجافيهم عن استعمال السكين والمبضع فى الجراحة . وبعث بورشارد من قبل الإمبراطور فريدريك بربروسا إلى صلاح الدين ، فوصف معتقدات الإسلام وصفاً حسناً ، وأطرى روح التسامح عند المسلمين ، وذكر الحرّية التى أطلقوا عنانها لأتباع كل دين ، وقال إن أكثر المسلمين يكتفون

(١) علم التاريخ لهرنشو تعريب عبد الحميد العبادى .

(٢) تاريخ الشعوب العام لمكسيم بتى .

بزوج واحدة . قال : وكان صلاح الدين محبوباً فى الغرب لرأفته وكرمه بعد استيلائه على أورشليم ، ولسلوكه سلوكاً آخر غير سلوك الصليبيين سنة ١٠٩٩ ، أثار دهشة الغربيين وعجبهم ، وكان كما هى العادة عند المسلمين ، شديد التسامح مشهوراً بتأدبه ، وبهذا الاختلاط ارتفع من أذهان الغربيين ما كان دسه بعض رؤساء دينهم عمداً أو من غير عمد على الإسلام ، حتى عاد بعضهم يشرح معتقدات الإسلام بضبط ودقة . والمسلمون مولعون بِقِرى الضيوف ، ومتفوّقون فى الأدب واللطف . وكتب ريكولدوس حوالى سنة ١٢٩٤ فى صفات المسلمين قائلاً : ومن لا يُعْجَب بحماستهم ، وبخشوعهم فى صلاتهم ، وبرحمتهم الفقير ، وبتقديسهم اسم الله والأنبياء والأماكن المقدّسة ، وبحسن عشرتهم ولطفهم مع الغريب ، وباتفاقهم وتحابهم . قال منرو : وعلى الرغم من مثل هذه الشهادة بقيت نظرية أكثر الكهنة على ما كانت عليه دون تغيير ، فهم ما فتئوا يشعرون أنه من المستحيل استمالة المسلمين إلى النصرانية ، ولطالما تخوّفوا من كثرة من دانوا بالإسلام من النصارى .

وأبقى الصليبيون فى الشام ، أى فى الساحل والأرض المقدّسة منه ، بعض الحصون والكنائس من الآثار ، ولما ضربوا الضربة الأخيرة بيد الملك خليل (٦٩٠هـ) سكن بعض الإفرنج فى جبل لبنان ، وآب قسم آخر على مراكبهم . وعادت الحروب الصليبية على الغرب بخيرات جزيلة . ولو لم يكن منها غير تحطيم قيود التعصب الكنسى لكفى ، وذلك لما رأى الصليبيون من تسامح المسلمين ، وتساهل مشاهير أمرائهم كنور الدين وصلاح الدين ، فانتشرت التجارة بعد الحروب الصليبية ، أكثر من انتشارها أيام المملكة الرومانية ، وأخذت أوربا عن العرب عادات الفضيلة والمدنية ، وكل ما يهوّن الحياة ويحليها للأنفس .

قال سنيوبوس بعد إيراد هذا : بدأت الصلات بين الغربيين والشرق بحرب بين المؤمنين ، وانتهت بمسائل قامت بين المتجرين ، وتحضر الغربيون باحتكاكهم بالشرقيين ، وأثر هذا الاختلاط فى أفكار النصارى الدينية ، فتحمسوا أوّلاً للنزال والطعان ، ولما شاهدوا المسلمين عن أَمَم ، ورأوا فيهم رجالاً أشدّاء منورّين

كرماء أمثال صلاح الدين — الذى أخلى سبيل أسرى النصارى بدون فدية ، وبعث بطبيبه إلى أحد زعماء الصليبيين ليداويه من مرضه — بدأوا باحترام المسلمين .

رأى لبون فى مضار الحروب الصليبية ومنافعها :

أفاض لبون فى نتائج العراك الذى حدث بين الغرب والشرق فى الحروب الصليبية ، فقال إنها كانت عقيمة من حيث غايتها الأولى ، وهى الاستيلاء على فلسطين ، فإن الصليبيين على ما أهرقوا من الدماء ، وبذلوا من الأموال ، رجعوا بعد قرنين ، بخفى حنين . أما من حيث النتائجُ غير المباشرة فى هذه الحروب ، فيمكن أن يقال إن منافعها عظيمة . وذلك أنه كان الاختلاط بالشرق مائتى سنة من العوامل القوية فى انتشار المدنية فى أوربا ، وحدث أن الغاية من الحروب الصليبية جاءت على غير ما أُريد منها . ولهذا التناقض بين الغاية المتوخاة ، والغاية التى بلغوها ما يماثله فى التاريخ . وليتمثل لذهنه من شاء أن يقدّر التأثير المشترك من احتكاك الشرق بالغرب حالة تمدن كل الشعوب التى اختلطت بالأمم الأخرى . ونحن نعرف أن الشرق بفضل العرب كان ينعم إذ ذاك بمدنية زاهرة ، على حين كان الغرب غارقاً فى التوحش . وقد استدللنا من مجموع أعمال الصليبيين أنهم كانوا فى كل مكان متوحشين حقيقة ينهبون ويذبحون ، لا فرق عندهم بين عدوّهم وصديقهم ، خربوا فى القسطنطينية أثمن كنوز العاديات اليونانية واللاتينية . ولم يربح الشرق باحتكاكه بهؤلاء البرابرة من الصليبيين ، بل خسر ونتجت له كراهة الغربيين كراهية دامت قروناً ، وهذا من النتائج المضرة .

أساء الشرقيون الظن بالشعوب النصرانية فى أوربا ، وتظننوا الظنون بدينهم ، لما رأوا من جهل الصليبيين وخشونتهم وقسوتهم الحمقاء ، وقلة دينهم ، فانفرجت مسافة الخلف بين الشرق والغرب ، حتى تعذر تلافى ما فرط . وكان من ذلك زيادة نفوذ البابوات وفساد رجال الكهنوت ، فأنتج ذلك الدعوة إلى الإصلاح الدينى ،

وما أعقب ذلك من المجالدات الدامية . ومن أشأم نتائج تلك الحروب ، أن تأصل التعصب وعدم التسامح فى العالم عدّة قرون ، وبدأ الدين فى مظهر من القسوة الوحشية ، لم يكن لنحلة عهدٌ بها ما خلا اليهودية . وبلغ التعصب بعد تلك الحروب درجة الجنون ، وما زالت آثاره متجلية إلى اليوم ، فقد اعتاد رجال الدين أن يهرقوا الدماء ، فأنشأوا يطبقون على قومهم طرق الإبادة التى طبقوها على أعدائهم من قبل ، بدعوى نشر الإيمان وإبادة الإلحاد ، وكان كل من بدرت منه بادرة خفيفة من الخلاف حريًا أن يلقى أشدّ العذاب ، وما مذابح اليهود والإلبيجاويين وطبقات كثيرة من الملحدين ، وما ديوان التحقيق الدينى والحروب الدينية ، وجميع المعارك الوحشية التى سالت فيها الدماء فى أوربا زمناً طويلاً ، إلا نتائج مشئومة نشأت عن التعصب الذى أوقد الصليبيون ناره . اهـ .

وفى الحقيقة أن الصليبيين كان يُشعر ظاهرهم بأنهم يقصدون خدمة دينهم بالاستيلاء على القبر المقدّس ، مهوى أفئدة الأمم النصرانية ، ولكن الواقع أنهم كانوا منحلين من جوهر الدين ، وأقرب إلى نزع شعاره متى رأوا مغانم يغنمونها ، أو فاحشة يأتونها ، أو حيلة يحتالونها ، أو جناية يجنونها ، ولا يدركون عواقبها عليهم وعلى قومهم وأممهم . فقد ذكر العماد(١) الكاتب كيف أرسل الصليبيون فى الغرب إلى إخوانهم الصليبيين فى فلسطين بضع مئات من النساء يبذلن أنفسهن للمتحاربين من إخوانهم ، مما تأباه الشرائع السماوية كل الإباء . وذكر إيوركا(٢) نقلاً عن رئيس الأساقفة المؤرخ غليوم دى تير ومدوّن الوقائع ارنول وكثير غيرهم من المؤرخين الذين شهدوا الحروب الصليبية أنهم دونوا ، والألم آخذ منهم ، ما سرى من فساد الأخلاق إلى جماعات الصليبيين ، حتى فى أهل الطبقة الوسطى منهم ، وقالوا إنهم كانوا يقدمون أخواتهم وبناتهم ونساءهم إلى الحجاج (النصارى) مقابل جُعْل يحتملونه . وهذا معنى قول لبون إن الصليبيين كانوا متوحشين جهلة

(١) الفتح القسى للعماد الكاتب .
(٢) تاريخ الصليبيين لأيوركا (بالفرنسية) .

قليلاً دينهم ويقينهم . خلافاً لمن يحاول أن يلبسهم ثوباً براقاً شفافاً من المدنية ، وما دثارهم إلا الجهل والحماقة ، وما شعارهم إلا التعصب والاستهتار .

وصف جوليفه كستلو نتائج الحروب الصليبية فقال : عصفت الحروب الصليبية فى قرن حملت ريحاً من الجنون تبلور فى أفكار الناس ، فانتقل من القوة إلى الفعل . وما هى إلا سلسلة من الحملات قامت بها شعوب أوربا النصرانية للاستيلاء على القبر المقدس فى إيلياء . كان البابا أوربانوس الثانى ، وهو من أصل فرنسى مجيّش الحملة الأولى ، والبابا هو الذى زين للشعوب الأوربية ما حملها على الاشتراك فى هذه الحرب الطاحنة ، وهو الذى وضع لهم ما وضع من المغريات فقبلوها راضين . وكانت الحملة الأولى (١٠٩٥ م) مؤلفة من مائة ألف فرنسى وألمانى ، فنيت فى الطريق ولم تصل إلى غير القسطنطينية ، ثم مزق الأتراك شملها فى آسيا الصغرى ، والتحقت بها حملة أخرى من مليون إنسان فيهم النساء والأولاد ، والمحاربون منهم ثلاثمائة ألف ، خلص منهم ثمانون ألفا إلى القدس ففتحوها . أما سائر الحملات فقد أخفقت ، ومع هذا كانت كنوز الشرق تغرى الحملات الأخيرة ، أكثر مما تستهويهم أوهام الدين ، ولكم أن تشبهوا حملات النصارى على الشرق بحملات البرابرة المتوحشين ، وإن كانت دعوى إنقاذ القبر المقدس ، المشكوك فى أنه قبر المسيح ، قد اتخذها الباباوات ثم الملوك ، حجة ليحمسوا الشعوب ويجندوا الناس . وغدا التجنيد إجباريا بعد الحملة الثانية . وكانت هذه الحملات الكبرى شؤماً على أوربا ، استنزفت من الممالك رجالها الأشداء الشجعان غير مرة ، وافتقرت بسببها فرنسا وانجلترا وألمانيا فقراً دونه كل فقر ، لما قضت عليه هذه الحروب من مئات الألوف من الأيدى النافعة ، دع ما صرف عليها من النفقات الباهظة . وكان من طمع الباباوات ما استغلوا به سذاجة الجماهير فكلفهم باهظ التكاليف . وتجلت فى ذلك شهواتهم المفرطة كى يحرزوا الثروة السهلة المأخوذة من غير حلّها ، وتولت المحنة تكذيب أوهامهم ، فكان من ذلك أشد المصائب . وبينما كانوا يرجون أن يسقطوا على سعادة وغنى ومجد لم يشهدوا إلا آلاما وبؤساً . أرخوا العنان

لغرائزهم المتوحشة مدفوعين إليها بعامل الفاقة والأمل . وستظل الحروب الصليبية إحدى فضائح النصرانيــة السياسة المؤمنة ، ونحن لا نرى فيها ما يعزوه إليها المؤرخون من الفوائد إلا كذباً وبهتاناً عظيما ، ولن يوافقهم على ما يدعون إلا من كان تحت سلطان الوطنية والدين . إن تبادل الأفكار بين الشرق والغرب قد نتج من الاحتكاك بين عرب إسبانيا والأوربيين أكثر مما كان من أثر الصدمة البربرية بين جيوش النصرانية والإسلام . وعلى كل حال فإن أوربا مدينة كثيراً للحضارة العربية والتركية أكثر مما تدين الحضارة العربية للحضارة المنحطة فى الغرب بين القرن الحادى عشر والثالث عشر اهـ .

استفادة الصليبيين :

قبل الحروب الصليبية كان لا يعرف الشرق من الغربيين غــير أفراد أذكياء رحلوا فى التجارة ، أو جاءوا فلسطين للزيارة ، أو نزلوا الأندلس وصقلية فى طلب علم لا يعرفونه . أما فى هذه الحروب فقد عرفوا الشرق الإسلامى ، وكان الداغرون عليه من مختلف الطبقات ، فرأوا المسلمين فى عُقر دارهم ، وحققوا أنهم ممتازون بصفات حربية وأدبية وعلمية واجتماعية ، رأوا أمة تحررت من قيود الدينيين بعض التحرر ، وأنها أمة من طراز غير ما يعرفونه من أجيال الناس . نقول تحررت من قيود الدينيين لأنا رأينا صلاح الدين لم يرض أن يشرك رأيه مع رأى الفقهاء فى هذه النازلة . فكان اعتماده على رأيه ورأى قواده وأهل الحنكة من رجاله ، لعلمه بأن نظر رجال الدين يختلف فى مثل هذه الأحوال عن نظر رجال السياسة ، ولو عمل يوم فتح القدس برأى الفقهاء وعامَل الصليبيين بالقسوة التى عاملوا بهــا المسلمين غداة فتحهم تلك المدينة ، لأقام فى كل دار فى الغرب مأتماً ، ولما انحلت العقدة المهمة من الحروب الصليبية ، فكان نظره أرقى من نظر من أشاروا عليه بقتلهم جميعاً ، ومعاملتهم بمثل ما عمِلوه .

أما الصليبيون فكانوا تحت سلطان رجال الدين مباشرة ، إذا أحب رجال

السياسة المسامحة مع المسلمين دعوهم إلى المشاكسة . وإذا رأوا من الحكمة الوفاء بالعقود والعهود ، أباحوا لهم التفلت من كل الأيمانات والقيود . أراد ملك انجلترا أن يزوّج أخته من الملك العادل أخى صلاح الدين ، وأن تكون لها الأرض الساحلية الإسلامية والإفرنجية ، فللإفرنجية من جانب أخيها ، وللمسلم من جانب السلطان . فأنكر رجال الدين على ملك الإنجليز وضع أخته تحت مسلم بدون مشاورة البابا ، وبالطبع لم يشر هذا إلا بأن يدين الملك العادل بالنصرانية ، فلم يتم شىء من هذا التدبير . ونفى إيوركا المؤرخ الرومانى مشروع زواج الملك العادل من حنة أخت ريشاردس ، وقال إن ذلك من الأوهام التى سطرها مؤرخو العرب .

ورأى بعضهم[١] أن الحروب الصليبية التى بدأت فى القرن الحادى عشر وانتهت فى القرن الثالث عشر تعدّ بالنسبة للغرب نهضة انبعثت من الطبقات النازلة بدعاية بطرس الناسك الذى جند تحت علم الصليب جمهوراً من الفلاحين وأبناء الشعب . وهذه الثلاثة القرون التى استغرقت بالحروب الصليبية وانتهت بالقرن الثالث عشر ، ودعيت بعصور الإيمان ، كانت الدّور الذى خلا فى أوربا النصرانية من عقد ديوان التحقيق الدينى بأمر الكنيسة أو بأمر الحكومات . فكان هلاك الناس فى الغرب على هذا العهد فى الشرق الإسلامى ، وكانوا من قبل يقتلون فى أوطانهم على ما يتراءى لرجال دينهم ، وبالطرق التى يرون أنها تقضى على الإلحاد ، وتثبت الاعتقاد بالنصرانية على النحو الذى ينبعث من أروقة كنيسة مار بطرس فى رومية .

وفى التاريخ[٢] العام أن من الفوائد التى عادت على الغربيين من الحروب الصليبية تحرير أصحاب الأرضين من رقهم ، وتقوية السلطة الملكية ، وإدخال تعديل على نظام الإقطاعات ، وانتشار الشعر الغنائى واغتناء إيطاليا ، وضعف قوّة التدين ، ووهن سلطة البابوات الخ . وربما كان من أهم ما استفادت أوربا انتقال الثروات من أيدى الأمراء والزعماء إلى أرباب الطبقات الوسطى والدنيا من أهلها ، فباع من

(١) فلسفة المدنية لتوفنر . (٢) التاريخ العام للافيس ورامبو (بالفرنسية) .

باع من الكبراء ، وابتاع من عمل بأرضه ومتجره فاغتنى واقتنى الرباع والضياع .

وذكر ميشو أن الفرنسيين والنورمانيين وسائر شعوب شمالى أوربا المتوحشة فى القرن الثانى عشر للميلاد ، كانوا فى حالة البداوة ، وهذا ما ساعدهم على إعلان الحروب الصليبية فى الشرق ، فلما نشأت المدنية الحديثة فى القرن السادس عشر ، وتسربت أولاً إلى الملوك ، أصبحوا لا يرون الاغتراب عن أوطانهم ، ولا الشعوب أن تفارق مساقط رءوسها ، وعمت الصناعات ، وحسنت الزراعة ، وانتشر العلم ، وغدا ذكرى كل مدينة ، وكل أسرة ، ومصطلح كل شعب وقطر ، والألقاب والامتيازات ، والحقوق المستحصلة والأمل فى تنميتها ، كل ذلك قد غير من أخلاق الفرنج ، وبدّل من ميلهم لحياة التنقل والارتحال ، وجعلها صلات تربطهم بالوطن . وكتب التوفيق للملاحة فى القرن التالى بكشف أميركا ، واجتاز الملاحون رأس الرجاء الصالح ، فنشأ من هذه المكتشفات تبدل كثير فى التجارة ، وأخذت الأفكار تتجه وجهة جديدة . وأنشأت المضاربات الصناعية التى كانت قائمة بالحروب الصليبية تسير نحو أميركا والهند الشرقية ، ففتحت أمام الغربيين ممالك كبرى وأقطار غنية ، تسدّ مطامعهم ، وتشبع نهمة التائقين إلى المجد والثروة والمطوّحات ، فأنست حوادث العالم الجديد ما فى الشرق من عجائب .

هذا ما استفاده الصليبيون من حرب المسلمين فى الشام ، وهذا ما استفاده المسلمون من مهاجميهم فى ديارهم ، وبذلك رأيتم أن الصليبيين كانوا ظالمين لأنفسهم ولغيرهم فى إثارة تلك الحرب المشئومة ، جُفّوا بإغراء رجال الدين منهم ، فألقوا بهم إلى التهلكة ، وأضاعوا من صيت فرسانهم ، وفقدوا من شممهم وعزة أنفسهم لما حلوا أرض غيرهم يقتلون كل برىء ، ويخالفون القوانين المرعية بين البشر . ومهما كان من النتائج التى نشأت للفريقين من هذه الحروب الطويلة ، فإن الخسائر المادية يصعب تقديرها . وتعلم الصليبيون أمورا كثيرة من مدنية العرب ، ولكن كانوا يستطيعون أن يدرسوا حضارة هذه الأمة فى الأندلس وصقلية ، من دون تقتيل مئات الألوف منهم ومن غيرهم . لا جرم أن الصليبيين فى الديار الشامية

والمصرية أدركوا على استحكام الجهالة فى عقولهم أن المسلمين على غير ما وصفهم لهم القسيسون والأساقفة . « ورجع[١] الآلاف من الغزاة الصليبيين إلى مواطنهم يحملون أخبارا تناقض ما كان ينشره دعاة الحرب من رؤساء الكنيسة من أن المسلمين جماعة من الوثنيين غلبوا على الأرض المقدسة ، وأجلوا عنها دين التوحيد ، ونفوا منها كل فضيلة وإخلاص ، وهم وحوش ضارية وحيوانات مفترسة ، فلما قفل الغزاة إلى ديارهم قصوا على قومهم أن أعداءهم كانوا أهل دين وتوحيد ومروءة وذوى ود ووفاء وفضل ومحبة » .

* * *

اعتصم المسلمون فى هذه الكارثة العظمى بحبل الله ، ورضوا بما قدره وقضاه ، وخلعوا عنهم ثوب الخمول ، وابتعدوا عن كل هزل وفضول ، التحفوا شعار الجد والاجتهاد ، لخوض غمرة هذا الجهاد ، فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله وماضعفوا وما استكانوا .

(١) الرد على هانوتو لمحمد عبده .

غارات المغول والأتراك على الحضارة العربية

حضارة المدن الإسلامية :

لئن كان من استقلال بعض أمراء القاصية عن الخلافة العباسية ما دعا إلى فصم عرى الجماعة ، فإنه نشأت من هـذا الانفصال مهما كان نوعه فوائد عظيمة أيضاً في عمران الحضارة . فبنو الأغلب في أفريقية ، وبنو طولون وبنو عبيد في مصر ، وبنو سامان في بخارى ، وبنو بويه في شيراز ، وبنو سبكتكين في غزنة — كل هؤلاء نسجوا على منوال بني العباس في بغداد ، فصارت كل عاصمة من هـذه العواصم بتراتيبها وعلمها مثل مدينة السلام مصغرة .

وكأيّ من قاعدة كقرطبة والقيروان والفسطاط ودمشق وبخارى وسمرقند وبلخ وهراة وأصبهان والرّيّ ومَرْو ونيسابور وشيراز ومراغة وهمذان وخُوارزم ، بل سجستان وجُرجان وطبرستان وقزوين وجُوين وبُست وسرخس وبيهق وأشروسنة وفرغانة والصُّغد والشاش وطوس وغيرها من أمصار الشرق كانت آية في حركتها العلمية ، وضع الأمويون أساسها ، وترَسَّم خطاهم فيها بنو العباس ، فألبست ثوب القطر الذي انتشرت فيه .

دخلت معظم هذه المدن في طور مدنية أصبحت معها كل واحدة دار علم وحكمة ، تدرس فيها العلوم على اختلاف صنوفها باللغة العربية ، والناس في أرض الترك والفرس والخزر يتقدمون كل يوم خطوة من التعرّب . أما البربر في الغرب فإنهم أنشأوا بسيوفهم ممالك في تاهرت وسِلجماسة وتلمسان والريف وفاس ومكناس ، واستولوا على الأندلس ؛ لكن المدنية أضرت بهم لما احتكوا بأهلها في الأندلس (1) فقضت عليهم كما قضوا عليها ، فكان شأنهم شأن المغول في فك عرى المدنية

(1) معلمة الإسلام : المرابطون .

الإسلامية وقلة الاستعداد للأخذ بمذاهبها ، فإن مذاهب الترف استولت على صنهاجة ومنهم المرابطون ، فهلكوا فيها كما هلك قبل ثمانية قرون أسلافهم الفاندااليون فى شمالى إفريقية .

وصف المقدسى الرىّ فى القرن الرابع عشر فقال : « إن فيه مجالس ومدارس وقرائح وصنائع ومطارح ومكارم وخصائص ، لايخلو المذكّر من فقه ، ولا الرئيس من علم ، ولا المحتسب من صيت ، ولا الخطيب من أدب ، وهو أحد مفاخر الإسلام ، وأمهات البلدان ، به مشايخ وأجِلّة ، وقراء وأئمة ، وزهاد وغزاة وهمة» . ووصف قصر عضد الدولة فى شيراز ، وكان فيه ثلثمائة وستون غرفة ، يجلس كل يوم فى واحدة ، فقال فى خزانة كتبه إن عليها وكيلا وخازناً ومشرفاً من عدول البلد ، ولم يبق كتاب صنف إلى وقته من أنواع العلوم كلها إلا وحصله فيها ، وهى أزج[1] طويل فى صُفّة كبيرة فيه خزائن من كل وجه ، وقد ألصق إلى جميع حيطان الأزج والخزائن بيوتاً طولها قامة فى عرض ثلاثة أذرع من الخشب المزو [illegible] بواب تنحدر من فوق ، والدفاتر منضدة على الرفوف ، لكل نوع بيوت وفهرستات فيها أسامى الكتب . وكان عضد الدولة[2] محبا للعلوم وأهلها فقصده العلماء من كل بلد وصنفوا له الكتب . ولا تظن أن عضد الدولة كان كأكثر الملوك يخرب أقاليم ليعمر له قصرا ، بل كان عاقلا فاضلا حسن السياسة شديد الهيبة . أما أبوه ركن الدولة وكانت إمارته أربعاً وأربعين سنة « فقد أُصيب به الدين والدنيا جميعا لاستكمال خلال الخير فيه » .

ولقد كانت بخارى وسمرقند عاصمتى العلم على عهد السامانيين ، حتى كادت حضرتهم تماثل حضرة بنى العباس ، « وكانت بخارى فى الدولة السامانية مثابة المجد ، وكعبة الملك ، ومجمع أفراد الزمان ، ومطلع نجوم أدباء الأرض ، وموسم فضلاء الدهر » وكان فى مراغة[3] إلى القرن السابع آثار وعمائر ومدارس وخانكاهات حسنة ، وكان فيها أدباء وشعراء ومحدثون وفقهاء وكذلك كانت همذان ، ومازالت

(١) الأزج : بيت بنى طويلا . (٢) تاريخ أبى الفداء . (٣) معجم ياقوت .

إلى تخريبها بجند تيمورلنك « محلا الملوك ومعدناً لأهل الدين والفضل » . وأنشأ محمود بن سبكتكين فى عاصمته غزنة من المصانع الجميلة ما يعدّ دهشة الأمصار ، وكان قصره مجمع الشعراء والعلماء ، ومنهم البيرونى[١] سيد علماء العالم فى القديم ، وأعظم رياضى نبغ فى الإسلام ، ومنهم الفردوسى الشاعر ، والعتبى الكاتب إلى عشرات أمثالهم من المغنيين والشعراء .

ومالنا ووصف تلك العواصم ، واستقصاء أخبار كل واحدة منها ، وما أبدع فيها رجالها من علم وعمل يحتاج إلى مجلدة . وكذلك تاريخ[٣] المدن التى أنشأتها العرب أو جدّدتها كالبصرة والكوفة وبغداد وسامرّاء وواسط ومراغة وشيراز وقصر ابن هبيرة وعسكر مكرم وأردبيل وسَرَخْس وسمرقند وبيكند وبوزجان وسامان وشهرستان ودِهِستان وأذنة والمصّيصَة وسَلَمْيَة والفسطاط والقطائع والقاهرة والقيروان والمهدية وبونة وبجاية ووَهران ورباط الفتح وتامدلت ومُرّاكش وفاس والمسيلة وبَطَلْيوس وتطيلة والمرّية والزهراء إلى غيرها من المدن العربية .

والغاية هنا أن نمثل تمثيلا خفيفاً لتلك الحضارة الرائعة فى قواعد كل قطر ، وحسبك فى تصورها أنه كان فى مدينة مرو فقط — وكانت مرو ونيسابور وبخارى مستقر ولاة خراسان من أول ما ملكها العرب — عشر خزائن للوقف ، قال ياقوت إنه لم ير فى الدنيا مثل كتبها كثرة وجودة . وما خلت كل مدينة من مدارس وخزائن كتب وعلم وعلماء ، وكثيراً ما كانت بعض القرى تشبه المدن فى هذا المعنى على صورة صغيرة ، دام ذلك إلى أوائل المائة السابعة ، وقد طغى المغول على ديار الإسلام تحت راية جنكيز ، أعظم فاتح عرفه التاريخ ، وأعظم مخرّب قام فى الأرض ، خرب أقطاراً وأمصاراً ، وما عرف له من غرض فى ذلك إلا حب التخريب ، ولذلك قالوا ما دهى الإسلام بمثله .

امتدت مملكة جنكيز من بحر الصين إلى البحر الأسود[٤] واستولى على ماوراء

(١) معلمة الإسلام : غزنة . (٢) يتيمة الدهر للثعالبى .
(٣) مدن العرب للمؤلف (مجلة المقتبس م ٦ ص ٤٠١) .
(٤) قاموس الأعلام لشمس الدين سامى .

النهر وخوارزم وخراسان وهراة وقندهار ومُلتان وأفنى أهلها ، وقتل كل من كان فيها من كبير[1] وصغير ، ثم خربها حتى ألحقها بالأرض ، وتركها بلقعاً ينعق الغراب في ربوعها ، وأتى على ماتعب العرب بإيجاده ستة قرون في غزنة ونَيْسابور وشيراز وبخارى وسمرقند وغيرها من البلدان ، وكانت من أعظم عواصم العلم وحواضر الإسلام ، وبمن قام فيها من العلماء والفضلاء تمت آيات باهرة من الحضارة العربية ممزوجة بالحضارة الفارسية ، فقضى المغول على كل ذلك حتى إن بعض المدن الكبرى هلك سكانها كلهم وخربت برمتها ، وكم من خزائن[2] كتب أحرقت ، ومن مدارس علم قوضت ، ومن مراصد فلكية دمرت ، وكان أهم سبب في فقدان أكثر ما ألفه علماء المسلمين وحكماؤهم من التصانيف ما أتاه جنكيز وأولاده وأحفاده .

ثم جاء هولاكو المغولي فدك أعظم ركن للإسلام ، وخرب بغداد مدينة السلام ، وناهيك بها من فاجعة قضت على آخر معقل من معاقل الحضارة . وما أفاد تلك الأقطار استرجاع حكومات الإسلام لها فيما بعد ، فإن جنكيز في أول القرن السابع ، وهولاكو في منتصفه ، وتيمور أواخر الثامن وأول التاسع ، إلى غيرهم من أمراء المغول الأشرار كانوا إذا سلم بلد أو إقليم من عبث الأول جاء الثاني فأتم ما أغفل الأول ، وإذا فرض أن نجا صقع من الثاني فالثالث يأتي عليه لا محالة . وعلى الجملة فإن المغول من الشرق والبربر من الغرب قضوا على المدنية الإسلامية[3] .

استعداد المغول للحضارة :

التتر والترك والتركمان أجيال كثيرة ، يرجعون بأصولهم إلى الجنس المغولي ، ومنهم بادية رحالة ومنهم حضر ينزلون القرى والحواضر . وكان الترك من أول من دان بالإسلام من هذه الشعوب ، وبقي المغول والتتر إلى القرون الأخيرة على أديانهم

(١) معجم البلدان لياقوت . (٢) قاموس الأعلام لشمس الدين سامى .
(٣) معلمة الإسلام .

القديمة . ونزل السلجوقيون الأتراك فارس والعراق والروم وكرمان والشام . وكان ملكشاه وألب أرسلان من أول ملوكهم الذين كانوا على شيء من العدل وحسن التدين ، وكان أكثر هؤلاء السلجوقيين[١] يحبون العلم والآداب ، ولا سيما ملكشاه ومحمد وسنجر ، ويعطفون على العلماء ، وقد ارتقت الأصقاع الإسلامية في أيامهم ارتقاء محسوساً ، وانتشرت العلوم والآداب ، ونبغ العلماء والأدباء . وهذب الإسلام من نفوسهم ، وألقى الرحمة والشفقة في قلوب جيوشهم ، فما ارتكبت ما ارتكبه جنكيز وهولاكو وقومهم . وكان هؤلاء مازالوا على وثنيتهم ووحشيتهم . يقول هوتسما[٢] : إن المغول والترك كانوا في كل زمان لا يحفلون كثيرا بالأديان المختلفة وليسوا من طبيعتهم متعصبين لها .

خرب جنكيز عواصم العلم في فارس مثل طوس ونيسابور وقزوين وأصفهان وشيراز ومراغة وغيرها[٣] . وقتل قتلا ذريعا حتى المستأمنين من جاءوه من مسافة أربعين ساعة يستقبلونه ويستأمنون إليه ، وأكمل من أتى بعده تدميرها ، وكان سلاطين السلاجقة ووزراؤهم يتبارون في إقامة المصانع كالجوامع والمدارس والجسور والفنادق[٤] ، واهتم ملكشاه بالعلوم وإن لم يكن عالما ، فكان ورجاله يقدرون قدر نعمة المعرفة التي حرموها ، وتركوا إدارة البلاد لوزرائهم مثل نظام الملك ، وكان مطلق اليد في الحكم ، فكان السلجوقيون بما لقفوا من الثقافة العربية الفارسية يدافعون قومهم عن العبث بالمدنيــة ويحمونها من غاراتهم ، ويسوقونهم إلى الأخذ بحظ منها . وللسلجوقيين أياد بيض على الإسلام يوم جدت غارة الصليبيين عليه ، وكفاهم أنه كان من أمرائهم أمثال آل زنكي ومنهم نور الدين محمود مثال العادلين في السلاطين ، ومن وزرائهم أمثال نظام الملك نصير العلم والعلماء .

وبينما كانت في هــذا الشرق القريب تتألف كتلة صغيرة تدفع الصليبيين عن سرة ديار الإسلام مصر والشام ، فتخرب مدن وحصون ، وتندك معالم وجوامع ،

---

(١) قاموس الأعلام لشمس الدين سامى . (٢) مقدمة زبدة النصرة للعماد الكاتب .
(٣) مقدرات تاريخية لجلال نورى . (٤) معلمة الإسلام . مادة السلجوقيين .

كان جنكيز يخرب فى أواسط آسيا أرض المسلمين ومصانعها . ولم تكد تدفع الشام عنها عادية الحروب الصليبية حتى جاء هولاكو بغداد يخربها ويقتل الخليفة المستعصم ويقضى على جلة الفقهاء ورجال الدولة ، يضع السيف فى مدينة السلام(١) أربعين يوماً ، ويستخرج الأموال والتحف بأنواع العذاب ، ويحرق معظم تلك المدينة الساحرة ، وزادت عدة القتلى عن ثمانمائة ألف ، عدا الأطفال ومن هلكوا فى السراديب والقنى والآبار ، وأحرق قبور الخلفاء ونبش عظامهم ، وبنى بكتب العلماء إصطبلات الخيول وطوالات المعالف عوضا عن اللَّبِن . وقيل إن ماء دجلة تغير لونه لكثرة ما ألقى فيه التتر من الكتب والأوراق ، وقيل إنه أقام بكتب العلم ثلاثة جسور على دجلة . هذا عدا ما نهب من الأصقاع التى احتلها ، فملأ فى مراغة خزانة عظيمة من الأسفار نهبها من بغداد والشام والجزيرة ، حتى تجمع فيها زيادة على أربعمائة ألف مجلد(٢) . ولم يكتف هولاكو بذبح السكان وإحراق الدور والقصور ، بل خرّب الرىّ(٣) ، وكان على أتم ما يكون منذ ثمانية آلاف سنة .

ومن أعظم البلاء فى القضاء على الخلافة العباسية أن الرافضة عاونوا(٤) هولاكو على المسلمين ، لما جاء إلى خراسان والعراق والشام ، كما عاونوا جدّه جنكيز . قال ابن تيمية : وكان العلقمى وزير الخليفة منهم ، فلم يزل يمكر بالخليفة والمسلمين ، ويسعى فى قطع أرزاق عسكر المسلمين وضعفهم ، وينهى العامة عن قتالهم ، ويكيد أنواعاً من الكيد حتى دخلوا فقتلوا من المسلمين ما يقال إنه بضعة عشر ألف ألف إنسان أو أكثر أو أقل ، ولم ير فى الإسلام ملحمة مثل ملحمة الترك الكفار المسمين بالتتر .

وجاء فى آخر القرن السابع (٦٩٩ غازان التترى يفتح الشام ، وكان أسلم قبيل توليه ملك الإيلخانية فى تبريز ، فخرّب وأحرق وقتل وصادر وعذب على استخراج المال ، وأحرق قسما مهما من دمشق ، منها بعض أمهات مدارسها

(١) الحوادث الجامعة والتجارب النافعة فى المائة السابعة لابن القوطى .

(٢) فوات الوفيات للكتبى . (٣) باكورة فى التاريخ العام لويلز .

(٤) منهاج السنة لابن تيمية .

وجوامعها ، وأخذ من دمشق ثلاثة آلاف ألف دينار سوى التراسيم والبراطيل والاستخراج لغيره من الأمراء والوزراء ، وحجته فى حرب أمراء مصر والشام أنهم خارجون من طريق الدين ليس لهم وفاء ولا زمام ، يجورون على الرعية ويمدون أيديهم العادية إلى حريمهم وأموالهم .

وأغار تيمور لنك التترى أوائل القرن التاسع ، يصفى حسابات التخريب فى ممالك الإسلام ، فأخرب مدناً فى طريقه إلى الشام ، ومن أهم ما أخرب مدينة بغداد (٨٠٣) فذبح أهلها ودك معالمها وخربت بيوت الناس والدور العامة . وخرب أيضاً ثلث دمشق وبعض حلب ، وقضى فيهما على المدارس والجوامع وخزائن الكتب ، وكانت دمشق أغنى مدينة فى العالم فضرب عليها غرامة عظيمة أفقرتها ، وكان قبل أن يلقى النار يستصفى لنفسه وقواده وجنده ما راقهم من العروض والأموال ، ثم ارتحل عن دمشق يحمل منها أصحاب الحرف والصناعات[١] وأرباب الفضائل ، وقد أخذ وجماعته من نفائس الأموال فوق طاقتهم ، فجعلوا يطرحون ذلك فى الدروب والمنازل ، وذلك لكثرة الحمل وقلة الحوامل ، وأصبحت القفار والبرارى والجبال من الأمتعة والأقمشة كأنها سوق الدهشة[٢] ، وكأن الأرض فتحت خزائنها ، وأظهرت من المعادن والفلزّات[٣] كامنها ، وأخذ تيمور من دمشق كل ماهر فى فن من الفنون ، وجملة من العلماء ، وربما أخذ أناساً من الأعيان والسادة والنبلاء ، وكذلك كل أمير من أمرائه أخذ الفقهاء والعلماء وحفاظ القرآن وأهل الحرف والصناعات والعبيد والنساء والصبيان والبنات بما لا يسعه الضبط . هذا ما عمله فى عاصمة واحدة . وكذلك شأنه فى معظم عواصم الإسلام .

على أن تخريب تيمورلنك لا يقاس إلى تدمير جنكيز وهولاكو ، لأنه كان مسلما خرب قسما وأبقى آخر ، ونقل — شأن كثير من الفاتحين — بعض كنوز

(١) عجائب المقدور لابن عربشاه . (٢) سوق الثياب الطريفة فى دمشق .
(٣) يطلق على جواهر الأرض كلها .

الأرض التى وطئها إلى أرض أخرى ، ومع أنه استحل إهراق الدماء(١) على غير طائل فقد كان محبا للمعارف والعلماء ، وجمل ما جمعه من آثار المدن المخربة فى عاصمته سمرقند ، زينها بها وعمرها ، وأنشأ عدة مدارس وخزائن كتب وغير ذلك من أساليب نشر العلم .

وبينا كانت دار الإسلام بعد الغوائل التى انتابتها بالصليبيين الآتين من الغرب ، والمغول الواغلين من الشرق ، تكفكف العبرات التى سفحتها فى القرن الخامس والسادس والسابع والثامن والتاسع ، قام من فروق فى القرن العاشر سلطان تركى يعدّ من أعظم السلاطين العثمانيين ، ففتح قسما من فارس واستولى على الشام ومصر وسائر الجزيرة على أيسر سبب ، ولم يقصد مباشرة إلى تخريب ما احتل من المدن العامرة ، بل أراد تعريتها من ذخائر العلم والصناعات ، فعمل على انتزاع بقايا المدنية العربيــة من القسم العامر من أرض العرب فى آسيا وإفريقية ، محاولا أن يعيش بالتراث المعظم الذى سار إليه من هذه الحضارة ، فبدأ ينقل معظم أدوات المدنية إلى القسطنطينية ليعمرها على الصورة الإسلامية فى الجملة ، ويخرجها من الرومية المتأصلة فيها ، لتكون محط الأنظار بين الأقطار ، ويجعل مدنية الترك الإسلامية نعمت الخالفة ، لمدنية اليونان الوثنية النصرانية السالفة .

حمل هــذا الفاتح من مصر إلى فروق كتب العلم ورجاله ، وآلات الصناعة وصناعها ، وأجمل الأعلاق وأثمن الجواهر ، فسلب مصر مدنيتها ، وكانت الأيام سالمتها قليلا فأصبحت عاصمة مهمة على عهد المماليك البرجية والبحرية ، وقويت صلاتها التجارية بالغرب ، وأنشأوا لهم مدنية لا بأس بهـا ، وراجت فى أيامهم التجارة . وخرج السلطان سليم من مصر ومعه ألف حمل من الذهب والفضة ، دع التحف والســلاح وأعمدة الرخام والصينى والنحاس ، وأخذ من كل شىء أحسنه ، وبطل من مصر نحو خمسين صنعة ، وعمرت خزائن الآستانة وقصورها

(١) قاموس الأعلام لشمس الدين سامى . (٢) تاريخ مصر لابن إياس .

من كتب العرب التي نجت في القرنين السالفين من هولاكو وتيمور ، وحبس الأتراك كتب العرب في قصورهم وجوامعهم ومدارسهم على قلة الراغبين فيها من بني قومهم ، وبذلك محيت من الأذهان أول المظاهر العربية في أرض العرب ، وغض الأتراك الطرف عن معاهد العلم والمصانع فخربت خراباً مبكياً ، ولم تمد لها قائمة . كأن هذا الجنس التتري حلمة طفيلية لا يعيش إلا بامتصاص دم غيره ، وكأن السلطان سليما بعثته الأقدار للقضاء الأخير على الحضارة العربية في فارس والشام ومصر ، وهي من الأقطار التي كانت على غابر الدهر موطن الحضارة العربية وكهفها الأمين .

تخريب الأتراك ما بنته الدول قبلهم :

ومن أهم ما قضى على مدنية العرب في عهد الترك إهمال المدارس وامتداد أطماع الطامعين في استصفائها ، ونزع وقوفها وأحباسها ، وفي الخطط التوفيقية أن النظار في مدارس القاهرة تصرفوا خلال ثلاثة قرون من العهد التركي على غير شروط وقفها ، وامتنع الصرف على المدرسة والطلبة والخدمة ، وانقطع التدريس بالكلية لكثرة الاضطرابات ، وبيعت كتب المدارس وانتهبت ، حتى آلت الحال ببعض المدارس الفخمة والمباني الجليلة أن أصبحت زوايا صغيرة ، وزال بعضها جملة أو صار زريبة أو حوشاً أو غير ذلك .

ومثل هذا وقع في عاصمة الشام فقد دخل الأتراك دمشق وفيها أكثر من ١٥٠ مدرسة للقرآن والحديث والفقه على المذاهب الأربعة ومدارس الطب ومدرسة الهندسة ، عدا الربط والخوانق والمستشفيات ، وخرجوا منها بعد زهاء أربعة قرون وليس فيها سوى بضع مدارس عامرة بعض الشيء ولا تدريس فيها . هذا عدا ما كان من المدارس الجليلة في مدن الأقاليم كالقدس وحماه وحمص وحلب وطرابلس وغيرها ، وكلها أصيبت بما أصيبت به مدارس دمشق (١) ، وجميع هذه المدارس كان فيها خزائن

(١) الجزء السادس من خطط الشام للمؤلف . والدارس في المدارس للنعيمي (مخطوط) .

كتب ، وعامة المرافق وأسباب الراحة والتشويق والاستفادة تامة . ومثل ذلك قل في مدارس العراق ، ولا سيما الموصل والبصرة وبغداد ، وناهيك بالمدرسة النظامية (٤٥٩ هـ) والمدرسة المستنصرية (٦٣١ هـ) في بغداد ، ولم يقتصر نظام الملك على إنشاء المدرسة البغدادية أو الجامعة البغدادية ، بل بنى دور العلم للفقهاء وأنشأ المدارس للعلماء ، وأسس الرباطات للعباد والزهاد ، ثم رتب لهم الجرايات والكساوى والنفقات ، وأجرى الخير والرزق لمن كان من أهل الطلب للعلم مضافاً إلى أرزاقهم وعم[١] بذلك سائر أقطار مملكته ، لم يكن من أوائل الشام وهي بيت المقدس إلى سائر الشام الأعلى وديار بكر والعراقين وخراسان بأقطارها إلى سمرقند من وراء نهر جيحون مسيرة زهاء مائة يوم ، حامل علم أو طالبه أو متعبد أو زاهد في زاويته إلا وكرامة نظام الملك شاملة له وسابغة عليه . وكان الذي يخرج من بيوت أمواله في هذه الأبواب ستمائة ألف دينار في كل سنة . وكانت غلة المدرسة المستنصرية نحو سبعين ألف دينار ، وقيل إن قيمة ما وقف عليها يساوي ألف ألف دينار جعلت على المذاهب الأربعة ، وأقيم فيها مستشفى وأطباء يدرسون الطب كما يدرس فيها علم الحيوان والنبات والفلك والرياضيات على اختلاف ضروبها ، والآداب بأنواعها والتاريخ وعلوم القرآن والحديث[٢] ، وهكذا الحال في عامة مدارس ديار العرب .

ولقد تفنن ملوك المسلمين وأهل الخير من رعاياهم في أعمال البر والإحسان ، وأقاموا من المصانع ما يشبه من أكثر وجوهه مصانع الغربيين اليوم ، فقد كان كوكبوري صاحب إربل من أهل القرن السابع من بعض أولئك المحسنين ، ومما بنى أربع[٣] خانقات للزمني والعميان وقرر لهم ما يحتاجون إليه ، وبنى داراً للنساء الأرامل وداراً للضعفاء وداراً للأيتام وداراً للملاقيط ، ورتب بها جماعة من المراضع

(١) سراج الملوك للطرطوشي .
(٢) النظامية والمستنصرية ورثاء المستنصرية ووصفها الأخير بمجلة المقتبس م ١ .
(٣) شذرات الذهب لابن العماد .

وأجرى على أهل كل دار ما يحتاجون إليه . ولا تزال إلى اليوم بقايا من هذه الخيرات العجيبة فى ديار الإسلام ، فقد ذكر الإخوان تارو أن فى مدينة مراكش ملجأ لا مثيل له فى الدنيا بأسرها ، وهو بناء يكاد يكون بلدة يضم ستة آلاف أعمى يأكلون فيه ويقرءون ، ولهم قوانين يجرون عليها وتراتيب تنظم من شئونهم .

كانت العربية ماثلة فى الشام يوم دخلها العثمانيون فى سنة ٩٢٢ هـ فى معظم مظاهر الحياة ، فأطفأوا شعلتها وأضعفوا قوتها ، ولو نجا الشام وحده من حكمهم لنشر — لتوسطه بين الولايات العربية — أنوار الحضارة ، ولو كتب له الانضمام إلى مصر منذ استقلت بها الأسرة العلوية ، لتساند القطران الشقيقان فى مهمة التمدين ، ولما أضحت هذه الولايات ، وكانت مستنبت العربية ، أشبه بالقرى منها بالمدن ، يوم دعا الترك داعى الرحيل . لا جرم أن صنعاء ومكة والمدينة والبصرة وبغداد والموصل وحلب ودمشق كانت إلى عهد قريب من الانحطاط والجهل على ما تذرف له الدموع حزناً . ومن أين يرجى لها مدنية وقد اصطلحت على جسمها جميع أمراض الانحلال ، وهل المدنية غير ابنة الراحة والسكون ، والعمل المتصل ، والتفكير الطويل ، وهذا ما كان مفقوداً فيها .

فكروا فى المدارس القديمة التى دثرت بدخول الدخلاء والأعاجم . وكيف كان لها عمل عظيم فى القضاء على الأمية بين الناس ؟ كانت معاهد هى غاية ما وصل إليه العقل البشرى ظرفاً ومظروفاً فى العصور الغابرة ، وبها أثبت أجدادنا فى القرون الوسطى أنهم كانوا شيئاً فى إتقان الهندسة والبناء ، وأنهم على جانب من سلامة الذوق ، وأنهم حراص على المجد . هذه المدارس تنطق بلسان حالها أن الأعمال العظيمة لم تقم لو لم تفكر بها عقول كبيرة ، وأن تلك المدارس والمصانع ما كانت تعمر لو لم يدرس فيها رجال العلم والدين والأدب ، وما كانت تسير سيراً ضمن لها الخلود قروناً ، لو لم تجهز بقوانين معقولة وتراتيب متسلسلة ، وما قام فى الأرض شيء من العظمة إلا كان إلى جانبه عظماء يتعهدونه ، ويفيضون عليه من معين قرائحهم .

قامت معظم معاهدنا فى القرون الوسطى بتأثيرات دينية ، وكانت المسائل المدنية تابعة لهـا وعالة عليها . ولعمرى هل كانت أوربا على غير تلك الحال أيضاً فى تلك العصور . وهل البيع والديرة فى الغرب إلا وليدة الدين ومن صنع رجاله ، أو من أحبوا التقرب من قلوب المتدينين ، أو قامت بأيدى المتظاهرين بالدين من الحكام والملوك ، فلما جاء دور النهضة والإصلاح ، ونجا الغرب من تأثيرات تلك القرون بالثورة على النظم القديمة ، انتهى عمل تلك المصانع ، فانقلبت على التدريج من معاهد دين إلى دور علم ، وأصبحت الدينيات تقرأ فى بعضها على أساليب جديدة من البحث والنظر ، بل إن الأموال الطائلة التى كانت يجمعها ملوك الغرب بإرهاق رعاياهم ، ليبنوا بها قصوراً لهم ولأتباعهم وحظاياهم ، جعلت عندهم فى عصور الارتقاء متاحف ومحاكم ومدارس . ولو تركت مدارس الإسلام وشأنها فى هذه الأقطار لاستحالت مع الزمن معاهد علم وفن .

المقابلة بين الفرس والترك :

هذا ما كان من موجبات تراجع الحضارة العربية ، أو ضعف العلم والعمل فى أبناء العربية . أما الحضارة فى الأقطار الإسلامية الأخرى كفارس والأفغان والهند وتركستان والقوقاز التى تأثرت قروناً طويلة بالمدنية العربية ، فشأنها غير شأن الأرض العربية منذ نفضت أيديها من دولة العرب ، وكانت تعلو وتسفل بحسب روح المتغلبين عليها ، وما برح أثر العرب ماثلاً فى أهلها لمكان الدين فيهم إلى اليوم وإلى ما بعد اليوم ، مهما حاول المفرطون فى حب قومياتهم من بنيها أن يعيدوها سيرتها الأولى قبل الإسلام ، على ما نرى الفرس البهلويين والترك الكماليين لعهدنا ، يحاولون أن يصطنعوا لهم مدنيتين جديدتين ، طلاؤهما مدنية الغرب ، وروحهما المدنيتان الفارسية والطورانية ، قبل أن يتعاورهما الإسلام بالمحو والإثبات . والزمان كفيل بالحكم على تينك الأمتين بهذا النظام الجديد . ولقد طردت فارس وتركيا الجهلة من رجال الدين ، واكتفى منهم بالدارسين والعالمين ، فكان هـذا الصنيع

أعظم بشارة خير لمستقبل الأمتين ، وبالقضاء على الجهال الذين كانوا يضعون العثرات فى طريق النهوض ، ودّعت فارس وتركيا ماضياً منحطاً ، وباتتا على رجاء استقبال عهد جديد .

أثبت الفرس بالإسلام فى القرون الخالية أنهم على استعداد لقبول العلوم والآداب وتمثلها ، فأخرجوا نوابغ اختلطوا بأصحاب السلطان ، وأفادوا العرب والعربية ، ولم يثبت الترك منذ تشرفوا بالإسلام أنهم مستعدون لمثل ما عرف عن الفرس من كفاءة علمية وصناعية ، وإن شهد لهم العارفون منذ الأعصر المتطاولة أنهم جدّ كفاة فى الجندية ، ولا بأس بهم فى السياسة الدولية(١) . فقد هيأ بعض الملوك العثمانيين عامة الوسائط لنشل أبناء جنسهم من عثرات الجهالة ، وحاول سيد ملوكهم محمد الفاتح أن يجعل من دار ملكه فى فروق موطناً علمياً يضاهى به على الأقل دولة المماليك فى مصر والشام . وبذل لذلك أنواع البذل والمعاونة ، واستدعى العلماء من الأقطار يغدق عليهم الجرايات والمشاهرات وأنواع التكرمة والتجلة . ومن جملتهم عالم ما وراء النهر علاء الدين بن محمد القوشجى(٢) ، أراده السلطان على

(١) سألت فى الحرب العامة صديقىّ سليمان نظيف وجناب شهاب الدين من أعاظم أدباء الترك وعلمائهم أن يمليا علىّ جريدة بأسماء كتب العلم التى وضعها الأتراك العثمانيون فى العهد الأخير فأنكرا سؤالى وقالا : وهل تذهب إلى أننا أمة علم ، ومن أين نأتيك بهؤلاء المؤلفين الذين لم ينشأوا بين أظهرنا إلى اليوم ؟ نحن أمة خيال وأدب ، وجل ما عندنا من هذا القبيل شعر وقصص نقل أكثره عن اللغات الأوربيــة ، وما خلفه الموسومون بالعلم من أبنائنا فى فنون الحرب والبحر والقانون والإدارة فإنما هو مترجمات ، لا يد لنا فى متونها وشروحها وحواشيها إلا القليل الذى لا يؤبه له . قالا ذلك وكانا يأسفان لأنه لم يتم للسلطان سليم تنفيذ منهاجه فى نشر اللغة العربية ، وجعلها لغة الدولة الرسمية ، قائلين لو وفق إلى تحقيق أمنيته لكان العثمانيون غير ما هم عليه اليوم ، يكتبون العربية مشبعة بهواء الآستانة الجميل ورقة بيزنطية ، ولأدمجوا حضارة العرب فيهم وكثروا سوادهم ، فأتوا بمدنية جديدة توحدت فيها جميع عناصر السلطنة . ولطالما ذكرا أمامى ما وقع من الارتقاء لبلغاريا ورومانيا وصربيا واليونان منذ سلخت عن جسم السلطنة ، وتم لها فى سنين قليلة ما لم يكتب مثله للدولة العثمانيــة فى بضعة قرون ، أو كما وقع لمصر فى هــذا الشأن فنقلت بنزعها من العثمانيين على يد الأسرة العلوية من الجحيم إلى النعيم .

(٢) الشقائق النعمانية لطاشكبرى .

استيطان بلاده هو وتلاميذه وأعطاه مدرسة أيا صوفيا ، فلما هلك الفاتح اضمحل كل ما أسسه القوشجى ، لأن من العادة هنا أن يزول كل عمل بزوال عامله الأول ، يغيّر كل ملك طريقة حكمه بحسب معرفته ، وقد يحسد سلفه على ما صنع من جميل ولو كان أباه ، فيقضى عليه أو يتراخى فى إنجازه . وما كانت المدارس الدينية فى الاستانة بل فى الأناضول والروم ايلى فى الأدوار السالفة إلا صورة من انحطاط التعليم ، لا نور فيها إلا بقدر ما تخرج تلاميذ وسطاً لتولى الوظائف الدينية . وقلّ أن جاء فيهم عالم كبير يذكر ، وكان عالمهم من يحسن النقل والاختصار والجمع ، مع ركاكة أعجمية بادية ، وإبهام فى كتبهم لا تُحلّ رموزه ومعمياته ، خلافاً لما ألّفه الفرس وعلّموه باللغة العربية . على أن العثمانيين يشكرون على أن لم يغفلوا فى معظم أدوارهم العناية بالدروس الدينية باللغة العربية على رسوم دول الإسلام .

هذا فى العلوم الدينية . أما فى العلوم المادية فقد قال مورخو الترك والإفرنج إن الأتراك طاردوا[1] علماء بيزنطية ، فكانوا سبب نهضة إيطاليا ونشر المدنية الحديثة . ولا ينكر أحد أن الأتراك أرسلوا من الاستانة مواد بناء المدنية ، فإن أوربا على ما قيل مدينة بمعارفها الحاضرة إلى بضعة من فضلاء بيزنطية هاجروا منها إلى إيطاليا بدخول العثمانيين ، أمثال يفاديس وساريون ويوركى الطرزونى وكسطى وسكارديس وفرانچس وميخال دوكا .

بيد أن كل تدبير للنهوض يضعف تأثيره إذا لم تكن الأمة متأهبة لقبوله . ويعترف علماء الترك أنه لم يظهر فيهم رجل[2] من عيار ابن رشد الفيلسوف ، فكّر بحرية ثم كتب ما فكر فيه بجرأة ، ولم ينبغ فيهم مؤلف واحد يشبه من خرج من العرب فى أدوار ارتقائهم . والأتراك بعد ستمائة سنة فى الحكم لم يفارقوا الأخلاق التى عرفوا بها يوم جاءوا من بلادهم الأصلية — كما قال جناب

(١) تاريخ تدنيات عثمانية لجلال نورى .

(٢) تاريخ تدنيات عثمانية لجلال نورى .

شهاب الدين — ونزلوا أرض صاحب قرمان شراذم[1] يرعون أغنامهم ومواشيهم، ولما استصفوا تلك الديار وأنشأوا لهم حكومة، وتوسعوا فى السلطان وتبسطوا فى رحاب المدنية القديمة، وأسسوا على أنقاضها تلك الإمبراطورية العظيمة، لم يتجردوا من صفاتهم، وظلوا بعد كل هذا على أخلاق الرعاة، يظنون كل الناس غنماً لهم وسائمة، يقودونها كما يشاءون، ويتصرفون بأوبارها وألبانها، بل بلحمها وعظمها، ولكن رعية الغنم غير رعية الأناسى، وهيهات أن تقوم بهذه الذهنية مدنية تذكر. يريد أن يقول، وهو تركى الجنس، إن قانون الرجمة قضى على الترك أن يظل دمهم كما كان، وإن قضوا أجيالاً فى بيزنطية الجديدة.

رأى لبون فى الترك والتتر :

رأينا الممالك التى خضعت للترك قروناً متقهقرة متراجعة، خرجوا منها كما دخلوا إليها على مركبات البقر، على ما وقع لهم فى الروم ايلى. كانوا إذا فتحوا بلداً عمروا فيه ثكنة أولاً وجامعاً ثانياً. أما المدرسة فلا تعمر إلا بعد سنين طويلة وبدواع كثيرة، يعمرها بعض نبهاء عمالهم على الأكثر بالسخرة وأموال المظالم والمغارم، وذلك فراراً بأموالهم من المصادرات، أو بأنقاض الجوامع والمدارس القديمة، وما أكثر ولوعهم بالبناء على الأنقاض. وهذه المدارس إذا قيست بما كان من نوعها فى مصر لا تعد شيئاً. وقد نظر لبون إلى عمل الترك فى التمدين نظرة قدّر معها الأشياء بقيمتها فى الجملة، فقال : جاء الأتراك بعد العرب فاستولوا على جزء عظيم من الشرق ومنها مصر، والأتراك إذا نظر إليهم من الوجهة السياسية كان لهم عصر عظمة، فإن سلاطينهم الذين خلفوا إمبراطرة القسطنطينية، ورفعوا علم الهلال على كنيسة أيا صوفيا بدلاً من الصليب اليونانى، قد أدخلوا الرعب زمناً طويلا على قلوب أشد ملوك أوربا شكيمة، وتوسعوا فى نشر كلمة الإسلام. بيد أن

(١) شرذمة بالكسر : القليل من الناس، وفى التنزيل « إن هؤلاء لشرذمة قليلون » جمعها شراذم.

سلطانهم كان أبداً عسكرياً محضاً ، أثبتوا كفاءتهم لتأسيس مملكة ضخمة ، وكانوا إلى العجز فى كل أيامهم عن إحداث مدنية لهم ، وما كان أقصى همهم إلا أن ينتفعوا بما كان تحت أيديهم ، فأخذوا عن العرب العلم والفنون والصناعة والتجارة وما إلى ذلك . وفى جميع المعارف التى برّز فيها العرب لم يؤثر للترك أدنى ارتقاء . وكما أن الشعوب التى لا ترتقى تتراجع بحكم الطبيعة ، ما عتّمت ساعة انحطاط الترك أن حانت . وترجع نهاية تاريخ مدنية العرب فى الشرق إلى اليوم الذى انتقلت فيه القوّة الحربية إلى أيدى غيرهم . وظل التاريخ يذكر العرب لما لهم من التأثير الدينى ، ولكن مستوى المدنية التى بلغوها لم توفّق العناصر التى خلفتها إلى الاحتفاظ به . وكانت مصر أعظم الأقطار التى ابتليت بهذا الانحطاط العظيم ، فبدأ تدنيها من العصر الذى انتصر فيه السلطان سليم ، وجعل مصر ولاية من ولايات السلطنة العثمانية . فضعفت فيها الفنون والعلوم والصناعة بالتدريج ، وكانت مصر كسائر الولايات التى ربطت بالآستانة ، يديرها ولاة يتوالى تبديلهم ، ولا يفكرون إلا بأن يفتنوا سريعاً ، فمسخ رونق البلد القديم ، ولم يقم فيه مصنع جديد ، وأهملت المصانع التالدة . وخلت من يد تتعهدها ، ولم يبق منها إلا ما غفلت عنه الأيام . قال : وإن من الرعايا من هم أرق أخلاقاً من حكامهم ، وإن الشعب التركى خلق جندياً لا مثيل له ، وإن ديارهم بأسرها خراب ، وهى مزيج من عناصر أذلها الأتراك وما تمثلوها . قال : إن المغول خلفوا العرب فى الهند فأخذوا عن المدنية العربية ، وإذا عجزوا عن أن يرقوا بها فقد أحسنوا الانتفاع منها فرقيت الهند على عهدهم .

وقال أيضا(١) : كانت الشام على عهد الأمويين وأوائل عهد العباسيين من الأمصار التى رأت حضارة بلغت أقصى حدود رقيها ، وأصبح العرب أساتيذ بعد أن كانوا تلاميذ . واستفاضت العلوم والشعر والفنون الجميلة أى استفاضة . ودام نجاح الشام إلى عهد التقسيم الذى مزق مملكة الخلفاء ، وعندها أخذت بالضعف ،

(١) حضارة العرب لجوستاف لبون .

ولكنها لم تنطفئ شعلتها كل الانطفاء إلا عند ما سقطت في حكم الأتراك ، ولم يكن الخراب مطلقاً ، فقد زال أثر معظم عجائب البذخ والفنون والصناعة التي جمعتها العرب . ولم تلبث بعض العواصم مثل صور وصيدا أن أصبحتا في حكم قريتين كبيرتين ، وعريت الجبال من أشجارها كل التعرية ، وأقفرت القرى من سكانها وكانت من أغنى الأرضين . وفي هذه الأماكن التي طالما أمرعت في غابر الدهر ، أصبح العشب لا ينبت ، منذ ضغطت عليها أيدي الترك . اه .

ها كم رأي لبون في حكمه على الأتراك واستعدادهم للحضارة ، وما أثروه في ديار العرب ، ومن العدل أن لا يفوتنا أن انحطاط العرب بدأ بذهاب الدولة العباسية ، وبأمثال هولاكو وجنكيز وغازان وتيمور من المغول . وكان العلم يعيش في الأرض الإسلامية بقوة التسلسل المنبعثة من أصله المتين ، فلما جاء الأتراك العثمانيون لم يزيدوا أوضاعاً من شأنها تقوية العلم ، بل سكتوا على ما كان ، فزاد بهم التأخر ، لأنهم لم يسعهم أن يأخذوا بأيدي الناس إلى مضمار التقدم في العلوم والآداب ، ولو يصرف العناية في إخراجهم من الأمية .

جهل الترك وتجهيل العرب :

ومن أدهش ما يدون في عهد الترك العثمانيين أن أحد وزراء المعارف المتأخرين كان يضع مناصب التدريس في المدارس الثانوية في المزاد ، ويتولى المنصب أجرأ المدرسين على تنقيص المشاهرة ، يوسد إلى من اقتنع بالقليل في هذه التولية ، مهما بلغ من جهله في الفن الذي أخذ على نفسه تدريسه بهذا الراتب الضئيل . وحدث أنهم وسدوا دروس الدين إلى غير المسلمين في المدارس الثانوية . وكان من العادة في المدارس الوسطى بالولايات العربية أن يعهد إلى أبناء العرب الذين لا يحسنون التكلم والكتابة بالتركية بتدريس الآداب التركية ، وإلى الأتراك الذين لا يجيدون تأليف جملة واحدة بالعربية أن يدرسوا الصرف والنحو والمنطق والبيان العربي . أما المدارس الابتدائية فمعلموها خرجوا على الأكثر من غمار الجهلاء ، وليس غير

بعض المدارس العالية فى العاصمة كالمدارس الملكية والحربية والطب والهندسة ، فى أواخر أيام الدولة ، يتولى التدريس فيها علماء أجلاء من الترك والعرب والأرمن والروم والفرنسيين والألمان وغيرهم .

ولو عنى العثمانيون بالتعليم عنايتهم بالجيش منذ القديم ، لما وصلت أصقاعهم إلى ما وصلت من الجهل ، ولما صار المسلمون فى أيامهم إلى الانحطاط المبكى ، وقد جعلت دولتهم التعليم صورياً لا حقيقياً . وبينا لا نجد فى كل مائة قرية فى المالات العربية مدرسة ابتدائية واحدة ، نرى الدولة من جهة أخرى قد بلغت بها الغيرة على نشر لغتها أن تكتب العقود وأسناد الضرائب والمواثيق والأحكام باللغة التركية . وأعظم من هذا أن حظرت فى آخر عهدها استعمال اللغة العربية فى المحاكم النظامية فى التقاضى والكتابة ، فحاربت بذلك العرب والعربية جهاراً ، حرباً ليس فيها شيء من المنطق ، وأتى زمن ولا من يحسن القراءة العادية فى عدة قرى كبيرة . بل حدث أن بعض النابهين فى بليدة إسلامية أراد أن يعلم ابنه القرآن فلم يجد له فيها شيخاً يستطيع إقراءه إياه ، فعمد إلى راهب يقرئه لابنه ففعل . وكان المسلمون أيام كان لهم بقايا من العلم يقرئ علماؤهم أهل الذمة كتبهم الدينية . فقد وقع لكمال[1] الدين بن يونس فى الموصل وعز الدين الإربلى فى دمشق من أهل القرن السابع أن قرأ عليهما أهل الذمة التوراة والإنجيل وكانا يشرحانهما لهم ، ويعلمانهم الكتابين على طريقة حسنة ليست فى استطاعة الحاخامين والقسيسين أن يقرأوها لهم فى ذاك العهد ، يدرسان ذلك على نحو ما كانا يقرئان المسلمين والفلاسفة[2] .

هذه صورة من غزوات المغول والترك على الحضارة العربية . وإلمامة بالعوامل العظيمة التى تحيفتها فى القرون الأربعة الأخيرة بقيام دولة حربيـة أعجمية خربت

(١) وفيات الأعيان لابن خلكان وفوات الوفيات للصلاح الكتبى .

(٢) نكت الهميان للصفدى .

فى أيامها المدارس ، وضاعت الأوقاف . وتراجعت المصانع والصناعات . وفقدت الكتب ووسائل إخراج الثروة . فكان هذا المرض الذى استحكم زمناً طويلا بفعل الدولة وعمالها الخائنين أشد عليها من جميع أمراضها السالفة ، يشبه ما حل بساحتها من مصائب المغول المرة بعد المرة . وعابر سبيل إذا حاول التدمير قد يكون ما جنته يده الأثيمة أقرب إلى الإصلاح من مقيم يخرب كل يوم فى المعنويات والماديات على غير اطراد ولا نهج معقول ، ويطول عهد تخريبه وتخريفه .

غارات المستعمرين من الغربيين

على بلاد المسلمين وغيرهم

تاريخ الاستعمار واستعمار البرتقاليين :

بين الاستعمار والاستثمار تقلب البشر في أرجاء الأرض ، ولا يزال يتقلب : يستأثر العامل بالخامل ، ويتحكم العالم بالجاهل ، يغزو القوى الضعيف ، ويستهوى الأعز الأذل ، والجهاد في ذلك على أشكال تختلف طريقتها ، وتتفق أبداً نتيجتها . والغاية المنشودة تحصيل الرزق من كل وجه وبكل حيلة ، والأخذ بحظ من النعمة تعين على الاستمتاع بمباهج الحياة ومناعمها . والطبيعة ما حادت عما رسمته من قانون : يأكل المستبسل المستسلم ، والأرض على الدوام بين غالب ومغلوب ، وصائد ومصيد ، والدنيا ما انفكت طعمة لمن غلب .

الاستعمار ضرب من الهجرة ينزل المهاجر بلدا يسكنه سكنى دائمة على غير أمل العودة إلى موطنه الأصلي ، فيعمر الأرض بكده ، ويستخرج خيراتها ببذل أوفى نصيب من سعيه ، يزيد في إمراعها ، للاستكثار من ريعها ، على أتم منوال ، وأجمل مثال . وإذا سألت[1] المدركين من المستعمرين قالوا لك إن استعمارنا تقاضانا كثيرا من الشجاعة والبطولة والمفاداة والعبقرية ، وإننا استصفينا كل مدرة من أرض مستعمراتنا بنقطة هريقت من دم أولادنا ، ونحن نقصد من جهودنا أن يؤسس لنا أبناؤنا في كل مكان ملكا يضاهي بعظمته ديارنا ، يفلحون بما ينتجون ، وينتشرون ويتكاثرون ، ويحتفظون بلغتهم وأخلاقهم ونبوغهم ، فتنمو ثروتنا ، ويخلد مجدنا ، وتستفيض شهرتنا .

---

(١) زهرة التواريخ الفرنسية لهانوتو

G. Hanotaux : La fleur des histoires françaises

قال المستعمر «البرسادو» : ليس من الإنصاف أن نموّه الحقائق ، إن الاستعمار فى البدء لم يكن عملا تمدينيا أو منبعثا من إرادة التمدين ، بل كان عمل قوة ، وقوة ذات غرض . الاستعمار قصة تنازع على الحياة ، وهو منافسة عظمى حيوية ، انتقلت من الأفراد إلى الجماعات ، ومن الجماعات إلى الأمم ، وانتشرت فى العالم . هذه هى الحقيقة التاريخية ، والوطنى سواء أكان أسود أو أحمر أو أصفر ، هو آلة للعمل أكثر مما هو إنسان ، لا قيمة له أكثر من عمله وإنتاجه . ويطرح جانبا إذا لم يعد يصلح للاستعمال . اهـ .

ينشأ الاستعمار فى العادة من حركة[1] رجال تختلف درجات حضارتهم وأساليب انتفاعهم فى أصقاع تتباين صور السير فيها . ويتم بوسائل سلمية ، ولا يستلزم منه أن يكون أبداً استعماراً مدنياً ، فما كل حين يقوم الاستعمار على الزراعة والتجارة ، بل كثيرا ما كانت تهاجم الأرض المستعمرَة فتؤخذ حرباً . والاستعمار عريق فى القدم ، ومن أقدم الأمم التى عانته الفينيقيون والرومان واليونان . واستعمار الفينيقيين تجارى ، كانوا يجتزئون فيه بإنشاء مكاتب لمتاجرهم فى الأرض التى ينزلونها ، وما سكن قط أبناؤهم فيما استعمروه سكنى دائمة . وطريقة الرومان واليونان فى استعمارهم أن يُسكنوا بنيهم فيما يحتلون من الأرض ، ولذا أزاحوا الفينيقيين عن متاجرهم . وكان العرب أرباب خبرة واسعة فى الاستعمار ، شهد لهم الإفرنج بذلك ، وذكروا أنهم ظلوا معروفين بهذه الصفة فى كل أدوار تاريخهم[2] . وما استطاع الجنويون والبيزيون والبنادقة وهم أجداد الطليان ، أن يتمدّوا حدّ الاستثمار فى مستعمراتهم ، فأشبه استعمارهم الاستعمار الفينيقى والقرطاجنى .

كان البرتقاليون فى بدء العصور الحديثة أول الأمم الغربية التى نهضت للاستعمار ، فبدأوا باحتلال سواحل الغرب الأقصى حتى لم يبق بيد المسلمين من

---

(١) لاروس الجديد المصور Nouveau Larousse illustré .

(٢) لاروس الجديد المصور .

ثغوره غير سلا[١] ورباط الفتح ، واستولوا على بلاد الهبط وضايقوهم بها ، حتى انحازوا إلى الأمصار المنزوية عن الأطراف . ثم أخذوا يتقدمون فى بحر الظلمات حتى كشفوا شواطئ إفريقية الغربية والشرقية ، متقدمين إلى الشرق للاتصال بجزائر الأبازير « البهارات » ، كشفوا هذه الطريق على عهد الأمير هنرى[٢] ابن الملك جوان الأول البرتقالى المتوفى سنة ١٤٦٠م ، وكان عالماً باحثاً انقطع إليه بعض اليهود وعلماء من الفاسيين والمراكشيين المغاربة ، كانوا يعدون لذلك العهد علماء العالم . فأخذوا ينقبون فى جغرافيات العرب وغيرها ، حتى عرفوا إمكان الدوران حول إفريقية ، فكان لهذا الأمير الفضل على أوربا كلها ، وما تم ذلك على يده إلا بأبحاث علماء العرب وكتبهم .

وفى تاريخ البرتقال[٣] أن المغاربة المسلمين الذين نزلوا مملكة البرتقال كانوا أشبه بالمدجنين من غير المسلمين الذين نزلوا إسبانيا ، ويطلق عليهم اسم « مورو فوروس » (Mouros Forros) ، كانوا يؤدون ضرائب خاصة ، وتجرى عليهم أحكام خاصة ، ويؤلفون شعباً اشتهر بصناعاته وعاون كثيرا على رقى الزراعة فى البرتقال . قال : إن (الملك هنرى ١٤٦٠ م) الذى لقبه التاريخ بالملاح ، قد توقف بموته سير الاكتشاف بعض التوقف . وكان هو الموحى بجميع المكتشفات التى كان منها النجاح الممجد لوطنه مدة قرن من الزمن ، لما خص به من علم ورزقه من عمل ، فجعل للبرتقال المقام الأول بين أمم العالم . وقد تعاقد فاسكو دى جاما الملاح البرتقالى مع ابن ماجد الملاح البصرى فى سنة ١٤٩٨ فى ملندة فى البحر الهندى ، على العمل فى الأسطول البرتقالى . وكانت البرتقال فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، كما كانت البندقية ، أعظم دولة فى العالم .

وصل البرتقاليون إلى جزائر الأبازير فأصبحت ميدانا لتجارتهم أمداً طويلا .

(١) الاستقصا للسلاوى . (٢) حاضر العالم الإسلامى .

(٣) تاريخ البرتقال لتيودريك لكران .

Théodoric Legrand : Histoire du Portugal

انتهوا إلى مليبار فى الهند فى سنة أربع وتسعمائة من الهجرة[1] (١٤٩٨ م) ودخلوا إلى كاليكوت واشتغلوا بالتجارة وقالوا لعمال السامرى: ينبغى منع المسلمين من تجاراتهم، ومن السفر إلى بر العرب، والفوائد الحاصلة منهم يحصل منا أضعافها. وقال كبيرهم لراعى كش: أخرج المسلمين عن كش يحصل لك منا من الفوائد أضعاف ما يحصل منهم. فأجاب بأنهم رعيتنا من قديم الأزمان، وبهم عمارة بلدنا، فلا يمكننا إخراجهم. وكان البرتقاليون يطلقون على المسلمين اسم «الكفار»، وكان من أول مقاصد فاسكودى جاما بطوافه بحر الهند محاربة السفن العربية[2]، بل كان الغرض من تطوافه فى هذا البحر أن يحارب الصليب الهلال فى أقصى بقاع المعمور، أو أن تحارب رومية مكة فى مكان يبعد أكثر من ألف وخمسمائة فرسخ عن الميادين المألوفة لاقتتالها، ترسل البرتقال جنودها وبحارتها إلى ما وراء القارة الإفريقية، لتحيط بالإسلام وتجعله بين نارين لتجفف ينابيع ثروته، وتقضى على صروح عظمته وشوكته، حتى إن البوكرك الملاح البرتقالى لما هاجم عدن عزم على إغراء الحبشة بتحويل النيل عن مجراه إلى البحر الأحمر، كما خطر بباله أن يهاجم مكة بجيش من الفرسان. ولما[3] بلغوا ثغر عدن سنة تسع عشرة وتسعمائة نصبوا المدافع على دار البندر فهدمت أكثر البلدة.

وأهم ما كان الغرب يهتم له فى الوقع أنه كان للهند طريقان فى منتصف القرن الخامس عشر، أحدهما من البر والآخر طريق مصر والشام فى البحر، وكان كلاهما فى أيدى المسلمين. فالبرتقال تولت فتح هذه الطريق لأبناء الغرب. ذلك لأن البرتقاليين كانوا يعرفون العرب منذ استولوا على البرتقال أواخر القرن الأول من الهجرة، ويعرفون بأسهم وشدة مراسهم، ويقدرون غناءهم فى أعمال الحياة قدره، ولا ينسون أنهم ذاقوا الأمرّين مدة قرنين حتى أخرجوهم من ديارهم. ثم

(١) تحفة المجاهدين فى أحوال البرتكاليين لزين الدين المعبرى.

(٢) وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية عن إفريقية الشرقية لجيان، تلخيص يوسف كمال.

(٣) تاريخ ثغر عدن.

عادوا بعد سنين واستولوا عليهم دهرا ، ولذلك كانت عداوة البرتقاليين للمسلمين فى جنوبى الهند بالغة حدا كبيرا على ما قال زين الدين : يهزأون بهم ، ويظلمونهم ويعطلون حجهم ، ويحرقون مساجدهم ، ومنها ما اتخذوه بيعاً لهم ، ويأخذون مراكبهم وأموالهم ، ويطأون مصاحفهم وكتبهم بأرجلهم ، ويحرقونها بالنار ، ويهتكون حرمة المساجد ، ويحرّضون على قبول قول الردّة والسجود لصليبهم . وإذا سقط أسرى المسلمين رجالا كانوا أم نساء فى أيدى البرتقاليين ينصّرونهم قسراً ، إلى غير ذلك مما كانوا ينزلونه فيهم خاصة من العذاب ليخلو لهم الجو فى تلك الأصقاع ، ويقبضوا على زمام تجارة الهند ، ويطردوا عن أسواقها وموانيها المنافسين لهم .

رجع البرتقاليون لأول مرة من مليبار إلى البرتقال يحملون فى سفنهم الأبازير ، وتتابع فى كل سنة وصول مراكبهم العديدة تقل من البرتقال الرجال والأموال ، وتوالت أسفار مراكبهم الكثيرة بهذه الحاصلات الثمينة كالفلفل والزنجبيل والقرفة والقرنفل والبسباس مما تكثر فائدته ولم يبق للمسلمين غير تجارة القوقل والنارجيل ونحوها . هذا وما استنام أمراء المسلمين وغيرهم فى تلك الديار للضيم الذى أصابهم ممن جاءوهم متجرين ثم مستعمرين ، وكانوا كثيرا ما يحاربون البرتقاليين وينال بعضهم من بعض « ولم تتوطد سلطة البرتقاليين فى الساحل دون غارات ومصاعب؛ فإن العرب كانوا يطرقون كل باب لإثارة خواطر الأهلين على مزاحميهم البرتقاليين وطردهم عن المراكز التجارية التى كانوا هم أصحاب التصرف المطلق فيها » .

وخاف الغورى صاحب مصر فأرسل فى بحر القُلْزُم أسطولا لقتالهم ، ليصدهم عن مملكته وينقذ تجارة مصر منهم ، وكان معظم تجارة الشرق تصدر إليها ، فعاونته البندقية على عمله ، وأرسلت إليه الخشب لعمل السفن فى البحر الأحمر لأنها كانت تخشى أيضا على تجارتها ، ولما سقطت دولته أرسلت الدولة العثمانية بإمرة أحد قوادها أسطولاً مؤلفاً من مائة مركب ، فقتل سلطان عدن وبعض كبرائها من العرب حتى

جعلها فى قبضته[١] ، ثم وصل إلى جزرات وشرع فى حرب ديو(١٥٣٨ م) وأتى على القلعة بما كان معه من المدافع العظام ، ثم تهيب الإفرنج فرجع أدراجه من غير فتح إلى مصر فبلاد الروم . وعاد الأتراك يحاربون البرتقاليين فى تلك الأصقاع النائية ، وشغلوا قسما من قواتهم فيها ، توقفوا معها عن تحقيق أمانيهم من فتوحهم فى أوربا لأن الترك كانوا بلغوا أسوار ڤينا وألقوا الهلع فى قلوب أهل الغرب .

ومُكِّن للبرتقاليين فى كثير من البنادر كبنادر مليبار وجزرات وكنكن وغيرها واستولوا « بحكمتهم وإجماع رأيهم » على كثير من البلدان ، فبنوا القلاع فى هرموز ومسكت ، وديو محل ، وسمطرة ، وملاقة ، وملوكو ، وميلابور ، وناك فتن ، والأخيران من بنادر شولمندل ، واستولوا على بنادر كثيرة من جزيرة سيلان ، كما استولوا على زنجبار وممبسة وموسامبيق وملندة ، ووصلوا إلى الصين وصارت لهم التجارة فى هذه البنادر وغيرها ، وذلّ تجار المسلمين وصاروا لهم كالخدمة لا يمكنونهم من التجارة إلا فيما قلت رغبتهم فيه . وأما ما أهمهم اقتناؤه من البضائع وكثرت فائدته ، فيستأثرون به لا يمكنون غيرهم من الاتجار به ، وقطعوا على المسلمين طريق السفر إلى بر العرب وملاقة وأشى ودناصرى وغيرها ، وانقادت لهم رعاة البنادر حتى صار الحكم فيها حكمهم ، وانقطعت أسفار البحر إلا بأمانهم وجوازاتهم وكثرت تجاراتهم وصراكبهم ومنازلهم وقلاعهم ، وقلت تجارات المسلمين إلا على السفن البرتقالية . وفى سنة تسعين أو إحدى وتسعين وتسعمائة اشتدوا فى المرابطة على متعلق السامرى ، فتعطل سفر المراكب وانقطع جلب الأرز إلى بلده فوقع فيها قحط عظيم .

استندنا فى أكثر هذا إلى ما رواه زين الدين المعبرى ، وقد وصف البرتقاليين

---

(١) فى تاريخ ثغر عدن أنه لما انهزم سليمان الرومى (أى التركى) وصاحبه حسين الكردى من بندر عدن ورجعوا عنها خائبين ، وذلك فى شعبان سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة كان السلطان عبد الملك بن عبد الوهاب قد أعد لهم عسكرا من العرب فتقاتلوا والأتراك ، فانهزم الأتراك ورجعوا إلى سفنهم .

بأنهم « أهل مكر وخديعة ، عارفون بمصالح أمورهم ، يتذللون لأعدائهم وقت الحاجة غاية التذلل ، وإذا انقطعت حاجتهم سطوا عليهم بكل ممكن ، وكلهم كلمة واحدة لا يخالفون أمر كبرائهم ، ولا يختلفون بينهم مع بعد المسافة عن رعاتهم ، ولم يسمع أن أحداً منهم قتل كبيرهم لأجل الولاية ، ولذا دانت لهم مع قلتهم رعاة مليبار وغيرها ؛ بخلاف ما عليه عساكر المسلمين وأمراؤهم من الاختلاف وطلب الاعتزال عن الغير ولو بقتله » .

ولقد استعمر البرتقاليون سواحل إفريقية على بحر الظلمات ، وأسكنوا قومهم البرازيل وعمروها برجالهم ، كما احتلوا بعض سواحل أميركا ، ثم نزعت أيديهم عن أكثرها ، وداموا [1] نحو مائتي سنة أصحاب شأن فى الاستعمار ، واغتنوا من تجارة الأبازير والأحجار الكريمة والعبيد أيّ غنىً ، واغتنى ملوكهم بما جبي إليهم من أموال الخراج والمكوس والاحتكارات والأرض من إفريقية الشرقية وغيرها ، وكان عمالهم يرتكبون ضروب المظالم والإرهاق فى جمعها ، فكثرت أموال البرتقال بهذه الفتوحات العظيمة ، وأصيب البرتقاليون فى أقل من نصف قرن بزهو وغرور وما يتبعهما من فساد الطباع والأخلاق ، مما تولدت منه أحقاد فى صدور من نزلوا عليهم وحكموهم بالجبرية والعنف ، ولاسيما العرب الذين حاربوهم نحو قرن ونصف للقضاء على سلطانهم ، حتى جمع العرب شملهم تحت راية صاحب عمان من أمراء المسلمين ، وانتزع الحكم فى سنة ١٦٥٨ م من يد البرتقاليين ، وذلك من رأس دلجادو إلى جردفون ، وذل البرتقاليون وقتل ألوف منهم ، ولطالما قتلوا المسلمين وأحرقوا مساكنهم ، وكم من مدينة دمروا ، ومن أصقاع تركوها بلاقع ، على ما روى ذلك « جيان » الملاح الفرنسي .

ولما وضعت إسبانيا حمايتها على الشواطئ الإفريقيــة فى القرن العاشر من الهجرة ، وتدخلت فى فض بعض القلاقل الداخلية فى تونس ، خرب عمرانهــا

(١) مجد البرتقال وجمالها لشاغاس فرانكو .
Chagas Franco : Les gloires et les beautés du Portugal.

وتبدّد سكانها بالهجرة والقتل ، فانقرض نحو ثلث سكانها ، وأصبح شطر كبير من معالمها أطلالاً دوارس ، وأتى الأسبانيون على العمران الذي كان لتونس زمن الدولة الحفصية ، ولم تعد إلى البلاد حياتها إلا بنزول جاليات من الأندلس ممن فروا من الأسبان ، لما استولوا على أرضهم ، فعمروا المدن والقرى ، وأحيوا الزراعة والصناعة .

استعمر الإسبان بفضل خريستوف كولمبس الأرض التي احتلوها في القرن السادس عشر ، وهي تتناول معظم سواحل القارة الأمريكية[1] من جنوبها ، ثم خرجت كلها عن حكمهم أوائل القرن التاسع عشر لسوء إدارة رجالهم . وكان من قواعدهم في استعمارهم أن لا يذهب إلى أميركا إلا من كان من أُسرة إسبانية كاثوليكية ، لم يحكم ديوان التحقيق الديني على أحد من أفرادها منذ جيلين ، وذلك لمدة سنتين فقط . وتاريخ استعمار الإسبان في جنوبي أمريكا وما فيه من أنواع الفظائع التي ارتكبوها لاستلاب الذهب والأحجار الكريمة من العبيد سكان البلاد الأصليين ، وإلحاقهم في ظلم من امتنعوا من التنصر ، يشبه ما أتاه البرتغاليون

(١) بحث بعض علماء الأميركيين والإنجليز في لغات الهنود في أميركا فوقعوا على كلمات عربية ترجع إلى سنة ١٢٩٠ م . أي إلى قرنين قبل وصول كولمبس إلى أميركا وقد يكون أصحاب تلك الكلمات اتصلوا بها قبل ذلك بقرنين آخرين ، وهناك مستعمرات عربية وجدت بين سنة ١١٥٠ و ١٢٠٠ وقد شوهدت آثار عربية في شاطىء الخليج المكسيكي خاصة . وكان العرب يتجرون مع أميركا قبل كولمبس بزمان طويل . وثبت أن سفن العرب أقلعت من جزيرة كناريا ، ومن هناك إلى أزوارد في وسط الأطلنطي . ونزلت إيرلندة وجزائر إنجلترا الغربية . وفي هذه الناحية من تلك الجزائر بئر تسمى بئر عباس ، يستدل بها أن العرب استعمروا تلك الناحية . وكان في لشبونة مصور بلاد أميركا مما صنعته أيدي العرب . ولنا أن نقول إن التجارة بين العرب وهنود أميركا كانت قبل موافاة كولمبس لها بخمسة قرون . ولما أبحر كولمبس من أوربا كان مزودا بمصورات وخرائط للعرب ، وبها اهتدى إلى تلك الأرض . واستصحب رجلين من العرب كانا عبرا إلى أميركا قبل ذلك وعرفا الطريق . وعثر أحد علماء الأثريات على ألواح مكتوبة بحروف عربية ولغة عربية ، فاتجهت أنظار علماء الآثار إلى استطلاع كنه هذه الحقائق التاريخية التي لا تلبث أن تنطق بأفصح لسان بفضل العرب على الإنسانية في جميع الميادين (لمحمد بن عمار الورتتاني من كتاب كشف الحجب) .

من الظلم ، للاستئثار بتجارة الأبازير والجواهر فى الهند وما إليها . وكانت البرتقال والبندقية فى القرن الرابع عشر والخامس عشر أعظم الدول ببحريتهما فى العالم(١) ، وكان ذلك سبباً فى غنى الأمتين واتساع تجارتيهما .

يقول جوليفه كستلو إن عهد السياحات الكبرى بدأ فى القرن الخامس عشر ، وقامت بها البرتقال أوّلاً على يد فاسكو دى جاما ، ثم إسبانيا على يد خريستوف كولمبس والبوكرك وأمريك فسبوس ، بإيحاء ماركوبولو ، وبفضل المعلومات التى ثقفوها بواسطة العرب فى الجغرافيا والفلك . وعرف العرب أفق كروية الأرض على النحو الذى قال به الأقدمون ، خلافا لما كان يعتقده الأوربيون . وما عتم الأسبان أن أسسوا مملكة استعمارية حقيقية فى أميركا ، بفتحهم المكسيك والبيرو فتحا سريعاً سداه ولحمته التوحش . وكانت حضارة الاستيك والإينكاس ، سكان هاتين المملكتين ، سامية فى ذاتها ، بل أرقى من حضارة من أخضعوهم لسلطانهم ، ممن لم تكن لهم غاية سوى الاستيلاء على المدن والكفور فى تلك الأرجاء الواسعة . وما الفتح الأسبانى فى الواقع إلا سلسلة طويلة من الفظائع والفجائع ، وحوادث مكررة من الجنايات والسرقات . ولقد قضى الأسبان على الوطنيين قضاء مبرما ، وجلبوا من إفريقية عدداً عظيما من السود ، فكان ذلك الأصل فى استرقاق الزنوج الشنيع ، وعلى أثر الإسبانيين سارت جميع شعوب أوربا ، وما انتهى دور الرق إلا فى أواخر القرن التاسع عشر . وكان بالطبع من هذه الحملات الواسعة تبدل اقتصادى وعلمى عظيم ، فانهالت المعادن الثمينة من البيرو على إسبانيا والبرتقال ، واغتنى بها الملوك خاصة ، حتى استطاعوا أن يزيدوا فى جيوشهم ويوسعوا سلطتهم السياسية ، كما اغتنت الطبقة الوسطى من السوقة والتجار ، وارتفعت أسعار الحاجيات لتكاثر الذهب والفضة .

ونقل لابريولا(٢) أن ثلاث حضارات لم تتأثر بغيرها أو كان تأثرها بها

(١) تاريخ البرتقال للجران Legrand : Histoire du Bortugal.

(٢) شفق المدنية للابريولا .

قليلا : الحضارة المصرية القديمة ، والحضارة الصينية ، وحضارة الشعوب فى أميركا قبل أن يكشفها كولمبس (الماياس والناهواس والشبكا والايمارا) ، وأن أربع عشرة مائة ألف نفس يرون الآن فى المستعمرات الأوربية فى العالم الجديد من الزنوج وهم خلاصة تسعة ملايين عبد . كتب هذا الراهب رايتال فى سنة ١٧٧٠ وهو رقم أقل من الحقيقة . وقدر كوبر فى أوائل القرن التاسع عشر عدد الزنوج فى العالم الجديد بخمسة ملايين ونصف مليون ، وهم بقايا مائة مليون زنجى أتت بهم أوربا من إفريقية ليموتوا فى أميركا . وقال لابربولا أيضاً : إن مدنية سكان شمالى أوربا تقضى على أهل البلاد المستعمرة أن لا تبقى لهم أثراً إن أمكن كما فعلت بهنود أميركا وأهل تسمانيا والشامورو فى ميكرونزيا والبولوبو فى الكونجو ، مما لم يعهد مثله فى التاريخ القديم أو فى تاريخ سائر القارات ، حتى عند أعظمها سلطاناً وشدة كالمزيين والعرب والمغول . ونحن نقول إن أمة قائل هذا القول وهى من أمم جنوب أوربا ما كانت أرحم بالخلق يوم فتحت ليبيا والحبشة وطرابلس وبرقة .

وذكر هاردى[١] وهو من أنصار الاستعمار : أن استيطان الأوربيين فى المستعمرات الكبرى ككندا واستراليا وافريقية الجنوبية قد أنتج نقصاً محسوساً فى العناصر الوطنية . بل كان منه القضاء عليهم تقريباً ، وكان فى بعض المستعمرات مثل الممتلكات الألمانية القديمة فى إفريقية أو مملكة الأشانتى أن نتج من الاستعمار يوم أراد المستعمرون القضاء على ما قام فيها من الثورات نقصٌ ظاهر فى الأنفس ؛ ولا نعرض هنا لمشاريع الاستعمارات المتقدمة على القرن التاسع عشر ، فلقد كان من أثرها انقراض الكاراييب فى جزائر الأرخبيل ، وخلو عدة مقاطعات فى إفريقية لزنجية من السكان لما نابهم من الخطف لاسترقاقهم وبيعهم بيع الرقيق . ثم إن بعض الأقطار المستعمرة فى أوقيانوسيا قد خلت من سكانها من نفسها وخربت بالأمراض والخمور وبما ألفوه من عادات من شأنها إهلاك الأنفس ، وبما أرهقوا به من التكاليف الجديدة ، وقد تعذر عليهم بالإدارة الأوربية والاقتصاد الأوربى أن

(١) السياسة الاستعمارية لهاردى .

يسيروا معها ويحتملوا أثقالها . ولا ينبغى أن ننسى أن أخذ العملة فى بعض أنحاء أوقيانوسيا قد كان بعيداً عن جميع قواعد الإنسانية . وبعد أن ذكر من هلك من الشعوب والقبائل ذكر ما أورث الاستعمار بعض البلاد من نمو السكان وتنظيم الشئون وتحسين الصحة والحياة ، وقال إن فرنسا حلمت مرة أن تعقد مع الإسلام معاهدة حقيقية للاستفادة مما فيه من القواعد ، ولأنها كانت تراه المحطة الضرورية فى طريق المدنية الإفريقية . لكن رجالاً من أرباب الأفكار السديدة قالوا بعد ذلك إن الأديان الوثنية الشائعة عند الزنوج أقرب إلى التوافق مع حياة الفلاحين فى إفريقية وأكثر خضوعاً ، وقال إن جول بريفيه قال إن فى إسلام الزنجى إلقاءه فى طريق ردى يتعذر عليه معه نشوؤه ، وقال إن الوثنى أقرب إلى قبول حضارتنا من المسلم وأن الإنجليز السكسونيين ذهبوا إلى أبعد من هذا يوم زعموا أن الإسلام ليس من الأديان الاجتماعية ، لا يحسن منتحلوه التلاؤم مع موجبات الحضارة ، وذهبوا إلى أن الواجب أن تنظم آخر حملة صليبية للقضاء على هذا الدين . قال : ولم أر دعاة الاستعمار بعد هذا إلا أن يضيقوا من دائرة الإسلام ويحصروه فى أرضه وينشطوا الوثنية ، لأن من يدينون بها أقرب إلى التمثل .

وآخر الآراء فى الإسلام ما قاله رجل عاش فى بلاد شمالى إفريقية زمناً وهو ممن يرجع إلى آرائهم . قال(١) : يخفى الإسلام فى مطاويه قوى كامنة يمكن أن ينشأ من انفجارها السريع الآتى ذات يوم ما يكون منه تهديد أوربا ومدنيتها . أما خطر الجامعة الإسلامية أو الجامعة العربية فبعيد الآن ولا يتحقق فى مستقبل قريب .

الاستعمار الهولاندى والإنجليزى والفرنسى وغيره :

اغتنم الهولانديون فرصة استيلاء إسبانيا على البرتقال(٢) فأنشأوا لهم فى الشرق الأقصى مستعمرة عظيمة بقى لهم منها إلى ما قبل الحروب الأخيرة جزائر ماليزيا

(١) الإسلام فى العالم لأرثور بلكرين .
(٢) معجم لاروس المصور .

« الملايو » العظيمة « جاوة وسمطرة » ، استثمروها على طرائق هدتهم تجاربهم إليها ؛ فكانوا يبدّلون الحسن بالأحسن لما فيه نفعهم ، فأبانوا فى ذلك عن ذكاء عظيم ومرونة غريبة . وكانت بحريتهم التجارية فى القرن السابع عشر أكبر بحرية لدولة أوربية ، ومستعمراتهم تجارية يتجر فيها من يحب . وشركة الهند الهولاندية أوشركة القاصية التى أنشئت سنة ١٥٩٩ هى التى استولت على هذه المستعمرات وأخذتها من البرتقال(١) . وساعد الهولانديين على رسوخ أقدامهم(٢) فى بحر الهند أثر الكراهة الذى بقى فى نفوس أهل الهند والصين من البرتقاليين ، ولم تلبث هذه الكراهة أن تناولت الهولانديين ، لأنهم لما قويت سواعدهم مالت نفوسهم إلى الظلم والقسوة ، وأصبح ما كانوا يظهرونه من اللطف واللين والدعة فى خبر كان ، بعد أن استعانوا بهذه الصفات والمحامد على الحلول محل خصومهم البرتقاليين .

وكان من الاضطهاد الدينى فى انجلترا أن هاجر كثير من أبنائها أوائل القرن الثامن عشر إلى أميركا الشمالية ، ونزلوا شواطئ الأطلنطى ينشئون مستعمرات مهمة تألفت بأخَرَة من مجموع ولاياتها جمهورية الولايات المتحدة ، مستقلة عن الحكم الإنجليزى ، وأصبحت فى القرون التالية من أعظم دول الأرض علماً وغنى ؛ وذلك لأنها فتحت صدرها للمهاجرين من كل أمة ، وقرضت الزنوج ، فلم يبق منهم إلا ما يشبه بقايا الوشم فى ظاهر اليد . فزاد إحصاء سكانها فى مائة سنة على مائة مليون من البشر . وهذا من أنجع ضروب الاستعمار المدنى مملوء بكثير من الحساب للعواقب ، والنظر البعيد فى تمثل الأجناس المختلفة ، لا يكاد يسمع بمثله فيما سلف من الأعصار . دخلت عناصر كثيرة فى البوتقة الأمريكية « فتأمركوا » ، ثم بدا لأميركا أن تحدد عدد المهاجرين إليها ، وكان من جملة الأسباب التى حملتها على ذلك أن الصقالبة « السلافيين » والبلقانيين من أعصى الأمم على التمثل والتمثيل .

---

(١) تاريخ المدنية الحديث لسنيوبوس .

Ch. Seignobos : Histoire de la Civilisation contemporaine

(٢) وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية لجيان ، تلخيص يوسف كمال .

واعتبر الإنجليز بما جرى لهم فى أميركا من نفض أيدى أبناء جلدتهم من أيديهم ، فما فرطوا بعد ذلك ولا أفرطوا . وكانوا أرسلوا إلى الهند شركة تجارية سموها شركة الهند الشرقية، فاستولت بالتدريج بعد مدة بلطيف حيلتها على الهند أغنى مستعمرة فى الأرض . وعرف الإنجليز من أين تؤكل الكتف ، فجروا فى استعمار الهند وأستراليا وجنوبى إفريقية على أساليب فيها المرونة كلها والدهاء الجلى والتفصيلى ، فكانوا لا يتلكأون فى عامة مستعمراتهم عن تغيير طرائقهم السياسية والإدارية والتجارية ، بما توحى إليهم تجاربهم ، وبعد ثورة السپاهى سنة ١٨٥٧ ، وهى التى كادت تخرج إنجلترا من الهند ، وضعت صورة إدارة كانت أساساً للإمبراطورية الهندية ، وهو عمل إدارى لم توفق إليه أمة ، ولم يخطر[1] فى خاطر حاكم .

وأرادت فرنسا أن تجرى على هذه الطريقة فى الاستعمار فلم توفق لذلك كثيراً ، وفقدت أجمل مستعمراتها ، مثل كندا والهند ، إلى أن قدِّر لها فى القرن التاسع عشر والقرن العشرين أن تستولى على بعض الأقطار ، ومنها الجزائر وتونس والغرب الأقصى وبعض بلاد السودان والجابون والكونجو وغينية وكاليدونيا الجديدة . ومدغشقر والسينغال والهند الصينية ، وبلغت مساحة مستعمراتها عشرين ضعفاً من مساحة فرنسا نفسها أو نحو عشرة ملايين كيلو متر مربع ، وأربى سكان المستعمرات على خمسين[2] مليونا .

وبينا كان الهولانديون والبريطانيون والفرنسيون يتنازعون الاستيلاء على الأقطار الحارة ، كان الروس فى هدوء وسكون ، يستعمرون الأرض الواقعة بين جبال الأوورال ومضيق بهرنغ ، ويقيمون فى تلك السهول الفسيحة أعمالاً مهمة فى العمران لا تنهض بها إلا دولة تنفق عن سعة ، ثم توسعوا وراء حدودهم التى رسموها لأنفسهم حتى جاوروا فى القرن التاسع عشر أملاك الإنجليز فى جنوبى آسيا .

---

(١) استعمار الهند عن المجلة الزرقاء الفرنسية تعريب المؤلف (مجلة المقتبس م ٤٠) .

(٢) الإيجاد لهريو Herriot : Créer .

أما الدول الأوربية الأخرى فقد دفعتها أيضاً الحاجة إلى التوسع فى الاستعمار ، فاستولت إيطاليا على الأريترة ثم على ليبيا « طرابلس وبرقة » وأعمرت سواحل ليبيا وأنزلت فيها عشرات الألوف من أبنائها ، أسكنتهم فيها حتى زاد عددهم فى سنين قليلة على نصف السكان الأصليين من المسلمين ، واستولت ألمانيا على الكمرون والتوجو ، ثم نزعتا منها بعد الحرب العامة ، وراحت البلجيك تستعمر الكونجو فى إفريقية ، استعمرها ملكها أولاً لحسابه الخاص ثم تنازل عنها لأمته . وللدانيمرك والسويد مستعمرات من الجزر تشكو قلة نفوسها .

ونشبت بين الدول المستعمرة حروب حتى استقرت الحال فى تقسيم العالم على هذا الوجه ، وخرجت البرتقال وإسبانيا عن مستعمراتهما ، وبقيت لهما بعض الجزر وتمتعت إسبانيا بامتلاك الريف فى الغرب الأقصى ، بعد نكبات عظيمة حلت بجيشها ، ولو لم تساعدها فرنسا على حرب الريف ما استطاعت نزع تلك المستعمرة الصغيرة من الريفيين ، وما برحت إيطاليا منذ سنة ١٨٦٩ م أى بعد فتح ترعة السويس تحاول أن تقيم لها مستعمرة على ساحل البحر الأحمر ، فقصدت إلى تلك الأرجاء ثم ردت عنها بخسائر مُرَّة غير ما مَرَّة ولا سيما فى وقعة عدوة (١٨٩٦) ، حتى إذا كان عام ١٩٣٤ أرسلت إلى الحبشة جيشاً عظيما فاستولت عليها فصار لها فى الأريترة والصومال وبلاد الحبشان مستعمرة جليلة لا يقل سكانها عن خمسة عشر مليونا ، نحو نصفهم من أهل الإسلام ، وقضت على دولة نصرانية طالما آذت المسلمين وجارت عليهم ونصَّرت منهم بالقوة . وفى سنة ١٨٨٠ حملت على خمسين ألفاً (١) من المسلمين ونصَّرتهم بالقوة ، وقضت على بضع إمارات إسلامية فى أوقات مختلفة . وكانت انجلترا غير راضية عن استيلاء الطليان على الحبشة تخوفا منها على الهند ، فأثارت عليهم ستين دولة ، ثم اضطرت إلى الرضا بالأمر الواقع وأقرّت عصبة الأمم عملها ، فأثبتت هذه أنها خادمة أمينة لدول الاستعمار ، ونزعت فى الحرب العامة من إيطاليا جميع مستعمراتها .

(١) الإسلام فى الحبشة ليوسف أحمد .

وأصبحت بريطانيا العظمى بما خص به الإنجليز من التؤدة والمرفة الواسعة بحكم البشر، ومنها إبداع إدارات خاصة لكل إقليم وجنس انضوى إلى علمهم — أعظم مملكة فى العالم لا تغيب الشمس عنها، ولا تقل مساحتها عن ثلاثين مليون كيلومتر مربع، وسكانها عن نحو أربعمائة مليون من البشر. مملكة بل ممالك، واسعة السلطان، مستفيضة العمران، ما طمع الرومان، بأعظم منها ولا أغنى، وهى مأمونة الطرق، محفوظة المسالك، مستأثرة بأهم المضايق والخلجان والفُـرَض، ومن ورائها أسطول عظيم كان منذ قرنين أول أسطول بين أساطيل الدول العظمى.

لم يبق أوائل القرن العشرين أرض فى العالم يصح أن تتقاسمها الدول الغربية: تقاسمت إفريقية وآسيا الجنوبية[1]، ونجت الصين من القسمة لتنافس الدول الأوربية عليها. وما فتئت اليابان تطمح إلى امتلاك بعض أقطار الصين المتاخمة لها تستعمرها لإنقاذها من الغربيين وإبعادهم عن أرضها وأرض الصين معاً، (هذا كان قبل الحرب العامة، وبعدها أخرج الحلفاء دولة اليابان من جميع ما استعمرت)، وكان الغربيون حاولوا غير مرة أن يلجوا بلاد الشرق الأقصى فاصطدموا فى الصين واليابان بمدنية أقدم من مدنيتهم[2]. قال هاردى: ولم تنج إلا الصين وسيام من الاستعمار الغربى، وتقاسم إفريقية كل من انجلترا وفرنسا والبرتقال وإيطاليا والبلجيك وإسبانيا، وجعلوا فيها منطقة حرة وهى طنجة. وآسيا ما عدا الصين وسيام صارت فى أيدى الروس والإنجليز وفرنسا واليابان. وأوقيانوسيا استولت عليها انجلترا وهولاندة وفرنسا واليابان والولايات المتحدة، وما خلا المستعمرات القديمة التى تألفت منها فى أمريكا الولايات المتحدة وجمهوريات الجنوب اللاتينية بقى منها جزء عظيم جعل ملكاً لانجلترا والولايات المتحدة وفرنسا وهولاندة. وأراضى القطب تخفق عليها أعلام انجلترا وروسيا والدانيمرك والنروج وفرنسا والولايات المتحدة.

(١) بيان سياسة العالم لبول لوى Paul Louis : Tableau politique du monde.

(٢) تاريخ الحضارة لسنيوبوس.

وفى القرن الماضى والذى قبله كانت البرتقال وإسبانيا وهولاندة وانجلترا وفرنسا تتنافس فى الاستئثار بالذهب والأحجار الكريمة ، والنادر من حاصلات الأرض الثمينة ، فأصبحت الدول الأوربية فى هذا القرن تتنازع على كل ميل من اليابسة والبحر والجو . ولولا الحرب العالمية التى أفقرت الدول كلها ، لاتسع نطاق الاستعمار أكثر مما اتسع .

البلاد المستعمرة وطرق الاستعمار الحديث :

لكل دولة مستعمرة اليوم سياسة استعمارية خاصة . كما أن لكل أمة خصائصها ومميزاتها . وليس من شك فى أن الاستعمار علامة نشاط أمة تريد أو تحاول أن يكون لها مقام لائق فى العالم ، وصفقة المستعمرين تعود بأعظم الأرباح المادية ، مقابل خسائر فى الأرواح تتحملها الدولة المستعمرة ، ولا تعدها شيئا يؤسف له إذا نجحت التجارة ، واغتنى أفراد وشركات ، وارتاش بعض الموظفين والمقربين من أعيان الدولة المستعمرة ، ويقول من كتبوا فى استحسان الاستعمار من الإفرنج : إنه نفع الإنسانية والمدنية . كلام مجمل يحتاج إلى تفصيل .

لا جدال فى أن معظم الممالك المستعمرة اليوم آخذ بالنهوض من حيث تراتيبه وعمرانه . أما دوام حياة المستعمرات والاحتفاظ بكيانها فتبع لقوة أهل المستعمرة الأقدمين ، فإن كانوا من جنس ضعيف التراكيب ، كالجنس الأحمر والأسود ، ضعفت مقاومتهم لهذا الجنس الآرى الأبيض الذى جاءهم بكل ضروب القوة ، ففنى الضعيف فى القوى ، على نحو ما حدث فى كثير من أصقاع إفريقية وأميركا . وإذا كان أهل الديار المحتلة أو المستعمرة من عنصر راق ذى مدنية معروفة كالهندى والعربى ، فهناك المشادة بين الدخيل والأصيل ، لأن أهلها لا تفوتهم فائتة من نيات من نزلوا عليهم . ولا يرجى بحال من صاحب السلطة القاهرة أن يربى من يستتبع إلا على ما يوافقه . ليتسنى له الانتفاع به أطول مدة ممكنة ، أو تكون دياره للمحتل ولأعقابه ملكا مؤبداً على وجه الدهر . ولذلك نرى هذا المحتل يحاول أن

يلقن من يستعمره أو يحميه ، جماع منازعه ومآتيه ، ولا يفتأ يعمل على إدماجه في جملته ، وتجنيسه بجنسيته ، وإلحاقه بقوميته ، يلقنه عظمته وعظمة قومه ؛ ويحاول أن ينسيه ماضيه ويخرجه عن مميزاته ، يتصرف بقلبه وروحه على ما يهوى ، والغالب ألا يترك له من موارد الحياة إلا سِداداً من عوَز وما يُمسك عليه الرمق . وفي النادر أن ترحم أمة ذات سلطان أمة لا حول لها ولا طول ، وما عهد ذلك لغير الأمة العربية على ما أكد ذلك العارفون من الغربيين اليوم .

ولا يستغربن أحد ما يشاهد من غارات الدول المستعمرة ما دمنا موقنين أن المدنية الحديثة هي ابنة « المادة » والإنصاف يقلّ في أهل المادة ، وهم يحتقرون في سبيلها الأخلاق الفاضلة ، وتقبل أذهانهم كل وسيلة ما دامت الغاية جمع المال كما قال أحد كتاب الأميركان . وساغ بعد هذا أن يقال إنه ليس من العدل في قليل ولا كثير ما أوردته الشعوب اللاتينية من المبررات للاستيلاء على شمالي إفريقية مثلا . يقول تولستوي[1] : « إن عاطفة الوطنية في زماننا هذا هي عاطفة غير طبيعية ، خارجة عن الصواب ومضرة ، وهي علة أكثر أمراضنا الاجتماعيـة التي يئن منها النوع البشري ، ومن المدهش أن تكون الوطنية هي سبب التسليح العام ، والحروب المهلكة للانسان ، وكان من قانون التجنيد العام في النصف الثاني من القرن التاسع عشر في أوربا أن خضعت هـذه لرقّ أخبث من الرق القديم . ولم تقف قحة الحكومات وقسوتها وجنونها عند هذا الحد ، بل تنازعت لاغتصاب ممالك آسيا وإفريقية وأميركا ، مسوقة بعوامل الهوى والصلف والجشع ، وأعقب ذلك تفاقم سوء الظن والعداوة بينها ، وصاروا يعتبرون ما ينال الأمم المقهورة من الخراب والدمار أمراً عادياً ، ويهتمون بالبحث عن شيء واحد فقط ، وهو لأي الحكومات الحق في أن تستولي على أرض غيرها وتبيد سكانها .

« إن جميع الحكومات لا تسيء إلى الأمم المقهورة وتظلمها ، بل يعتدي بعضها على بعض ، وترتكب جرائم الغش والغدر والرشوة والخداع والتجسس والسرقة

(١) الآفات الاجتماعية وعلاجها لتولستوي .

والقتل . ومع هذا ترى الأهالي يشجعونها على ذلك كله ، ويبتهجون إذا كانت حكومتهم لا غيرها هي المرتكبة لأمثال هاتيك الجرائم . وقد بلغت العداوة بين مختلف الشعوب والحكومات في الأيام الأخيرة مبلغاً عظيما جداً ، حتى علم كل إنسان أن الحكومات طرًّا تقف بلا سبب معقول ، ناشبة أظفارها كاشرة عن أنيابها ، رجاء أن تخور قوى إحداهن فتفترسها الأخرى ، وتمزقها شر ممزق ، بلا كبير عناء ومخاطرة . وقد انحطت الأمم النصرانية بالوطنية إلى أسفل دركات الوحشية ، فأصبح سكان أوربا وأميركا حتى غير المجبرين على الحرب يودون المذابح ويسرون للقتل ، مع أنهم مقيمون في ديارهم آمنون في أوطانهم بعيدون عن كل خطر ، وكان شأنهم عند نشوب كل حرب شأن الرومانيين النظارة في المصارعة ، يبتهجون بالذبح ويصيحون صيحة الظمآن لسفك الدماء ، مشيرين بالإجهاز على المهزوم .. »

هذا ما قاله الحكيم الروسي ، وقال لابريولا أحد ساسة إيطاليا وعلمائها : إننا معاشر البيض من أهل الغرب قد اعتمدنا على ذكائنا وما وجدناه من آلات ، فأصبحنا بذلك أهل المغامرات والفتح والغنى والعلم ، وزدنا على ذلك أن غدونا أرباب الجرائم وفينا ظاهرات ثلاث هنّ حثالة مدنيتنا ورمزها في آن واحد : المختلس ، والقاتل ، والمومس .

وبعد فمن الإنصاف أن نقرر أن الأقطار التي سقطت في أيدي الدول المستعمرة استراحت بعض الشيء من فوضى الأحكام ، ودخلت على الجملة في طور تنظيم ونظام ، وتلقف أهلها ما طاب لهم تلقفه من الحضارة العصرية . ولكن أتبقى لهم خيرات أرضهم ، وتبقى عليهم الدول الفاتحة مشخصاتهم وخصائصهم ؟ هذه هي المسألة المهمة في المستعمرات . ذلك لأن الغربي مجهز بالصفات التي تؤهله للكفاح في سبيل الرزق ، وهو معتز بعز الحكم في قومه ، والوطني قد ضعفت فيه هذه الأجهزة إلى حدّ غير قليل ، وفترت فيه بعض الفتور الحرارة الضرورية لمحاكاة غيره في جهاده ، بما هجم عليه من مغريات الحضارة الحديثة ، ومن الفتنة بمذاهب غيره في الحياة . فكان بين أمرين لا ثالث لهما : إما قبول مدنية الغرب بما فيها من

منافع ومضار ، أو المجاهرة بالعصيان عليها ، وفى كليهما الانقراض والفناء .

نحن نعلم أن من أهم الأسباب التى تدعو الدول الصناعية إلى ركوب مراكب الأخطار فى الاستعمار هو جلب الغذاء لبلادها ، والاستئثار بالمواد الأولية لمصانعها ، وإيجاد مصارف لصناعاتها ، ومخارج لبضائعها ، وأن أرض الأوربيين ضاقت بهم ولا سيما بعد منتصف القرن التاسع عشر ؛ وعلمتهم حضارتهم أن لا يقنعوا فى طلب الربح ، وأن يتوسعوا كل التوسع فى مطامعهم . ونعلم أن الشرق مهمل متسع الرحاب ، يعول أهله ويعول أضعاف أهله ، إذا حسن استثماره ، ونعلم أن هذه المدنية الحديثة حملت فى مطاويها من الجشع والأثرة ما لا نسبة بينه وبين دعوى نعومتها ونعمها ، وأنها مزجت أحياناً بكثير من العنف والخسف ، وقست قلوب دعاتها فما رجعوا فى عملهم إلى عاطفة ، ولا حفلوا تعاليم المسيح فى الحب والسلام . ولو ظلّ الغرب نصرانياً بالمعنى الذى نفهمه من هذا الدين لما تمدّى سلطانه ما وراء حدوده ، ثم لما كانت هذه الحضارة الفنية بجميع مظاهرها . وكيف نطلب الرحمة ممن لا يرحم نفسه ، ولا يتراحم وأقرب الناس إليه . تكثر روابط الأمم الغربية بعضها مع الآخر ، فهم أبناء عناصر متشاكلة متقاربة ، وأصحاب مذاهب ترجع فى جوهرها إلى أصل واحد ، ومع هذا رأيناهم كيف عامل بعضهم بعضاً فى الحرب العالمية الأخيرة والحرب التى بعدها . تعاملوا — شهد الله — بقسوة ما شهدها الإنسان فى قرون الهمجية الأولى .

وبعد فمن العبث أحياناً مطالبة من يعتز بقوته بأداء الحق كله ، لاسيما إذا كان بذل مالاً ورجالاً حتى تمت له الغلبة على ما طمح إليه ، وتوطد سلطانه فى أرض استنفضها واستقراها واستنبتها . والفتح الحديث لا يراد منه أولا وبالذات غير فائدة القوى قبل الضعيف . وهذه سنة الكون منذ دحيت الأرض وسار البشر على سطحها . ثم إن الأمم الكبرى هى أيضاً تحت وصاية طبقتين متغلبتين فيها : طبقة رجال الجندية وطبقة الممولين ، أو طبقة أرباب الصولة فى الدولة ، وأصحاب الأموال فى الأمة . ولا يَلذّ لهاتين الطبقتين إلا أن تَنْعَما الحين بعد الآخر

بانتصارات جديدة ، وأن يستنزف الأفراد ثروة الجماعات ، يهنأون بما جمعوا من القريب والبعيد .

قالوا : إن بعض المستعمرات لا يفي دخلها بخرجها ، أو لا توازى كل هذا العناء للاحتفاظ بها ، ومع هذا نشاهد الدول متماسكة فيها ، ومتمسكة بحقوقها عليها ، لئلا تستهدف لغضب أصحاب السيطرتين الماديتين الجندية والمالية . وإن أغضبت أهل المذاهب الاشتراكية والشيوعية وغيرهم من أصحاب النزعات السياسية الهدامة الدائبة على تمزيق نُظم حكم الجمهور (الديمقراطيـة) وهو يرجع في جوهره إلى الاستبداد أو إلى حكم الفرد يوما بعد يوم ، ولذلك قالوا إن هذا الضرب من الحكم أفلس وخابت الآمال فيه ، وإن كانت مظاهره مجالس نيابية ، وأنظمة دستورية ، ووزارات مسئولة عن أعمالها .

ولقد ادعى بعض الدول لتبرير مقامها في بلدان الشرق أن غايتها هي حماية الأقلية من ظلم الأكثرية ، وهي دعوى اخترعوها في العهد الذي قويت فيه نغمة الاستعمار ، ولإثباتها قد يثيرون ثائرة التعصب المذهبي في الناس ، ليتخذوا من فريق على فريق نصيراً ، يلقون العداوة والبغضاء بين أبناء الوطن المشترك ، بواسطة غلاة دعاتهم ومبشريهم ، ليحصل التوازن بزعمهم بين أهل التعاليم المختلفة . وما رأينا بلاداً قط حكمت بغير رأي أكثريتها وما كان لنا أن نقول اليوم مثلا لرومانيا ويوجوسلافيا ، وفيهما مئات الألوف من عنصر واحد ودين واحد ، أن تعاملا المسلمين ، وهم عشرات الألوف ، بما يريدون لا بما يريد السواد الأعظم من مواطنيهم

عبث الاستعمار :

فرّق الاستعمار بين أجزاء القلوب في الشعب الواحد ، فرّق بين البربر والعرب وهم متحدون في دينهم ولسانهم ، وفرّق بين المسلم والنصراني في كل مكان ، وفرّق بين المسلم والوثني والبرهمي ، وضرب الأخ بأخيه والابن بأبيه ، وباعد بين

الأحمر والأسود ، والأسود والأبيض ، على حين رأينا الأرض التى نجت من تأثيرات الاستعمار كجمهورية ليبريا المؤلفة من مليون ومائتى ألف مسلم وثلثمائة ألف نصرانى وخمسمائة أوربى عاش أهلها كأبناء بيت واحد ، ما فرّق الدين ولا الجنس بينهم فى المسائل الوطنية .

رأينا من هـذه الدول من إذا كان لها مأرب فى أمر لا تعدم حيلة مؤلفة من ألف برهان لبلوغ غرضها . ونحن نضرب بذلك مثلا بدولتين ، وهما من أكثر الدول اتصالا بالشرق والإسـلام ، ومن أعرقها فى الحضارة ، عنينا بهما فرنسا وانجلترا . فقد رأينا فرنسا لمـا بدا لها أن تضرب جارتها انجلترا فى هنـدها عملت لمصر فى القرن الماضى كل ما يستقيم به أمرها ، ولم تعمل لأهل شمال إفريقية شيئاً كثيرا منه ، وفكرت فقط فى مصلحتها ، وأبقت السكان فى دائرة معينة لا تريدهم أن يتعدوها . ورأينا إنجلترا تأخذ أوائل هذا القرن بيد مصر أيضا فتصلح إدارتها وتنمى زراعتها ، وتنظم ماليتها ، حتى إذا تمت لأبناء النيل أدوات التفوق ، واضطرتها الحال إلى النزول على رغبـة المصريين فى منحهم استقلالهم عقدت معهم معاهدة يبقى لها بها سلطانها على طريق الهند .

كان لفرنسا وانجلترا فى باب سياسة الاستعمار والتعليم فى البقاع التى احتلتاها طريقتان متشابهتان ، لم تعودا عليهما بعد تجارب طويلة بفوائد تستحق ما بذل فيها من العناء . ورأينا عدولا من الفرنسيين والانجليز ممن لا يتأثرون بمؤثرات الأحزاب ولا المذاهب ، ينقدون فى الأسـفار والصحف هاتين الطريقتين فى الاستعمار . فقد دارت سياسة فرنسا فى الجزائر مثلا على محورين : نزع الأرضين من مالكيها الأصليين وإعطاؤها المستعمرين[1] ، حتى يضطر الأهلون إلى التشرد فى الصحراء . وتلقين العرب تعليما إفرنسيا ليمسوا إفرنسيين قلبا وقالبا ، فلم تنجح الطريقة الأولى ولا الثانية ؛ ذلك لأن ما أعطى من الأرض للمستعمرين امتلكه أناس من الأفاقين والمتشردين ممن لا يعرفون من الزراعة إلا بقدر ما نعرف من اللغة السنسكريتية . وضعفت آمال

(١) النفسية السياسية لجستاف لوبون .

السكان فى إبقاء أملاكهم لهم ، فتراخوا فى تمهدها ، فخسرت الدولة والأمة من وجهتين ، من غباوة الآخذ ومن إهمال المعطى . وانبعثت العداوة تأجج بين المستعمر والمستعمر ، وحدثت حوادث تندى لها الجباه خجلا لخلوّها من روح العدل .

وبنزع الأملاك من أصحابها نتج بؤس عظيم كان باعثاً على القلق [١] ، ذلك لأن الأهالى ، وهم ستة أضعاف الأوربيين النازلين عليهم من الفرنسيس والطليان والإسبان وغيرهم ، لم يبق لهم غير نصف مجموع الأرض فى البلاد ، والنصف الآخر وهو الأعمر والأمرع أصبح ملك المستعمرين [٢] . ويقول ثلاثة من المؤرخين المشهورين (جسل ومارسيه وايفر) فى كتابهم « تاريخ الجزائر » : إن مجموع مساحة الأرض المستعمرة التى انتقلت الى أيدى المستعمرين فى الجزائر يبلغ (١٦٠٠٠٠٠) هكتار أى اثنين من خمسة من الأرض القابلة للفلاحة ، ومن فساد الرأى ، بل من قلة الإنسانية تقليل مساحة الأرض التى يملكها الوطنيون لتجعل ملكا للمستعمرين اهـ. ويقول هاردى [٣] : إن مجموع الأرض القابلة للزراعة فى الجزائر هو ٣٫٨٥٤٫٠٠٠ هكتار ، يستثمر الأوربيون منها ٢٫٤٠٠٫٠٠٠ ، وهى أراض زراعية صرفة ، وليس سوى ١٫٤٥٠٫٠٠٠ هكتار لشعب يزيد عدده على ستة ملايين ، والباقى وهو ٧٫٧٥٠٫٠٠٠ هكتار هو أرض غير صالحة للزراعة ، فيه بعض المراعى ورمال وحصباء .

أما « الفرنسة » من طريق المدرسة وغيرها فلم تأت أيضاً بثمرة جنية ، لأن من تعلموا على الأساليب الفرنسية البحتة من الوطنيين تلقوا تربية لا تتفق وعقليتهم فلم ينفعوا أنفسهم ولا غيرهم . وغاية ما كان ممن أخذوا بهذه التربية أن خرجوا

(١) يقظة الإسلام والعرب لأوجين يونغ .

Eugène Jung : Le réveil de l'Islam et des Arabes.

(٢) الأوربيون فى الجزائر ٩٢٥ ألفا والمسلمون سبعة ملايين . والأوربيون فى تونس نحو ١٨٠ ألفا والمسلمون نحو ثلاثة ملايين .

(٣) السياسة الاستعمارية وتقسيم الأرض فى القرنين التاسع عشر والعشرين لهاردى (بالفرنسية) .

من عاداتهم وأهملوا مقدساتهم ، وأصبحوا كالمقمق حاول تقليد الحجل فى مشيته فنسى مشيته الطبيعية . وأكد الباحثون فى شئون الجزائريين من علماء الغرب أن هذه الثقافة لم تورث من أخذوا بمذاهبها إلا نفاقا وشموذة واستهزاء بكل قديم ، وأنها أقبستهم أبشع ما فى المدنية الحديثة من النقائص كالسكر ونحوه . ومن الصعب أن يغير شعب تركيبه العقلى ليختار تركيباً آخر . ومن الثابت أن حضارتين مختلفتين إذا وضعت إحداهما بجانب الأخرى تعارضتا ولم تلتئما .

ولقد نجحت الشعوب الفاتحة التى أثرت فى غيرها من الأمم بمعالجة شعوب كان لها من العواطف والأفكار والأوضاع والمعتقدات مثل ما للداخلين عليهم . فالشرقيون يؤثرون فى الشرقيين أمثالهم ، وما أثر الغربيون قط فيهم مثل هذا التأثير . وهذا سر النفوذ العظيم الذى بسطه العرب فى الشرق ، ولايزال لهم حظ منه فى إفريقية والصين ، فقد نجحوا فى كل مكان ببث أهم عناصر مدنيتهم ، وهى الدين واللسان والأوضاع ، بدون كبير عناء ، والإسلام ينتشر كل يوم فى إفريقية من دون أن تبذل همة فى سبيل نشره ، ويخفق المبشرون من الأوربيين فى سبيل دعوتهم إلى دينهم إخفاقاً شنيعاً . هذا رأى لبون ، ثم يعود فيقول : إن السياسة التى اتبعت لفرنسة المسلمين واستتباعهم استتباعاً أدبياً كانت فى شدتها قريبة الشبه بالطرق التى اتبعتها أميركا مع الزنوج ، فقد كانت تسلبهم أرضهم التى كانوا يصيدون فيها تاركة لهم حريتهم المطلقة أن يموتوا جوعا .

أفرطت فرنسا فى تلقين لغتها وفى حرصها على حمل من نزلت عليهم أن يهجروا لغتهم وعاداتهم ، فخرج من تخرّجوا بأساتذة مدارسها بتربية مُخلّطة خلاسية ، ليسوا عرباً ولا إفرنجاً . ولا يعقل أن ترقى أمة بغير لغتها ، ومن أراد الخير لشعب كان جديراً بأن ينهضه داخل حدود عقليته ، لا أن يفرض عليه تربية تخالف عاداته ومزاجه ، ومتى حمله على تناسى ما يلائمه ، وأعطاه ما لا يوائمه ، كان فى عمله الغبن الذى لا ينكر محله . يقول المؤرخ إيفر[1] : إن الرأى القائل منذ سنة ١٨٣٠

(١) معلمة الإسلام . الجزائر .

بتمثيل الجزائريين قد أخفق ، وإذا كان من اللائق المدول عن فكرة تبديل العقلية الأهلية فى الجزائر تبديلا من أساسها ، فليس من الوهم فى شيء البحث عن تنشئة المسلمين فى حجر مدنيتهم الخاصة ، ولكن هذا عمل يحتاج إلى صبر ، ولا تظهر نتائجه إلا بعد مدد طويلة . اهـ . وجمهور العقلاء من الفرنسيين والعرب على أن الواجب تلقين لغتين العربية والفرنسية بدرجة واحدة فى شمال إفريقية ، أى تلقينهم جوهر المدنيتين .

بيد أن غرام الشعوب اللاتينية (الفرنسيين والإيطاليين والبرتقاليين والإسبانيين) أن يتمثلوا أبدا الشعوب المستعمرة ويلقنوهم لغاتهم ، وينسوهم كل شيء لهم . أما الشعوب المستعمرة من أهل شمالى أوربا (الإنجليز والهولانديون والبلجيكيون والألمان ومن تسلسلوا منهم كأهل الولايات المتحدة وسكان الدومنيون كأستراليا فلا يهمها إلا الانتفاع بهم ماديا والمسائل الأخرى فرعية .

وجرت إنجلترا فى الهند على مثل الطريقة الفرنسية فى سياسة التعليم ، وكان حكامها من قبل يتحامون تعليم الهنود الألسن الأوربية والأفكار الغربية ، لما وقر فى نفوسهم من احترام المدنية القديمة [1] ، ومنذ سنة ١٨٣٦ م فتحت انجلترا المدارس والجامعات وأسست الأندية والجمعيات ، تبذل فيها أموال الهند لتعليم أبنائها لغة الإنجليز وتاريخهم ، وطرائق تفكيرهم ، وتلقنهم أساليب من التربية الغربية يصعب تطبيقها ، وأنست انجلترا من اغترفوا من مناهل تلك المدارس كثيراً من مقدساتهم وعاداتهم . وغاية ما ربحت ممن علمت أن أخذت منهم إلى دواوين الحكومة وأعمال السكك الحديدية ودور البريد والبرق وغيرها ألوفا من المستخدمين ، يكلفها الواحد منهم أقل من عشرين ضعفاً مما يكلفها الإنجليزى الذى كان عليها أن تأتى به من الجزائر البريطانية . وتلقفت تلك الطبقة من الهنود تربية خرجت بها عما غرس فى دمائها من معتقدات ، وما عتم مواطنوها أن أضمروا لها الكراهة لانطواء الفئة المتعلمة على الرياء والمكر والخديعة ، ولأنها تدأب على رفع

(١) تاريخ المدنية الحديث لسنيوبوس .

القضايا المزوّرة والاعتداء على أبناء جلدتها ، وما عرفت بغير القحة والبخل والانحلال من الأخلاق ، ثم هى لا تحسب لغير أرباب الصولة من رؤسائها حساباً فإذا آنست منهم ضعفاً انقلبت عليهم .

ومع كل هذه العناية التى بذلتها انجلترا فى مائة سنة لنشر ثقافتها فى الهند لايتجاوز من يتكلمون الإنجليزية من الهنود مليونى إنسان من أصل أربعمائة مليون ، وكلما حاولت انجلترا أن تطبعهم بطابعها زادوا لها جفاء ، وحاولوا نزع أيديهم من يدها . يقول[1] كبلنغ شاعر الاستعمار الإنجليزى : الشرق شرق ، والغرب غرب ، ولاشىء يجمع بينهما ، فهما ضدان لا يأتلفان . ومن المتعذر أن تنشأ بين ابن الشرق وبين ابن الغرب ألفة حقيقية ومودة ثابتة أوثقة تامة ، فإنهما يتكلمان لغتين متباينتين كل التباين ، ولا يستطيعان أبداً أن يتفاهما ، وعدم الألفة وقلة الوئام هما الأصل فى ارتخاء علائق الشرقيين والغربيين على مدى الأيام . اهـ . وقال أحد المفكرين من ساسة الإنجليز : سيبقى الشعب الهندى على الدوام شاهداً ناطقاً بالماضى ، غير ممسوس بيد الغرب إلا مساً خفيفاً . وقال أحد الباحثين من الفرنسيين : إن قوّة الحكومة البريطانية فى الهند نشأت من كونها تحكم عناصر مختلفة من السيخيين والمسلمين والماهراتيين والهندوسيين والبرمانيين ، وكلهم يتحاسدون ويتخالفون فى الجنس والعادات والديانات .

وفى الثورات العديدة التى قام بها الهنود فى أزمان مختلفة ، وفى العصيان المدنى الذى قاموا به فى هذه السنين الأخيرة ، وما لاقته إنجلترا من الخسائر المادية ، دليل محسوس على فساد تلك الطريقة فى تنشئة الهنود واستثمارهم ، وأدركت إنجلترا ، وقد حسبت الهند مزرعتها ومخزنها ودكانها وبيتها ، أنها لم تستطع أن تنفذ إلى قلوب أهلها ، وتلقنهم حبها وجميل صداقتها . وذلك لأن الهنود موقنون أن كل عناية إنجلترا مصروفة لإغناء الأفراد وإفقار الجماعات ، وأن الهندى مهما بلغ من ثقافته

(١) الهند الإنجليزية ، تعريب عبد الوهاب الإنكليزى نشرت فى المجلد الخامس من مجلة المقتبس .

ومقامه ، محتقر فى نظر الإنجليزى . لا يواكله ، ولا يجالسه ، ولا يزامله ، ولا يعاشره ، ولا يكاد يضمه وإياه ناد ، ولا قطار ، ولا فندق ، ولا مطعم .

هذه سياسة انجلترا فى الهند بلاد المتناقضات فى غناها وفقرها ، وعلمها وجهلها ، وتنوع طبقاتها ودياناتها ولغاتها .

وقد شبه جوليفه كستلو الطريقة التى جرى عليها الإنجليز فى استعمارهم بالطريقة التى سارت عليها حكومات أوربا المختلفة . وطريقتهم الاعتماد على قوة الجند التى لا تقاوم ، وامتهان حقوق الوطنيين . قال : ولما كان الاستعمار البريطانى قائماً على الثبات والدؤوب أكثر من استعمار الممالك الأخرى ، جاءت منه فوائد محسوسة مثمرة . وغدت المملكة الاستعمارية البريطانية منبع غنى فائض للبلاد الإنجليزية ، والهند وأوستراليا أجمل أزهار ذاك التاج ، بيد أن قوة المستعمرات ليست اليوم غير صورة ظاهرة ، وتوشك على ما يظهر أن تقطع صلتها بانجلترا ، فتتمزق قوة انجلترا النائية عن أوربا . وهذه هى الرجمة العادلة فى الأشياء ، هذا إذا كان فى التاريخ عدل . ذلك لأن الجرائم التى احتقبتها انجلترا فى الهند والترنسفال وفى إرلندا سيكون منها رد فعل طبيعى ، ينال فيه الفاعلون جزاء ما قدمته أيديهم .

أما سياسة هولاندة فقد زعم بعضهم أن فيها بعض الرفق بالمستعمرين من الجاويين ، ومنه الابتعاد عن هذه الفوارق المنفرة[1] ، على ما هو حال الإنجليز مع الهنود . فالهولانديون يختلطون بالوطنيين ويمتزجون بهم « وارتضوا أن يزوّجوهم ويتزوّجوا منهم » وهذا فى الحق صنع جميل ، وعمل يدل على الرأفة التى تشبعت بها عقول المستعمرين الهولانديين دون سواهم ، وليست مسألة الاختلاط الجنسى هى كل ما أخذ الهولانديون أنفسهم به من التقرّب إلى سكان الجزيرة ، بل إن هنالك مسألة قلّ أن أخذ بها الإنجليز والأميركيون ، وقلّ أن آمنوا بأنها دليل واضح على حسن الطوية وسلامة الضمير ، تلك هى أنك ترى الجاويين يخالطون الهولانديين فى النوادى والمجتمعات ، وترى أنهم فى هذا الاختلاط لا يبدون أقل

(١) رحلة محمد على إلى جاوة .

شأناً ولا أيسر احتراماً فيها من أفرادهم من الأجانب ، فجميعهم فى هــذه الحلبة إخوان وعلى قدم المساواة » .

الاستعمار الهولاندى لطيف الملمس من هذه الجهة . ولـكن « مهما قال القائلون فى ارتقاء زراعة جاوة وسمطرة وكثرة سكانهما والعناية بصحتهم وراحتهم ، فإن هذه الجزائر تديرها فى كل مظاهرها الأيدى الهولاندية ، والوطنيون عملة بأجور قليلة ، وموارد الثروة فيها تنصب إلى خزائن الهولانديين وجيوبهم ، والهولانديون ينظرون إلى جاوة كما ينظر الإنجليزى إلى الهنـد يغتنى من خيراتها أغنياؤهم ، وقد جعلوا منها ذلك المصدر الذى لا ينتهى خيره ؛ ولن تخبو شعلة حياته » وعاملت هولاندة المسلمين وهم كثرتها الغامرة معاملة لا تحرجهم لئلا تخرجهم ؛ تقربهم من مناحيها فى أناة ورفق ، ولا تقطع عنهم التعليم ولا تفيضه فيهم . ويقول العارفون إن هولاندة ما زالت تتوجس خيفة من المسلمين المتعلمين ، ولو أخذوا العلم فى مدارسها ، وما رأت دواءً لدائهم إلا أن تنفى المتعلمين إلى إحدى جزرها ، حتى تبطل حركتهم وتأمن غائلتهم، حتى لقد صار منهم فى منفاها ألوف .

أما سياسة سائر الدول المستعمرة كألمانيا وروسيا أمس والبلجيك وإيطاليا اليوم فمتشابهة . كانت روسيا فى معاملة المسلمين قاسية على نحو ما كان المغول فى معاملة الروس أيام استيلائهم عليهم فى القرون الوسطى . كتب كاستلنو فى تاريخه الذى قدمه للقيصر اسكندر الأول بشأن وقائع الروس فى القريم لما أخذوها من العثمانيين : « إن الحملة لم تول روسيا شرفاً ، فإن القريم أحرقت ودمرت ، وربما كان مثل هذا العمل يغتفر على عهد البربر لما فطروا عليه من الجهل ، ولـكن إحراق المدن فى القرن الثامن عشر ، وتخريب أهم المصانع والآثار ، وتدمير المعادن وإبادة المدارس العامة ، وإدخال الظلام على العقول بإحراق كتب الأمة التى تريد الانتفاع بها فى إنارة أفـكارها، وإلقاء الشيوخ والنساء والأولاد طعاماً للنار ، لا يقصد منه الحرب بل إهلاك شعب برمته » . هذا وحكومة البلاشفة اليوم تريد المسلمين على أن يبدلوا أوضاعهم وعاداتهم ليحاكوا سائر مواطنيهم .

وأساءت ألمانيا بسياستها العسكرية فأبادت قبائل الهروروس جملة ليحل محلهم البيض ، لأن من قواعد المدنية الغربية قرض الزنوج ، وبلغ عدد من يموت من العملة السود فى الترنسفال ٢٨ فى المائة ، يموت نصفهم بأمراض الكبد والنوام . والسبب فى انتشار مرض النوام فى الكونجو البلجيكية أن الجنس الأبيض استولى على أحسن ما كان للوطنيين من الأرضين ، وطاردوا السود إلى الغابات والبطائح التى يكثر فيها الذباب الذى ينشأ منه هذا المرض ، واستعمار البلجيك ثقيل الوطأة جداً موفور الظلم للإنسان . لك أن تقول ولا تبالى أنه إفناء وإشقاء .

وأما استعمار الأميركان فإنهم يراعون فيه مصلحة السكان على الأغلب ، وقد عاونوا مسلمى جزائر الفليبين على النهوض ، فأخرجوهم من الوحشية إلى ساحة المدنية . ولطالما كانت إسبانيا مدة حكمها[1] الطويل على تلك الجزائر ترهقهم وتذلهم وتحملهم على انتحال الكثلكة ، فلما عصوها دمرت مساجدهم ومصانعهم . وتعلم نحو ثلثهم فى عهد الأميركان فأنشأوا المدارس والمساجد وتمتعوا بحرياتهم كلها . والأميركان سكان الولايات المتحدة الشمالية هم الشعب الوحيد الذى لا ينفق على المبشرين فى بلاد المتوحشين ، وينفقون عليهم فى بلاد المتمدنين . أما الأمم المستعمرة الأخرى فتجعل التبشير بالدين مقدمة لاستعمار ما تريد من الأوطان ، وقد تقول بدين العقل وحده ، وتتخذ من المبشرين أداة لبلوغ أغراضها ، حتى قالوا إن بضاعة التبشير بضاعة تصدير ليس إلا .

رأى لبون فى استعمار الغرب للشرق والاستعمار العربى :

أفاض علماء الاجتماع والسياسة والتربية من الغربيين فى نتائج هذا التعليم الذى حاول الغرب أن يلقنه ابن الشرق ، وممن عنى به عناية خاصة ، ورحل إلى الشرق غير مرة لدرس أسبابه ونتائجه ، وقابل بين عمل الغربيين وعمل العرب جستاف لبون ؛ فيما قال : ترجع[2] الأسباب التى حملت غير الأوربيين على النفرة من الحضارة

(١) من مقالة لزكى على فى جريدة البلاغ المصرية عدد ٣١٩٨ (١٣٥٢هـ — ١٩٣٣م)

(٢) حضارة العرب لجستاف لبون .

الأوربية إلى كون هذه المدنية هى نتيجة نشوء ماض طويل ، لم يصل إليه الأوربيون إلا بالتدريج ، وذلك باجتيازهم مراحل لابدّ من قطعها . وكل من يحاول أن يكره شعباً على أن يخترق هذه الدرجات فجأة كان عبد أوهامه وأحلامه ، وما حاله إلا حال من يؤمل أن يبلغ بولده سن الكمال ، قبل أن يقضى دور الشباب . ولئن كان فى مدنية الغرب أمور سهل على الشرقيين التمامها واقتباسها ، فالسبب فى ذلك أن الشرقيين ليس لهم شىء من حاجيات الغربيين الكثيرة ، يتبلغون بالقليل ويلبسون الساذج . وفى المدنية الغربية حاجات مصنعة قادت أوربا الحديثة إلى اضطراب شديد وعمل لا ينتهى ، وهذا مما يكرهه الشرقيون . ولطالما فاق العامل الصينى العامل الغربى لقلة مطالبه . وقد غرست الصناعات فى فطرته حتى اضطرت أميركا وأوستراليا إلى منع الصينيين من دخول بلادهما . وكما كان الاختلاف بين حاجيات الشرقيين والأوربيين عظيما انفرج الاختلاف فى طرق حسهم ، وبعدت المسافة بين تفكيرهم وتفكيرنا . فالآسيويون لا يحسدون الغربيين على مدنيتهم ، ولاسيما من زار منهم أوربا ، ويرون فى تسرب مدنية الغرب إلى الشرق مصيبة عظيمة ، وهم مجمعون على أن الشرقيين أسعد حالا وأكثر حشمة وأدبًا من الغربيين ما داموا لم يختلطوا بأهل الغرب .

قال : وما نفرة الشرقيين من حسنات المدنية الغربية اليوم إلا لروغان الشعوب الممدنة ، ولفظائع أتتها مع من كانوا من عيار أحط فى موازين المدنية ، وكان من حال الممدنين مع المتوحشين ، أن الأولين أبادوا الآخرين ، وقرضوا نسلهم وجنسهم . أباد المتمدين غير المتمدين فى أميركا وأوقيانوسيا ، وهلك التاسمانيون برمتهم كما هلك هنود أميركا فى أوقيانوسيا . وإذا عزت الرحمة فى الطرق التى سار عليها الأوربيون مع المتوحشين ، فإن عمل الأوربيين مع الشرقيين الممدنين كالصينيين والهنود مثلا ليس أحسن من ذلك على ما يظهر . وإذا صرفنا النظر عن حروبنا التى تجردت من العدل ، فإن معاملتنا للشرقيين كل يوم تكفى لأن نربى منهم أعداء أشداء على الدهر . ويرى كل من نزل الشرق أن أضعف أوربى يعتقد نفسه

فى حلّ من كل ما يجريه . وإذا لم يستثمر الشرق مباشرة ، كما هو الحال فى الهند ، بضرائب تسلبه آخر قطعة من خبزه ، تنصب له خدائع فى التجارة يفقد فيها كل حياء ، وتنم على أن طلاء الرجال المدنين عَرَض ينصل لونه ، وأن الأوربى فى الشرق يفقد صفاته الحسنة ، وينزل عن أخلاقه إلى ما تحت مستوى الشعوب التى يستثمرها . ولو عومل التجار الأوربيون من حيث صِلاتُهم بالشرق بمقتضى قوانين ممالكهم ، لا ينجو من العقوبات الفاضحة منهم غير أفراد(١) .

هذا ما علل به لبون نفرة الشرقيين من الغربيين ، وما أدى بالمشارقة إلى سوء ظنهم بالحضارة الحديثة ، وقد أورد على ذلك أمثلة فقال : إن حوادث صلات الغرب بالشرق فى القرن التاسع عشر كانت من أشوه صفحات التمدن . قال : وماذا يقول الناس فى مستقبل الأيام فى هذه الحرب الطاحنة التى شهرها الإنجليز على الصين ليحملوها بالقوة على استعمال الأفيون ، فيهلك من الصينيين كل سنة ستمائة ألف إنسان ، لتربح انجلترا من هذه التجارة الممقوتة مائة وخمسين مليوناً ؟ ومن جهة ثانية يرسل البريطانيون إلى الصينيين دعاة التبشير ليهدوا بنيها إلى الفضائل . فيقول الصينيون للمبشرين : إنكم تسمّونا وتهلكوننا وتأتون بعد ذلك لتعلمونا الفضيلة . قال : فالشرقيون يتجافون عن قبول حضارة لا تلتئم مع أفكارهم وشعورهم وحاجاتهم ، وأى داع يكرههم على قبول مدنية تقل سعادتها ، وفيها من الشقاء ألوان ، ومن العوامل المضعفة ضروب . إلى أن قال : لما فتحت العرب الشرق لم تحمل هذه الشرور ، فان العرب كانوا مشارقة مثلهم تتشابه عواطفهم وحاجاتهم . غلبت العرب على الهند وفارس ومصر ، ثم غلبت المغول والأتراك عليها ، فما كان على أهلها أن يعدّلوا حالاتهم كلها بقبول حضارة جديدة . وعلى العكس اضطرت هذه الشعوب باحتكاكها بالأوربيين أن تغير جميع أوضاعها . وإذا كانت تلك الأمم ضعيفة جداً كالهندى مثلا فيكون نصيبها الشقاء الأسود والثورات التى يولدها اليأس . تلك حال

(١) ذكر أحد العارفين من الأسبان فى الجزء الخامس من المجلد الخامس من مجلة العالم الإسلامى الفرنسية أن الأوربيين فى المملكة العثمانية أتعس شعب .

القوى مع الضعيف ، وللأمم الحديثة هموم أعظم من اهتمامها بتمدين الشعوب الأخرى . ثم اذا كان ثمة ما يقال له الملائق بين الأمم تفقد كلمات العدل والإنصاف معناها ومافيها من قيمة ، فتكون ألفاظاً جوفاء خدّاعة لاتجوز على إنسان . والشعراء يحدّثوننا بعهد سعادة يسمونه العصر الذهبي تجمع بين العالم أواصر الإخاء العام . ومثل هذا العصر ما كان ولن يكون . دخلت الإنسانية فى العصر الحديدى الذى يهلك فيه كل ضعيف بحكم الطبيعة .

وقال : « إن الشرق خضع لأمم كثيرة كالفرس واليونان وغيرهم ، ولئن كان نفوذهم السياسى فيه عظيما أبداً فإن عملهم فى التمدن كان ضعيفاً جداً . فهم لم يفلحوا فى نشر أديانهم ولغاتهم وصناعاتهم فى غير المدن التى احتلوها مباشرة . وامتنعت مصر عن قبول هذه المدنيات فلم تبدل أوضاعها على عهد البطالسة ولا أيام حكم اليونان ، واحتفظت بماضيها ، وكان من الغالبين أن أخذوا عن المغلوبين دينهم ولسانهم وفنهم ، وبقيت المصانع التى شادها البطالسة ورمّتها القياصرة على الطراز الفرعونى . وما تعذر على اليونان والفرس والرومان تحقيقه فى الشرق سهل على العرب الوصول إليه من دون ما قسوة ولا إعنات .

« كان يتراءى أن مصر هى القطر الذى يأبى الخضوع للتأثير الأجنبى ، ومع هذا لم يمض أقل من قرن على فتح عمرو بن العاص مصر حتى نسيت سالف مدنيتها التى أنشأتها فى ستة آلاف أو سبعة آلاف سنة ، وأخذت تدين بالدين الجديد وتتكلم لغة جديدة . وكان لها فن طريف بلغ من رسوخه أن خلّفه الشعب الذى قبله الى الشعب الذى قام بعده . ولم يغير المصريون قبل العرب دينهم إلا مرة واحدة ، وذلك على عهد إمبراطرة القسطنطينية عندما نهبوا مصر ، وانهالوا على مصانعها القديمة يدمرونها ، ويشتدون فى الضغط على أهلها ، ويحظرون انتحال الأديان القديمة ، مهدّدين كل من يجرؤ على ذلك بالقتل . فانتحل المصريون الدين الجديد بالإكراه لا بالرضا . وكان من تسارعهم بعد إلى ترك النصرانية وانتحال الإسلام برهان على ضعف الإيمان فى نفوسهم . أما التأثير الذى أثرته العرب فى مصر فقد ظهر فى

إفريقية والشام ومصر وغيرها من الأصقاع التى رفعوا علمهم عليها . وأثرهم ظاهر فى الهند وإن كانوا قد مروا بها مروراً . بل وصل تأثيرهم إلى الصين وما عرّج عليها غير تجار منهم . وما عهد التاريخ مثالاً محسوساً لشعب عمل عمــل العرب . فقد تقبلت مدنيتهم عامة الشعوب التى مازجتهم ولو مدة وجيزة ، ولمــا تراجع أمرهم فى التاريخ كان ممن غلبوهم عليه كالترك والمغول وغيرهم أن اقتبسوا منازعهم وقاموا يدعون بدعوتهم فى العالم .

«قضت المدنية العربية منذ قرون ، وليس فى العالم اليوم من المحيط الأطلانطى الى نهر السند ، ومن بحر الروم الى البادية ، غير دين واحد ، ولسان واحد ، هودين أشياع محمد ولسانهم . ولم يتجــل نفوذ العرب فى الشرق فى دينهم ولسانهم وصناعاتهم فقط ، بل امتد الى الثقافة العلمية ، فإن المسلمين كانوا على اتصال مستديم مع الهند والصين ، فنقلوا إلى تلك الأصقاع جزءاً عظيماً من المعارف العلمية ، فظنها الأوربيون بعــد ذلك من أصل صينى أوهندى ، واقتبست الهند من العرب أكثر مما اقتبس هؤلاء من الهنود . وكذلك أدخل العرب إلى الصين فى العهد المغولى الفلك والطب . وتأثير العرب فى الفرس ما زال بحاله إلى يومنا هــذا ، يقرأون العلوم فى كتب العرب ، ومقام اللغة العربية فى فارس يشبه ما كان للغة اللاتينية فى الغرب خــلال القرون الوسطى . وبظهور العرب خاصة فى إسبانيا فى القرن العاشر احتفظت ناحية من الغرب بحب الآداب والعلوم ، وكان مزهودا فيها فى كل مكان حتى فى القسطنطينية .

« وفى القرن الثالث عشر أيام تراجع العرب وسقط سلطانهم كما قال رنان فى أيدى عناصر ثقيلة الوطأة ، متوحشة المظاهر ، ضعيفة المدارك ، كالترك والبربر وغيرهم ، بدأت تباشير الضعف عند المسلمين . وقد لا تكون التعاليم متعصبة ، بل يكون الناس متعصبين . وكان العرب عنصراً رقيق الحاشية ، كثير التسامح ، لا يخرجون قيد شبر عن هذه المياسرة ، وبرهنوا بأعمالهم على أنهم كانوا متشبعين بها منذ ابتداء فتوحهم . لاريب أن التساهل الدينى كان مطلقا خلال العهد الذى

أزهرت فيه المدنية العربية . ولقد عظم تأثير العرب فى أجزاء من أرض أوربا ، ما استطاعوا التسلط عليها إلا بعلمهم وعملهم . وكان هذا التأثير أشدّ قوّة فى الأقطار التى خضعت مباشرة لسلطانهم أى فى أسبانيا . وأحسن ذريعة الى تقدير هذا التأثير حق قدره أن تلقى نظرة على ما كانت عليه إسبانيا قبل العرب ، وما صارت إليه أيام حكمهم ، وما انتهت إليه حالها بعد ذهابهم ، فقد دب فيها الهرم بعد جلائهم عن أرضها ولما تنتفض من عوارضه حتى اليوم ، مثال من تأثير شعب فى شعب ، والتاريخ لا يذكر مثله ناصعاً جلياً .

وبعد فلا علينا أن ندعى بعد ما تقدم أن ما سموه بالاستعمار العربى كان منه خير كثير للبشر فى سالف الدهر ، وأن الاستعمار الحديث بالنسبة للشرق قد خلط عملا صالحاً وآخر سيئاً يراد به منفعة المستعمر أولاً . عبث الاستعمار عمداً أو عن غير عمد بشخصات المستعمَرين ، فلقنهم تهذيباً فجاً بالقياس إلى عقولهم ، فنقلوا إلى غمرة الأمة المستعمرة نقلا غير مفيد ولا سديد ، وكان من الأقطار التى حددت سلطة الغرب فيها ، وما حكمت حكم استعمار كمصر والشام والعراق ، أن أظهرت استعداداً ونبوغاً أكثر من غيرها من الأمصار التى اشتد ضغط الغريب عليها ، وما منع احتفاظ هذه الأقطار الثلاثة بالمدنية العربية القديمة من قبول المدنية الغربية الحديثة . ولا يبعد إذا تمتعت الأرض العربية بوحدتها يوماً أن تظهر الدولة العربية فى مظهر دولة راقية تتساند مع غيرها من الدول فى خدمة التمدين فى العالم ، ولا تقل مكانتها عن أرقى دول الأرض بعد سنين . ونقول بعد هذا لأرباب المنازع الغربية فى حكمهم على العرب ومدنيتهم : إن أحكامكم هى الجور حق الجور . ولكن « إذا أقبلت الدنيا على قوم أعارتهم محاسن غيرهم ، وإذا أدبرت عنهم سلبتهم محاسن أنفسهم » .

أثر المدنية الغربية فى البلاد العربية

حالة البلاد فى القرن الماضى :

طلع القرن الثالث عشر من الهجرة ، وقد ندر فى البلاد العربية من يفكر فى شىء اسمه حضارة ، وغاية ما فيها آثار بالية من مدنية قديمة ، يظن أنها كل شىء وما هى به : انقطع سند العلوم ، وبطل أعمال الفكر ، وهجعت القرائح ، حتى لتظنها ميتة ، وأصبح ما يقال له علم صُبابة من فروع علم الدين واللسان . والناس فى غفلة عن الغرب ، قلما يعرفون ما أتاه فى نهضته خلال أربعة قرون . ضعف فى الأرض العربية أو كاد كل مظهر من مظاهر القوة فى الأمم ، وأصبح العرب من الجهل بمقومات الحياة فى حالة مبكية . وكأن نسبة الترقى عند أهل الغرب فى تلك الأحقاب ، كانت على مقدار التدلى فى الأقطار العربية .

ومن أهم العوامل فى هذا الاستخذاء ، أن الدولة الكبرى الباسطة ظل جناحها على العرب حاولت فى بعض العصور والأدوار أن تفلّ من غربهم ، فقل جداً المفكرون والعارفون ، وتراجعت المدنية فيها تراجعاً لم يمهد له مثيل فى تاريخها . وأمست هذه الأقطار الواسعة بلا علم ولا مال ، وفقد فيها معظم ما يبقى على الأمم مشخصاتها ، ويدل على مجدها وعظمتها ، ويشعر بجميل حاضرها ومستقبلها . فكان دور التتر دور الفتور المطلق ، والفقر المدقع ، والعبث بالكرامة .

وإنما الناس بالملوك وما   يفلح عرب ملوكها عجم

يكاد لم يبق فى القرنين السابقين على قرن النهضة العربية ، وهو القرن الماضى ، رجل يذكر فى باب الهندسة والتصوير والنقش والشعر والإنشاء والخطابة والفلك والكيمياء والطب ، ومعظم من يذكرهم المؤرخون ضعاف فى فنهم أى ضعف ؛ استحكمت حلقات الجمود فى العقول ، وشغل الناس عن الجد بالهزل والفضول ،

وراح من يكتب ويؤلف ، ينسخ ويمسخ ويسلخ ، ويعد ذلك علماً وفناً ، وعلى هذا فسد الذوق وضعف الخيال .

علماء فرنسا فى مصر :

وبينا كانت هذه الديار تهوى إلى أعماق هذا الانحطاط ، جاء نابليون بونابرت فى سنة ١٧٩٨م يفتح مصر ويحمل فى جملة مايحمله من العَدد والعُدد ، طائفة[1] من علماء فرنسا ونوابغها فى الرياضة والهندسة والطب والجغرافيا والفلك والأدب والكيمياء والاقتصاد السياسى والآثار والمعادن وطبقات الأرض والحيوان والنبات وفن المعمار وهندسة الرّى والقناطر والجسور والميكانيكا ، وزمرة من رجال الفنون من المصوّرين والرسامين والموسيقيين والنقاشين والمثالين وعددهم (١٤٦) عالماً وفناناً ، وأنشأ فى مدينة القاهرة مجمعا للعلوم والفنون ، يرمى إلى تقدم العلوم والمعارف فى مصر ، ودراسة المسائل والأبحاث الطبيعية والصناعية والتاريخية . وقسم المجمع إلى أربعة أقسام ، قسم الرياضيات ، وقسم الطبيعيات ، وقسم الاقتصاد السياسى ، وقسم الآداب والفنون . ويتألف كل قسم من اثنى عشر عضواً .

ولم يدخر أعضاء هـذا المجمع وبعثة العلوم والفنون وسعا فى متابعة جهودهم العلميـة فى مختلف الفروع والفنون . فأنشأوا خزانة تحوى أنفس الكتب التى أحضروها من فرنسا ، أو جمعوها من خزائن الكتب فى مصر . وأسسوا معملا للطبيعة والكيمياء ، جهزوه بالآلات والأدوات الخاصة بدراسة العلوم الطبيعية والرياضية . وأخذوا يجوبون البلاد ، فكشفوا الآثار ، وأزاحوا الستار عن عظمة مصر القديمة ، ورسموا الخرائط مفصلة لمصر ونيلها وترعها وسواحلها . وبحثوا فى طبائع الحيوانات والنباتات والمعادن ، ودرسوا مياه النيل وطَمْيه وطبقات الأرض ، وجابوا الواحات والبحيرات ، وأقاموا فى القاهرة مطبعة أخذت تطبع

(١) تاريخ الحركة القومية لعبد الرحمن الرافعى .

منشورات نابليون العربية وجريدة « السكوريه ديجبت و « الديكاد » ، وبعض المطبوعات العربية والفرنسية .

وحل الأثرى شامبوليون الحجر الذى عثروا عليه فى رشيد ، فحل بذلك الخط الهيروجليفى ، فأولى مصر خاصة والعلم عامة يداً تشكر . ولئن رحل جيش الاحتلال الفرنسى عن مصر فما رحلت ثقافة فرنسا عنها . ولئن أخفقت حملة نابليون[1] فإن « العمل العلمى الذى قام به رجال البعثة العلمية من بحث وفحص وتأليف وتصوير ... أبقى إلى اليوم أثراً علمياً فاخراً باهراً ... تطأطئ أمامه الرؤوس إجلالا وإكباراً » .

مبدأ النهضة المصرية :

كان احتكاك المصريين بالفرنسيين أول احتكاك علمى مع الغربيين . وممن كانوا فى طليعة المستفيدين مؤرخ مصر فى تلك الحقبة عبد الرحمن الجبرتى ، وعالم آخر اسمه حسن العطار ، وهو الذى تولى مشيخة الأزهر بعد حين ، وألف فى الفلك والطبيعيات والرياضيات . فإن هذين الشيخين وأمثالهما علموا بعض علماء حملة نابليون اللغة العربية وغيرها ، وتعلموا منهم ما لم يكن لهم به عهد من العلوم . واختلط رجال الإدارة والسياسة من أهل مصر برجال الحملة ، ونشأ بين الفريقين تعارف انقطع منذ عهد سان لوى فى القرون الوسطى . وهكذا عرفت المدنية الفرنسية فى الشرق القريب ، وظلت وارفة الظلال فى أرض الفراعنة ، ومضى على الاحتلال الإنجليزى عشرات من السنين والأولية للغة الفرنسية . هذا مع حرص البريطانيين على نشر لغتهم .

وتولى مصر محمد على واليها منذ سنة ١٨٠٥ م ، فأوحى إليه ذكاؤه النادر أن يقتبس النظم الإدارية الحديثة . وكان مشغوفاً بتمدين[2] مصر ، فأحضر من الممالك الأوربية أساتذة وأطباء وصيادلة ومعلمين ، شيدوا فى أماكن اختيرت أحسن اختيار ،

(١) فتح مصر الحديث لأحمد حافظ عوض .

(٢) الصنائع والمدارس الحربية والبعثات العلمية على عهد محمد على لعمر طوسون .

تلك المدارس والمستشفيات فى القطر المصرى . و « شعر رغم أميته بأن الملك لا يشيد إلا على أمتن أساس من العلم ، وأن العلم الذى تدعم به الممالك ليس هو الذى يسمونه علماً فى الشرق ، إنما هو الذى قامت به المدنية الغربية ، وشيدت عليه صرح عليائها وقوتها ، فأقرت لها الأمم بالغلبة ، ووقفت أمامها صاغرة ذليلة » .

بدأ والى مصر منذ سنة ١٨١٣ م يرسل الطلبة المصريين إلى أوربا . فأوفد إلى إيطاليا طائفة لدرس الفنون العسكرية وبناء السفن وتعلم الهندسة وغيرها . ثم اتجه نظره إلى فرنسا فأرسل إليها زمرة صالحة . وبعث إلى إنجلترا بعض التلاميذ لتلقى فن الملاحة ومناسيب الماء وصرفه والميكانيكا . ثم جعل جل اعتماده على مدارس فرنسا فى تخريج الطلبة ، وصرف عليهم من سنة ١٨٢٦ إلى ١٨٤٧ — ٣٠٣٣٦٠ جنيها . وغدا معظم الطلبة الذين تخرجوا بأساتذة الغرب من دعائم النهضة التى تم على يدها إنشاء مصر الحديثة . وأسس ول مدرسة للهندسة فى سنة ١٢٣١ هـ (١٨١٦ م) ، ثم أسس مدرسة الطب إجابة لاقتراح الطبيب كلوت الفرنسى (١٢٤٢ هـ ١٨٢٧ م) . وكان القائم مقام سيف الفرنسى الذى دان بعد بالإسلام وسمى سليمان باشا (١٨١٩ م) هو الذى نظم الجيش المصرى ، ونظم أمير البحر بيسون البحرية المصرية ، ثم خلفه هوسار فى هذا العمل . وبعد مدة أنشأ ماريت متحف بولاق . واستدعى غير هؤلاء من رجال الغرب ومنهم البولونيون . ودام علم الفرنسيين يفيض على مصر مدة حكم محمد على وأسرته الكريمة . ولو أحصى ما كتبه علماؤهم فى مصر من الأسفار ، وما رسموا لها من الآثار والمصورات والتصميمات لبلغ خزانة كبرى ، ولا تزال هذه التحفة العظيمة إلى اليوم مرجع الباحثين والدارسين .

قال لنا صديقنا[1] عثمان غالب باشا من علماء مصر الذين شاهدوا تلك الحركة

---

(١) غرائب الغرب للمؤلف .

العلمية فى إبانها ، ثم شاهدوها فى انحطاطها ، وحضروها فى تجددها : إن أكثر أساتذة المدارس التى أنشئت فى مصر على عهد نهضتها الأولى كانوا من الفرنسيين المستعربين ، يكتب درسه بالفرنسية ، والمترجم معه ينقله إلى العربية ، فيلقى على الطلبة بلغتهم . دام ذلك من سنة ١٨٣٠ إلى سنة ١٨٧٤ ، وقد كتب فيها بروجر رئيس مدرسة الطب والولادة والصيدلة والمستشفيات المصرية إلى خديوى مصر فى عهده يقول له فى تقريره السنوى : حان الوقت لأن تكون وظائف التدريس كلها بيد المصريين ، إذ قد أصبح فيهم الكفاءة الآن ، وإن عمل فرنسا فى تربية أبناء مصر فى هذه الفروع العلمية قد انتهى أو كاد .

وقال أحد كتاب الإنجليز[1] : « إن المدنية المصرية الحديثة هى مدنية إفرنسية صرفة . ويكفى لتصديق هذا القول أن نلقى نظرة واحدة على أعمال فرنسا فى هذا القطر . فمن من العالمين لم يسمع باسم شامبوليون الذى سهل لنا باجتهاده وثباته قراءة تاريخ مصر القديم باللسان الهيروجليفى ، وأضاف إلى مصر بكشفه حل تلك الرموز شهرة فوق شهرتها السابقة ، وجعلها ملتقى الأنظار ومحط الرحال . ومن ينكر أن إصلاح الرّى فى عهد محمد على وبناء القناطر الخيرية ، وعمل الخزانات لخزن ماء النيل ، وكل ما نراه اليوم فى مصر مما يتعلق بالانتفاع بهذ النهر ليس إلا من عمل المهندسين الفرنسيين الذين كانوا عضد محمد على ويده اليمنى . ومن ينكر أن المهندسين الفرنسيين قاموا بالأعمال الهندسية عندما كان المستخدمون الفرنسيون قائمين بالأعمال الإدارية . بل من ينكر علينا أن ترعة السويس وهى أكبر عمل فنى تم فى القرن التاسع عشر هو من صنع الفرنسيين فكراً وعملا ؟ إن الإصلاح الذى جلب لمصر أكثر من نصف ثروتها الحاضرة ليس إلا من غرس الفرنسيس وما كان الإنجليز إلا منفذين ومكملين » .

لولا عمل محمد على فى تمدينه مصر ، لأشرفت اللغة العربية على التلف ، على الرغم من وجود الجامع الأزهر فيها منذ قرون ، لأن الأزهر ما كان يعنى بغير

(١) تحرير مصر تعريب محمد لطفى جمعة .

المسائل الدينية ، واللغة تنقرض إذا لم تكن لغة علم . وهذا ما حاول محمد على أن يعمله ، فظهرت تباشير إصلاحه بعد عشر سنين من البداءة به ، على أيدى من خرجهم من المصريين فى مدارس الغرب ، فألّفوا وعلموا وهذبوا ، ومن حسن توفيقه أنه وجد من المصريين مشايعين له على عمله ، خلافا لما كان من تصلب رجال الدين الأتراك وعصيانهم على الإصلاح الذى كان بعض سلاطين بنى عثمان يحاولونه .

وجاءت نهضة مصر برهاناً آخر على أن حب الحرية مغروس فى فطرة العرب ، مهما انحطوا وانحط أمرهم ، وأنهم من أكثر العناصر الإسلامية تسامحاً ، وما اشتهروا منذ قاموا إلا بفتح صدورهم للمدنية ، وكانوا دعاة الدين والأمناء عليه فى كل عصر .

وكان من محمد على وطريقته المبتكرة فى التمدين الذى أقبسه نبهاء أولاد مصر ، كل ما قرب الأمة المصرية من المدنية الغربية . وكان وادى النيل بجميل صنعه المثال الحىّ الذى دل به العربى بصورة محسوسة ، على أن ليس فى دينه ما يحول بينه وبين الحضارة ، وأنه حفيد أولئك الفاتحين ، إن نامت فيه زمنا جراثيم النهوض تدب فيه القوة عند أول محرك لها . وفى مصر أنشئت أول مدرسة لتعليم البنات سنة ١٨٧٣ م على عهد إسماعيل الذى أخذ من مدنية الغرب بالكبير والصغير ، وفاخر بأن أصبحت الديار المصرية قطعة من أوربا بتمدنها . وكان الخديوى إسماعيل يشبه محمد على كثيرا ويعنى بالتعليم عناية خاصة . وقد أنشأ[1] فى أيامه مدارس ثانوية وغيرها ، ومنها دار العلوم التى خدمت اللغة أعظم خدمة .

كانت الحركة الأدبية المصرية مبدأ كل نور فى الشرق العربى استفادت منه الأقطار المجاورة بحكم الطبيعة ، ولاسيما أبناء الشام . فإن منهم من درسوا فى مدارس مصر ، وتمصروا فخدموا القطر الذى هذبهم ، ومنهم من نقلوا قليلا من النور إلى مواطنهم ، ولما استولى محمد على على الشام سنة ١٢٤٧هـ ، ودام حكمه فيها تسع سنين ، أثر بابنه إبراهيم ورجاله فى إدارتها وتمدينها . فمصر إذاً هى التى بدأت تقتبس من نور العلم الصحيح ، ومصر أدخلها من تخرجوا بعلم الغرب فى

(١) تاريخ مصر فى عهد الخديوى اسماعيل لإلياس الأيوبى .

دور ارتقاء لم يسبق له مثيل ، ومصر هي التي ظهرت فيها آثار المعارف قبل أمها الدولة العثمانية ، ومصر أثبتت استعدادها للأخذ بأساليب الارتقاء ، وأنها كل ساعة مستعدة لقبول الخير ، لا تسأل عن مَصدره ولا مُصدره .

عمل الرهبان والقسيسين في الشرق العربي :

وكان للغرب في هذا الشرق منذ زمن بعيد رهبان ومبشرون . ولا سيما في الأرض المقدسة من فلسطين وفي جبل لبنان من الساحل الشامي . يعلمون أبناء طوائفهم مبادئ العلوم باللغة القومية ، مع إحدى اللغات الغربية ، وفيهم الإيطالي والفرنسي والأميركي والروسي والبروسي والإسباني والنمساوي والأسكتلندي وغيرهم . وزادت صلات الطوائف البابوية في الشام مع رومية ، وكانت منذ القرن السادس عشر مستحكمة ، وفيه أسست للموارنة في عاصمة النصرانية مدرسة تخرج فيها خدمة الدين في اللاهوت وغيره من العلوم . وكثر توافد الإنجيليين منذ سنة ١٨٣٨ للدعوة إلى البروتستانتية ، وأسسوا مطبعة عربية كانت لهم في مالطة أولاً ، يطبعون عليها الأناجيل بلغات مختلفة لنشرها في المشرق . ثم تبعهم اليسوعيون من الطوائف الكاثوليكية ينشئون مطبعة لهم . وجعل دعاة البروتستانتية والكثلكة من ثغر بيروت وما في ضواحيه من القرى مثل عبيه وعين طورا ، أس حركاتهم الدينية والعلمية في الشرق القريب ، يتنافسون بينهم ، ويبثون في عقول الناشئة من غير أبناء المسلمين على الأكثر التربية التي رأوا فيها مصالح أممهم ، بما أقاموه من المدارس العالية والثانوية والابتدائية للذكور والإناث . وبعد أن كانت بيروت أشبه بقرية ، سكانها بضعة آلاف فقط ، أصبحت مدينة علم كبيرة يقصدها المتعلمون من القاصية ، على نحو ما كانت اشتهرت أواخر عهد الرومان بمدرسة الفقه ، تخرج قضاة للمملكة الرومانية .

هذا والمسلمون قانعون بأن من أبنائهم من يتعلم في مدارس الدولة التي أنشأتها قرابة ذلك الزمن ، لتخرج من أبناء العرب ضباطا وموظفين لمعسكراتها وإداراتها ،

وبقدر ما كانت نفوس غير المسلمين تنصرف إلى التجارة والصناعات ، كانت وجهة المسلمين تتجه نحو الآستانة تعلم أبناءهم شيئا من التركية وبعض العلوم النظرية ، فيكون منهم قادة وضباط وعمال . وكانت غاية التعليم العثمانى تلقين الأفراد الاعتماد على الحكومة فى كل شىء ، والفناء فى خدمة الوطن التركى ، وكان تتريك العناصر على اختلاف أجناسهم ومدنياتهم من أهم ما تعمل له الدولة التركية ولاسيما فى أواخر أيامها . وغاية التعليم المصرى والتبشيرى تثقيف الناس بالعربية ، والإلمام بإحدى اللغات الأوربية ، أو العناية باللغة الأجنبية والأخذ بحظ قليل من العربية ، مشفوعة بثقافة علمية تنفع من يتلقنها فى معاشه . وكان الاحتلال الفرنسى فى شمالى إفريقية والجزائر وتونس ومراكش ، والاحتلال الإنجليزى فى مصر والسودان ، ثم الاحتلال الايطالى فى طرابلس وبرقة ، فزاد امتزاج العرب بالغربيين ، وأخذ الناس يدركون نقصهم ، ويسعون جهدهم ليقلدوا فى منازعهم من تقدموهم فى سلم الحضارة .

ما أخذناه عن الغرب :

من الغرب تعلمنا معنى الوطن والوطنية ، وحب الجنس واللغة ، وهذا شىء جديد لم يعهد للعرب مثله ، بعد أن ذاق الناس ما ذاقوا من ظلم الولاة ، ومن داناهم ووالاهم قروناً طويلة ، ولم يقدروا أن يغيروا أوضاعهم ، بل ما وسعهم التفكير ، فى مثل هذا التغيير ، أو فى شىء يماثله لقيام أمر الجماعة ، واسترجاع الحقوق المضاعة . ونقلنا عن الغرب بعض أوضاعه السياسية كالمجالس النيابية والحكومات الدستورية . وأصبح الناس يوقنون أن بقاءهم مناط تكاتفهم ، وأن الشعب يقوى على إملاء إرادته ، إذا كانت مادياته سليمة موفورة ، وبقدر حظ الأمم من الماديات ، تصبح لها معنوياتها . وكان القوم من قبل يُعْجَبون بكل ما هم عليه من علم وعمل .

تعلمنا من الغرب أصول الصحافة ، وأخذنا ننشئ صحفاً تُعْنى بالأمور المالية والسياسية ، وأخبار الدول والممالك . واقتبسنا إنشاء المجلات الدورية ننقل أكثرها

عن مجلات الغرب الفرنسية والإنجليزية ، وننسج على منوالها ، ونلخص آراء الغرب ومذاهبه السياسية والاجتماعية والاقتصادية والأدبية . ونترجم من الكتب العلمية والأدبية ما لم نكن نعرف اسم فنه من قبل . وكانت مصر المُجَلِّية في هذا المضمار ، نشرت منها مئات بمعاونة حكومتها ، وعناية أبنائها الذين اغترفوا من الينابيع الصافية في العلم الحديث . وكل بلد سبق في هذه السبيل وعلم أبناءه كمصر ، كتب له التقدم على غيره من الأقطار . ولا عجب أن أصبحت مصر بعد جهاد جيلين من الناس ، تشبه بعض الممالك الغربية الحديثة .

أثرت الصحافة في عقول من أدمنوا تلاوتها ، ودخلت الأفكار الجديدة بيئات ما كان يظن أنها تهتم بها ، فبدلت من طرق التفكير ، وأصول المعايش ، وعلمت الناس ما لم يكونوا يعلمون ، علمتهم بسائط في التاريخ والجغرافيا والاقتصاد والزراعة وحال الأمم وسياسة السياسيين ، ومجادلات المشرعين ، واستعمار المستعمرين ، وتدليس المدلسين ، حتى غدا بعض من أطالوا تلاوتها وتفهمها ، أرقى عقلا من كثير ممن كانوا يسمونهم بالخاصة منذ نحو مائة سنة . علمتهم أن لا قيام لأمرهم إلا بالقومية ، وأن الدين وحده لا ينجيهم مما هم فيه ، وأن التساهل بأمور الدنيا يذهب بالدين والدنيا معاً .

كان الناس قبل ثمانين سنة يساق أولادهم إلى الكتاتيب في الديار الشامية بقوة الجند والدرك ، وكان التعليم على عهد محمد علي في الديار المصرية[1] مكروهاً عند المصريين كرها شديداً ، حتى إن الأمهات كن يفقأن عيون أولادهن حتى لا يدخلوا المدارس ، بل اضطرت الحكومة المصرية في بعض أدوارها الأولى أن تتخطف تلامذة المدارس من الطرق وأفناء القرى كما يتخطفون عساكر الجيش[2] ، فزاد إقبال المتعلمين على المدارس زيادة مستغربة ، وشعرت الأمة بنقصها ، والشعور بالنقص أول مراتب الكمال ، وغدا أهل كل قرية ، بل أهل كل قبيل في البوادي

(١) تقرير لورد كروم عن مصر سنة ١٨٩٤ .
(٢) تاريخ الأستاذ الإمام لمحمد رشيد رضا .

يتطالون إلى تعليم أبنائهم بكل حيلة ، دع سكان المدن ، فإنهم من ذلك على حصة موفورة .

التمازج بالغربيين والانتفاع بما اخترعوه وكشفوه .

لما اخترعت أوربا البخار حوالى سنة ١٨٣٠ ، وسهل السفر على الناس فى قطارات البر وسفن البحر ، زاد اختلاط الفرنج بالعرب ، فزاد هؤلاء ثقافة ، يحملها إليهم طلاب العلم وأرباب الرحلات والتجار ، وسياح الغربيين وحجاجهم القاصدون إلى أرضنا ، يزورون آثارها المدنية والدينية ، ومنها ما تقدسه أمم الغرب النصرانية ، لأنها موطن المسيح ومظهر عجائبه ، ومنها ما يدهش له الغربيون كآثار الفراعنة أم المدنيات القديمة المعروفة فى مصر ، وكمصانع تدمر وبعلبك وجرش وسلع فى الشام ، وآثار قرطاجنة وغيرها فى إفريقية . وزاد هذا الاختلاط لما صحت عزائم سكان جبال الشام على نزول أميركا طلباً للرزق (١٨٧٦ م) ، وكان أهل أوربا سبقوهم إلى نزولها منذ أكثر من ثلاثة قرون ، ، ومنذ نحو نصف قرن كان من لا يعود إلى أهله بمال ، يرجع إليهم بما اقتبس من بسائط المدنية ، لأنه رأى فى ذهابه وإيابه بلاداً أرقى من بلاده ، واختلط بجماعات أعلى كعباً فى المدنية من جماعته .

إذا عرفنا هذا فلا نكون إلى الغلو إذا ادعينا أن الفرق عظيم اليوم بين مصر والشام وتونس مثلا ، وفيها تمازجت الحضارة الحديثة بالقديمة ، وتوفر أهلها على الأخذ عن الغرب علمه وصناعته ، وبين الحجاز ونجد واليمن ، وسر ذلك كون أهل الجزيرة انقطعوا عن العالم المدنى طوعاً أو كرهاً ، وقلّ اختلاطهم بالغربى ، إلا فى بعض سواحل البحر الأحمر والبحر المحيط الهندى وخليج فارس ، وتجافت نفوسهم عن اقتباس ما جدّ عند الأمم من أساليب العلم والفن .

كان الوباء إذا انتشر فى بلدة لا يبقى من سكانها ولا يذر ، وفى الغالب أن يعقب الأوبئة قحط ، لقلة العاملين فى الحقول ، فيهلك مئات الألوف من الناس ،

وكانت هذه الأمراض الوافدة ، تحصد الأرواح فى كل عقدين أو ثلاثة من السنين .

نعم كانت الأوبئة والطواعين والحميات والوبالة « الملاريا » بل جميع الأمراض الوافدة والأمراض المضالة كالكَلَب ونحوه ، تهلك عشرات الألوف من الخلائق ، ولا من يعرف دواءها ، ولا من يفكر فى تخفيف ويلاتها ، ومنهم من يعزو ذلك إلى أسباب سماوية ، يغضب الديان على الإنسان ، فيرسل عليه هذه المهلكات ، أو يقوى سلطان الجن على الإنس فيأخذهم أخذ عزيز مقتدر ، أو يحل بهم نكد الطالع ، فتساورهم النقم ، وتتخطاهم النعم . ولكم أفضل الغرب علينا بمطعوم الجُدَرى ، وكان يهلك به كل سنة جزء عظيم من الأطفال ، وكم من عيون دعجاء به قلعت ، ومن خدود جميلة ببثوره تشوهت .

عرف الغربيون[1] حقيقة البول السكرى والصرع والتشنج وغيرها من الأمراض ، فوصفوا لها الأدوية واخترعوا لها ما يحول دون آلامها وأخطارها ، نخفت وطأتها ، ولطفوا بما اخترعوا ويلات الأمراض الزهرية والكزاز والخناق والنقرس الحاد . ووفقوا إلى إتقان فن الجراحة ، فأفادوا الإنسانية ، وقللوا من أوجاعها . ورقوا الطب والصيدلة على اختلاف ضروبهما . ولو لم يكن لهم غير «الكينا وصبغة اليود » لكفى فى خدمتهم الإنسانية ، وانتفعوا ونفعوا بالكيمياء حتى تم لهم من التفنن فيها ما هو غريبة الأيام والليالى . وإذا نقلت أوربا إلى آسيا وأميركا وجزء من إفريقية الحمى التيفوئيدية وبعض الأمراض الزهرية ، فقد نقلت آسيا إلى أوربا الكوليرا أو الهواء الأصفر ، ومع هذا قاتلته أوربا بعلمها وبحثها حتى قتلته وأخاه الطاعون .

تعلمنا طب الحيوان والدواجن ، ومكافحة الحشرات ، وكانت تعبث بالأشجار والنبات والزروع ، واستفدنا أصنافاً من البقول والأزهار والثمار لم يكن لنا بها عهد ، وعرفنا طيوراً ودجاجاً وأسماكا جديدة ، واستطعنا بالأخذ بالوسائط الجديدة القضاء على الجراد ، ولطالما أقفر أقطاراً وأفقر أمصاراً ، وتعلمنا استعمال

(١) حسنات القرن الماضى وسيئاته للمؤلف (مجلة المقتبس م ١) .

الأسمدة الكيماوية والتفنن فى تطعيم الغرسات ، والاستكثار من المرشات ، ومعالجة الآلات الحراثة والبذارة والحصادة والرجادة والدراسة والذراية ، بل الخياطة والطرادة ، وكل ما يقلل من عمل الأيدى ، ويوفر على الخلائق راحتهم ، ويقتصر لهم طرق الانتفاع بما تنبت الأرض وتجود السماء .

وتعلمنا تمديد الخطوط الحديدية ، وفتح الأنفاق وبناء الجسور والطرق والمرافئ ، والخزانات والمنائر وحفر الآبار الارتوازية ، وإقامة الدور ذات الطبقات الكثيرة ، وتوليد الكهرباء ومد أسلاكها وإنارة المدن والقرى بها ، وتسيير عجلاتها فى الحواضر والضواحى ، ووضع البريد والبرق والهاتف واللاسلكى والسلك البحرى ثم الراديو ، وتنظيم المدن والبلديات ، وفتح الشوارع والساحات ، ورصف الطرق وتذليل العقبات ، وجر المياه النقية فى قساطل ومناهل ، وتجفيف البحيرات والمستنقعات ، وتخفيف ويلات أمراض العين ، وكان يعمى بها طوائف من الناس .

واقتبسنا أصول الجندية ، وتنظيم المراكب البخارية ، وتدوين الدواوين ، وأسلوب الجباية ، وإدارة المصارف والجمارك ، وأبدلنا بأساليب التجارة أساليب الغرب القريبة المأخذ ، المضمونة النتيجة ، وما عرفنا من قبل المصارف ولا المصافق ، ولا السفاتج والحوالات المالية ، ولا الشركات المساهمة والمضاربة والمغفلة ، ولا كل ما يسهل على التاجر عمله ، وعلى الصانع صناعته ، ويوفر الأموال . وكأن الأدوات والآلات هى خاصية من خاصيات المدنية الحديثة ، نشأت من تفرد الغرب بالفحم الحجرى ومما جرى تعدينه من المعادن ، ومن أهمها الحديد ، ولأن الإخصاء فى العلوم جرى تطبيقه على الصناعات عندهم .

ومن الغربيين أخذنا أساليب الدعوة والإعلان ، وطرق المفكرات والجزازات والإحصاءات ، بله تأليف المؤتمرات والمؤامرات ، واستخدام المعاصر والمحالج والمغازل والمناسج والمطافئ والمدافئ والمضخات ، ونسجنا على أساليبهم فى إنشاء الجمعيات الخيرية ، والأحزاب السياسية ، والشركات الصناعية ، وإقامة حدائق لتربية الحيوانات ، ومغارس لتربية النباتات والأزهار والأشجار ، واستفدنا

مسائل أخرى كثيرة نجهد لوضع أسماء تقابلها بالعربية . ولم نعرف من قبلهم المستشفيات والمصاح والملاجئ لليتامى والزمنى والصم والبكم والمسلولين والمتوهين على هذا الطراز من العناية والطهارة .

أبطل الغرب القرصنة[1] من البحار والأنهار ، وقضى على الغزوات حتى من البرارى والقفار ، فأمن الغادون والرائحون والمبحرون والمقفرون[2] ، على أرواحهم وأموالهم . وحرر الرقيق فكان ذلك من موجبات فخره ، وأزال بذلك وصمة عار عن الإنسانية ، وأبطل النخاسة وكانت أفظع تجارة وأحط عمل . علم الغرب السود حتى ألحقوا بالبيض ، ودرب الحيوان حتى قام بكثير من أعمال الإنسان . فاستفاد من كل قوة ادخرتها الطبيعة ، وانتفع من كفاءة كل كفء ، ومن فضل كل قريحة فى هذا المجتمع العظيم .

أثر الغربيون فى أرواح الشرقيين وعقولهم من حيث يدرون ولا يدرون ، وذلك بفضل ما يبثونه كل يوم من معارف جامعاتهم ومدارسهم وأنديتهم ومعاملهم ومخابرهم ، وبفضل ما كشفوه واخترعوه وحققوه وصححوه من العلوم ، وبثوه من الأفكار الجديدة وخاضوا عبابه من الموضوعات ، فقلبوا بأوضاعهم أوضاعنا ، وبدلوا بتصوراتهم أشكال تصوراتنا ، وبدلوا من أساليب الفكر فى رجالنا الدارسين وغير الدارسين ، فتغيرت أساليب أحاديثنا ودوافع أهوائنا ، ولطفت أذواقنا وأحاسيسنا ، ولم يكن لذلك كبير أثر قبل اختلاطنا بهم ، وتسهيل المواصلات بيننا وبينهم . وسنظل على الأخذ عنهم فى معظم مطالب الحياة ، حتى نستوى أمة ناهضة من كل وجه ، على ما استوت اليابان الشرقية فى القرن الماضى .

كانت الأمية غالبة على الكبير والصغير ، يربى الأطفال فى أماكن مظلمة نتنة لا شمس فيها ولا هواء يسمونها الكتاتيب . ثم هم يضربون بالعصى على رءوسهم

(١) القرصنة لفظ أعجمى دخيل فى لغة شمال إفريقية ، ويطلق على الغارات البحرية التى كان يأتيها رجال البحر فى العصر الماضى (تاريخ تونس لحسن حسنى عبد الوهاب) .

(٢) السائرون فى البحر والقفر .

ووجوههم وظهورهم وأرجلهم بدون شفقة ، وبذلك يتعلمون للخلاص من هــذا العذاب الاحتيال والحلف الكاذب . فأصبح الولد بتنظيم التعليم اليومى ، يعرف من المعارف ما لا يكاد يعرفه العالم أمس . واختصرت مراحل التهذيب ، حتى انرى فى شبابنا اليوم من هم مفخرة بما تعلموا ، وما كنا نسمع بمثل هذه المعارف تجتمع لفتى فى الخامسة عشرة من عمره ، ولا بالأطفال من البنين والبنات يربون فى رياض الأطفال هذه التربية العملية الصحية ، ولا بربات الحجال ينافسن فى التعليم العالى الرجال .

بفضل المدارس والصحف السـيارة ودور التمثيل وبيوت الغناء وأسطوانات الحاكى ، وإذاعات المذياع « الراديو » أصبحت الفصح من الألفاظ العربية فى ألسن النــاس ، وعلى أقلامهم ومكتوباتهم ، كأنها من المتعارف . وظهر فينا رجال نقرأ أعمالهم فى كتبهم ورسائلهم وخطبهم وأعمالهم . وكثر فى أبنائنا رجال القانون والإدارة والجندية والطب والهندسة والزراعة والـكيمياء والطبيعة والفلك والاجتماع والاقتصاد والتاريخ والجغرافيا والأدب والتصوير والموسـيقى والنحت والنقش والطيران ، ومنهم من لا يقلّ عن أرق الطبقات أمثالهم فى الغربيين ، ولا يفرقون عن النابهين من الرجال عند الأمم المدنة ، إلا بفروق مرجعها إلى البيئة التى يعلو كل حين مستواها .

يعترف[1] الشرق العربى بصنيع علماء الغرب لمعاونتهم له على إحياء مدنيته ، فقد أنشأوا منذ القرن الرابع عشر الميلاد مدارس لتعليم العربية فى جامعاتهم ، وكلما كان بعض أبنائه يتلقفونها ، كانوا يفكرون فى اقتناء كتب العرب ، ويتنافسون فى ذلك تنافسهم فى الاحتفاظ بالآثار التى هى محصول القرائح العربية . ولما اخترعت الطباعة كانت المخطوطات العربية أوّل ما طبع فى بلاد الغرب . وأوّل مطبعة أنشئت فى مدينة فانو فى جون البنادقة «بحر الادرياتيك» سنة ١٥١٤م ، طبع فيها

(١) أثر المستعربين من علماء المشرقيات فى الحضارة العربية للمؤلف ، وعدة مقالات له فى حركة المشرقيات فى الغرب نشرت كلها فى مجلة المجمع العلمى العربى وفى مجلة المقتبس .

القرآن وكتب الطب والحكمة والطبيعة باللغة العربية . وفى مدينة البندقية طبع الإيطاليون تآليف يوحنا بن ماسويه فى الطب والفلسفة . ومثلوا بالطبع قانون ابن سينا فى الطب مع كتاب النجاة فى رومية وذلك سنة ١٥٩٣ . وفى سنة ١٦١٥م بدأ الهولنديون فى مدينة ليدن بطبع كتب العرب ، وما زالوا إلى اليوم يطبعون من أمهاتها كل مفيد . وقد أنشأت معظم الأمم الأوربية والأميركية مطابع عربية طبعت عليها عشرات من كتب العرب النفيسة . ودلوا قومهم وغير قومهم على فضل العرب ، ونوهوا بحضارتهم ونبوغ أفرادهم . كانوا يأتون ذلك والعرب يغطون فى سُباتهم غطيطاً غريباً تحت ظل خلفاء العثمانيين ودولتهم المباركة ! وبينا كانت العربية توشك أن تدخل فى دور الانقراض فى مصر والشام والعراق ، دع سائر الأقطار العربية الأخرى ، كانت أوربا لا تخلو جامعة من جامعاتها منذ القرن السادس عشر من إلقاء دروس عربية ، وأبحاث فى مدنية الإسلام .

جمع الإفرنج فى كل دولة صغيرة كانت أم كبيرة ، خزائن عامة أو خاصة فيها نفائس الكتب العربية المخطوطة ، عنوا بها أشد عناية ورتبوها ونشروا فهارسها . ولا تقل كتبنا التى احتفظوا بها فى خزائنهم عن مائتين وخمسين ألف مجلد . نشروا منها بالطبع جزءاً من الأسفار الدينية والفلسفية والتاريخية والجغرافية والعلمية والأدبية واللغوية وغيرها مالا يقل عن خمسمائة مجلد ، ونحن لم نعرف بعدُ الطبع بالحروف ، مجتزئين بطبع الحجر السقيم . وفى خزائن الكتب العمومية والخصوصية فى الآستانة ومصر من المخطوطات العربية ما لا يقل بعدده عما عند أهل أوربا منها ، ولم يطبع منها غير مصنفات قليلة ، ومنها التافه الذى قصدوا به التجارة لا خدمة العلم ، على ما كان منزع علماء المشرقيات من الغربيين . وجاء القرن التاسع عشر ولم يطبع منها غير بضعة كتب نافعة . فبفضل الغرب عرفنا الطبع ، وعرفنا فضل أجدادنا ، وتعرفنا إلى الطرق الموصلة إلى إحياء كتبنا ، ولكن طالت مدّة توقفنا أكثر من مائتى سنة .

وعن علماء الغرب اقتبسنا أساليب الاستفادة مما أملته قرائح الأسلاف ،

وأبقته الأيام من تراثهم الثمين ، على نحو ما كان لهم الفضل في البحث عن دفائن أرضنا ونبش عادياتها ومصانعها القديمة . فاهتدينا إلى معرفة آثار ديارنا وتاريخها وعظمتها السالفة ، وعرفنا لغات الأقدمين ممن سكنوا على أديمها قبلنا ، وتعلمنا كيف نحتفظ بآثارنا الثابتة والمنقولة ، ونعنى بتركة أجدادنا ونحترمها ونقدسها ونولع بها .

وكان من تعليم رجالنا أن سمت بهم الهمم إلى إدخال الأنظمة الجديدة على مدارسنا الدينية الكبرى ، والتي تقدّمت غيرها في قبوله ، كانت لها الشهرة الطائرة ، وعموم النفع للإسلام والعرب ، تخرج علماء منورين ، وكانت من قبل تخرج علماء جامدين . وكلما ارتقى أسلوب التعليم وثقف الخاصة لغات الغرب زادت اللغة العربية رشاقة ، ووسعت العلوم والفنون .

أخذ الغربيون عن العرب كل ما نفعهم يوم نهضتهم من ضروب المعارف البشرية ، وها هم اليوم يعيدون إلينا شيئاً مما تعلموه من أجدادنا ، وزادوه بعلمهم وبارتقاء الزمن ، وهذه سنة المدنيات التي درجت عليها أجناس البشر ، والعالم فريسة العامل ، ومن كدح ربح : تقلبت على الحضارة أيدٍ كثيرة منذ دون تاريخها ، واليوم وصلت إلى هذا المظهر الباهر ، ولا غضاضة على المتأخر إذا أخذ عن المتقدم . ومن واجبنا ، بعد الذي أوردنا ، أن نمجد كل ما أتانا من علم الغرب ، وأن نجحد ما حملته سياسته .

سيئات الغرب في الأقطار العربية :

ولا يفوتنا النظر وقد بلغ بنا نفس الكلام إلى هذا الحدّ ، أن نعرض لما حملته إلينا المدنية الغربية من المساوئ ، بعد أن ألممنا بما حملت من عظيم المحاسن ، ولكل مدنية سيئات تندمج في مطاوي الحسنات ، وقد لا يكون الخير تاماً والشر تاماً . وكان علينا أن نقتصر على اقتباس النافع ونتحامى الضار . والظاهر أن المدنية

وحدة لا تتجزأ ؛ من أخذ بخيراتها ، لا بد أن يستهدف لشرورها طوعاً أو كرهاً .
وما هذه السيئات بالذى أقره عقلاء الغرب دعاة الحضارة الحديثة .

يقول قاسم أمين[1] : « إن أهل أوربا يقسمون إلى ثلاث طبقات كسائر الأمم : عليا ووسطى ودنيا . فأكبر حظ الدنيا من التربية معرفة القراءة والكتابة وقليل من مبادئ العلوم ، وهم فى أخلاقهم الشخصية أشد فساداً من عامتنا فى أخلاقهم . وأما الطبقة العليا فتصيب حظاً عظيما من التربية الفعلية . ولكن يغلب عليها ما يغرى به الغنى والبطالة ، وتستولى عليها الشهوات ، فهم يتفننون فى اللذائذ ، تفنن أهل الجد فى الاختراعات والصناعات . قال وهذا الفساد مما تتحمله المدنية الغربية وتصبر عليه ، لأنها لا تستطيع محوه ، فإن هذه المدنية مؤسسة على الحرية الشخصية ، مضطرة لأن تقبل ما يتبع هذه الحرية من الضرر ، فإنها تعلم أن منافعها أكثر من مضارها ، ووجود الفساد فى الغرب إنما هو من لواحق الحرية الشخصية ونتيجة من نتائجها فى الطور الأدبى الحالى الذى توجد فيه تلك البلاد الآن . قال : وهذا الفساد فى الأمم الغربية لم يضعف فيهم الفضائل من بذل الأنفس والأموال فى سبيل تعزيز الوطن أو الدفاع عنه ، فأدنى رجل فى الغرب كأعلى رجل فيه ، إذا دعا داع إلى هجوم أو قيام لدفاع ، أو إلى عمل نافع ؛ يترك جميع لذائذه وينساها ، وينهض لإجابة الداعى ، ويخاطر بنفسه ، ويبذل ماله إلى أن يتم للأمة ما تريد . وأما الطبقة الوسطى ، فلا ريب أنها أرقى من التى تقابلها عندنا » .

اللهم إن المدنية الغربية هجمت علينا بأصناف من المسكرات والمخدرات كان أجدادنا لا يعرفونها ، وعاشوا بدونها قروناً فى هناء وراحة ، وكان يقتصر من يعاقرون الراح سراً ، وهم قلائل جداً ، على ما تنتج أرضهم من خمور ، وضررها على الجملة أخف من مضار الغول الجديد . وهكذا الحال فى عامة المخدرات كالمورفين

(١) المرأة الجديدة لقاسم أمين .

والسكوكايين والهروين التى جاءت مع القرن الماضى ، فأضعفت العقول وقتلت الأنفس . وفتح التوسع فى الحرية أبواب الإباحية والإلحاد ، ففتحت بذلك طرق العهر والفجور والإسراف على النفس ، وأنشأ الفحش يمارس تحت سمع القانون وبصره ، وزادت الأمراض السرية ، وتعطل التناسل فى بعض الرجال والنساء ، ثم انتشر القمار على اختلاف صوره ، ومنه المضاربات وألعاب النصيب ، وكان الناس فى غابر الأيام يقنعون بالرزق الحلل ، يأتيهم من أعمالهم الصناعية والزراعية والتجارية ، لا يغامرون هذه المغامرات التى يردُّها العقل .

وأدت الحرية الشخصية بالسلطة الأبوية فى بعض البيوت إلى الارتخاء ، فكان فى الماضى الإفراط فى هذا المعنى وصار اليوم التفريط ، وضعفت سلطة الأب على ابنه وابنته بالنسبة ، وضعفت معها الشفقة والرحمة والكرامة . وأصبح كل أمر يقاس بمقياس الماديات ، ولا يسأل الرجل من أين اكتسب ماله ، إذا اجتمع له مال ، لأن المعنويات ليست ذات بال فى نظره ! وإنما الشأن كل الشأن للماديات ، وقضت الحضارة على من قبلوها أن يجِدُّوا ويسرعوا ، إن أمكن بقوة البخار والكهرباء والأثير . وكان الناس منذ قرن على تؤدة وتأن وصبر لا تشاهده فى أهل هذا الجيل . ولذا رأينا التشاؤم أكثر من التفاؤل فى كل بلد ، والقناعة والرضى أقل من الشراهة والطمع ، وأمسى كل صعلوك يحاول أن يغتنى بين عشية وضحاها ، بأى الطرق التى تفتح أمامه . وكثر حب الظهور بل الجنون فيه ، وتبع ذلك البذخ والتفخل والإسراف ، بحيث يتعذر التوازن بين الدخل والخرج ، وفى ذلك خراب بيوت كانت عامرة لولا التقليد المصطنع ، والعادات المستحدثة . وكثرت بذلك السوداء والماليخوليا والخبل وضعف الأعصاب وفقر الدم والسل .

كانت الرفاهية فى الأيام الماضية مقصورة على قصور الملوك والأمراء ، فشارك فيها اليوم أهل الطبقتين الأولى والثانية . وكان للمجتمع فى الشرق عادات مستحسنة من جمال الألفة ، وحسن العشرة ، وصحة العهد والوفاء ، وقوّة الإيمان

ومعرفة الجميل ، فمرا هذه الصفات بعض الفتور ، خصوصاً فى البيئات التى اقتبست مدنية الغرب بعجرها وبجرها . وبعبارة ثانية إن الناس انغمسوا فى الأثرة ، وكانوا من قبل أميل إلى الإيثار .

هذه جريدة بما لقفنا من الغرب ؛ ذكرنا فيها الحسنات وأتبعناها بالسيئات ، وربما كان فيها بعض النقص غفلنا عنه بخيانة الذاكرة ، أوردنا منها ما أوردناه على سبيل الذكرى ، لننصف غيرنا وننتصف منهم .

تم الجزء الأول

الاسلام والحضارة العربية الجزء الاول

Date	No.	Date	No.
	٤٩٦		
	1376	DEC 1966	
EBOD			
	1575		2902
		27 DEC 1966	
			718
			266